



التراث والعلوم الإسلامية لكل العبد

التفسير الديني للتاريخ

الجزء الأول

• • التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله
• • تفسير التاريخ الإنساني •

محمود الشرقاوي

مقدمة

التاريخ ذاكرة الماضي ، فعرفته كمعرفة المستقبل ،
تتطلب إحياءاً ، وشفافية روحية ، خاصة إذا كان هذا
الماضي سجيناً تحت أنقاض التراب والحجارة ، وإذا كانت
ملاحمته لا تسنطق إلا في أثر أصم ، أو حرف مجهول ...

وعندما يحرق الكلام عن التاريخ لا نحسب بالأيام ولكن
بعداد الأجيال ، عندما نحسب بالأجيال نقرب من كل شيء ،
سنة آلاف سنة لا تزيد عن ثلثمائة جيل ، وستة آلاف سنة
تعني ما قبل التاريخ : الأمور تتغير قابلاً في عشرين سنة .
ولكن إذا ضربنا العشرين في ثلثمائة عدنا إلى ما قبل التاريخ ،
لقد كان التقدم هائلاً ، وسيظل الإنسان يتقدم ، نحن ما زلنا
بعد في شباب الإنسانية الماكر (١) .

إن حياة الإنسان حماة تطورية حركية تنمو نحو التقدم والرفي ، والفرق بين الإنسان البدائي والإنسان
المتحضر إنما يمكن في ساوكة ، في أسلوبه في الحياة ، في منهجه في التفكير أي أن هذا الفرق إنما يتمثل
في تطور عقليته .

في الإنسان غرائز كما في الحيوان غرائز ، وقد تكون غرائز بعض الحيوان كالنمل والنحل مثلاً
أرقى منها في الإنسان . ولكن الغرائز في الإنسان ما هي إلا وتر واحد في آلة موسيقية ضخمة معقدة
أو كما يقول أ . كريسي موريسون : « الغريزة ليست إلا كنغمة واحدة من الناي ، نغمته حبة ولكنها
محدودة ، بينما العقل البشري يخنوي كل الأنغام التي لكل الآلات الموسيقية في أوركسترا ، والإنسان
يمكنه أن يوفق بين تلك الأنغام جميعها ، وأن يقدم للعالم قطعاً موسيقية متحدة النغم (سمفونيات)
تدنو من الإعجاز : وإلى أن خلق الإنسان ، لم تخرج العناية الإلهية كائنات حياً من بين الصخور الفطرية ،
وله عقل مرن كعقل الإنسان » (٢) .

وكان وجود الأديان ضرورياً للحيولة دون تردى البشرية في هوة الانحلال والمضي بالجمبع
الإنساني نحو حياة أفضل .

(١) ميشيل روزيه : حياة جروايو كوري ، ترعة فؤاد حداد ص ٧٠ .

A. Cressy Morrison : Man Daes — Nat Stand Alone, P . 60

(٢)

وقد انتشرت المسيحية لأنها تحمل مشاعل التطور ، وتسير تحت لواء التحرك إلى أمام ويرجع «ول ديورانت» ظهور المسيحية إلى شيوخ الظلم والفقر ، وأن الأغلبية من الطبقة المحرومة المغلوبة على أمرها كانت مستعدة لقبول دين يقف إلى جانب الضعيف (١) .

أما الإسلام فقد كان دين البساطة وفي الوقت نفسه دين التوحيد ، وفوق ذلك كله فهو للناس كافة أي أنه دين مفتوح للجميع ومن أجل الجميع ، لأنه يستهدف لإنهاض الإنسان وازدهار الحياة ...، والخلق الديني أقوى العوامل الفعالة في حياة الأمم وتطورها ، وأشد الروابط التي تجمع ما بين أفراد الشعوب المختلفة العناصر والمواطن . فالحوادث الدينية أعظم حوادث التاريخ وأجل أعمال الأمم ما جاء في عصر تدينها وما من مؤثر ذي سلطان على النفوس كالدين لأن فيه السعادة المثلى التي تصبو إليها النفوس البشرية وتسكن طبيعة الإنسان الميالة إلى البقاء الواجفة من الفناء المفادية بالعرض في طاب الجوهر . فهو خير عامل تتوحد به مشاعر الأمة ومنافعها وأفكارها . وسيظل الدين حياً لا يفنى . قال الفيلسوف الفرنسي «أرنست رينان» في كتابه «تاريخ الأديان» :

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نخبه وكل شيء نعبه من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبداً الأبدن حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الإنساني في المضائق الدينية للحياة الطينية » .

إن الأخلاق الدينية تضعف وتقوى وتموت وتحيا وحسب تطورها هذا تتطور حال الأمة التي قامت عليها وتكونت بها : والأهم التي يسود فيها الخلق الديني أمتع الأمم وأشدّها بأساً وقوة وتحملاً للمصائب وصبراً على المكاره وتضحية بالنفس والنفيس . ولم يذكر التاريخ أمة نسأى فيها الخلق الديني غلبت على ملتها اللهم إلا إذا كان الغالب أسمى منها اعتقاداً وأمتن إيماناً .

والأهم التي يسود فيها الخلق الديني تسير في منهجها الاجتماعي إما إلى أسمى منازل الرقي أو إلى أدنى درجات الانحطاط المدني وفقاً لمرى تعاليمها الدينية ولكنها تحتفظ بكيانها وحياتها .

وفي تاريخ العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام وبعده أجلى مثال لتطور الخلق الديني .

في الأمم وتطورها بحسبه . فالعرب في الجاهلية لم يكونوا أقل مهم في صدر الإسلام أخلاقاً . فقد كانوا على جانب عظيم من الكرم والإباء والشجاعة والفروسية والنجدة والوفاء بيد أنهم لم يكونوا أمة ذات كيان اجتماعي إنما كانوا قبائل وشعوباً لا حضارة لهم تذكر ولا مدنية تحلد ولا يعبا بهم الحار ، ولا يرعى لهم جواراً وذلك لفقد رابطة نجمهم وخلق عام يوحدهم . فلما جاء الإسلام بدعوته وألف ما بين قلوبهم بحكمته وصار لهم خلقاً تلاشت فيه نفوسهم وانقادت لسلطانه مشاعرهم ، تدفقوا ولا السيل في طغيانه من أقصى صحارى البداوة إلى أسمى أنحاء العالم المتمدين فجرفوا عروش الأكاسرة ، ونكسوا تيجان القياصرة ، ورووا غليل الأرض عدلاً وكرماً فأثبتت من الحضارة أكملها ومن المدنية

(١) ول ديورانت : مباحث الفلسفة ، ترجمة الدكتور أحمد الأهواني ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

أهلها ، ثم لما تغيرت الحال ، وتمردت النفوس على سلطان الإيمان ، واستولت المشاعر على الدين فأصبح خليقة لا خلقاً ونسب لا نسا ، وعلماً لا عملاً ، تغيرت الأرض غير الأرض ، وتبدل العرب عبر العرب فباتوا لا سخايا جاهلية يجمعهم ولا أخلاق إسلامية تنهض بهم فحق القول عليهم : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصاحون » .

إن العرب لولا الإسلام لما كانوا أمة تعرف ، وإن العربية لولا القرآن لما استطاعت أن تنتشر في سائر الممالك الإسلامية المختلفة اللغات ، ولولا كتاب تركه الإسلام حرزاً واقياً على صدورهم لاندجوا بغيرهم من الأمم الحاكمة من عهد بعيد ، ولباتت العربية طاسسات لا تحل رموزها مصير الأمم الغابرة واللغات المتينة .

أما العوامل التي قذفت بالعرب إلى أقصى درجات الضعف فتعددة أهمها ضعف الخلق الديني القويم في نفوسهم (١) .

وإذا أراد العرب استعادة مجدهم ، فعليهم التمسك بدينهم الحق .

يزعم بعض الناس (٢) أن الثقافة الأوروبية وحدها تصلح لأن تكون لفكرنا مصدر نوره ، ومثل هؤلاء الناس في زعمهم مثل من يزعم أن انبثاق الفجر متعلق بنجم ما يكون شمساً في فلك انبثاق الفجر في فلك آخر ، إن النجم يستطيع أن ينفعنا بشعاع ولكنه لا يبعث النهار ، يستطيع أن يهديننا في رحلة استكشاف ، ولكنه لا يكشف لأعيننا عن آفاق الحقيقة وعلى ذلك فإن لغة أجنبية مع بدائعها الموثقة بتاريخ أقطارها إنما تحول دون ارتقاء الثقافة ونهزم الحكم الشخصي ، وتفتك باستقلال التعبير ، إذا هي نقلت إلى أرض أجنبية لها تاريخها ورقها .

وليس غرضي أن أثبت العلم الحديث الذي يأتي من ناحية الغرب ، بل عايناً أن نقتبسه شاكرين ، مخافة أن نركض وراءه في المستقبل فنقصر دون سيره ، وإنما الذي أتور عليه هو ذلك النظام المتكامل الذي يدفع الثقافة الأجنبية إلى غزو فكرنا القومي ، فيمنعه ابتداع وجهة جديدة بتنسيق للحقائق مستحدث فعلياً أن نعزيز جميع عناصر ثقافتنا الخاصة ، وأما الثقافة الغربية فلا نقاومها بل نتاقها ونشرها ونسوي منها غذاء نافعاً بدل أن يكون وزراً ثقيلاً .

ويرى طاغور أن حضارة الغرب تنهض على أساس متناقض على أساس الخصومة بين الإنسان والطبيعة ، فالغربي يشعر دوماً بضرورة التسلط على الطبيعة واستثمارها في أقصى الحدود . لذا لا يدرك منها إلا وجهها المادي ، وهو إلى ذلك يحس بعزلة الحياة ويغيب الوجه الروحاني من الحضارة فيهددها بالزوال .

(١) الدكتور أسعد الحكيم : المبادئ أو الأخلاق العامة في تكوين وتطور الأمم - محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق -

الجزء الثالث .

(٢) الدكتور جميل جبر : طاغور ، ص ٣٦ .

أما الإنسان الأمثل فهو من جمع بين الثقافتين والحضارتين معاً واختار منها أصنى الخلاصة ،
فكان له من الشرف مساوئ الروحي ومن الغرب اختياره العاسي . وهل الثقافات بعد على تباينها إلا مظاهر
لحقيقة واحدة ؟ ويؤكد طاغور أن المثل الأعلى للإنسانية واحد ومسترك ، إنه الحقيقة المطلقة
التي لا تحد ولا تستوعب وإن هذا المثل سيظل واحداً وإن اختلفت الطرق إليه . وما الديانات المختلفة
إلا طرق مبنية ، منحادة الغاية ، كلها إليه .

وقال العلامة « كاميل فلامريون » : « لا يجوز لنا أن نمنجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط
لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشعبة بالآثرة لا هم لها إلا أغراضها الداتبة ؟
أليس حظنا اليوم من الحياة قد اسبحال لجسج الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها . والحصول على الخبـ
بطريق الاغتيال لا الكسب .

وإن من التناقض بين المولم أن نرى أن الرقي الباهر الذي حصل في العاوم مما لا مثيل له في التاريخ ،
بأن هذه الفتوحات المتتالية التي تمت للإنسان في الطبيعة فيما رفعت عقولنا إلى المدركات العالية ...
سبقت إنسانيتنا إلى أخس الدركات !

ومن المخرن أن نحس بأنه بينما نشعر ببناء فوتنا يوماً بعد يوم : تنطفيء حرارة قلوبنا ، وتتصدع زهرة
حياتنا الفلمية بنأير غللة المطامع المادية .

إن الإيمان بالله هو الزاد الروحي الذي ينزود به الإنسان في رحاة الحياة ، يقول أم كريسـ
موريسون (١) : « إن كون الإنسان في كل مكان ومنذ بدء الخليقة حتى الآن ، قد شعر بحافز يخفزه
إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم يدل على أن الدين فطري فيه ، ويجب أن يقر العلم بذلك .
وسواء أحاط الإنسان صورة مخفورة بشعوره بأن هناك قوة خارجية للخير أو الشر أم لم يفعل فإن ذلك
ليس هو الأمر الهام ، بل الحقيقة الواقعة هي اعترافه بوجود الله .

إلى أن يقول : « ما هو هذا الكائن الحى ؟ هل هو عبارة عن ذرات وجزيئات ؟ أحل ومادا
أيضاً ؟ شىء غير ملموس ، أعلى كثيراً من المادة للدرجة أنه يسيطر على كل شىء ، ويختلف جدا
عن كل ما هو مادي مما صنع منه العالم ، للدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه ، وهو فيما نعلم
فيمت له قواين تمككه ، إن روح الإنسان هي سيادة مصيره ، ولكنها تشعر بصلة بها ، بالمصدر الأعلى
لوجودها .

وقد أوجدت للإنسان قانوناً للأخلاق لا يملكه أى حيوان آخر ولا يحتاج إليه ، فإذا سعى أحد
ذلك الكيان بأنه فضلة لتكوينات المادة ، لا لشىء سوى أنه لا يعرف كنهه بأنوبة الاختبار ، فهو إما
يزعم زعماً لا يقوم عليه برهان أنه شىء موجود ، يظهر نفسه بأعماله ويتضحياته وبسيطارته على المادة ،
على الأخص بقدرته على رفع الإنسان المادي من ضعف البشر وخطتهم إلى الانسجام مع إرادة الله .

(١) أم كريس موريسون : العالم يدعو للإيمان ، ترجمة محمود صالح الفلكي ، ص ٢٠٠ - ٢٠٢ .

« هذه هي خلاصة القصد الرباني ، ومنها تفسير للاشتباك الكامن في نفس الإنسان للاتصال بأشياء أعلى من نفسه ، وفيها كشف عن أساس حافزه الديني ، هذا هو الدين » .
إن تاريخ العالم ليس إلا تاريخ الأديان التي هي الترجمة الصحيحة للإيمان بعد أن يعبر عنه بالحركات والأقوال .

ولا سبيل إلى دراسة الحضارات الأولى ، وما كان عليه الإنسان من عالم وفن إلا من خلال ما تركه من أطلال منشآته الدينية ومؤسساته العبدية سواء آكانت مادية أو معنوية ، أى على شكل هياكل ومعابد وقبور أو على شكل تعاليم وعادات وطقوس وكتابات .
يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي :

إن التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله . فتواريخ الأمم والحضارات والعقائد والأخلاق لا معنى له إن لم يكن معناه هداية النفس الإنسانية إلى حرية الضمير برعاية الإله .
فكل أمة ، وكل حضارة ، وكل عقيدة ، إنما تأتي لترفع في الطريق مصباحاً صغيراً أو كبيراً ينير الطريق وينير ساحة الكون كله للعلم بحقائق الوجود :
أو للعلم بحقيقة الحقائق وهي مصدر الحق والتدبير في الوجود .

ويقرر الأستاذ توينبي أن الإنسان قد يصطع الأعمال والحرف ويخاف العلوم والمعارف ، ولكنه لا يخاف عقيدته الدينية بل تأتبه العقيدة مفروضة على سريرته وشعوره . قابلة للبحث في بعض جوانبها غير قابلة لشيء سوى التسليم في جوانبها الكبرى ، ولهذا تسخره العقيدة ولا يسخرها كما يشاء ويهوى ، وإن خيل إليه أن يعمل في نسخرها بهواه .

وضرب المثل لذلك بعقيدة الإسلام : أراد الفرس الذين دخلوا الإسلام أن يستخدموها في إحياء القرمية الفارسية فاستخدمهم هي في توطيدها ودراسة معارفها ، وجاء المغول إلى بلادها من أقصى الشرف ليقيموا « سلطنتهم » على أركانها فأصبحوا حراساً لتلك الأركان ، ولا يتأتى تسخير عقيدة ما إلا إذا غابتها عقيدة أقوى منها وأحق بالعمل في تاريخ الإنسانية ، فليس أقوى من الإيمان على تسيير الإنسان والارتقاء به على معارج الحضارة في طريقه إلى الله .

وعند المؤرخ توينبي أن هذه المهمة الأبدية مهمة « تعاون » بين الحضارات والعقائد ، يؤدي كل منها بعض الواجب لتحقيق الواجب كله في النهاية ، ولكن هذا الواجب الكبير يكبر مع الزمن كلما كبر الإنسان ، فلا يزال الإنسان في سعي متواصل ، ولا يزال متطلعاً إلى الكمال :

ونحن إذا سرنا (١) عبر التاريخ منذ خلق الله آدم لوجدنا أن الحضارات الشائعات قد كونها نفحات روحية ، رفعت الإنسان فوق مطالب الجسد وضرورات الغرائز وما هفوا إليه النفوس فأعادت إليه كرامته وسموه ، ودفعته في مدارج الرقي .

(١) عبد المجيد جودة السحار : شمس رسول الله ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ .

خلق الله آدم ليكون خليفة في الأرض ، وكان يعيش مع الله وبالله وفي الله ، وراح يعلم أبناءه ما يعلم ، ويبقى أول مجتمع بشري على أسس سليمة ، ويلقن ذريته أن كل عمل يوزن في دانه كما يوزن من حيث هملته نخالقي الكون والناس ، لأن كل إنسان سبسال عما يفعل يوم القيامة .

وتعلم بنو آدم أن الملك لله ، وأن المال مال الله ، وأن الله جعل الناس مسخلفين في ماله ، وغرست في وجدانهم قيم خلقية أسس من الواقع الأرضي المستمر في الحريان .

واستمر التطور التاريخي ، وطال على الناس العهد فبعدت الشقة بينهم وبين السماء فقصت قلوبهم ، فجعلوا لله أنداداً ، فبعث الله الرسل والأنبياء يدعون الناس إلى عبادة الله وحده .

وقد بعث الله إدريس في مصر قبل عهد الأسرات ، يدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، ويقول لهم إنهم مبعوثون ليوم عظيم ، فآمن المصريون بالله واليوم الآخر وشيدوا حضارتهم على قيم روحية هذبت ضمائرهم وجعلتهم يعملون للدين والدنيا ، فقد أقاموا الأهرام وأضحى ما عرف التاريخ من متماير استعداداً ليوم البعث . وكان إدريس أول من علم المصريين الخط بالقلم ، كما علمهم الزراعة ، والنصرف في ماء النيل ولبس الخنيط بعد أن كانوا يغطون أجسامهم بالريش .

وصارت مصر الفرعونية— كما قال المؤرخ ول ديورانت في « قصة الحضارة » تعبد بالدين وللدن : « لقد كان الدين في مصر فوق كل شيء ومن أسفل كل شيء ، فنحن نراه في كل مرحلة من مراحل وقى كل شكل من أشكاله ، من الطوطم (عبادة الأحجار التي لا شكل لها) إلى علم اللاهوت ، ونرى أثره في الفن وفي الأدب وفي كل شيء . » وبقي إدريس الكعبة— على قول الصابئة— لتكون منارة للتوحيد . ونزل الله على عبده الكتاب وعرف عند الصابئين « بكنز » وسار الناس على هدى كتاب الله يقطعون في سبيل رقى البشرية أشواطاً .

ولما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم نسجوا حول إدريس الأساطير وجعلوا إدريس قاضي الموتى من يضع الموازين القسط ليوم القيامة .

قد يقول قائل : إن كان إدريس هو إدريس وإن كان الصابئون يعتقدون أن إدريس هو أول من بنى الكعبة ، فهل جاء في التاريخ أو في الأساطير أن إدريس ذهب إلى بلاد العرب ؟ وإن كان قد ذهب إليها فهل قدس المصريون هذا المكان ؟ ذكر المؤرخ ديودور الصقلي أن الإله إدريس أحد آله مصر ذهب إلى مدينة تدعى « نس » Niss وهي من مدن العربة السعيدة ، وأنه ذهب إلى الحبشة فأقام هناك سدوداً لحزن المياه وتنظيم السقي والارتواء تم ذهب إلى بلاد العرب ومنها إلى الهند . وذكر الزعم القائل بوجود تمثال لإدريس في بلاد العرب .

وجاء في كتاب « مصر والحياة المصرية في العصور القديمة » للأستاذين أدولف أرمان وهرمان رانكه : وقد كان المقصود من « الأرض المقدسة » في الأصل الترق فقط حيث كان يظهر الإله وهو « رع »— كل يوم ، وكان هذا التعبير يدل أيضاً في الحياة اليومية على الصحراء الجبلية بين النيل والبحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء ، وكذلك على وجه التحقيق الجزء الشمالى والمتوسط من بلاد العرب .

ومن كل هذا قوى الاعتقاد عندى أن إدريس من ولد فى منف وعلم المصريين الكتابة والزراعة . وأول من بنى الكعبة هو أزريرس . إمام شهاداء السلف كما قال المؤرخ الإغريقى هيرودوت ، ومن أصبح « دينوسيس » عند الإغريق : وهو عند العبرانيين خنوخ وعرب آخنوخ ؛ وسماه الله عز وجل فى كتابه العربى المبين إدريس .

وطال على الناس الأمد ففقت قلوبهم فأشركوا بالله ثم عبدوا ما ينحتون ، عبدوا فى العراق ودا وسواعاً ويعوق ونسراً ، فأرسل الله إليهم نوحاً يدعوهم إلى عبادة الله الواحد ، ولكنهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، فأغرقهم الله ، فقد أرادوا بظلمهم أن يغرقوا سير موكب الحضارة إلى التقدم والرقى .

وقامت فى بابل حضارة تركز على الدين وسواعاء المؤمنين ، فازدهرت بابل وبنت أكثر من لبنة فى صرح الحضارة الإنسانية . وطال على الناس العهد وفسد الدين القيم وبقي منه القشور .

ونسجت الأساطير حول ذلك ، تم اتخذ كل طامع فى الملك لنفسه إلها راح يدعو إليه ويفضله على سائر الآلهة ويدعى أنه رب الأرباب .

وسمع الناس لأول مرة فى بابل عن مجمع الآلهة وعن الحروب التى تدور بين الأرباب فى السماء ، ونسوا يوم القيامة فقالوا : إن الإنسان إذا مات يذهب إلى الأرض التى لا رجعة منها .

وعرفت عبادة الكواكب والنجوم ، وما كانت الكواكب تعبد لثباتها ، بل كانت ترمز إلى الآلهة والأسرة المقدسة .

وبعث الله إبراهيم « رسولا » إلى قومه لينتشل البشرية من التردى فى الشرك وليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وراح إبراهيم يدعو الناس إلى الله فى العراق وفى سورية وفى مصر ، ثم أقام القواعد من البيت وإسماعيل فى مكة ليكون منارة للتوحيد فى الأرض .

ولحق إبراهيم بالرفيق الأعلى وقد نفخ فى البشرية نفخة روحية دفعها دفعا فى طريق تطورها التاريخى . تكون حول بئر زمزم - بفضل إبراهيم وهاجر وإسماعيل - مجتمع جديد حمل لواء الإسلام ، مجتمع لم يكن له تقاليد ولا أساطير ، لذلك ظل أكثر من ألف عام ليس له إله إلا الله رب العالمين .

وقام بنو إسرائيل يدعون الناس إلى الإسلام ، فما كان الغرور قد تملكهم بعد واعتقدوا أنهم وحدهم الناس فوطئوا بدينهم من حولهم ثم جاءوا إلى مصر لما من الله على يوسف الصديق وجعله رئيس وزرائها .

(١) كان حورابى الملك البابلى هو الذى رفع مردوخ فوق الآلهة جميعاً وجعله رب الأرباب وكان يرمز لمردوخ بالكواكب . ويقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار ، أن إبراهيم قام بدعوته فى ذلك العصر اعتقاداً على ما جاء فى القرآن الكريم من تسلسل العبادة أيام إبراهيم ، فقد كان الكواكب فوق الآلهة جميعاً ، فالقمر فالشمس . ويقدر العلماء المشتغلون بدراسة الكتاب المقدس أن تاريخ إبراهيم يقع حوالى عام ١٧٥٠ ق . م . وهو تاريخ قريب من عهد حورابى (محمد رسول الله ، ج ٢ ، ص ٢٨٧) .

وأثرت دعوة بوسف وإخوته الروحية في سكان دلتا النيل ، وتسربت إلى طبقة معقل المصريين الأحرار الذين لم يخضعوا لحكم الهكسوس ، فتركت أنرها في دين الفراعين فوحدوا آلهتهم في إله واحد هو آمون .

وجاء موسى يدعو الناس إلى الإسلام ويخرج بني إسرائيل من الدلتا المهين . وخرج موسى بني إسرائيل من مصر وذهب لميقات ربه عند جبل الطور . فلما عاد إلى قوميه وجدهم قد عادوا لعبادة العجل فغضب وثار واستغفر ربه ، ولكن الله حكم عليهم بالتيه في سيناء أربعين سنة .

وذهب موسى وبقت توراة الله في الأرض لتكون للمؤمنين هادياً ونيراً . لكن : . . على الرغم من وجود التوراة فقد عبد بنو إسرائيل آلهة الوثنيين ، عبدوا بعلا والآلهة الأخرى فكان الله يبعث إليهم أنبياءه ليعودوا إلى الإيمان . وقامت في العراق دولة آشور ، دولة مؤمنة بالآلهة آشور ، وكان ملوكها يحاربون أعداء آشور ويكومون جسامهم أعدائهم أهراً وخروفون الدور ويساحون جاود أعدائهم وهم أحياء إرضاء لإلههم آشور ، وقد ساطهم الله على بني إسرائيل اكفرهم بعد أن جاءهم كتاب منير . وعلى بني إسماعيل الذين تركوا البيت المحرم ونسجوا في الأرض وعدوا اللات والعزى .

وانتهى دور آشور من التاريخ فسا كانت لهم رسالته إلا تأديب من عادوا إلى الظلمات بعد أن أخرجهم الله إلى النور .

وقامت في بابل دولة بابل الجديدة : بفضل النعمة الروحية التي سرت بن ضاوع عباد مردوخ فقصت على دولة آشور ، كما قصت على الدولة التي زعمت أنها شعب الله المختار . فغزا نبوخذ نصر أورشليم وأعمل القتل في اليهود ، ثم حمل الرجال والنساء والأطفال إلى بابل . وفي أرض المنفى راح أحبار اليهود يعيدون كتابة التوراة بأيديهم من جديد .

وانتهى دور اليهود في التاريخ الروحي بعد أن أصاب العنم أحبار اليهود وإن بقي دورهم السياسي الخبيث . وأضاء نور الروح لإيران فند قام زردشت يدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، وفرض على الناس خمس صلوات وبشر بالنبي العربي الذي سيجعه الله في جزيرة العرب . وقال لهم (١) : « تمسكوا بما جئتكم به إلى أن يجئكم صاحب الجمل الأحمر (قبل بادية العرب) .

وأخذت الشعلة الروحية التي أوفدها زردشت نخبو في صدور الفرس ، وظهر الفساد ، وبدأ أن فارس بدأت تنتحر من الداخل وأن الله سيذهب هؤلاء الأقوام لبأى بأقوام آخرين نحسون الشعلة الروحية إلى حين ، ويدفعون ركب الحضارة خطوات على الطريق . « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مرفيها ففستوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

وقام في اليونان فلاسفة يدعون إلى عبادة الله وحده . وإلى مكارم الأخلاق وإقامة المدن الفاضلة ، وكان الإسكندر أول مؤمن من ذوى السلطان في جمهورية أفلاطون فقام يعزو العالم ليسفك حلم الحكومة العالمية .

(١) محمد عبد العمار الحاسي : محمد رسول الله ، في سارات الأنبياء ، ص ٩ .

احتار الإسكندر مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة ، وحاول الجيش الفارسي أن يصد الإسكندر عند هير غرانفوس ولكن ثلث المحاوله انتهت بانكسار الجيش الذى نخر فيه سوس الفساد . واتجه الإسكندر جنوباً وشرقاً فوضع بعض المادان وعاد والتقى جيش الإسكندر وجيش دارا الثالث عند أسوس ، وانتصر الجيش الذى كانت قلوب فواده عامره بالإيمان ، انتصر الإسكندر على دارا انتصاراً عزيزاً كريماً .

وانتشرت غنوح الإسكندر شرفاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، ولاح أن الدولة العالمية التى كان يحلم بها أصبحت فريسة المثال ، بيد أن الإسكندر مات وهو فى طريق عودته من الهند إلى بابل ومات بموته حلم الفلاسفة فى إقامة حسيهوبريه المدينة الفاصلة .

وفاءت فى روما دولة الرومان وقد ارتكزت فى نشأتها على دعامة الدين ، وانتشرت فى الأرض تقضى على اليونان واليهود والبط والمصر بن والمرس . وعلى مر الأيام ساد الظلم فى الأرض واستعبد الإنسان أخاه لإسعاد وبشر الرومان العسقى فى البلاد التى خضعت لهم ، وغرقت الحضارة فى ظلمات المادة . ومن خلال هذا الليل المأسع رهيب أشرق نور السيد المسيح .

كانت المادبة طاعنة فكانت رسالته السيد المسيح روحية خالصة لمحدث التعادل بين المادة والروح . وراح السيد المسيح يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وإلى التوبة .

اعتنق الرومان الدين الذى دعاهم إليه بولص ، وكان مزيجاً من الدين والفلسفة وانقسم أتباع ذلك الدين إلى طوائف وشيع وانقلبت الوحشية الرائعة التى جاء بها المسيح - كما قال ديورانت فى قصة الحضارة - إلى عاة الشعب شركاً . وطال على الناس الأمل فقمست قلوبهم وعبدوا ما كان يعبد آباؤهم قبل ان يهدوا إلى الدين القويم .

وكانت مكة فى ذلك الوقت منارة النور محمد ، ظلت على دين إبراهيم الخليل ولكن المكين جلبوا أصنام الشعوب التى كانوا ينجرون معها ووضعوها فى جوف الكعبة وقالوا إنها بنات الله وأنهن يشفعن إليه ، وبذلك سادت الجاهلية فى الأرض وبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو الناس كافة إلى الإسلام ، وأنزل عليه قرآنه ليكون نوراً للناس إلى يوم الدين .

وانتصر الإسلام بفضل النعمة الروحية التى عمرت بها قلوب المؤمنين على الرومان والفرس . واستمر ركب الناربخ فى سببه ، تقوم الدول بانتفاضات روحية وتموت الدول بالإغراق فى المادية والترف والفسق والفجور . تلك سنة الله فى خلقه ولن تحمد لسنة الله تبديلاً .

يهول الإمام ابن حزم : إن الله عز وجل « رتب الطبيعة على أنها لا تستحيل أبداً ، ولا يمكن تبديلها عند كل ذى عقل ، كطبيعة الإنسان بأن يكون ممكناً له التصرف فى العلوم والصناعات إن لم تعترضه آفة ، وطبيعته الحمير والبغال بأنه غير ممكن منها ذلك ، وكطبيعة البر أن لا يبيت شعيراً ولا جوزاً ، وهكذا كل ما فى العالم والقوم مقررون بالصنمات وهى الطبيعة نفسها . . . وهكذا كل شىء له صفة ذاتية فهذه هى الطبيعة (١) .

(١) الفصل فى المال والأهواء والنحل : ج ٥ ، ص ١٦ .

فأحداث التاريخ لا تتناقض مع سنن الكون وطبائع الأنسباء .

قامت الدولة الإسلامية الأولى ، على أساس تعاليم ومبادئ الدين : فبهزت العالم بإنجازاتها في عالم الروح والمادة على حد سواء ، فالموءمن جسمه من تراب ، وفطرته من نور ، عبد متخلق بأخلاق مولاه ، قلبه غنى عن العالمين .

يقول الفيلسوف جوستاف جرونباوم (١) في كتابه : « حضارة الإسلام » :

« والحق أن سنوات حكم النبي — صلى الله عليه وسلم — العشر في المدينة مضافاً إليها في الراجح الثلاثون سنة التي أعقبت وفاته كانت قوام العصر الذي صارت فيه الجماعة الإنسانية أقرب ما يرجى من الكمال . ومن ثم فإن سوابق تلك الفترة في النظم والقانون والمالية فضلاً عن الدين ، هي التي أثمرت مصطلحات وأفكار وفرائض ذلك النظام الكامل . . . نظام الله » :

وهذا المجتمع الإسلامى المثالى ، يقوم على الأفراد التي ينتظمها هذا الكيان ، الذي يسمى جماعة ، أو أمة . فالفرد ، هو الوحدة التي تشكل منها قيام هذه الأمة ، واللبننة التي قام على مواصفاتها هذا البناء الشامخ العظيم .

بقول الدكتور محمد إقبال على لسان القائد الإسلامى الكبير طارق بن زياد فاتح الأندلس وهو يدعو لأصحابه العرب بالنصر ويناجى ربه : « إن هؤلاء الغزاة المجاهدين عبيدك الغاهضون الذين لا يعرفهم غيرك وقد أصبحوا اليوم يطمحون إلى فتح العالم وإخضاعه . إذا ركلوا بأرجلهم الصحراء انشقت . وإذا ركلوا برجلهم البحر انفاق ، انكمشت الجبال وتقبضت . إنهم عرفوك وأحبوك في هدوء في العالم واستغنوا عن الدنيا : لا يطلبون إلا الشهادة في سبيلك ولا يهدفون بمجهادهم إلى الفتح والغنائم ، لقد أفردت رعاة الإبل بنعمتك وميزتهم بين أفرانهم في الخير والنظر وأذن السحر ، لم يزل العالم تهزه لوعة الغلب والتوجع للإنسانية المظلومة ، وفي فلوب هؤلاء الجريحة وفي أكبادهم المتقدمة وجد العالم مأربه (٢) .

ويقول : ما ظنك بقوة ساعدى المؤمن وهو بنظرته يقلب الأوضاع وبدعوته يرد القضاء .

والمطلع على التاريخ يصدق ما قاله محمد إقبال فقد هزأ المسامون المؤمنون في عصرهم الأول من الجبال والبحار وشقوا طريقهم غير محتفلين بما يعترضهم من أشواك وعقبات ، وقصص سعد بن أبى وقاص وخالد ابن الوليد والمثنى بن حارثة الشيبانى وعفبة بن عامر ومحمد بن قاسم الثقفى وموسى بن نصير وطارق بن زياد شاهد على صدق إقبال .

كان الإنسان المسلم — كما وصفه إقبال — يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية . وبين عبادة الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عباد الأوطان والألوان والشعوب بإنسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتحرجه من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائف وعن الأشياء الحقيرة . وبين أهل الأثرة والأنانية بزهد

(١) جوستاف جرونباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، ص ١٨٤ .

(٢) طه عبد الباقي سرور : إقبال شاعر الحرية والكفاح ، ص ٢٢ .

في وسع أحد أن يتخيله هـ وهذا أصبحت أحوال الناس المعيشية أفضل من عدة نواح ، لكن حماسنا للتقدم في المعرفة وأسباب القوة التي بلغناها جعلنا نتصور الحضارة نصوراً ناقصاً معيباً . فإذا بغالى في تقدير إنجازاتها المادية ولا نقدر أهمية العنصر الروحي في الحياة حتى فاداه .

ولكن الحقائق بدأت تدعونا إلى التفكير . . إنها تقول بإسناد حاد ، إن الحضارة التي لا تنمو فيها النواحي المادية ، دون أن يواكب ذلك نمو متكافئ في ميدان الروح ، هي أشبه ما يكون بسفينة اختلت قيادتها ، ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضي عليها . ذلك أن الطابع الجوهري للحضارة لا يتحدد بإنجازاتها المادية ، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لكمال الإنسان وتحسين الأحوال الاجتماعية والسياسية للشعوب وللإنسانية في مجملها ، وأن تكون عادات التفكير خاضعة لهذه المثل بطريقة حسنة ثابتة فحينما يعمل الأفراد على هذا النحو كتنوع روحية تؤثر على ذواتها وفي المجتمع ، يمكن حل المشاكل التي تثيرها وقائع الحياة ، والوصول إلى تقدم عام خلاق بالتقدير من كل ناحية . وليس العصر الحاسم في تقويم الحضارة ما أنجزته من أعمال مادية ، بل يشوف مصبرها على كون « الفكر » يسيطر على الأحداث أو لا يسيطر ، والثورة في أسباب الحياة بين الأفراد والجماعات والشعوب وهي تسير موكب التقدم في الإنجازات المادية ، تقتضي من عادة التفكير عند الجماعه المتحصرة مطالب أسسى إذا كان عليها أن تبين عن تقدم حقيقي في اتبناه الحضارة الرفيعة . كما أن زيادة سرعة السفينة بفرض المتانة في آلات القيادة والتوجيه .

وأبرز الأخطار التي تجرها الإنجازات المادية على الحضارة ، هو أن الناس يصبحون غير أحرار ، نظراً إلى الثورة الحادثة في ظروف الحياة . فأعماط الناس الذين كانوا من قبل يزرعون أرضهم بأنفسهم يصيرون مجرد أجراء في المصانع ، والعمال اليدويون والتجار المستقاون يصيرون مجرد مستخدمين ، وهذا يفقدون الحرية الأولية التي يتمتع بها الإنسان الذي يسكن في منزله ويتصل مباشرة بالأرض أمه . فضلاً عن هذا يفقدون الشعور الواسع المستمر بالمسؤولية الذي يوجد عند أولئك الذين يعيشون في عوامهم المستقل . . .

والمنظمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تزيد سيطرتها علينا بمرور ما يزداد الإحكام في تنظيمها . والدولة بتنظيمها المتزايد القاسي ممالك رمانا امناً كما يزيد على الأيام صرامته وشمولاً . وهكذا نجد أن « الوجود الفردي » قد تضاعف قيمته في كل اتجاه ، وازدادت الصعوبة في أن يكون المرء ذا شخصية ! ذلك أن تقدم الحضارة (الخارجية) يجبر وراءه هذه النتيجة : هي أن الأفراد على الرغم مما يحصلون عليه من مزايا يضارون من نواح كثيرة مادياً وروحياً في طاقهم على الحضارة . فالإنجازات المادية لا تصبح حضارة إلا بمقدار ما تستطيع عقليته الشعوب المتمدنية أن توجهها وجهة كمال الفرد والجماعة .

والمسألة الكبرى عندنا إذن : هي ما إذا كان علينا أن ننحلي مهائياً عن النظرية الكونية التي نحمل في داخلها المثل الأعلى لإكمال أفراد الإنسانية والإنسانية بعامة — تحمله بكل قوته ، وكذلك للنشاط الأخلاقي . فإذا نجحنا في إعادته تقرير نظرة كونية ، فيها يؤكد العالم والحياة على نحو مقنع ، فإننا

سنستطيع الهيمنة على انحلال الحضارة المتواصل وبلوغ حضارة حية حققة من جديد ، وإلا فليس لنا
أن نشهد إخفاق كل محاولة لوقف الانحلال !

ولن نسلك السبيل القويم إلا إذا أصبح من الحقائق المسلم بها عامة أن تجديد الحضارة لا يمكن أن يتم
إلا بتجديد نظرتنا إلى الحياة . وإلا إذا قام سعى جديد لإيجاد نظرة كونية ، والرجل المعاصر لا يزال
خالياً من الشعور الصحيح بالمعنى الكامل لهذه الحقيقة . وهى أنه يعيش على فلسفة غير مرضية أولاً بعنصر
على أمة فلسفة !

ولا بد أولاً أن نشعر بما فى هذه الحال من خطورة وعدم طبيعية ... كما أن الأشخاص الذين
تبسوا عليهم اضطرابات فى جهازهم العصبى لا بد أن نخبرهم بوضوح أن حيوتهم مهددة ، وإن كانوا
لا يشعرون بأى ألم .

وبالمثل ينبغي علينا أن نهز الناس فى هذا العصر . ونضعهم إلى التفكير الأولى فى حقيقة الإنسان
ومكانته فى هذا العالم وماذا يريد أن يفعل بحياته ... لأنهم حين ينطعون بضرورة إعطاء معنى لوجودهم
وقبمهم فيشعرون بالتعطش إلى إيجاد نظرة كونية ، هنالك وهنالك فقط تتوافر الأسباب الأولية لقيام
أحوال روحية نستطيع فيها من جديد إنشاء حضارة .

إن كل تقدم فى الكشف والاختراع يتطور فى النهاية إلى نتيجة قاضية إذا لم نضبطه بتقديم مبادئ
فى روحيتنا ، فبالقوة التى نسيطر بها على قوى الطبيعة نهيمن بوجه فناء كائنات بشرية على كائنات بشرية
أخرى هيمنة ظالمة مشؤومة ! فان فرداً واحداً أو شركة بامتلاكه لمائة آلة ، يسيطر على جميع الذين
بديرون هذه الآلات ؟ ولعل اختراعاً جديداً أن يمكن رجلاً واحداً بحركة واحدة أن يقتل الآلاف
من إخوانه بنى الإنسان ! وليس ثم نضال ممكن فيه تجنب تدمير بعضنا لبعض بقوى اقتصادية أو فيزيائية ،
أو فى أحسن الفروض ستكون النتيجة أن يستبدل الظلم والمظلوم دور الواحد بدور الآخر ، الأمر
الوحيد الذى يمكن أن يساعدنا هو أن نتخلى عن السيطرة التى لأحدنا على الآخر ، وهذا فعل من
أفعال الروحية .

لقد أسكرنا التقدم فى الكشف والاختراع الذى غمر هذا العصر ، فسينا أن نهتم بتقديم الإنسان
فى غير المادة ، أنزلنا دون تفكير ولا وعى إلى نوع من التشاؤم ... هو الإيمان بكل أنواع التقدم ،
دون الإيمان بالتقدم الروحى للفرد وللإنسانية .

والحقائق تدعونا إلى التفكير ... كما أن حركات السفينة الموشكة على الانقلاب تدفع البحارة إلى
الصعود إلى ظهرها وتوثيق الأوقال والأشعة بالحبال .

لقد أصبح الإيمان بالتقدم الروحى للفرد وللإنسانية أمراً مستحيلاً عايناً ، لكن شجاعة الناس
يجب أن تحملنا على التمسك بهذا الإيمان ... إذا كان يراد لسفينتنا فى اللحظة الأخيرة أن تنتصب من
جديد وتواجه الريح (١) .

(١) ألبرت شفيترز : فلسفة الحضارة ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ، ص ١١٠ - ١١٤ .

لقد حدث فصل الدين عن الدولة في الغرب ، فقد كان « من (١) أعظم أخطاء رجال الدين في أوروبا ، ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذي كانوا يمثلونه ، أنهم دسوا في كتبهم الدينية المقدسة ، معلومات بشرية ، ومسلّمات عصرية ، عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية ، ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم في ذلك العصر ، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر ، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني . وإذا كان ذلك في عصر من العصور غاية ما وصل إليه علم البشر فإنه لا يؤمن عليه التحول والتعارض ، فإن العلم الإنساني متدرج منرق ، فن بنى عليه دينه فقد بنى قصراً على كتيب مهيل من الرمل . ولعلمهم فعلوا ذلك بذية حسنة ولكنه كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين فإن ذلك كان سبباً للكفاح المشؤم بين الدين والعقل والعلم ، الذي انهزم فيه الدين . ذلك الدين المختلط بعلم البشر ، الذي فيه الحق والباطل ، والخالص والزائف هزيمة منكورة ، وسقط رجال الدين سقوطاً لم يهضوا بعده ، ونش من ذلك كله وأشأم أن أوروبا أصبحت لا دينية ، ولم يكتب رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة ، بل قد دسوا كل ما تناقته الآلسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية وصغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها وبند كل ما يعارضها ، وألفوا في ذلك كتباً وتأليف ، وسموا هذه الجغرافية ، التي ما أنزل الله بها من سلطان الجغرافية المسححة وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل ما لم يبدن بها وكان في عصر تفجر فيه بركان العقلية في أوروبا وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الديني فزيفوا هذه النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب ، وانتقدوها في صراحة ، واعتادوا عن عدم اعتقادها والإيمان بها بالعب ، وأعلموا اكتشافهم العلمية واختباراتهم ، فقامت قيامة الكنيسة ، وهام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوروبا - وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الدين المسيحي ، أنشؤا محاكم التفتيش التي تعاقب - كما يقول البابا - أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن وفي البيوت وفي الأسراب والغابات والمغارات والحقول ، فجدت واجتهدت وسهرت على عملها ، واجتهدت ألا تدع في العالم النصراني عرقاً نابضاً ضد الكنيسة ، وانبت عيونها في طول البلاد وعرضها ، وأحصت على الناس الأنفاس ، وناقشت عليهم الخواطر حتى يعول عالم نصراني : « لا يمكن لرجل أن يكون مسيحياً ويموت حتف أنفه » ، يقصد أن يموت موته طبيعية .

ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلثمائة ألف ، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء . كان منهم العالم الطبيعي المعروف « برونو » نقت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بنعدد العوالم ، وحكمت عليه بالقتل ، واقترحت بالألّا تراف قطرة من دمه ، وكان ذلك يعنى أن يحرق حياً ، وكذلك كان .

وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير « جاليليو » بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس .

(١) أبو الحسن الندوي : ما دأ خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٣٧ - ١٤٠ .

هنالك ثار المجاهدون المنتورون وعيل صبرهم وأصبحوا حرباً لرجال الدين ومثلى الكنيسة والمخافين على القديم ، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب ، وعادوا الدين المسيحى أولاً ، والدين المطلق ثانياً ، واستحالت الحرب بين زعماء العلم والعقيدة ، وزعماء الدين المسيحى ، وبلفظ أصبح الديانة البوليسية - حرباً بين الدين والعلم مطلقاً ، وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان ، وأن العقل والنظام الدينى ضدان لا يجتمعان ، فن استقبل أحدهما استندير الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثانى ، وإذا ذكروا الدين ذكروا تلك الدماء الزكية التى أربقت فى سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التى ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ودساتينهم ، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة ، وجباه مقطبة ، وعيون ترمى بالشر ، وصدور ضيقة حرجة ، وعقول خفيفة بليدة ، فاشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه وتواصلوا به وجعلوه كلمة باقية فى أعقابهم .

ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير ، ومن الوداعة والهدوء ، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين الدين ورجاله المحتكرين لزعامته ويفرقون بين ما يرجع إلى الدين من عهدة ومسئولية ، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جهود وجهل واستبداد وسوء تمثيل ، فلا يبالوا الدين نبذ النواة ، ولكن الحفيظة وشأن رجال الدين والاستعجال لم يسمح بالنظر فى أمر الدين والتريث فى شأنه كغالب الثوار فى أكثر الأعصار والأمصار ، انصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر ونفسية وعقلية وأخلاق واجتماع وعلم وأدب وسياسة وحكم ، وكان ذلك تدريجياً ، وكان أولاً يبطء وعلى مهل ، ولكن بقوة وعزيمة .

ويقول جون ستيوارت مل : « وبينما يمثل الواجب نحو الدولة مكاناً واسعاً فى أخلاق أفضل الأمم الوثنية ويطغى أحياناً حتى على الحرية الفردية ، فاننا لا نجد فى الأخلاق المسيحية الخالصة أى التفات إلى ذلك الركن الكبير الذى هو الواجب ، أو أى اعتراف به ، إن القاعدة التى تقول : « إن الحاكم الذى يعين شخصاً فى وظيفة بينما يوجد بين رعيته من هو أكفأ منه ، إنما هو آثم نحو الله والدولة » ، هى قاعدة نجدتها فى القرآن لا فى العهد الجديد ، وإن ما فى الأخلاق الحديثة من اعتراف قليل بالواجب نحو الجمهور ، إنما هو آت من مصادر أغريقية ورومانية لا من مصادر مسيحية ، وأما أخلاق الحياة الخاصة ، فكل ما فيها من فكرة الشهامة والنبيل ، وسمو التفكير ، والكرامة الشخصية ، وحتى الحس بالشرف ، إنما هو مشتق من ذلك الجانب الإنسانى من تربيتنا لا من الجانب الدينى ، وما كان له أن ينبثق من معيار فى الأخلاق لا يقيم وزناً إلا للطاعة » (١) .

إن هذه الملايسات هى التى أحدثت الفصام بين الدين والحياة ، الذى تعانى أوروبا ، وتعانى معها البشرية كلها اليوم ، وآثاره السيئة ، وتتجرع كأسه المريرة .

(١) جون ستيوارت مل : بحث فى الحرية ، ترجمة دار اليقظة العربية ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي (١) : التاريخ الإنساني مؤلف من سلسلة من المواقف تعين الإنسان على أن يختار بين المضي في سبيل الله ، أو الانحراف عن هذا السبيل ، وقد لاحظ أن حرية الإنسان تبلغ أقصاها حين يتم التعاون بينه وبين الله ، وتهوى إلى الخصيصة حين ينأى الإنسان عن تعاليم الله وهديه .

والذي يتأمل التاريخ يتجلى له صادق هذا القول ، فقد تلاشت الامبراطورية الرومانية ، وزالت معها حضارتها حين تجاهلت تعاليم الله ، وحين نصب الأباطرة أنفسهم آلهة يستعدون الناس . وأعقبها عصور اتسمت بالاتجاه الشديد نحو الله حتى أن النظام السياسي كان يستمد قوته من تعاليم الدين :

كان « البابا » الأعزل من السلاح يستطيع أن يقهر الامبراطور الذي يسيطر على الحشوش ... ويقود الفرسان ، ثم هوى هذا النظام حين خرج رجال الدين عن روجه . ولجأوا إلى القوه الماديه واستخدموها في سبيل الإخضاع ، وقد تمتل ذلك في الصراع الذي نشب بين البابا جريجورى السابع والامبراطور فردريك الثاني .

في مستهل القرن السابع عشر ثار الغرب ثورة عارمة مستنيرة تستهدف تصحيح الأوضاع التي أدت إلى انهيار الامبراطورية الرومانية وإلى إنهار النظام الديني جميعا . ثورة تستهدف وضع النظامين السياسى والدينى كل في مكانه ، وعادت الحضارة مرة أخرى للازدهار ، ونرعرعت الحرية ونمت حين تعاون الغرب في سبيل الله ... وظلت كذلك حتى بداية الحرب العالمية الثانية حين انقسم الغرب بعضه على بعض وقاتل بعضه بعضاً ، فاضمحلت قوته ، ونزل من مرتبة الصدارة التي كان تحتلها إلى ما قبل قيام الحرب العالمية الأولى ، وأصبح بواحه قوة لا تقوى على مغالبها فسرأ ، وإنما غدا سبيل مغالبها الوحيد هو الإقناع ، ولكنه عاجز عن هذا الإقناع لأن أفعاله لا تؤيد أقواله !!

إن كل الحضارات التي نهضت بالإنسانية ، نشأت عن الدين . وما كانت النكسة إلا انحرافاً عن هذا الدين . ومن حكمة الله تعالى أن الإنسانية حين تصل نكسها إلى الاستمخ يأذن الله لدينه أن يدع من جديد لبؤدى دوره في هداية الناس إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

يقول أرنولد توينبي : « وإنى لأشعر باحساس الادب » الكبرى التاريخية ، وظهور عبادة « القوة البشرية » الجماعية القديمة في العالم الحديث ، وقد ظهرت نائبة بشكليها التقليديين : في شكل عبادة الدولة « الدولة الخلية » ، وفي شكل عبادة « الدولة العالمية » . وتمثل عبادة الدولة الخلية بشكل واضح في « القومية » ، بينما تتمثل عبادة المجتمع العالمى إلى حد ما في « الشيوعية » وفي الأمل الذى بداعب العالم لتحقيق نوع من الوحدة العالمية والحكومة العالمية . وإنى لافترض أن هذه الصور لعبادة القوة البشرية الجماعية تشمل ٩٠ ٪ من الشعوب الدينى او ٩٠ ٪ من سكان العالم في الوقت الحاضر .

والواقع أن هذا الانتقال نحو عبادة القوه البشريه الجماعية هو ولا شك السبب الرئيسى للاضطرابات التي تقوم بين البشر .

(١) مجلة الحيات العالمية ، أغسطس سنة ١٩٥٨ عن مجلة كوليرز الأمريكية .

إن الأديان الكبرى جميعاً مهملة ، وأخذت في الانحسار . وربما توقفت مستقبل الجنس البشرى على عودتها ثانية إلى سيطرتها السابقة على البشرية . أو عجزها عن تحقيق ذلك^(١) .

إن الحضارة الغربية قد ماتت دورها ونثرت كائناتها وقد شاخت وهرمت وأبنت كالفاكهة وحن قطافها ، وإن العالم القديم الذى حوله مفايرو الغرب إلى حانة الفساد والمقامرة منهار قريباً والإنسانية تنمخص عن عالم جديد . وهذا العالم الجديد لا يحسن تصحيحه إلا الإنسان المسلم .

ويهب الدكتور محمد إقبال بهذا الإنسان المسلم النائم وينشده بالله أن يقوم ويسح النوم من عينه فتمد ظهر الفساد فى البر والبحر وعاث الأوربيون فى الأرض وأفسدوا فيها بعد إصلاحها وخربوا العالم وماؤوه ظلماً وظلمات وشروراً وويلات . وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً وأذن فيها أن ترفع ويذكر فيها اسمه .

وقد آن لباني البيت الحرام وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ويصلح ما أفسده الأوربيون ويعيد هذا البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم ويبنى العالم من جديد .

* * *

وهذا الكتاب دراسة علمية منهجية ، لتفسير الدينى للتاريخ .

وقد يتور تساؤل عن جدوى هذه الدراسة فى الوقت الحاضر ، فى هذا الوقت الذى يستخدم فيه الصراع الرهيب بين الأمم والشعوب ، وتبدو السحب القاتمة فى سماء العالم تنذر بالعواصف . ويسيطر على الجميع القلق والخوف من المصير . أليس من الأفضل ، فى مثل هذه الظروف أن تطرح الإنسانية الماضى وراء ظهرها ، وتبحث عن الطريق الذى يوصلها إلى شاطئ الأمان ؟

إن القلق والخوف من المجهول يتطلب أن تبدل الإنسانية كل ما فى طاقتها من جهد خلاق مخالص لكى تكفل لنفسها الأمن والطمأنينة والسلام القاتم على العدل . ولكن هذه المشكلات الإنسانية لا تعالج علاجاً ناجحاً إلا عن طريق النفاذ إلى العمق لدراسة أسبابها دراسة دقيقة ، والكشف عن طبيعة هذه الأسباب والعلل وتحليل مداها ومدى أثرها .

فالإنسان سواء أكان فرداً أو جماعة ، هو — إلى حد بعيد — نتاج الماضى ، وكل مشكلة من المشكلات التى تعترض الإنسانية لها جذورها الضاربة فى أعماق التاريخ . ومن هنا نرى أن العلاج السليم للقضايا الكبرى التى تواجهها الإنسانية اليوم يجب أن تستند على معرفة تاريخية شاملة المدى بعيدة الغور ، معرفة تثير الأسئلة الجوهرية عن واقع المدنية الحديثة ، وكيف تكون هذا الواقع ، ما هى المفاهيم الأساسية التى تقوم عليها هذه المدنية ؟ ما هو نظرها إلى ما وراء الطبيعة والإنسان ؟ ما هى القيم والمثل التى تؤمن بها وتسعى إلى تحقيقها ؟ وكيف تكونت هذه المفاهيم والمثل والقيم ؟ وما هى الجذور التى نبتت منها وتفرعت عنها ، وما هو الغذاء الذى استمدت مقومات حياتها منه ؟ وما هى عناصر القوة فى هذه

(١) محاضرات أرنولد توينبي فى مصر (١٩٦١) - كتب نقانية ، ص ٤٦ - ٤٧ .

المادية ، وما هي عناصر الضعف التي تبث فيها الفساد وتدفعها إلى الانحلال والفناء ؟ »

ما هي طبيعة التراث الذي يتمتع به الإنسان المشارك في المدنية الحديثة ، وكيف يختلف هذا الإنسان عن غيره من الناس الذين لم يتلقوا هذا التراث ولم يفيدوا منه ؟

هذه الأسئلة وغيرها مما يكمن وراءها أو ينتج عنها ، تدل على أن الإنسان المعاصر لا يمكنه أن يشيخ بوجهه عن الماضي ، وأن تحقيق الأمن والطمأنينة لفلان الإنسانية المتأرجح - الذي يجب أن يتوجه إليه ويشارك فيه كل إنسان وكل شعب - لا يكون مجدياً إلا إذا استند إلى فهم صحيح وعميق للأصول والأسباب الموروثة وحكم صادق عليها ، وإلى إدراك جيد لكيفية الاستفادة مما تنطوي عليه من قوة وغنى والتغلب على ما يشوبها من ضعف وفساد . وهكذا ، لا بد لنا ، كأفراد وكأمة أن نجابه التاريخ ، إذا أردنا أن نحيا حياة كريمة ، وئمة ناحية أخرى نصطدم فيها بالتاريخ ، ذلك أن من مظاهر الاضطراب الإنساني المعاصر هذه المذاهب المتنافرة ، والعقائد المتناحرة التي تقسم الأفراد والأمم وتوجههم وجهات متباعدة (١) .

ونحن إذا أنعمنا النظر في هذه المذاهب والعقائد وجدنا أن كلا منها يتضمن تفسيراً معيناً للتاريخ وللعوامل التي سبته ، وفهماً خاصاً لأسلوب مجابته في عملية بناء الحاضر وإعداد المستقبل . وإذا أردنا أن نحدد موقفنا من هذه العقائد ، لنقبل أو نرفض النتائج النظرية والعملية التي تصدر عنها - لا غنى لنا أن نتبين في ما نتبين منها - موقفها من الماضي ، والتراث ، والتطور ، والتقدم ، وأمثالها من المفاهيم التاريخية .

* * *

ومنذ بزغت النهضة العربية في فجر القرن التاسع عشر ، تنبه العرب لتاريخهم ، وراحوا يستلهمون منه العبرة والعظة ويستوحدون منه الغذاء الروحي لإقامة مجتمع أفضل . لذلك فمن الخير أن تكون دراسة هذا التاريخ وتفسيره على أسس علمية ، يهديها للعقل ويوضحها فهم صادق لعلاقة ماضينا بحاضرنا ومستقبلنا ، وتمييز دقيق لعناصر التراث الإسلامي المختلفة بين تلك التي يجب أن يحرص عليها العرب ويبنوا على أساسها ، وتلك التي ينبغي طرحها جانباً والتسلك بما هو أفضل وأبقى .

وإني أرجو أن أكون قد وفقت إلى ما قصدت إليه ، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق .

محمود الشرقاوي

(١) للدكتور قسطنطين زريق : نحن والتاريخ ، ص ١٦ .

الفصل الأول

تفسير التاريخ

« التاريخ فن يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ،
والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياساتهم حتى تتم
فائدة الاقتداء بهم في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا »
عبد الرحمن بن خلدون

التاريخ هو جماع أحوال البشر ما يقع منهم وما يقع عليهم ، ولعلنا نقول مع ربة التاريخ في الأساطير اليونانية : « إني لا يند عني شأن من شئون الإنسان^(١) » ويعرف السخاوى في كتابه : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » «تاريخ فيقول « إن التاريخ فن يبحث فيه عن وقائع الزمان وحشية التعيين والتوقيت بل عما كان في العالم ، وأما موضوعه فالإنسان والزمان ، ومسائله : أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان » .

ويقول : إن التاريخ جم الفوائد كثير النفع لذوى الهمم العالية والقرائح الصافية ، لما جبل عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والافتداء بأربابها ليصير لهم نصيب من حسن الثناء ، وطيب الذكر الذى حرص عليه خلاصة البشر وأخبر الله تعالى عن إمام الخنفاء » .

ويعرف عبد الرحمن بن خلدون التاريخ بأنه : « فن يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في إخلاقهم والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء بهم في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا » .

ويقول المؤرخ عز الدين بن الأثير صاحب كتاب « الكامل في التاريخ » عن فائدة التاريخ وتعلمه : « إن الإنسان لا ينجى أنه يحب البقاء ويؤثر أن يكون في زمرة الأحياء فيأبى شعري أى فرق بين ما رآه أمس أو سمعه وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين : فإذا طالعه فكأنه عاصرهم ، وإذا علمها فكأنه حاضرهم ، ومنها أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهى إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ورأوا مدونة في الكتب ينقلها الناس فيروونها خلف عن سلف ونظروا إلى ما قد أعقبت من سوء الذكر وقبيح الأحلوة وخراب البلاد وهلاك العباد ودهاب الأموال وفساد الأحوال استقبحوها وأعرضوا عنها » .

ويرى الدكتور جورج ماكولى ترفليان أن الغاية من التاريخ « أن يعطينا ساسلة من الصور الصحيحة المنتزعة مما لا يحصى من ألوان الحياة الإنسانية العجيبة المختلفة على سطح الأرض قبل العهد الذى نعيش فيه ، وأعظم غاياته أن يبصرنا بأشكال المجتمع الإنسانى التى يخطئها الحضر والظروف والأفكار التى انتابت الناس الذين عاشوا على ظهرها - وهذه الظروف والأفكار يباين بعضها بعضاً ، وتختلف عما يسود عصرنا الحاضر : وأهم ما ينصرف إليه هو أن يرينا كيف ولماذا كانت صنوف المعيشة وأحوالها دائبة التغير ، تصعد سلم الرقى بخطى وثيدة أو تنهار انهياراً عنيفاً وتحل محلها غيرها^(٢) » .

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ترجمة عبد الحميد العسدى ، ص ٩ .

(٢) تاريخ العالم : المجلد الأول ، ص ٦ - ترجمه إبراهيم ركنى حورشيد .

والأصل في التاريخ هو إدراك الإنسان لمتابعة وجوده الاجتماعي حين بدأ يكون أسرة يحرض عليها ويعيش في كنفها ويورث أبنائه تجاربه من القصص التي يرويها لهم مما مضى من أحداث، حباته ، وأمله كان يشير في هذا القصص إلى ما ورثه أبوه من تجاربه أيضاً ، وهذا دور التاريخ الأزلي الذي يقوم به إلى الوقت الحاضر حين يسوق إلينا الحكمة والموعظة في خلال التجربة الماضية حتى تتم لنا فائدة الاقتداء بهم ، ولكن الناس لا يربدون الوقائع مجردة كما هي ، بل لابد أن يضيفوا عليها تعليقات وتحليلات وفلسفة .

وكان تقدم الديمقراطية وذيوع الاشتراكية ، وبدء القلق الاقتصادي وحركات شعبية أخرى ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر ، مما أفضى إلى قيام تصور جديد للتاريخ (١) ، فماذا كان التصور القديم ؟

في اليونان ، يرى هسيود (القرن الثامن ق م) في كتاب « الأعمال والأيام » أن للبشرية خمسة أعصر (٢) ، وأول هذه العصور وهو « العصر الذهبي » قد حكمه كرونوس ، وفيه سكن الناس مع الآلهة ، مستمتعين بصحة جيدة لا يشقون بعناء وألم ، وفي الثاني وهو العصر الفضي « الذي حكم فيه زيوس ، أصبح الناس وقحاء بينهم ، وأهملوا الآلهة ، والعصر الثالث وهو « العصر البرونزي » كان عهد توحش وهمجية ، ولكن من هذا نشأ العصر الرابع وهو « العصر البطولي » ، الحافل بالشجاعة وعظماء الرجال ، ثم تبعه الخامس وهو « العصر الحديدي » وهو الذي ظن هسيود نفسه أنه يعيش فيه ، وهو عصر فردية تسلم بالأنانية ، « فالآن يوجد في هذه الأيام الأخيرة « الجنس الحديدي » وهم لن يسريخوا بالنهار أبداً من كل عناء ومن كل حزن ، ولن يفلتوا بالليل من قبضة المفسد ، وإنها لتعاسة تلك المعلوم التي ستترطأ بهم الآلهة . . . ويستقر الحق في قوة اليد . . . وأن جميع أبناء الإنساء المخزون سيقابلون بالشحناء من يساعدهم — شحناء غليظة الصوت » ومع أن هسيود لم يذكر صراحة رأياً قائماً على عملية الدور ، فإنه ربما يكون جاء به ضمناً ، يقول « ليتني لم أعش في هذا العصر الخامس من الناس ، وإن مت « قبا » أو ولدت « بعده » .

وفي إشارته إلى الشر ، روى هسيود الرطازات « الخرافات » القديمة الدائرة حول برومينيوس وباندورا . ومضمونها أن وزر الشر في التاريخ يستقر في شخامة المطاف على معارضة الإله وعصيانه .

وشدد هسيود التأكيد على أهمية العمل ، فالفقر راجع إلى قلة ما يبذل من جهد في العمل ، والثراء والشرف الرفيع لا يمكن أن ينالا إلا به : ويخفف العناء المتواصل من وقع المصائب ، وينجي الناس عواقب ما عملوا أو ما قدموا من كسل ، وإن أبطأت تلك العواقب في مجيئها « فن يصنع شراً بأخيه يصنع الشر بنفسه » . ويمضي التاريخ في سبيله متمشياً مع مبدأ العدالة : « والعدل يعمل على الوقاحة في النهاية ، والأحمق نفسه يعرف ذلك عن طريق ما يمر به من خبرة » .

وأخيراً ينزل « زيوس » عقابه وانتقامه على ما اقترفه الرجل الشرير من أعمال جائرة ، وهذا التأكيد على العدالة واضح بارز ، ومما يميز الإنسان عن العجماوات الدنيا تنبهه إلى ما فيه من قدرة على العمل .

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ص ٩٢ .

(٢) أليان . ج . ديدجري : التاريخ وكيف يفسرونه ، ترجمة عبد العزيز جاريدي ، ص ٥٤ .

والعدالة نقطة اهتمام اجتماعية أساسية في التاريخ ، وهي الهية بالفطرة ، وذلك لأنها « ابنة زيوس » . كان « هيرودوت » وبلقب بأبي التاريخ ، شب في مدينة « هاليكارناسوس » في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى « ٤٨٤ - ٤٢٥ ق . م » وجاب أقطار الشرق باحثاً في ماضيه متقصياً أحواله ، مدوناً لما وعى من تاريخه في أسلوب قصصي أخذ . وكان ذا بصيرة بطبائع الشعوب ونظرة ينفذ بها إلى جوهر الحقيقة شغوفاً بالرواية والسعي وراء التفاصيل والاستطراد القصصي فاستمواه النزاع بين الأغريق والفرس وكان قريب عهد به ، فشهد نتائجه والآثار التي ترتبت عليه ورأى فيه صراعاً بين مدينتين مختلفتين إن لم تكونا متناقضتين فأرخ له . وكانت الصورة التي أبرزها لهذا الصراع هي الصورة الخالدة في مدونة التاريخ لصراع النقائص والأضداد منذ الأزل حتى العصر الحديث .

أما عن وحدة الأسلوب في خطة تاريخه فقد رسمها بدقة وروعة (١) .

يقول هيرودوت : إن الناس بوصفهم إناساً لم في كل مكان مبادئ للسلوك مماثلة لا بتخطونها ، هي « قوانين يتعمسك بها جميع الناس شركة بينهم » وفي هذه الفكرة إرهاباً بنكرة « القانون الطبيعي » التي اعتنقها الرواقيون الرومان .

ويقول : إن بشار لم يجاوز الصواب عندما قال : « إن القانون سيد الجميع » . وقد رأى أنه يحذر به أن يسجل على أهل زمانه كثرة اللجوء إلى الوحي ومهابطه . مع إشارات مصمونها أن التاريخ البشري واقع تحت تأثير الآلهة . وليس هناك بلد من أن يأخذ مبدأ العدل مجراه في التاريخ ، ولكن ليس من الضروري أن يتم ذلك بالنسبة لفرد في حد ذاته : إذ أن أحفاده ربما جنوا عواقب سلوكه ، شراً كان أم خيراً ، والأفراد يشتركون في المسؤوليات ، وفيما يلم بالهيئة الاجتماعية في أثناء استمرارها من أفراح وأفراح .

وعلى هيرودوت على قصر حياة الإنسان ، ولكن دون أية إشارة إلى العزاء المنبعث عن الإيمان بحياة صالحة في المستقبل . وقد صرح بأنه وإن جاز أن يكون الرجال سعداء على وجه الجملة ، فليس بينهم من أحلم يتمن عدة مرات لو أن الموت أدركه (٢) .

وكان تاسيت (٥٥ - ١١٧ م) أخلاقياً أكبر منه مؤرخاً عامياً ، وقد اتخذ من التاريخ سوطاً صبه على المجان المنحلين الذين كانوا يتقلدون مناصب الدولة الكبرى في الفترة الوسيطة من حياته (٣) .

خلص الأغريق التاريخ من سطوة المخرافات ، وبدأت لمحات ذكية من التفكير التاريخي تسفر عن اتجاهات واضحة ، فكشفوا مثلاً عن طبيعة الصراع الأثري بين المجتمعات البشرية ، كما رآه هيرودوت في الصراع بين الأغريق والفرس وأرسوا قواعد نظرية « البطل في التاريخ » وقالوا بدورة التاريخ « وعرفوا ما للتاريخ من أثر في تربية الساسة والحكام ، وما يسوقه من عظة وعبرة ، إلا أنهم أغفلوا حساب

(١) آ . ج . ليفانز : هيرودوت ، ترجمة أمين سلامة ، ص ٨ .

(٢) التاريخ وكيف يفسرونه ، ص ٥٧ .

(٣) علم التاريخ : ص ٢٤ .

الزمان في تدوين الأحداث فاعتقدوا في فكرة الاستمرار وما تؤكد في التسلسل المنطقي للتاريخ يرى شيشرون الرومان (١٠٠ - ٤٣ ق م) أن العالم والكائنات البشرية، ترجع إلى «عقل» يتولى باعتباره «العناية» وعناية الناس في التاريخ ، فالدين بوصفه صورة اتصال الناس بالإله ناحية دائمة للتاريخ .

إن للطفولة اهتمامات وأعمال معينة ، فهل يحن الشباب إليها ، وللفترة الباكرة من الشباب شبيبتها التي تسعى إليها ، فهل تحتاج إليها مرحلة الحياة الناضجة التي يسمونها بالنصف والاكتهال ؟ ثم إن مرحلة النضج أيضاً لها من مجالات المساعي المحبة مالا ينشد في السن العالية . وأخيراً تجيء الاهتمامات المناسبة للسن العالية : وبناء على هذا ، كما تتساقط مسرات ومساعي الفترات الباكرة من الحياة ، فكذلك تفعل متيلاتها للسن العالمية ، ومنى حدث ذلك يكون الإنسان استوفى كامل قسطه من الحياة ، وآن له أن يذهب ، ولا بد من الناس الأهمية والدلالة في تاريخ الفرد في أثناء مضي التاريخ فدماء « وتمر الساعات والشهور والأعوام تبعاً ، والماضي لا يرجع أدراجه السنة ، وما سيكون لا سبيل لنا إلى علم به . ومهما يكن ذرع الزمن الذي نعطاه لكي نحياه . يحب علينا من ثم أن نقنع به » « وذلك أنه حتى لو كان النصيب المقسوم لنا من العيش قصيراً ، فإنه من الطول بحيث يجعلنا نعيش عيشة شريفة طيبة . ومع ذلك فإن شيشرون عاد بعد ذلك فأخذ يحس بأنه لا بد أن يكون هناك شيء معد للناس بعد هذه الحياة . فقال : إن ميلادنا وخلقتنا لا يرجع إلى الصدفة العبداء أو الحادثة العفوية ، ولكن من المؤكد أن هناك قوة ترقب البشرية ، لا قوة تنتج وتصون جنساً بشرياً ، يعود بعد استنفاد عبء الأحرار الكامل الذي يشغل كاهاه ، فيقع في الشر الأبدى وهو الموت : فاستعده مرفأً أميناً ومانجاً كريماً قد أعد لنا كي نلذ به (١) ويقول «ماركس أوريلوس » (١٢٠ - ١٨٠ م) « إن الكون كمجسوع ، متضمن في عملية «دور» : وطلق هذه الفكرة على التاريخ : أن خط سير الطبيعة لا يظل واحداً لا يتغير . منذ الأزل بأجمعه وكل شيء يظهر في دائرة : إن هذا العالم نفسه بعيش بالتحيرات المستمرة التي لا تلم بالعناصر فحسب ، بل تلك الأشياء التي تتكون من تلك العناصر في دورة مستديرة من تعاقب النولد والتحلال : ويحدث التكرار دائماً في ثنايا تغيرات التاريخ ، والتاريخ هو لا يتغير على الدوام من حيث طبيعة محتوياته : فمن تبدل العصر الحاضر فقد رأى كل شيء كان أو سيكون إلى آخر الأبد كله ، وذلك أن الأشياء مضت على الدوام في سبيلها وستمضي دائماً ، على طريقها المنسقة المتأثلة . وعلى الجملة ، لو أنك قلبت الفكر فيما يجري حولك ، وجدت أن جميع أحداث العصر الحالي ، هي نفسها التي تمتلئ بها تواريخ كل عصر ، فلا جديد هناك .»

إن طول الحياة مسألة غير ذات وزن في الحقيقة ، وذلك لأننا سواء شهدنا ذلك المشهد مدة مائة سنة أو مائة ألف سنة ، فإن نهاية كل شيء واحدة بلا تغير : وبمثل هذا الاعتقاد لم يكن يتهيأ لفكرة الحياة بعد الموت إلا أقل القبول : إذ لم يكن من المستطاع استخدامها لفرش فرشة من الأمل في وجه شروق الحياة الراهنة ، وذلك لأن الحياة المستقبلية لن تكون إذن سوى تكرار لخبرات هذه الحياة .

(١) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ٦٦ .

ولم ينكر ماركوس أوريليوس إنكاراً مطلقاً احتمال استمرار الوجود الشخصي بعد الموت فالإنسان جسم وروح . فإذا حال الموت ، تحول الإطار البدني إلى عناصره الأصلية ، وذلك على حين أن الجزء الروحي إما أن يحمى أو يتحول إلى حالة ما أخرى للوجود : ويبدو أن الفكرة المسيطرة عليه هي أن : « الكائنات الروحية جميعاً تدوب سريعاً في روح الكون ، كما أن ذكرى الأشياء جميعاً تدفن بنفس السرعة في خضم الزمن » .

ولا يخور التماس دلاله التاريخ في حالة أرضية مستقلة يمكن اعتبار الحياة الحالية بالنسبة إليها وسبابة وأداة ، ولا باعتبارها إعداداً لحياة أعلى بعد الموت . فإن لكل فرد مدته الزمنية : « إدا الكائن الأعلى يقسم لكل مخلوق نصيباً مناسباً من الزمن » : ولذا تكون « الآن » من مدته الخاصة ، هي التي ينبغي أن نبحت فيها عن معنى التاريخ بالنسبة إليه وإلى كل فرد : وقد ركز ماركوس أوريليوس انتباهه على « الآن » أي اللحظة الراهنة : وإذن فإن تلك المزايا جميعاً « أي حالة الكمال والسعادة التي تريد باوغها مختبراً دورة طويلة من الزمن والنصب ، فأنت مستطيع الحصول عليها الآن إن لم تكن عدو نفسك » وهو شيء سبتم لك ، إن أنت ، وقد أصبحت لا تفكر بتاتاً في الزمن الماضي ، وتركزت المستقبل « للعناية » - استخلصت الوقت الحالي وفق ما تمليه التقوى والعدالة ، فتخضع لما تمليه التقوى بالخضوع برضا وجبور لما قسم لك ، إذ أن ذلك سيقودك إلى خيرك في النهاية ، كما أنه مفلس عليك ذلك النصيب ، وستخضع لما يمليه العدالة . إذ مع الحرية وبلا مراوغة ستنتقل بالصدق ، وتتصرف في جميع المناسبات حسب قانون العقل وطبق أهمية الشيء » : والخير الذي في التاريخ كما بعثته لا يمت إلى المذهب الذي بأدنى سبب . إذ يمكن للعقل -- بل ينبغي له -- أن يكون غير آبه ببلده ولا أئم . والأساس الجوهرى للسعادة هو احترام الذات . « فتدبر بنفسائك وكن مستغلاً . وذلك أن العقل المتحل بالتحكيم الذي يعمل على الدوام بهداية العدل والنزاهة قمين بباع السعادة ويسعد بالهدوء الدائم » .

ومع أن هذه النزعة الفردية نعد شيئاً جوهرياً لدى ماركوس أوريليوس ، فإنه اعترف اعترافاً تاماً بطبيعة الإنسان وواجباته الاجتماعية . فكل مكلف بالقيام باسقاط «خلق لأدائه» - بما في ذلك ما ينطوي عليه مركزه في المجتمع من نشاط .

« وكل ما أنا تواق إليه ، هو رجائي أني أنا نفسي لا أقوم بأى شيء يناقض طبيعة الإنسان ، ولا أن أنصرف بأية طريقة ولا في أية مناسبة تصرفاً لا تتواءم وواجبي ومركزي » ، « ولما كنا مواطنين زملاء في دولة واحدة . فإن أول واجبات الإنسان وأهمها جميعاً نهذب المجتمع » على أنه هو بالتخصيص كان له مكانه كروماني ، ولكن نزعتة كانت عالمية فهو يقول : « بالنسبة لي أنا أنطونينوس ، فإن مدينتي هي روما ، ولكن موطني باعتباري إنساناً هو العالم كله » .

والعقل في حد ذاته شيء « لا سبيل إلى قهره » ، « ولا سبيل إلى إجباره على غير رغبته » والعقل « سيادة مطلقة » في فلكه : « والقدرة على العيش مستقرة في عقلك بأقصى غاية السعادة » .

وقد سلم ماركوس أوريليوس بآراء ثلاثة محتماة حول الأسباب النهائية (القصوى) لأحداث التاريخ :

(أ) إن كل شىء وليد الصدفة المحضة .

(ب) إن كل شىء تحدده « ضرورة محتومة » .

(ج) إن كل شىء باستثناء ما يعود إلى حرية الإنسان — يرتكن إلى « عناية » شفوقة رحمة محسنة .

فتبنى الرأى الأخير ٥ فكل ما خرج عن تناول بلدك وامتلك ينبغى تقباه مع الاتزان والحدوء . ويرفض الاعتقاد « بالعناية » كل فكرة لدية عن التاريخ ٥ وذلك أن المرء المقتنع بفكرة لدية سببمطر إلى الإكثار من بث شكواه حول تصرفات العناية ٥ ٥ قولا منه بأنها إنما توزع أفضالها على المسىء الشرير والمتحلى بالفضيلة دون إعتبار لما عليه كل منهما من استحقاق ٥ حيث كثيراً ما تتوافر المسرات للشرير المسىء ٥ فضلا عن وسائل إحرازها ٥ على حين أن المتجمل بالفضيلة ترهقه الآلام وغيرها من الظروف الآتية . ومع هذا ٥ فإن ما يتضمنه الاعتقاد فى « العناية » ٥ أن « جميع الأشياء إنما تعالج بأقصى قسطاس وعدم تحيز » .

أما عن وجهة نظر ماركوس أوريليوس حول الشر فى التاريخ ٥ فإن موقفه يغشاه شىء من الغموض ٥ ومع أنه أعلن أن : « العالم بأكمله نظام يؤلف بينه الانسجام » ٥ فإنه غالباً ما أشار إلى الأذى الشرير . أما عن مصاعب الحياة وآلامها : « فإن شيئاً منها لا يقع على أم رأس الإنسان إلا ماله القدرة على تحمله (١) » .

وفى منتصف القرن الثامن عشر ظهرت مدرسة من المؤرخين ذوى النظرة الشاملة والأغراض السامية ٥ بدأ المؤرخون يكتبون تواريخ عامة لا تسيطر عليها فكرة واحدة كتمجيد بطل أو حاكم ٥ وكان الرعيل الأول من أئمة هذه الحركة هم جيبون وهيوم فى إنجلترا ٥ وشلوسر ومولرفى ألمانيا ٥ وسار فى أثرهم حشد من الأتباع معظمهم من الألمان ٥ وقد نحا هؤلاء المؤرخون المنحى الفلسفى ٥ وقالوا إن الحقائق المجردة للوجود الإنسانى تنطوى على أهمية لا تعدلها إلا أهمية العبر التى يلقنونها للناس لرفعة البشرية .

ولا مناص فى هذه النظرة الحديثة من أن تربط كل واقعة بحشد من الوقائع الأخرى حتى يمكن إدراك دلالتها الحقيقية ٥ فالحوادث يقتضى هذا الرأى لا معنى لها إلا إذا عرفنا شيئاً عن الدوافع الإنسانية التى أدت إلى وقوعها ٥ وواجب المؤرخ هو تحرى الأسباب ومحاولة بناء فلسفة حقيقية للحياة من عبر التاريخ .

وليس من شك فى أن هذا الواجب لا يختلف ٥ عن الواجب الذى كان الكتاب القدماء مثل « بوليبيوس » اليونانى قد أحلوه من عنايتهم محلاً رفيعاً ٥ ولكن ممة توكيداً لهذه الناحية فى الموضوع فى عصرنا الحاضر ٥ وهو توكيد لا نصادفه بصفة عامة فى العصر القديم ٥ أو أن فلسفة التاريخ فى عصرنا أكثر وعياً ٥ وقد تداول الناس عبارة « فلسفة التاريخ » من قرن مضى ٥ وعمد بعض الكتاب

(١) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ٧٠ - ٧٢ .

الذين لم يكونوا أصلاً من المؤرخين إلى التحدث عن هذا الموضوع ، بل وأصبحنا أخيراً نتابع سير الزمن ، فنتكلم عن « علم التاريخ » .

ويتبوأ التاريخ اليوم مكانة سامقة بوصفه علماً بحق ، ولفظ « علم » اصطلاح مرن غاية المرونة ، على أن نمة من ينكر أننا نستطيع إطلاقه صحيحاً في الوقت الحاضر على الأقل ، على مجموعة معارفنا عن الوقائع التاريخية ، وما بهننا الآن هو أن الباحث التاريخي الحدث تسطر عليه النزعة العلمية التي تتحرى الدقة والمعد عن الهوى ؛ ولما كان المعد عن الهوى والغرض يعتمدان اعتماداً كبيراً على صحة النظرة ، فإننا نخلص من ذلك إلى نتيجة غريبة بعض الغرابة ، وهي أن المحوثة الدقيقة التي يقوم بها المتخصص تؤدي بطريقة غير مباشرة إلى النظرة الشاملة التي يتسم بها كاتب التواريخ العامة .

وقد عبر الأستاذ فريمان أحسن تعبير عن هذه الفكرة بقوله :

« إن موقفي بتأخص في أننا في جميع دراستنا للتاريخ واللغة » ودراسة اللغة فرع من أهم فروع دراسة التاريخ ، علاوة على سائر ما لها من فوائد أخرى يجب أن ننبد كل ما يفرق بين « القديم » و« الحديث » وبين « الميت » و« الحي » . ولا مناص لنا من أن نستمسك في جراءة بتلك الحقيقة الكبرى ، وهي وحدة التاريخ . أما وأن الإنسان هو الإنسان في جميع العصور ، فإن تاريخ الإنسان هو هو في جميع العصور ، وما من لغة أو عصر من عصور التاريخ مستطاع فهمها أو فهمه حق الفهم ، وما من لغة أو عصر من عصور التاريخ يمكن أن نعطيها أو نعطيها حقها وحقه من الأهمية أو حقها وحقه من الفائدة ، إذا نظرنا إليها أو إلبه نظرنا إلى كل في ذاته دون أن نرجع إلى أثر هذه اللغة في اللغات الأخرى ، وأثر هذا العصر في العصور الأخرى من عصور التاريخ التي نشترك معه في تكوين ذلك الكل الإنساني العظيم . أو فلذلك الإنسان الآري والأورني على الأقل (١) » .

وقد أسفر انتصار المسيحية (٢) عن مبدأ لاهوتي خالص في التاريخ ، فقد تحول إلى أيدي القساوسة والرهبان وبقي فهم زهاء ألف سنة من الزمان . وكان من وراء ذلك أن غدا التاريخ خاضعاً للاهوت مسحراً له ، وقد أصبح عملاً نعلمها ، وفقد كل صفة علمية كان يتصف بها وأصبح لا يكثر بحال لما هو حفي أو محتتمل الوقوع ، وغداً مسحوناً بأخبار الخواري والكرامات غير معي إلا بما له صلة بالدين ،

وحماة القول إن تحول التاريخ إلى رجال الدين كان معناه نحو التاريخ الصحيح في الوجود نحواً تاماً دام ألف سنة . وقد أغفل التاريخ كما يقول « بهوري » السببية والعلاقة بين السبب والمسبب ورد كل شيء إلى إرادة الله ، أما البشر فليسوا سوى دمي يتحرك بلا إرادة في ذلك الصراع الرهيب بين الله والشيطان أو بين الخير والشر .

(١) هنري سمث وليامز : التاريخ والمؤرخون ، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد (دائرة معارف الشهاب) .

(٢) هرنشو : علم التاريخ ، ص ٢٥ .

يرى المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه « فاسفة التاريخ » أن الحوادث التي يتألف منها التاريخ تنشأ عن عوامل مختلفة ، ومن هذه العوامل ما هو ثابت كالأرض . ومنها ما هو عارض كالغزوات ؛ ويغلبو التاريخ أمراً مسنحياً إذا ما أوجبت دراسة تعاقب العمل البعيدة التي تعين كل حادثة ، ولذلك يجب أن بسلم بدراسة العمل المباشر ، ثم يمحت ووجز العوامل العامة التي كانت ذات أثر في تكوينها زمنياً طويلاً .

ويقول : من أهم اكتشافات العلم الحديث إقائه مبدأ التقاب مقام مبدأ النيات ، وأبدى تقاب العالم الدائم هذا من سن وجوده الأساسية .

ولم تكن النحولات في التاريخ بالغة ذلك العمق ، ولكنه إذا ما نفذ في منطقة الأسباب المطاسة ظهر أن أسباب الحوادث الحقيقية تختلف كثيراً عن التفسير الوهمية التي غلبت عقائد قروناً طويلة ؛ وقد اختلف المؤرخون على العامل الرئيسي الذي يتحكم في سير التاريخ ويمكن اخذاه أساساً لتفسير أحداثه .

يرى بعض الكتاب كفرويد أن الجنس هو العامل الرئيسي الذي يتحكم في سير التاريخ ، ولكن هذا التفسير يهبط بالإنسان ، ويحوّله إلى مجرد حيوان يحركه غرائزه ، وشهواته الجسدية فقط . لقد كان هم « فرويد » تلويث الدين والأخلاق فقال : « إن التسامى نوع من الشلوذ »⁽¹⁾ وأن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجتها الطبيعية العادية ، وأن الأساطير المسيحية تصور في حقيقتها رغبة الابن « المسيح » في قتل والده « الرب الإله » وإن كان قد كبت هذه الرغبة فقتل نفسه بدلاً من أبيه ، ولكن أصبح لها مكان أبيه ؟

وإن الحضارة تتعارض مع النمو الحر للطاقة الجنسية ؛ وأن الدين والأخلاق والحضارة تنشأ من الكبت الجنسي ، والكبت الجنسي خطر على الكيان النفسي والعصبي لأنه يصيب النفس بالعقد والاضطرابات .

كان فرويد في خدمة الصهيونية ؛ وقد جاء في كتاب : « بروتوكولات حكماء صهيون » : « يجب أن نعمل لتدمير الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا ، إن فرويد منا ، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ تهازل أخلاقه » .

يرى المفكر البريطاني توماس لايل أن التاريخ الإنساني ما هو إلا تاريخ أفراد عظماء صبغوا الوجود السياسي بإرادتهم ، أي أن حركة التاريخ ليست حركة شعوب أو طبقات إنما هي حركة بطولات فردية .

يقول كارلايل (١) إن الأبطال قد يبدوون في بعض الأحيان أقل جودة وقد لا تكون شجاعتهم هي المحرك لهم ، ولكنهم ممتازون في بعض النواحي فهم لهم الأتباع والمعجبون ويطاعون إلى درجة العبادة . وبالرغم من أن كارلايل كان مفتنعا بأهمية الدور العلمى والمميزات التى جاءت عقب التقدم فى العلوم مثل الطب . إلا أنه لم يكن مقتنعا بأهمية ذلك التقدم من الناحية الاجتماعية .

هذا النوع من العبادة يمتاز بأن الشخص يعمل بدافع من أعماق نفسه فهو حذر ، والحذر ينبع من أعماق نفسه . وبذلك فهو يحجب الوقوع فى الخطأ . ولا يعتمد البطل هنا على المنطق أو العلوم أو الرياضيات التى تكشف قوى الطبيعة . ولكن الدافع الذى يحرك هذا البطل هو شعور داخلى يحث بدفعه إلى العمل والنجاح . والبطل هنا يعمل بالحكمة القائلة : « اعمل أو أناك لن تفعل أبداً » وبذلك يعمل مساعداً قوة الاحساس والخبرة التى تنبعث من أعماق النفس .

وكان ظهور البطولات فى أعمال الفروسية والدين والفن والحكم هو طابع القرن الثالث عشر . وكان كارلايل يبحث فى الفروسية التى تربط بين تلك البطولات وتربط أعمال أو أفعال العظمة واللباقة والرشاقة مع المشاعر الداخلية والى سير تلك البطولات . التى كان لا يمكن ظهورها فى العصور التى تلت والتى تميزت بالصناعة . وهذا ما لا يمكن ظهوره الآن حيث أن المجال قد ضاق ضد الفروسية ومسبات نجاحها .

وقدم كارلايل مثالا على ذلك (٢) : هو فريدريك الأكبر الذى قاد مجموعة قليلة من الرجال واستطاع أن يسيطر على مشاعر هؤلاء الرجال فأصبح بطلا من أبطال الفروسية .

(١) أوجين سانسجر : الرعامه ، ترجمه سالى حافظ ، وروحية ناحى ، ص ٣١ .

(٢) يقول إدوارد دار فى كتابه « ما هو التاريخ » : « أصبحت نظرية الرجل العظيم فى التاريخ فى السنين الأخيرة مل - مذهب الملكة بس Denis » الطبعة - لا تسائر الزمن . ويقول : إن الرجل العظيم فرد ، وكونه فرداً بارزاً هو كذلك ظاهرة اجتماعية ذات أهمية بارزة ، وكما لاحظ « جيمون » إنها لفهمه واضحة إنه يجب أن نكون الأزمنة ملائمة للشخصيات غير العادية ، وأنه ربما انبثقت عمقيات مثل « كرومويل » أو « رندس » لو ظهرت فى الوقت الحالى ، فى زوايا الحمول وغموض الشأن . وبشخص ماركس فى كتابه « برومبير الثامن عشر للوس بونانرت » الطائفة المصادرة يقول : « لقد خلقت الحرب الطبقة فى فرنسا ظروفاً مواتية لعدد كبير من الأفراد العاديين السرى بجهلاء فى أنواب الأبطال » .

وبرى الدكتور ليفيس Lefevre « إن أحمه العطاء تتوقف على مدى ما بنشئون من وعى إنسانى » فالرجل العظيم يمثل شيئاً على الدوام ، فهو إما أنه يمثل القوى الضائعة ، أو القوى التى تساعد على حلقتها عن طريق تحدى السلطة القائمة . ولكن ربما يمكن منح أعلى درجات الخلق لأولئك العطاء من الرجال ، الذين ساعدوا مثل « كرومويل » أو « لينن » على تشكيل القوى التى ساقهم إلى العظمة ، والذين هم أكثر اسحقاً لما من أمثال دابسون وبسارك ، الذين صعدوا إلى العظمة على ظهور قوى قائمة فعلا ، ونح كذلك ألا ننسى أولئك العلماء من الرجال الذين كانوا متعمقين على عصرهم ، ولم يدركوا عظمتهم لذلك سوى الأجيال اللاحقة . وما يبدو لنا فيه رئيسه هو أن أرى فى الرجل العظيم فرداً بارزاً ، وأنه فى نفس الوقت من انماح التاريخ ، وبثوم بدور فعال فيه ، وأنه يمثل لقوى اجمعته تشكيل العالم ، وأفكار الناس ، وفى نفس الوقت خالقها .

(ما هو التاريخ : ترجمة أحمد حمدي محمود ، ص ٧٠ - ٧٢)

يقول كارلايل : ابحث عن الرجل الذى يمتلك القدرة فى أى بلد وارفعه إلى أعلى مكان واعطه الولاء . وبذلك ستحصل على حكومته متكاملة بوجود ذلك الرجل فى هذا البلد ولا يمكن أن يخدم البلد برلمان أو غيره مثل ما نخدمه ذلك الرجل .

ويشير كارلايل إلى أوليفر كورمويل كممثل لذلك الرجل الذى ظهر بظهور الطائفة البيوريتانية فى القرن السابع عشر ، ولكن أصدق من هذا المثل فى رأى كارلايل هو نابليون البطل الذى يبدو وكأنه أمير .

البطل الحقيقى هو الذى يحمل قلباً كبيراً وقوته تكمن فى إخلاصه وشجاعته وانتصارات البطل ليست انتصارات القوة ؛ ولكنها انتصارات الولاء . وقد ضاع نابليون حين أصبح انتصاراته انتصارات قوة بحنة ، والذين خلعوه لم يكونوا سوى رجال عاديين .

وبذلك فبالنسبة للبطل الحقيقى : الحق هو القوة وليست القوة هى الحق ، لأن الحق يحمل كثيراً فى ذاته .

فقد «جون ستيوارت مل» نظرية كارلايل الخاصة بالمطل ، لأنه كان يؤمن أن تاريخ الإغريق يتعلق بأخلاق الرجال الذين يحكمون . وكان يقول : إن وجود رجل شرير أو خير فى أية مدينة فى مرحلة معينة كان كفيلاً بتغيير مصير العالم كله .

ولما كان «مل» يؤمن بأن تجارب رجال قلائد فى العالم قد تدفع العالم إلى التقدم إذا طبقت فقد قال : إن هؤلاء الرجال القلائد هم الذين يعطون طعم الحياة : وإن العالم بدونهم يصبح بركة ماء راكدة ، لأنهم لا يقدمون العظمة التى لم تكن موجودة وهم قبلهم فحسب ، ولكنهم يعرفون أيضاً كيف يحافظون عليها .

وقد قال «مل» : إن الذين يأتون بعد العباقرة يجدون صعوبة فى تفهم ما كان هؤلاء العباقرة يفعلون من أجلهم .

وأول شئ يجب أن تقدمه القيادة هو الوعى . وقد رأى «مل» أن رأى العام بقود العالم . وكان «مل» يؤمن أن إدخال عمل نبيل أو حكيم لا يأتى إلا من الأفراد ، وعادة من فرد واحد معين . والمجد الذى يحصل عليه الرجل المتوسط هو قدرته على تتبع ذلك العمل النبيل . وكان «مل» لا يؤمن بالرجل القوى الذى يحكم العالم تبعاً لأغراضه لأن قوة الضغط على الآخرين تفسد ذلك الرجل القوى نفسه . والطريق السليم للديمقراطية ، هو أن يكون الفرد مسئولاً عن إعطاء السلطة لرجال متفوقين يعرفون كيف يستعملونها . ولوجود السعادة والسلام يجب أن توجد طرق سليمة لاختيار الرجال الذين يساهمون فى توزيع تلك السعادة .

وفى هذا النظام الديمقراطى أفضل طريقة لإيجاد الرجال العظماء هى طريقة القيادة السلمية . والقائد المثالى عند «مل» هو الذى يخلق مناطقاً للنفوذ مستقلة تبعاً لعدد الرجال الأذكياء ، الموجودين فعلاً .

لقد كان « مل » يخاطب العقل لأنه كان يبحث عن مستوى التفكير العالى الذى يلهم الآخرين بمستويات أعلى وأرفع . وفى رأى « مل » أن رسالة البطل هى إيقاظ مقدره الإنسان على تحديد المصلحة العامة عن طريق المناقشات .

ويقدم الكاتب الألماني « ماكس فيبر » إطاراً متكاملًا لمفهوم البطولة فيما عبر عنه بالقيادة : « الكاريزماتية » بمعنى أن التاريخ ما هو إلا صراع بين المجتمع السياسى وبين الطبقات المختارة . وأن الفائد الكاريزماتيكى هو القائد البطل الذى يقود المجتمع فى اللحظات المصرية ليعود به إلى توازنه الطبيعى أى أن القائد الكاريزماتيكى هو أداة المجتمع لتخليصه من عيوب معينة .

ويرى المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » أن الزعامة المبدعة (متمثلة فى أقلية رائدة أو فرد عبقرى) تفقد على طول المدى فتنها للجماهير ، وذلك بسبب تآكل طاقتها الإبداعية بفعل إخفاقاتها فى علاج المشكلات التى تجابه المجتمع الذى تقوده ، ولكن تلك الزعامة تصر على التشبث بدورها القيادى المميز الذى لم تعد تصاح له بعد فقداؤها طاقتها الإبداعية . وهنا تتحول الأقلية المبدعة إلى أقلية مهيمنة تستعين بالقوة العارمة للحفاظ على مركزها المرموق فى المجتمع الذى تقوده ، عوضاً عن ولائه لها بدافع من افتتانه بها تحت تأثير عبقريتها .

ويبدى توينبى عوامل اخفاق الأقلية الرائدة للمجتمع — أى مجتمع — فى الاستجابة لتحديات العصر بوساطة سرد أمثلة من التاريخ تبين أن الجماعة التى تستجيب بنجاح إلى تحد واحد ، نادراً ما تستجيب بنجاح إلى التحدى التالى . فان أولئك الذين بقيض لهم التوفيق ذات مرة ، يميلون فى الفرصة التالية إلى التواكل ، ومن مظاهر هذا النواكل البغيض ، تفديس الشعب زعامته أو تغالى الزعامة بالإيمان بقدرتها ، وعادة الدولة لنظامها مما يصدها عن تطويره وفقاً لمقتضيات العصر ، فلقد انبثق عن المخالفة فى تكريم التنظيم السياسى قوة حاكمة قوامها * إما ملك مؤله أو ظهور نوع من الطائفة أو الطبقة أو المهنة التى يتوقف مصير الدولة على مهارتها وإقدامها .

ويطالعنا فى هذا المجال المثال التقليدى عن تجسيد المجتمع المصرى السيادة السياسية فى عصر الدولة القديمة فى إنسان بشرى ، وقاد تشبث المجتمع بفكرته إلى إعراضه عن رسالة سامية نادى بها إخناتون ، الذى تطلع إلى تجديد شباب مجتمعه روحانياً ، وبالأحرى فاذا كان المجتمع المصرى قد استجاب بنجاح فائق لتحدى البيئة ، إلا أنه أخفق فى الاستجابة لنداء رسالة أسعى وأعظم صفاء — أى رسالة إخناتون — وقاد هذا الفشل إلى انهيار الحضارة المصرية مبكراً .

ويرى بعض الكتاب أن البيئة هى العامل الأول فى تفسير التاريخ ، وتبسط رسالة عنوانها : تأثيرات الجو والماء والموقع « الآراء اليونانية فى هذا الموضوع . وترجع الرسالة إلى القرن الخامس قبل الميلاد . وقد حفظت ضمن مجموعة أعمال مسرحية « هيبو قراط » الطبية ، وفيها نقرأ مثلاً :

« يمكن (١) تقسيم الأشكال البشرية إلى النوع الجملى الغزير الماء . والنوع ذى التربة الخصبة عذبة المياه . ونوع المراعى ذات المستنقعات . ونوع السهول المسطحة حمدة الصريف . وتميل أبادان سبتان البلاد الجملى والغزير المياه والموجود على ارتفاع كبير - حيث يكون محال المتعلمات الموسمية واسعا - إلى صحابة المنمة التى تتفق مع ما يلزمهم من شجاعة وقدرة على الاحتمال . أما سكان الأراضي المنخفضة الحارة الرطبة التى تقطعها المروج المائية والتى هى أكثر تعرضا فى العادة للرياح الحارة منها إلى الدارده والذين ينهبون ماء فاترا ، فانهم - على العكس - ليسوا أقوىاء المنمة كما أنهم ليسوا خافا ، لكنهم صحاح من هليون ذوو شعور سوداء ولون الوجه أقرب للسواد منه إلى البياض . وهم أميل إلى العصب منهم إلى البرودة ، وليس الشجاعة والاحتمال من صفات طنائهم الأصباة لكى يأتى بها عنهم بفضل تطبق النظم الفعالة . أما سكان البلاد غير المستوى وذى الرياح الجارفة والمياه الغزيرة والموجود على ارتفاع كدر . فانهم أفواة المنمة ويمقتون النزعة الفردية ، وفى طنائهم نوع من العجب وسهولة الانبياد . وسجد فى غالبية الأحوال أن الجسم والخلق البشريين يتغيران وفقاً لطبيعة البلاد » .

على أن قوام التفسيرات الأثرة لدى المسلمين عن نظرية البيئة ، كانت مستمدة من الاختلاف بين تأثير الحياة فى وادى النيل الأدنى على طسعة المصريين وخلقهم ونظسهم . وبين أثر الحياة فى السهل الأوراسى على طبيعة الأسفوذائمين (٢) .

ونفحص النظرية الهيلىنة على أساس مثالها الأثر بن :

الأول : السهب الأوراسى « أى الأوروبى الأسبوى »

التانى : وادى النيل .

ولابد أننا سنجد مناطق أخرى على سطح الأرض منسابة - من الناحيتين الجغرافية والمناخية - مع كل من هاتين المنطقتين . فان أسفرب جميعها عن تشابه السكان فى طنائهم ونظسهم . مع الأسفوذائمين فى حالة ، ومع المصريين فى الأخرى ، تابتت نظرية البيئة ، وإلا نقضت .

ونتكلم أولا عن السهب الأوراسى الذى لم يعلم اليونانيون عنه سوى ركنه الجنوى الغربى ؛ ونضع إلى جانبه السهب الأفراسى (الأفريقى الآسيوى) الممتد فى بلاد العرب غير شمال إفريقيا :

فهل يعنى التشابه بين أنحاء السهبين تشابهاً مماثلاً بين المجتمعات البشرية التى انتشرت فى كاتاهات المنطقتين ؟

الرد بالإيجاب .

فإن كلا السهبين قد أنتجاً النوع البدوى من المجتمع ، وأظهرت هذه البداوة فى السهبين نفس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف .

(١) فؤاد محمد نبيل : مناخ توبيدى التاريخى ، ص ٣٠ - ٣٢ . وكتاب الجغرافيا توحه التاريخ ، تأليف جوردون إيست أستاذ الجغرافيا التاريخية بجامعة لندن ، وترجه الدكتور جمال الدين الداورى

(٢) نسبة إلى الأقليم الواقع شمال البحر الأسود وبحر مروبى وبحر اورال - جزء من الاتحاد السوفىى حالياً .

اختلاف في نوع الحيوانات المستأنسة مثلاً التي كان يجب أن نتوقع وجودها نظراً لأوجه الشبه - وأوجه الاختلاف - القائمة بين المصلحين . لكن تهاوى العلافه بإجراء مزيد من الاختبارات ، إذ نجد أن الأجزاء الأخرى من العالم التي نعرض فيها السنة اللامه للصحراء البدوية ، مراعى أمريكا الشمالية مثل منطقة اللانوس في هروبلو والبساس في الأرجنتين ومراعى أستراليا - لم نجد نوعاً خاصاً بها من المجتمعات البدوية .

هنا ، ولست الإمكانات الكامنة في تلك المناطق موضع سؤال ، ذلك لأن مشروعات المجتمع الغربي قد أدركتها في عصرنا الحديث وعادت تستمرها بفضل الرواد من أصحاب الماشية من الغربيين - مثل رعاة البقر في أمريكا الشمالية والجنوبي (رعاة البقر في أمريكا اللاتينية) ورعاة الماشية في أستراليا - الذين استحوذوا على هذه الأعراس التي لا هالك لها ، ونجحوا في الاحتفاظ بها إبان بضعة أجيال ، مناضلين تمام المحراث والمصنع . ولقد ساءت روعه معارفهم بحياة البشرية . ولو كانت لدى السه الأمريكية والأسر البه القوه التي تمكنها من إحالة رواد مجتمع ليست له تقاليد بدوية وعاش على الزراعة والصناعة منذ نشأته أول مرة ، إلى بادو ولو لصرة جبل واحد ، لو كانت لديها هذه القوة لكانت طاقاتها الكامنة كغيره جهلاً ، وفضلاً عن ذلك ، فإن الشعوب التي وجدها الرواد الغربيون الأوائل تشغل هذه المراعى ، لم تدفعها إليها إلى الحياة البدوية ، إذ لم نجد تلك الشعوب في هذه المناطق التي تصاح للحياة البدوية أى وجه لاستعمالها أفضل من تخصيصها للصيد .

فاذا طبقنا بعد ذلك نظرية البيئة في المناطق المشابهة لودى النيل الأدنى لأسفرت التجربة عن نفس النتيجة . فإن وادى النيل منطقة فريدة نوعاً ما في السه الأفراسي ، إن صح هذا القول . فعلى الرغم من أن مناخ مصر هو نفس المناخ الجاف السائد في المنطقة الشاسعة التي تحيط بها ، فقد صنعت موهبة استثنائية هوائها مدد منظم من المياه والظمى يزودها به النهر العظيم الذى ينبع من وراء حدود السه من منطقة عزيرة الأمطار . ولقد استخدم منتو الحضارة المصرية هذه الموهبة لتهيئة مجتمع يختلف اختلافاً ظاهراً عن الحياة البدوية التي تحيط بهم من الجانبين . .

فهل تعتبر البيئة الخاصة التي أتاحها النيل لمصر ميزة إيجابية إليها يعزى بدء الحضارة المصرية ؟

للتدليل على صحة هذا الرأي ، علينا أن نبرهن على أنه في كل منطقة منعزلة أخرى ، تهيأ فيها بيئة من التراز النيل ، انبعت حضارة مماثلة ، لهذا السبب دون غيره .

تصحب النظرية للاختبار في منطقة تباوره تتوافر فيها الشروط المطلوبة ، تلك هي المنطقة الدنيا من وادى النيل والفرات . فهنا نجد ظروفاً طبيعية مماثلة ومجتمعاً مماثلاً هو المجتمع السومري . لكن تهاوى النظرية في واد أصغر وإن كان مشابهاً هو وادى الأردن الذى لم يكن يوماً ما مركزاً لآية حضارة . ولعلها تنهار كذلك في وادى السند . إن كنا على صواب ن افترضنا أن الثقافة السندية قد جلبها المستوطنون السومريون إلى هناك جاهزة كما هي .

ولكن أكثر النقاد تشدداً لا يستطيع أن ينكر أن أحوال البيئة التي تتيحها مصر والعراق ، يتيحها كذلك وادبا نهر « ريوجراندى » وكلورادوا » فى الولايات المتحدة . . ولقد أنجز هذان النهران الأمريكيان - بفضل المستوطنين الأوربيين الحليثين وباستخدام موارد جلبوها معهم من الجانب الآخر من المحيط الأطلسى - نفس المعجزات التي فيضها النيل والفرات للمهندسين المصريين والسومريين ، بيد أن نهر كلورادوا « أو « ريوجراندى » ، لم يسر بهذا السحر إلى شعوب لم تكن من مريديه ، وإن كانت قد تعالمت به فى مكان آخر .

ومتى ثبت ذلك ، لا يمكن اعتبار البيئة العامل الإيجابى الذى جلب الحضارات النهرية إلى الوجود ونؤكد من هذه النتيجة إذا ألقينا نظرة على بعض البيئات الأخرى التي أنتجت حضارات فى منطقة ولم توح بها فى أخرى .

فالمقد برزت الحضارة الأنديانية إلى الوجود على هضبة مرتفعة ، ويختلف ما حققته اختلافاً كبيراً عن الهمجية الوحشية التي تأويها غابات الأمازون الواقعة تحتها . فهل كانت الهضبة سبب تقدم الحضارة الأنديانية على جيرانها المتوحشين ؟

أخرى بنا قبل أن نتقبل هذه الفكرة أن نلقى نظرة على نفس خطوط العرض الاستوائية فى أفريقيا حيث تلتف مرتفعات افريقية الشرقية بولايات غابات حوض الكونغو . وسنجد أن الهضبة فى افريقية لم يقبض لها لإنتاج أى مجتمع متحضر ، مثلها مثل الغابات المدارية فى وادى النهر الكبير . والبيئة لا تمثل العامل الإيجابى الذى انتشل الجنس البشرى فى غضون ستة آلاف السنة الماضية من حالة الركود فى مستوى مجتمع بدائى ودفعه لسلوك طريق مخوف بالمخاطر سعياً وراء الحضارة .

ويرى بعض الكتاب أن الجنس أى توافر صفات مميزة وموروثة فى جماعات معينة من البشر هي التي تعين مجرى التاريخ وتحدد مركز الجنس من حيث الحضارة والتقدم بين الأجناس الأخرى .

كان الكونت الفرنسى « دى جو بينو » أول من وضع - فى أوائل القرن التاسع عشر - الإنسان النوردى (السلالة البضاء والشعر الأصفر والعيون الشهباء والرأس الطويل) على منصة الشرف ، فقد ادعى أن الحضارتين الحليثية والرومانية من نتاج الجنس النوردى .

واقضى دعاة العنصرية فكرته فزعمو أن ذلك العنصر النوردى قد انتج القبعرية الدينية لزرادشت وبوذا وعبقرية اليونان الفنية وعنصرية روما السياسية ، وبالعجلة ، يرجع إلى هذا الجنس فضل ما حققته البشرية من حضارة وتقدم .

ويتعصب لهذه الفكرة سكان جنوب افريقية البيض ومعظم البيض فى الولايات المتحدة وغيرها .

ويقرر المؤرخ البريطانى توينبى أن المذهب الذى يروج له طائفة من اليهود البريطانيين ليس إلفظرية من نفس الطراز ولكن مع استخدام مصطلحات مختلفة ، وتسعى لتعزيز تاريخ وهمى بأراء دينية غريبة معقدة .

وبينما بصير دعاة الحضارة الغربية على اعتبار البشرة البيضاء دليلاً على التفوق الروحي جاعلين الأوروبيين أعلى من الأجناس الأخرى مقاماً ، وتظهر هذه الدراسة المغرضة عند فولتير وجيبون الذى يقول أن القوانين الطبيعية والسلوك الأخلاقى اللذان يلتزم بهما الرجل الأوروبى لا نظير لهما فى العالم ، ويرى « ماير » أن طاقة الإنسان الأوروبى طاقة فوق البشر . ويستخدم اليابانيون علامة مدنية مختلفة ، فمن قبيل المصادفة أن أجسام اليابانيين تغلو من الشعر بشكل ملحوظ ، بينما جاورهم فى جزيرتهم الشمالية « هوكايدو » جماعة بدائية من طراز مختلف تماماً ، طراز بدنى لا يفتقر كثيراً عن الأوروبى وتسمى هذه الجماعة عند اليابانيين « الأينو الشعريين » قدموا الجزائر اليابانية من جبال القوقاز عبر سيبيريا وكوريا وسكنوها قبل المغول الذين وفدوا إليها فى وقت متأخر والذين سادوا الجزائر اليابانية . فكان من الطبيعى والحالة كذلك أن يقرن اليابانيون الأمر بالتفوق الروحي ، ولأنه وإن كانت دعواهم لا أساس لها - مثل الحجمة الأوربية عن تفوق البشرة البيضاء - لكنها من الناحية السطحية أكرم منها قبولاً لدى العقل ، ذلك لأن الرجل الأمريكى بسبب دخاؤه من الشعر .. أبعد منزلة نوعاً ما عن ابن عمه القرد .

وإذا قسم علماء أصول السلالات البشرية الرجال البيض حسب صفاتهم البدنية : الرعوس المستطبة ، والرعوس المستديرة ، البشرة البيضاء ، والبشرة القامنة : وما إلى ذلك من الأنواع ، خرجوا من ذلك بثلاثة أجناس بيضاء أسموها :

النوردى - - والآلى - - وجنس البحر المتوسط :

ومهما تكن قيمة هذا التقسيم . فسلسرد عدد الحضارات التى أسهم فيها كل جنس من هذه الأجناس مساهمة فعالة .

ساهم النورديون فى أربع وربما فى خمس : الهندية ، الهلينية ، الغربية ، المسيحية الأرثوذكسية الروسية وربما الحبشية .

وأسهم الآليون فى سبع وربما فى تسع : السومرية ، الحبشية ، الهلينية ، الغربية ، المسيحية الأرثوذكسية الأصلية والفرع الروسى فيها ، والإيرانية وربما المصرية والنووية .

وأسهم سكان البحر المتوسط فى عشر حضارات : المصرية ، السومرية ، النيووية ، السريانية ، الهلينية ، الغربية ، المسيحية الأرثوذكسية (الأصلية) ، الإيرانية ، العربية ، البابلية .

أما بالنسبة لتقسيمات الجنس البشرى الأخرى :

أسهم الجنس الأسمر ، ونعنى به الشعوب المدايفيدية فى الهند والملاويين فى أندونيسيا فى اثنتين : السندية والهندوكية .

وأسهم الجنس الأصفر فى ثلاث : الصينية ، وفى حضارتى الشرق الأقصى كليهما وهما الحضارة الأصلية فى الصين والفرع اليابانى منها .

وأسهم الجنس الأحمر فى أمريكا فى الحضارات الأمريكية الأربع :

أما العناصر السوداء فإنها لم تسهم - - حتى الآن - - مساهمة فعلية إيجابية فى أية حضارة .

ويبدو للوهلة الأولى كما لو أن للعناصر البيضاء القدح المعلى ، لكن يجب ألا يعزب عن البال أن كثيراً من الشعوب البيضاء يرى من تقديم أية مساهمة في أية حضارة ، مثلها في ذلك مثل السوداء سواء بسواء :

ويبتدى للباحث أن نصف حضارتنا قائم على مساهمات أكثر من جنس واحد ، فإن لكل من الحضارتين الغربية والهلينية — مثلاً — ثلاثة مساهمين ، ولو قسمنا الأجناس : الأصفر ، الأسمر ، الأحمر إلى عناصر فرعية مثل أقسام الجنس الأبيض (النوردي ، الألبى ، الأبيض المتوسط) . لحصاننا على عدد من المساهمين في جميع حضارتنا ، أمّا عن مساهمة هذه التقسيمات الفرعية ، وهل كانت في أى وقت من الأوقات قد مثلت — من الناحيتين التاريخية والاجتماعية — شعوباً فائقة بذاتها ، فإن هذا شيء آخر والواقع أن الموضوع برمته غامض أشد الغموض ،

ويتضح من ذلك كله أن النظرية القائمة على تفوق جنس على الأجناس الأخرى ، وأن جنساً أعلى هو الذى كان سبب انتقال الإنسان إلى الحضارة ، وصانع هذا الانتقال — هى نظرية غير صحيحة ، ومرفوضة رفضاً تاماً .

ويفسر فيكو (١) التاريخ على أساس التعاقب الدورى للحضارات : وتقوم هذه النظرية على ما يلى :

١ - تبدو عصور التاريخ (٢) كما لو كانت ذات خصائص عامة ، فمع أن لكل عصر طابعه النوعى الذى يتضح في التفاصيل فإنه بين العصور المختلفة خصائص مشتركة ، فترة هوميروس على سبيل المثال في التاريخ اليونانى تشابه العصور الوسطى حيث الملاحم وعصر البطولة ، وحيث الحكم ذو طابع أرستقراطى كما يغلب على الأدب طابع الشعر الغنائى وعلى الأخلاق طابع الولاء . يمكن إذن دراسة العصر الوسط مع مقارنة سماته العامة على اليونان القديمة :

٢ - كل فترة تاريخية تتبع أخرى على نفس الخط ، ففترات البطولة تعقبها فترة مسود فيها الفكر على التخيل والنثر على الشعر والصناعة على الزراعة . وأخلاق السلم على أخلاق الحرب ، وهذه يتبعها تدهور إلى بربرية ذات طابع جديده مختلف عن بربرية عصر البطولة ، بربرية فكر لا خيال ولكنه فكر منهك عقيم ذبل فيه الطابع الإبداعي .

(١) ولد جيو فاني باتستافيكو في نابلى سنة ١٦٦٨ . وكان والده صاحب مكتبة فأفاد منها كما أفاد من كتابة البسوسين . ودرس اللغات القديمة واللاهوت والقانون ، عمل في فاتولا أساذاً لأبناء أحت أحد الأساقفة ثم عاد إلى بلده عام ١٦٩٥ ، عين أستاذاً للخطابة في نابلى وقد توفى سنة ١٧٤٤ .

من أهم مؤلفاته : العلم الجديد ، في الطبيعة المشتركة للأمم .

(٢) الدكتور أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ ، ص ١٥٩ - ١٦٤ .

وكتابت التاريخ وكيف يفسرونه من كنهوشوس إلى يويدي ، نايف آلبان ج . ويلجى ، وترجمة عبد العزيز توفيق جاريد ، ص ١٣٧ - ١٤٢ .

٣ -- الحركة الدائرية بين هذه الأدوار لا تعنى أن مسار التاريخ كمعجلة تدور حول ذاتها ولكنها حركة حازونية لأن التاريخ لا يعيد نفسه على نفس النمط ، ولكنه يأتي بصورة جديدة في شكل مخالف لما مضى ، ومن ثم فإن بربرية العصور الوسطى تخالف بربرية اليونان القديمة اختلاف المسيحية عن الوثنية . والتاريخ في تجدد دائم والتعاقب الدورى فيه لا يسمح بالتنبؤ .

يتسم فيكون التاريخ إلى أقسام ثلاثة :

- ١ - عصر الآلهة الذى اعتقدت فيه الأمم أنهم يعيشون في ظل حكومة إلهية ، وكان كل شئ فيه تصدر عنه أوامر بطريق الوحي والقال ، وهما أقدم شئ في التاريخ الديوى .
- ٢ -- عصر الأبطال ، الذى كانوا يحكمون فيه بكل مكان في حكومات أرستقراطية بناء على ضرب من التفوق والامتياز في طبيعتهم ، كانوا يعتقدون أنه يميزهم على العامة .
- ٣ - عصر الإنسان ، وهو الذى عرف فيه الناس أنهم جميعاً متساوون في الطبيعة البشرية ، وبناء على هذا تأسست الجمهوريات الشعبية بعد الملكيات ، وكلاهما شكل من أشكال الحكومة البشرية .

وقد مرت الشعوب كلها ، أوتمر في هذه المراحل ، ثم انزلقوا أو سينزلقون إلى حال من البربرية وعندئذ تتكرر العملية بأكملها . ويرجع هذا السريان ومعاودة السريان ، هذه الصفة الدورانية للتاريخ - إلى الطبيعة الفطرية التى ركب عاينها البشر .

وقد استقى فيكون هذا التقسيم من تاريخ مصر القديم ، ففي الدور الأول تكلم المصريون اللغة الهيروغليفية ثم اللغة الرمزية ، ثم سادت اللغة العامية للشعب وكان المصريون القدماء على علم بهذا التقسيم لتاريخهم وقد استقاه فيكون وحاول تطبيقه على جميع الأمم في كل العصور . غير أن فيكون وإن اقتبس صوره التاريخ من إحدى الحضارات الأمامية (أى من غير اليهود) فإنه يستقى مادة التاريخ من الكتاب المقدس الذى يدور التاريخ فيه حول تاريخ العبرانيين ، ومن ثم فإنه ينتقد الحضارات القديمة كالمصرية والبابلية والصينية ولا يعدها أقدم الحضارات بل يعد ذلك خرافة ، ثم يبخس من شأن هذه الحضارات فاعتقد أنهم مليئة بالضلالات ودياناتهم سحر وخرافات ، وهو لا ينتقدها في الجانب الدينى فحسب بل يقلل من شأن الجوانب الأخرى التى عرف فيها تفوق هذه الحضارات ، فليس النحت الذى عرف به المصريون إلا بدائياً ولا عبرة بعظمة الأهرام التى يمكن أن تنتج عن مرحلة بربرية .

إن أقدم الأمم لدى فيكون العبرانيون ، وإن ذكرت كتب التاريخ غير ذلك ، فلا أنهم « كانوا يعيشون في عزلة تامة ومن ثم بقوا مجهولين » كانوا لا يسكنون السواحل ولا يختلطون بالأمم الأخرى ، بل يذهب فيكون إلى أن من حاول نقل أخبار العبرانيين إلى الأممين (١) لحقته اللعنة الإلهية ، مثل تيودكت

(١) يطلق اليهود على غيرهم من البشر ، لفظ « أمى » لأنهم يعتقدون أنهم هم الناس ، وغيرهم « أمم » كلابت البشرية خلقت ظلمتهم ؟؟

الذى حرم نعمة البصر ، ويعتقد أن العنابة الإلهية قد شاعت أن تحول دون تدنس دين الله الحق باختلاط شعبه المختار مع الأجانب ! وقد قدم فيكون في المجلد الأول من كتابه « العلم الجديد » لوحة تاريخية لأهم وقائع التاريخ منذ خلق العالم مستنداً إلى النوراة ، فأبناء نوح بعد الطوفان لم يسيروا على نمط واحد فبينما حافظ أبناء سام على لغتهم وعاداتهم تشتت أبناء حام وبافت في الأرض وعاشوا عيشة أقرب إلى الحياة الحيوانية ففقدوا مزاياهم البشرية ، وأصبحوا ضخام الأجسام ، ومن ثم انقسم البشر إلى عبران من سلالة سام وإلى عمالقة من نسل يافت وحام .

شعر العمالقة بالخوف من بعض الظواهر الجوية كالبرق والرعد والصواعق ، واعتبروها غصبا من الإله فتحايلوا على إرضائه بالكهنة ، وحسبما استقرت الأسر بسبب حرفة الزراعة وملكبة الأرض أخذ العمالقة يفقدون ضخامة أجسامهم ، ولكن بعضهم بقي على تشرده وفد أصبح هؤلاء في حالة أسرهم خدماً وموالي للمزارعين من أصحاب الأراضي وبذلك نشأ نظام الرق ، وقد شكل الآباء أو الرؤساء من أصحاب الأراضي طبقة النبلاء كما شكل الخدم والعبيد طبقة الرقيق ، فتكون بذلك المجتمع الأرستقراطي ولكن لما قويت شوكة رقيق الأرض بدأ هؤلاء يحصلون على بعض المزايا فتكون النظام الديمقراطي ولكن ذلك أدى إلى الفوضى فكان أن ظهر رجل شديد البأس قبض على زمام الأمور وأعلن نفسه حاكماً مطلقاً فتأسس بذلك حكم الفرد .

ويطبق فيكون آراءه على تاريخ اليونان والرومان تم العصور الوسطى ، فيرى أن دور الأبطال لم يستمر طويلاً لدى اليونان لأن ظهور الفاسفة عجل بالانتقال من الدور الإلهي إلى الدور البشري دون أن يبتوا مدة طويلة في الدور البطولي ، على عكس ما حدث لدى الرومان ، إذ طال الدور البطولي وعندما وصلوا إلى الدور البشري كانوا قد ابتعدوا كثيراً عن الدور الإلهي .

تم عاد الناس في العصور الوسطى إلى بربرية شبيهة بالبربرية الأولى فاجتازوا دوراً إلهياً جديداً وهو الدور الذي تولى فيه الملوك المناصب الدينية ثم اجتازوا دوراً بطولياً عندما نشأت القروسية وفامت الحروب الصليبية ، أما الدور الثالث فقد بدأ في العصر الذي عاش فيه فيكون .

ويتصف التاريخ خلال هذه الأدوار بسجيتين رئيسيتين :

١ - أن الإنسانية لا تتقدم خلال أدوار التاريخ في خط مستقيم كما أن التعاقب الدوري لا يعنى أنها ترتد إلى نفس البداية بل إن مسارها في خط لولبي كما لو كانت تدور حول جبل لتصل إلى قمته ، كل دورة تعلو سابقتها ومن ثم فإن ما يبدو أنه تكرار ليس إلا موقعاً أكثر ارتفاعاً تستطيع منه الإنسانية أن ترى آفاقاً أكثر اتساعاً ، فكما ارتفعنا أكثر وأكثر في صعودنا الدائري ازدادت نظرتنا عرضاً وفكرنا شمولاً .

٢ - إن العناية الإلهية هي التي أرادت أن يكون مسار التاريخ على نحو ما هو عليه وقد استخدم (١) فيكون مصطلح « العناية » على وجهين : عناية « عامة » وعناية « خاصة » فالعناية « العامة » تعمل في

(١) للتاريخ وكيف يفسرونه : ص ١٣٩ .

التاريخ مستقرة متأصلة في جميع عمليات الطبيعة ومسيطرة على جميع الشعوب : والتاريخ — في رؤية — لا يخلقه الناس وحدهم : وذلك لأن « العناية » تنقاد أحياناً نحو غايات أخرى غير تلك التي رعى إليها الرجال . يقول فيكو : « إن الناس قاموا هم أنفسهم بصنع عالم الأمم الذي نحن بين ظهرانيه . . . ولكن هذا العالم قد صدر دون ريب عن « قوة عاقلة » أو « عقل » كثيراً ما تختلف ، كما أنها تكون في بعض الأحيان مناقضة تماماً ومتسامية على الدوام ، على الغايات الخاصة التي قدرها الناس لأنفسهم ، وهي غايات ضيقة ، إذ اتخذت وسيلة لخدمة غايات أوسع فإن العناية استخدمتها على الدوام لحفظ الجنس البشري على الأرض » وتسيطر « العناية » على الناس بوساطة ما لهم من غايات خاصة ، وتفعل ذلك بطريقة « متسامية » عليهم ، وهو أمر يتجلى في حقائق التاريخ التي تفند كلا من اعتقاد الأبيقوريين في الصدفة ، واتباع الرواقيين في القضاء والقدر . ومع أن التاريخ يرجع بدرجة جزئية إلى حرية الناس في الاختيار ، فإن تلك الحرية لا تمارس إلا داخل الحدود التي تسمح بها « العناية » .

فإن كان التاريخ شيئاً آخر يختلف عن غايات الناس الخاصة ، ويسمو عليها — فما هو ذلك الشيء الآخر ؟ لا شك أن المرء منا يرجو أن يصل في الإجابة عن هذا السؤال إلى الفكرة الأساسية لتفسير فيكو للتاريخ : ولكن الإشارة الوحيدة إلى إجابة في كتابه ، إنما هي عبارة من الواضح أنها أفلاطونية الطابع ، تكررت في مناسبات عديدة ، دون أن يقوم المؤلف بتفسيرها ، ونصها كالتالي : « تاريخ أبدي مثالي . . . تحرك مجراه في الزمان : . . . تواريخ جميع الأمم » .

وكل ما أشار إليه فيكو من التاريخ الأبدي « المثالي إنما هو الخصائص الجوهرية للتاريخ العام للأمم » كما يكتشف بطريقة التجربة في أثناء طريق مسيرهم على الزمان : . وتحدث فيكو عن « العناية الخاصة » فقال إن الخيال الوحيد الذي يستطيع فيه الإنسان التحدث عن « العناية الخاصة » هو التاريخ المقدس . ورغم ذلك ، فإن فيكو لم يوجه أى التفات خاص بين العلاقة بين « العناية العامة » و « العناية الخاصة » فكلاهما تعبير عن الذكاء ، فالذكاء في أولاهما مداره قوانين الطبيعة وعمليات التاريخ الطبيعية المرتبة أجود ترتيب ، والذكاء في ثانيتهما سلط على ما يفود الناس إلى أعلى طراز للحياة .

وبينما نراه يصرح بأنه حتى أشد الناس توحشاً وضرارة وفضاعة ، لديه بعض فكرة عن « الله » وأن الأدبان وحدها هي التي أوتيت القدرة على دفع الشعوب إلى القيام بأعمال تتصف بالفضائل — إذاً هو يقول : « إن ديانتنا المسيحية صادقة . . . أما كل ما عداها فزائف » والتاريخ المقدس يرجع إلى « النعمة الإلهية » ، وهي ناحية من « العناية الخاصة » أو صورة مطابقة لها .

إن فيكو لم يبحث العلاقة بين « العناية العامة » و « العناية الخاصة » ، فإنه باعترافه بها يدل ضمناً على معارضة قاطعة لأى رأى يقصر نسبة نشاط الله في التاريخ على عمليات « الطبيعة » المرتبة ، « فالعناية لا تشغل فحسب بما يتكون منه العالم الفيزيائى الذى يجعل التاريخ ممكناً ، ولكنها تهتم أيضاً بصفة التاريخ نفسه بوصفه منظوياً على مثل أعلى للحياة يتخذها الناس . وقد تدخلت العناية الإلهية في المجال السياسى ، إذ تناقش العوام مع الخواص في التقوى والتهنئة ونحوه الشعب للدين مما أدى به إلى الاشتراك في السلطة

المدنية والحكومات الشعبية ، ولكن لما كانت الحكومات الديمقراطية تستند إلى الانتخابات فإن العناية الإلهية قد حالت دون سيطرة الصدفة عليها فكان حق التصويت مقيداً بمقدار من التروة ، وأن يعتبر النشطين والمنتصرين والكرماء أليق بالحكم من الخاملين والمسرفين والمعوزين ، فالأغنياء المنضلاء أليق بالحكم من الفقراء الفاسدين ، ولكن المواطنين جعلوا التروة وسيلة لتدعيم الساطة لهم فكانت تورات وحروب أهلية أدت إلى فوضى عامة ، حينئذ تتدخل العناية الإلهية بأحدى وسائل العلاج الثلاثة الآتية : --

- ١ - أن يظهر بين أفراد الشعب بطل مثل أوغسطس مؤسس الملكية ويضع حداً للفوضى .
- ٢ - إذا تعذر هذا العلاج من الداخل أتت به العناية الإلهية من الخارج في صورة شعب أفضل يسئول بقوة السلاح :

٣ - إذا لم يحدث أحد هذين الأمرين واستمرت الفوضى طمعت العناية الإلهية دواءها الأخير : الغناء .

ظاهر أن الأفكار الرئيسية في هذه المسلمات مستقاة من العهد القديم ، الأمر الذي جعل آراء بعيدة عن الروح العلمية ، على عكس ابن خلدون الذي عرض لقصة من الكتاب الكريم أضنى عليها تفسيراً علمياً لتتسق مع سياق رائه ، من ذلك مثلاً عقاب بنى إسرائيل بالتيه في صحراء سيناء أربعين عاماً بعد أن رفضوا دعوة موسى لهم إلى فتح الأرض المقدسة ، فذهب ابن خلدون إلى أن الحيل الذي كان مع موسى من بنى إسرائيل قد اعتاد حياة الدعة والترف في مدن مصر ، كما خضع لامل والقهر من فرعون . ومدته أربعون سنة هي المدة اللازمة لفناء هذا الجيل ونشأة جيل جديد في قفار سيناء لا يعرف إلا حياة الشظف والخشونة فتقوى فيهم العصبية التي تمكنهم من المطالبة والتغلب .

وخلاصة القول إن الأفكار الرئيسية في فلسفة فيكو تعوزها الروح العلمية كما أن تقييمه للحضارات القديمة يشوبه التعصب الديني ، وليس ذلك مما ينتقص من نظريته فحسب بل إنه إذا تعرضت قصص العهد القديم للنقد التاريخي كما حدث في عصر التنوير ، فانه يلزم عن هذا إنهيار الأفكار الرئيسية في فلسفته ، إن الالتزام بقصص العهد القديم في فلسفة التاريخ يفرض على المؤرخ أو المفكر قيلاً يشده نحو اللاهوت بقدر ما يبعده عن العلم : وإن أية نظرية في فلسفة التاريخ لن تتصف بالعلمية حتى تنحرر تماماً من تقييم العهد القديم للحضارات القديمة العريقة من جهة وحضارة العبرانيين من (١) جهة أخرى .

* * *

مراجع هذا البحث

١ - الكتب : حسب ورودها في البحث :

- » ميشيل روزيه : حياة جوليو كوري ، ترجمة فؤاد حداد .
- » Cresay Morrison : Man Does not stand alone .
- » ول ديورانت : مباحث الفلسفة ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني .
- » ول ديورانت : قصة الحضارة .
- » بحيل سبيل : طاعور .
- » أ . كريس موريسون : العلم يدعو الإيمان ترجمة محمود صالح الفلكي .
- » عبد الحميد حوده السحار : محمد رسول الله والذين معه .
- » أولوف أومان وهرمان وانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ، ترجمة د . عبد المنعم أبو بكر ، ومحمد كمال .
- » محمد عبد الغفار الهاشمي : محمد رسول الله في بشارات الأنبياء .
- » ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل .
- » جوستاف جرونديهاوم : حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .
- » طه عبد الباقي سرور : إقبال شاعر الحرية والكفاح .
- » زيجريد هوتكه : شمس الله على العرب ، ترجمة الدكتور فؤاد حسين علي .
- » ألبرت شفيترز : فلسفة الحضارة ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي .
- » أبو الحسن البدوي : ماذا خسر العالم بالانحطاط المسلمين .
- » جون مينودورت شمل : بحث في الحرية ترجمة دار الیقظة العربية - بيروت .
- » شامضرات أرنولد توينبي في مصر (١٩٦١) كتب تفاعلية .
- » الدكتور قسطنطين زريق : نحن والتاريخ .
- » هرثو : علم التاريخ ترجمة عبد الحميد البهاوي .
- » ألبان ج . ويد جري : التاريخ وكيف يفسرونه ، ترجمة عبد العزيز جاويد .
- » أ . ج . إيفانز : هيروdot ، ترجمة أمين سلامة .
- » Froud : Three contributions of the sexual theory .
- » أوسين جينجز : فن الزعامة ، ترجمة سلوى حافظ وروبييه فاجي .
- » إدوارد كار : ما هو التاريخ ؟ ترجمة أحمد حمدي محمود .
- » كارلايل : الأبطال ، ترجمة محمد السباعي .
- » فؤاد محمد شبل : مباحث توينبي التاريخي .

المشكلة اليهودية العالمية

دور مصر في تكوين الحضارة

- * الدكتور أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ .
- * الدكتور عبد الرحمن يدوي : شنجلر .
- * أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : الطب الروحاني .
- * ابن خلدون : المقدمة .
- * محمد صدق الجبائني : الفن والقومية العربية .
- * محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام ترجمة عباس محمود .
- * الكسيس كاريل : الإنسان ذاك المجهول ، ترجمة شفيق أسعد فريد .
- * عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي .

فلسفة ابن خلدون

- * الدكتور علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون .
- * ساطع المصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون .
- * Jaisren : Hegel's Philosophy of History .
- * و. و. وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ، ترجمة أحمد حمدي محمود .
- * إيسيا برلين : كارل ماركس ، ترجمة عبد الكريم أحمد .
- * Benedetto Croce : what is living and what is Dead of the Philosophy of Hegel .
- * ج. ج. كول : تاريخ الفكر الاشتراكي (الرواد الأول) ، ترجمة عبد الكريم أحمد .
- * عباس محمود العقاد : الشيوعية والإنسانية .

الفلسفة القرآنية

الله

أثر العرب في الحضارة الأوروبية

- * زاهر عزب الزغي : الإسلام ضرورة عالمية .
- * هارولد لاسكي : الشيوعية .
- * Fundamentals and Marxism - Leninism .
- * عبد الحميد صديق : تفسير التاريخ ، ترجمة كاظم الجوازي .
- * كرين برنتن : أفكار ورجال ، ترجمة محمود محمود .
- * حبيب سعيد : أعلام الفكر الأوربي .

أديان العالم

- * محمود الشرقاوي : مواقف حاسمة في تاريخ محمد بن عبد الله .
- الدين والدولة العصرية

الأنبياء في القرآن الكريم العدالة الاجتماعية عند العرب

Alexander Gray : The Development of Economic Doctrine .

- * جوستاف لوبون : سر تطور الأمم ، ترجمة أحمد فحى زغلول .
- * فوسنيل دى كولنج : المدنية العتيقة ، ترجمة عباس بيوى وعبد الحميد الدواحل .
- * الدكتور أحمد عبد القادر الجبال : مقدمة فى أصول النظم الاجتماعيه .
- * جوسناب لوبون : الحضارة المصرية ، ترجمة م . صادق رستم .
- * جيمس هنرى برستيد : فجر الضمير ، ترجمة الدكتور سليم حسن .
- * روجيه باستيد : مبادئ عام الإجتماع الدينى ، ترجمة الدكتور محمود فاسم .
- * الدكتور عبد المنعم أبو بكر : أخنائون .
- * ج . برستيد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، ترجمة الدكتور حسن كمال .
- * سبينو موسكات : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر .
- * ل . ويلايورت : بلاد ما بين النهرين ، ترجمة محرم كمال .
- * على أدهم : هداة الإنسانية فى الشرق .
- * أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة .
- * الدكتور مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية .
- * محمود شلوت : الإسلام عفيدة شريعة .

منهج القرآن فى بناء المجتمع

الفتاوى

- * توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم .
- * دكربا هاشم زكريا : المنشرفون والإسلام .
- * الدكتور إسماعيل راجى الفاروق : أصول الصهيونية فى الدين اليهودى .
- * الدكتور عبد الوهاب المسيرى : نهاية التاريخ ، مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيونى .

H. G., Wells : A short History of the world, teaching of Jesus .

- * رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى : المسيح ومتكالات العصر .
- * محمد أبو زهرة : محاصرات فى النصرانية .
- * هارولد لاسكى : العقل والإيمان والمدنية .
- * ر. ح . كولنجورد : فكر التاريخ ترجمة محمد بكير خليل .
- * فرائز روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح أحمد المل .
- * الدكتور محمد الهبى : الدين والحضارة والإنسانية .
- * محمد خلف الله : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة .

- * محمد عزة دروزة : الدستور القرآني .
- * محمد عبده : تفسير جزء عم .
- * طاهر الطناسي : رسالة التوحيد .
- * عبد المنعم محمد خلافت : المذقية الإسلامية وأبعادها .
- * الدكتور عيسى عبده إبراهيم : الإسلام والاشتراكية .
- * الدكتور واثق البراوي : التفسير القرآني للتاريخ .
- * محمد مصطفى المراغي : حديث رمضان .
- * محمد محمد المدني : المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء .
- * الدكتور محمد شوقي الفنجري : المدخل إلى الاقتصاد الإسلامي .
- * الدكتور محمد فهمي لميطة : علم الاقتصاد .
- * الدكتور محمد جمال الدين الفندي : التكون بين العلم والدين .
- * مولاي محمد علي : الإسلام والنظام العالمي ، ترجمة أحمد جوده المسحار .
- * أنور الجندي : الإسلام وحركة التاريخ .
- * مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ، ترجمة عبد الصبور شاهين .

٢ - دوائر معارف ودوريات :

- * دائرة معارف الشعب .
- * موسوعة الخلايل الاشتراكية .
- * وزارة التعليم العالي : تاريخ العالم .
- * وزارة الثقافة والإرشاد القومي : تاريخ الحضارة المصرية .
- * مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق .
- * القرآن الكريم .
- * الكتاب المقدس .
- * كتب التفسير : تفسير ابن كثير .
- * تفسير المنار .
- * كتب الحديث : صحيح البخاري .
- * صحيح مسلم .



الثقافة والعلوم الإسلامية لكل الشعب

التفكير الديني للتاريخ

الجزء الثاني

.. النظرية الإحيائية للتاريخ
.. فلسفة هيغل .. للتاريخ

الفصل الثاني

النظرية الاحيائية للتاريخ

« لكل شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ،

فبقدر عقله تكون عبادته »

« حديث شريف »

يعتقد بعض الكتاب^(١) أن للحضارات أطواراً من العمر تمر بها تشبه أطوار العمر التي يمر بها الإنسان ،
فهناك طور الطفولة والفتوة والشباب والكهولة والفتناء - على هذا النحو - مع اختلاف يسير - سار تاريخ

« ١ » يرى المفكر والميسوف الألماني أزولد شينجلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦) - أن تاريخ الحضارة كتاريخ أي
كائن حي - إنساناً أو حيواناً أو نباتاً - فكما أن للكائن الحي دورة حياة كذلك الحضارة الظاهرة الأولية للتاريخ العالمي
كله ما كان منه وما سيكون دورة حياة :

١ - تاريخ العالم يشمل ثمان حضارات على الأقل هي : المصرية (٣٤٠٠ - ١٢٠٥ ق.م) - الهندية (١٥٠٠ - ١١٠٠ ق.م)
الصينية (١٣٠٠ - ٢٠٠ ق.م) الكلاسيكية (اليونانية رومانية ١١٠٠ - ٤٠٠ ق.م) الإسلامية (٧٠٠ - ١٢٥٠ م)
الغربية (٩٠٠ - ٢٤٠٠ م) كما يحدد شينجلر عمرها .

وكل حضارة منها قد اتخذت دورة نمو ثم شباب ونضج ثم شيخوخة ، أعقبها فناء . ومنهج شينجلر في دراسة التاريخ هو :
١ - إن الحضارة هي وحدة الدراسة التاريخية أو الظاهرة الأولية للتاريخ العالمي كله ما كان منه وما سيكون ، لأن الحضارة ظاهرة
روحية لجماعة من الناس لها تصور واحد عن العالم وتتلور وحدة تصورها في مظاهر حضارية من فن ودين وفلسفة وسياسة
وعلم ، وتشكل هذه الوحدة شخصية حضارية لها خصائصها الذاتية ومن ثم لا تتأثر حضارتان .

٢ - وإذا كانت لكل حضارة شخصيتها وخصائصها الذاتية فهذا يتضمن أنها مغلقة وليست ووحاً مطلقة فهذه لا تعبر عن مساره ،
ولنما يعبر عن مساره التعاقب الدوري للحضارات ، إذ يتوالى على كل حضارة ما يتوالى على أي كائن عضوي حي من ولادة ونمو
وشيوخة وفناء .

ولكل حضارة فلسفتها وخصائصها كما أن لها حياتها المحدودة التي لا بد أن تنتهي ، وكما أن الفرد يقف ولكن النوع يبقى كذلك
من المحم على كل حضارة أن يموت ولا يقاء إلا للإنسانية المثلثة لمجموع الحضارات ، وليس التاريخ العام إلا ترجمة حياة هذه
الحضارات . وإذا كانت مفاهيم الميلاد والفتوة والشيخوخة والوفاة تسرى على كل موجود عضوي كذلك هي بالنسبة لكل حضارة
وبذلك يتكون تاريخ العالم من وضع الحضارات العالمية معها إلى جانب الأخرى مستلثة بعضها عن بعض بوصف كل منها ظاهرة مغلقة
على ذاتها تجسم روح الحضارة وتعبر عنها .

٣ - وبالرغم من الخصائص الذاتية لكل حضارة فإن المظاهر التي تكشف عنها الحضارة الواحدة تناظر تلك التي تكشف عنها سائر
الحضارات وليس التناظر أو التوازي الزمى أو التعاصر الفلسفى مجرد شبه سطحي فكثير من المؤرخين يمدون أوجه الشبه بين
الاسكندر و نابليون ولكن في ذلك تجاهلا لاختلاف الشخصيات العظيمة المتناظرة إذ أن كلا يمثل في مجرى حياته مسار حياة الحضارة
التي يمثلها . وإما تعد حادثتان تاريخيتان متعاصرتين إذا كان كل في حضارته الخاصة يقوم بنفس الدور ويؤدي نفس الوظيفة لمناظره
في الحضارة الأخرى ، ويميز شينجلر بين التماثل القائم على مجرد التشابه السطحي وبين التوافق الذي يدل
على التساوي النسبي في الهيئة والتركيب والوظيفة ، ففي الحيوانات الفقيرة ، من الإنسان إلى الأسماك ، كل جزء من أجزاء
الجسم في أحد أنواعها مناظر لما في الأنواع الأخرى - الرثة والخيائشيم مثلا - ولما كان التاريخ يخضع للتفسير البيولوجي ، فإن
التوافق أدق وأعمق من التشابه ، ومن ثم فإن فيثاغورس وديكارت متناظران ، والاسكندرية وبغداد متعاصرتان بالنسبة للحضارة
اليونانية والحضارة الإسلامية إذ أن دورهما في كل من الحضارتين متوافق متناظر بل ومتعاصر في طور كل منهما ، ويمكن =

حياة بابل وآشور ومصر واليونان وشبه جزيرة العرب ، وفي التاريخ أمثلة عمدة تدل على أن موجات متعاقبة لا نهاية لها من الحضارات الإنسانية قد قامت في الأزمنة الطويلة وارتقت رقياً عظيماً وانتعشت في ظروف زاهرة على الحياة ، ثم انكمشت وتلاشت ، وصار سطح الزمن مرة أخرى في صحراء نائمة .

ويستنتج من ذلك أن جميع الحضارات قد بلغت ذروتها يوماً ما ، ثم تهاوت في ظلام العدم ، ولذا فالحديث عن أمر إحيائها إنما هو مثل الحديث عن إعادة أيام شباب شخص ما ، وهو أمر لا يمكن حدوثه إلا في الأحلام .

إن تحليل هذه النظرية تحليلاً علمياً دقيقاً يوضح أن الذين يضعون مثل هذه النظريات لا يعنون بالحضارة غير المظهر الخارجى لمستوى الرقى الذى استطاعت أن تبلغه أمة من الأمم ، فهم لا ينفذون إلى

== تطبيق منهج التناظر الزمنى أو التعاصر على كل الظواهر الفنية والمدنية والعلمية والسياسية والاقتصادية في جميع الحضارات في أحوار نشأتها وازدهارها وتدهورها وفنائها طالما أن التركيب الباطنى متوافق في كل الحضارات ، فلقد اختارت كل حضارة طابعاً معيناً في الفن تعبر به عن روحها وشخصيتها ، إنه في حضارة مادية تنصور اللا محدود محدوداً واللامتناهى متناهياً وتجسم الروح تجسماً مادياً . عبر اليونان عن آلهتهم بصورة مجردة محدودة في النحت الذى يمثل النجس والتحديد . أما الحضارة الإسلامية فقد استبعدت النحت والتصوير لأنهما لا يلائمان روحها المجردة ، وإنما عبر المسلم عن عقيدته بالزخرفة لأنها خطوط فيها جانب التجريد والمفارقة للجسمية والمادة ، أما الحضارة الأوروبية فبعد الفن التعبيرى معبراً عن خصائصها ، فالموسيقى لغة عالمية تعبر عن عالمية المسيحية ، والموسيقى تعبر عن اللامتناهى لأن إله المسيحية لامتناه . والموسيقى لغة الروح لأن إله المسيحية روح لا جسم . .

وهكذا اختارت الحضارة اليونانية الفن التشكلى أو النحت بينما عبر الفن الزخرفى أو الأرابيسك عن روح الحضارة الإسلامية كما أصبح الفن التعبيرى ممثلاً في الموسيقى قمة الفنون في الحضارة الأوروبية ، وهكذا أيضاً جميع مظاهر الحضارة الأخرى متعاصرة بين جميع الحضارات في نشأتها وتطورها وفنائها بحيث لا توجد ظاهرة واحدة ذات قيمة عميقة في حضارة ما دون أن يوجد ما يناظرها تماماً في غيرها من الحضارات . فالبودية الهندية والروايفية الرومانية متعاصرتان ، كذلك كان انتقال الحضارة اليونانية إلى دور المدنية في عصر فيليب المقدونى وابنه الاسكندر ، وكان هذا الدور في الحضارة الغربية في عصر التنوير الفرنسية و نابليون . ولكن ما قيمة هذه المقارنة بين الحضارات ؟ وما أهمية التعرف على المظاهر المتعاصرة فيما بينها .

١ - سيكون في استطاعتنا أن نستعيد تركيب عصور مرت ولم نعلم عنها شيئاً ، إن إعادة تركيب الماضى على هذا النحو يكشف عما صجزت الآثار والوثائق الكشف عنه .

٢ - يمكن بمنهج التعاصر التعرف على إيقاع التاريخ ومساره ومغزاه ومن ثم يمكن أن نتجاوز حدود الحاضر للتنبؤ بالمستقبل تنبؤاً علمياً دقيقاً والتعرف عما ستكون عليه الأدوار القادمة للحضارة الأوروبية بعد أن أمكن تتبع سباق تطورها ومسارها .

٣ - لا تبدو الأحداث التاريخية بذلك مفاجئة لنا فلبست الحرب العالمية الأولى حادئاً استثنائياً ولدت زعزعات السيطرة والسيادة لدى بعض الأمم أو الأفراد ، ولا تفسر في ضوء العوامل الاقتصادية وحدها إنما تمثل بذلك نقلة تحول في الحضارة الأوروبية فتناظر الانتقال من العصر الهليني إلى العصر الرومانى .

(د . عبد الرحمن بدوى - شينجلر ، د . أحمد محمود صبحى : في فلسفة التاريخ) .

الجوهر بل يركزون انتباههم على المظهر الخارجى ولا يدركون أن هذا الذى يبدو أمام أعينهم قد حدث نتيجة لدافع داخلى يفيض فى صدور البشر ، فالصواريخ المنطلقة ، والأقمار الصناعية ، والتلفزيون ليست فى حد ذاتها حضارة ولكنها علامات على تقدم الإنسان فى عالم العلم ، فهى لا تدل إلا على أن الإنسان يسعى للسيطرة على الطبيعة فمكان الحضارة التى هو عقل الإنسان - الذى هو مصدر كل ما يقوم به الإنسان من عمل - لا العالم المادى .

وقد أحل القرآن المجيد العقل منزلاً سامياً وجعله نوراً يهتدى به الناس ، وطالبهم باستعماله والتحاكم إليه وسماه نوراً فى قوله جل شأنه :

« الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة » (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم :

— « لكل شئ دعة ، ودعة المؤمن عقله ، فيقدر عقله تكون عبادته » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

— « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله » .

وفى كتاب « الطب الروحاني » لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى ، يتجلى مفهوم العقل ومقامه عند علماء العرب ، فى الفصل الأول : فى فضل العقل ومدحه :

قال العلامة الرازى :

« إن البارئ عز اسمه إنما أعطانا العقل وحبانا به لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما فى جوهر مثلنا نيله وبلوغه . وإنه أعظم نعم الله عندنا وأنفع الأشياء لنا وأجلها علينا » .

فبالعقل فضلنا على الحيوان غير الناطق حتى ملكناها وسسناها وذللتنا وصرفناها فى الوجوه العائدة منافعها علينا وعليها . وبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا ، ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل به إلى بغيتنا ومرادنا فانا بالعقل أدركنا صناعة السفن واستعمالها حتى وصلنا بها إلى ما قطع وحال البحر دوننا ودونه . وبه نلنا صناعة الطب الذى فيه الكثير من مصالح أجسادنا وسائر الصناعات العائدة علينا النافعة لنا .

وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة منا المستورة عنا ، وبه عرفنا شكل الأرض والفلك ، وعظم الشمس

والقمر ، وسائر الكواكب وأبجاده وحركاتها ، وبه وصلنا إلى معرفة البارئ عز وجل الذي هو أعظم ما استندوكنا وأنفع ما أصبنا . »

وبالجملة فانه الشئ الذي لولاه كانت حياتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين ، والذي به نتصور أفعالنا العقلية قبل ظهورها للحس فنراها كأن قد أحسستها ، ثم نتمثل بأفعالنا الحسية صورها فتظهر مطابقة لما تمثلناه وتخيّلنا منها .

وإذا كان هذا مقداره ومحلّه وخطره وجلالته ، فحقيق علينا أن لا نخطه عن رتبته ولا ننزله عن هرجته ، ولا نجعله وهو الحاكم محكوماً عليه ، ولا وهو الزمام مذموماً ، ولا وهو المتبوع تابعاً ، بل نرجع في الأمور إليه ، ونعتبرها به ، ونعتمد فيها عليه ، فنمضيها على أمضائه ، ونوقفها على إيقافه . ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفته ومكدره ، والحائد به عن سنته ومحجته ، وقصده واستقامته ، والمانع من أن يصيب به العاقل رشده وما فيه صلاح عواقب أمره ، بل نروضه ونذله ونحمله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه ، فإذا فعلنا ذلك صفّا لنا غاية صفائه ، وأضياء لنا غاية إضاءته ، وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنا به ، وكنا سعداء بما وهب الله لنا منه ومن علينا به . »

إن الحضارة — كما عرفها ابن خلدون — أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه — لين العيش — وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر^(١) ، وعرفها المؤرخ ول ديورانت بأنها : « نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي^(٢) » ونحن إذا درسنا بليان المجتمع الحديث دراسة علمية ، لوجدنا أنه أقيم على أساس «مادى تجريبي لاديني دنيوى» وأن حضارته مبنية على هذه القيمة الجديدة التي أصبحت بمثابة مبدأ وشيد كيانه كله حولها .

ولكل حضارة روحاً خاصة بها تظهر في الوجوه العديدة للمدنية ، وهذه الروح يمكن أن تضعف ولكنها لا يمكن أن تموت ، والمدنيات تولد وبعد وقت طويل أو قصير تندثر ، ولكن روح الحضارة تتسربل بثوب مدنية أخرى ثم تمد رواقها على العالم كله .

يقول المؤرخ ول ديورانت :

« إن الحضارة تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع ، وعوامل الإبداع والإنشاء ، وحينئذ لا تنفك الخوافر الطبيعية تستهضه للمضى في طريقه إلى فهم الحياة وإزدهارها » .

(١) مقدمة ابن خلدون ، فصل إن الحضارة في الأمصار من قبل الدول .

(٢) مقدمة قصة الحضارة ج ١ ، ص ٣ .

ونبدأ فى تحليل دورة الحضارة ، بدراسة الفنون الجميلة ، ونظام الحقيقة والأخلاق والقانون .
إن الفن هو لسان الحياة ، والدليل المعبر عنها ، فأينما وجد الإنسان على سطح الأرض وجد الفن معه .
وللفنون صنوف ، ولها مظاهر متنوعة ، وقد بدأت أول الأمر لتسد حاجة الإنسان فى حياته المعيشية ،
ثم تطورت لتؤدى دورها فى تربية الذوق الرفيع ، وإشاعة البهجة فى النفوس إلى أن أصبحت ضرورياً من
التعبير الروحى والوجدانى والعقلى ، لتنظيم العلاقة بين الناس بما يكفل الكمال والانسجام بينهم^(١) .

والفن نوعان : الدينى - والمادى الحسى .

والفن الدينى فى محتواه ونوعه يقرر الفرضية الرئيسية فى الحضارة الإلهية « وهى أن القيمة الصادقة
فى الحقيقة هى الله ، وهى تعتبر الإنسان خليفة الله فى الأرض ، لذا فهى تؤكد على الجانب النهيلى فى الإنسان
فهو يمثل كل ما هو شريف وجميل . .

أما الفن المادى الحسى فلا يمثل إلا الحواس ، ويستهدف دغدغة غرائز الناس وصرفهم عن التفكير
المجدى فى أمور حياتهم إلى نوع من الأحلام المريضة .

وحينما ذهبت الحضارة المادية تبعها فنونها الجميلة ، وكل الشعوب التى نمت عندها النظرة المادية
للحياة نمت فيها بنفس الشكل ، لذلك كان هذا الفن الشكل السائد من الفن عند إنسان أوائل العصر الحجري
المتوسط لكثير من القبائل البدائية كقبائل بشمان الإفريقية ،

أما الفن الدينى الذى يمكن أن نطلق عليه اسم « الفن المعبر عن فكرة » فكان قد غلب فى فترات معينة
من الزمن على فن حضارة التبت والحضارة المصرية القديمة .

ونحن إذا أنعمنا النظر فى الديانات البدائية على وجه الإجمال ، لتعذر علينا فى الواقع أن نميز
بين ما ينبغى أن ننسب فيها إلى الفن ، وما ينبغى أن ننسب إلى الدين . ذلك أن هذه الديانات
لا تتبدى شعائرها للعيان إلا فى صورة رقصات وأغان ونقرات على الطبول ، وأقنعة تغطى الوجوه ،
ورسوم وتمائيل تسكنها الآلهة أو أرواحها . وغالباً ما يكون الكاهن أو الساحر هو نفسه الفنان الذى
يبتدع هذه الرقصات والأغاني ، ويضع هذه الأقنعة والتماثيل والرسوم . وهناك ما يحمل على الاعتقاد
أن كبار الكهنة فى مصر القديمة كانوا هم أيضاً فى الوقت نفسه أساتذة الفن وأساطينه ، إذ من الثابت
مثلاً أن رئيس كهنة منف فى عهد الدولة القديمة كان يعد رئيساً أعلى لرجال الفن وأغلب الظن أنه كان
يمارس بالفعل هذه الصناعة .

(١) محمد صدق الجياخنى : الفن والقومية العربية ، ص ٥ .

وقد كان الإله « بتاح » رب منف يعد بمثابة الفنان بين الآلهة المصرية ، فلا غرو أن كان قد تحتم على رئيس كهنة هذا الإله أن يكون كبير الفنانين في عصره (١) وقد تأثرت الفنون المختلفة في البيئات الإسلامية بخصائص مستمدة من التعاليم الإسلامية ، وارتقت الموسيقى الغربية والغناء داخل الكنائس في أوروبا .

إن الفنون الجميلة مهما اختلفت عند الشعوب البدائية والمتقدمة ، فإنها كلها تعرض للناس مجموعة من المميزات الداخلية والخارجية المتشابهة حين تكون كلها منتمة إلى نفس النوع . وهذه الحقائق تعنى أن غلبة هذا الشكل أو ذلك في الفنون الجميلة ليس قضية وجود المهارة الفنية أو فقدانها ، وإنما هو نتيجة للنظرة الخاصة التي يتخذها كل شعب من زمن إلى آخر .

وهذا هو الحال أيضاً مع نظام الحقيقة والمعرفة ، فأى نظام للحقيقة والواقع المحسوسين يعنى إنكار أية حقيقة أو قيمة فوق الطاقة الحسية ، أو النظر إليها نظرة عدم مبالاة تامة .

إن الثقافة المادية تعتبر البحث في طبيعة الله ، وفي كل ظاهرة تسمو على الحس ضرباً من الخرافة أو دراسة عقيمة ، وإذا كان لابد من اتباع للدين فللغايات الدنيوية فقط .

إن نظام الحقيقة هذا يدعو بقوة إلى دراسة العالم المحسوس بخواصه وعلاقاته الفيزيائية والكميائية والاحيائية وقد ركزت فيه كل مطامح الفكر على دراسة هذه الظواهر المحسوسة في ماديتها وما يلحظ من علاقاتها ، والمخترعات الصناعية الفنية التي تهدف إلى خدمة حاجتنا المادية الحسية .

إن المعيار الوحيد في النظرية المادية بين الصواب والخطأ والفضيلة والرذيلة هو إما المنفعة الحسية أو الملذات الحسية ، في حين نجد الدين يؤمن بالقيم الخلقية التي تمثل أهدافاً . وهو نظام مبني على الوحي والإلهام الإلهي ولذلك فهو يعتبر موثوقاً ومطلقاً . ومن ثم فإن الدين ، وهو يشهد الحقيقة بوصفها كلاً لا يتجزأ — ولهذا يجب أن يتخذ له مكاناً مركزياً في أى تركيب من موضوعات التجارب الإنسانية جمعاء — لم يكن ليعشى أى رأى من الآراء الجزئية عن الحقيقة (٢) .

إن الدين هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصري إعداداً خلقياً يؤهله لتحمل الشعة العظمى التي لابد من أن يتممخص عنها تقدم العلم الحديث ، وأن يرد إليه تلك النزعة من الإيمان التي تجعله قادراً على التفرغ بشخصيته في الحياة الدنيا ، والإحتفاظ بها في دار البقاء . إن السمو إلى مستوى جديدي في فهم الإنسان

(١) رمسيس يونان : دائرة معارف الشعب ، مادة نشأة الفن المصرى القديم ، ص ٤٧٢ .

(٢) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى في الإسلام ، ص ٥٢ .

لأصله والمستقبله من أين جاء؟ وإلى أين المصير؟ هو وحده الذى يكفل له آخر الأمر الفوز على مجتمع يحركه تنافس وحشى ، وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية بما أنطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية . والدين من حيث هو سعى الإنسان سعياً مقصوداً للوصول إلى الغاية النهائية للقيم ، فيستطيع بذلك أن يعيد تفسير قوى شخصيته - هو حقيقة لا يمكن إنكارها (١) .

إن الحركات الدورية فى مجال الفن والأدب والعلم والفلسفة والدين برهان كاف على أنه بالرغم من أن تغيرات عدة قد حدثت فى مدن العالم ، وأن المدن تنشأ وتنهـار فإن الحضارة التى هى روح المدنية قد تكررت فى التاريخ مرات كثيرة ، والمدن المتعاقبة التى حلت فيها هذه الروح قد انتجت نفس النوع من الفلسفة والدين فى المراحل المختلفة من تاريخ البشرية .

قد يكون هناك بعض التباين بسبب الاختلاف فى البيئات الطبيعية التى تولد فيها كل مدنية ، ولكن التيار الذى يسير المدنية يبقى نفسه ، فالمظهر الذى تتخلده الحضارة المادية مدنى حشى سواء كانت الفترة هى القرن الخامس أم القرن العشرين ، وسواء كانت البلاد بلاد العرب أم إنجلترا أم الولايات المتحدة الأمريكية .

إن صرح المدنية الحديثة الباهرة يجعل الإنسان يستنتج أحياناً أن البشرية لم تكن يوماً ما بقادرة على أن تحقق هذا التقدم الكبير فى مجال الفن والأدب والعلم . ولكن صفحات التاريخ حافلة بالشواهد على أنه قد ظهرت فى هذا العالم مدن كثيرة أكثر روعة فى مظهرها من المدنية الغربية الموجودة اليوم .

وتخبرنا التاريخ أن أول من مثل هذه الحضارة هم قوم عاد وكانوا يسكنون الأحقاف فى شمال حـضر موت وغربى عمان بالجزيرة العربية ، وكانوا أمة ذات قوة وبطش ، وأصحاب زرع وضرع ، وزادهم الله بسطة فى الجسم والمال . وكانوا أصحاب حضارة مادية محضة ؛ انهـارت وتبددت ، وأعقب انهيارهم ظهور شعب آخرهم تمود وكانت مساكنهم بالحجر بين الحجاز والشام إلى جهة وادى القرى ، وآثار مدائنهم باقية إلى اليوم .

وكانت لهم حضارة سامقة ، ولكنها مادية تماماً ، ولم يكن خيالهم يتسع قليلاً لأن يفكر فى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى ، لذلك فقد كان نشاط هؤلاء القوم وعملهم موجهاً نحو الحصول على وسائل الترفـة الدنيوى فبادت حضارتهم .

(١) المصدر نفسه : ص ٢١٧ .

وكانت حضارة الرومان ، حضارة مادية حسية ، وقد سمح النظام الاقتصادى المجائر الذى كان سائداً فى ذلك العصر بأن تعيش قلة من الشعب فى ترف شديد ، على حساب الجماهير التى تكسح لتوفير أسباب الرفاهية للسادة ، وكانت أية محاولة للقيام بالثورة ضد هذا النظام أو لتحقيق العدل والمساواة تقابل بالقمع ، وقد أنهارت هذه الحضارة كما ينهار بيت العنكبوت .

وتقوم الحضارة الأوربية اليوم على أساس مادى صرف ، قال الرئيس الأمريكى الأسبق روزفلت : « إن الشعوب والأمم البريئة يضجى بها الآن بقسوه لإشباعا لمطامع السلطان والسيادة الحالية من كل معنى من معانى العدالة والرحمة الإنسانية » .

إن الملذات الحسية ووسائل الراحة المادية وحدها هى التى تحكم عقل الإنسان الحديث . هذه هى روح الحضارة التى تشربت بها مدنيت مختلفة ، وأنتجت شها بينها من حيث التكوين ، تقوم عادو وثمود وشعوب الرومان واليونان والأوربيون والأمريكيون فى هذا العصر قد اتفقوا فى الأمور الجوهرية من الحضارة إن لم نقل فى تفاصيلها . فهم جميعاً ينظرون إلى الحياة من نفس الزاوية ، ألا وهى راونة المصاحبة المادية .

إن كل حضارة تولد من بطن الماضى ، وتنمو فى أحضان الحاضر . فالعالم لم يشهد قط ظهور حضارة ما فجأة ، دون أن يكون لها علاقة بالماضى . إن هذا لا يمكن أن يحدث إلا حين يخلق مع مولد كل حضارة جديدة رجال جديدون لهم صفات جديدة فى العقل والقلب ولهم كذلك عرائز جديدة وهذا شئ لم يحدث فى الماضى ولا يمكن أن يحدث فى المستقبل .

فإنسان هذا العصر مخلوق من نفس « مادة » الإنسان الذى كان فى عصور ما قبل التاريخ ، وطبيعته لم يحصل فيها تغير جوهري .

ولقد أوضح الدكتور محمد اقبال هذه الحقيقة . فى كتابه : « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » فقال : « يجب أن لا ننسى أن الحياة : ليست كلها تغييراً بصورة مجردة وبسيطة ، فإن فيها أيضاً عناصر المحافظة والصيانة . وإن الإنسان وهو يقوم بنشاطه الخلاق ويوجه دائماً طاقاته نحو اكتشاف آفاق جديدة للحياة ، ليشعر بالقلق أمام ما يكتشفه ، وهو فى أثناء تقدمه لا يملك نفسه من أن يلتفت إلى الماضى ويواجه ما حصل له من اتساع داخلى فى نفسه بشئ من الخوف . إن روح الإنسان الداخلية تكون فى أثناء تقدمها مقيدة بقوى تبدو كأنها تعمل فى الاتجاه المعاكس . وليس هذا سوى طريقة أخرى للقول بأن الحياة تسير وثقل ماضيها على ظهرها وأنه عند النظر فى أى تغير اجتماعى لا يمكن غض النظر عن قيمة قوى المحافظة وعملها » .

إن الأخلاق الإنسانية مبنية على القيم الخارجية للحياة ، وهى القيم التى ظلت دائماً نفسها رغم تقلبات الزمن وهذه نجدها فى نفس طبيعة الإنسان .

ونستنتج من هذا أن كل موجة حضارية تسير سيراً متصلاً مع الزمن . ولكن التيار يضعف حتى لا يأتية مدد على شكل تيار فكري جديد ، أما إذا كانت الأفكار الجديدة تتدفق فيه دائماً بقوة و غزارة فتزیده شدة فإنه يستطيع أن يدوم زمناً لا نهاية له .

والخطأ الفادح الذى وقع فيه أصحاب المذاهب المادية — مثل الفيلسوف الألماني شبنجر — هو أنهم رأوا المجتمع نوعاً من التنظيم وأسسوا على هذه النظرية قوانين ازدهار الحضارات وسقوطها .

إن السبب الجوهرى لهذا الخطأ هو تقدم العلم المادى . فقد كان من أثر التقدم المادى أن أصبح الإنسان يعتقد أنه لا يوجد شئ وراء « المادة » وأن « الوعى » والإرادة كليهما شكلان متطوران للمادة ، فأصبح الإنسان بمقتضى هذه التعريفات المادية مجرد مركب من الكهيريّات والبروتونات فى شكل مخلوق حيوانى .

وهذه النظرة عن الحياة الإنسانية تجاهلت تماماً جانبها الإنسانى .

يقول الدكتور الكسيس كاريل فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » :

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة ، وعادات الحياة والتفكير التى يفرضها عليه المجتمع العصرى . . . ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات فى حسه وشعوره . . . وعرفنا أنه لا يستطيع تكيف نفسه بالنسبة للبيئة التى خلقها « التكنولوجيا » وأن مثل هذه البيئة تؤدى إلى انحلاله ، وإن العلم والميكانيكا ليسا مسئولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن المسئولون لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع . لقد نقضنا قوانين الطبيعة ، فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التى يعاقب مرتكبها دائماً . إن مبادئ « الدين العلمى » و « الآداب الصناعية » قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة « البيولوجية » فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى السماح بارتياح « الأراضى المحرمة » إنها تضعف السائل ، ولهذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار ، لأن علوم الجماد قادتنا إلى بلاد ليست لنا ، فقبلنا هداياها جميعاً بلا تمييز ولا تبصر .

ولقد أصبح الفرد ضيقاً ، متخصصاً ، فاجراً ، غيبياً ، غير قادر على التحكم فى نفسه ومؤسساته « (١) » .
« فإذا كان على الحضارة العلمية أن تتخلى عن الطريق الذى سارت فيه منذ عصر النهضة ، وتعود إلى ملاحظة المادة الجامدة ببساطة ، فسوف تقع أحداث عظيمة على الفور .

(١) دكتور الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ترجمة شفيق أسعد فريد ، ص ٣٢٢ .

ستفقد المادة سيادتها ؛ ويصبح النشاط العقلي كالنشاط الفسيولوجي ، وسيبدو ألا مفر من دراسة الوظائف الأدبية والجمالية والدينية ، كدراسة الرياضيات والطبيعة والكيمياء .

وسوف تبدو وسائل التعليم الحالية سخيفة ، وتضطر المدارس والجامعات إلى تعديل برامجها .

« وسيسأل علماء الصحة عن السبب الذي يحدوهم إلى الاهتمام فقط بمنع الأمراض العضوية دون الأمراض العقلية ، والاضطرابات العصبية ، كما سيسألون عما يجعلهم لا يبدلون اهتماماً بالصحة الروحية ؟ »

ولماذا يعزلون المرضى بالأمراض المعدية ، ولا يعزلون أولئك الذين ينشرون الأمراض العقلية والأدبية ؟ »

ولماذا يعتبرون العادات المسؤولة عن الأمراض العضوية - عادات ضارة ، دون التي تؤدي إلى الفساد والإجرام والجنون .

ولسوف يدرك الاقتصاديون أن « بنى الإنسان » يفكرون ويشعرون ويتألمون ، ومن ثم يجب أن تقدم لهم أشياء أخرى غير العمل والطعام ، والفراغ . وأن لهم احتياجات روحية مثل الاحتياجات الفسيولوجية ، كما سيدركون أيضاً أن أسباب الأزمات الاقتصادية والمالية ، قد تكون أسباباً أدبية وعقلية .

وسوف لنضطر إلى قبول أحوال الحياة البربرية في المدن الكبرى وطغيان المصنع والمكتب وتضحية الكبرياء الأدبية في سبيل المصلحة الاقتصادية ، أو تضحية العقل للمال .

ولما كان من الواضح أن تحرير الإنسان من مذهب « المادية » سوف يقلب أغلب جوانب حياتنا ، فإن المجتمع العصري سوف يعارض بكل قوة هذا التقدم في آرائنا (١) .

مهما يكن ، يجب أن نتخذ دواعي الحيلة حتى لا يحدث فشل المادة رد فعل روحي ، إذ لما كانت « التكنولوجيا » وعبادة المادة لم يصيبا نجاحاً ، فقد يستشعر الناس إغراء عظيماً لاختيار الطقوس المضادة ، طقوس العقل . . . ولن تكون رئاسة « السيكولوجيا » أقل خطراً من رئاسة « الفسيولوجيا » والطبيعة والكيمياء ، فقد أحدث « فرويد » أضراراً أكثر من التي أحدثها علماء الميكانيكا تطرفاً ، فإن من الكوارث أن نختزل الإنسان إلى جانبه العقلي ، مثل اختزاله إلى آلياته الطبيعية ، والكيمائية . . ولا مفر من دراسة الصفات الطبيعية لمصل الدم

(١) المصدر نفسه : ص ٣٢٩ - ٣٣١ .

وتوازنه الأيوني ، وقابليته احتراق البروتوبلازم . . الخ . كما ندرس الإحلام والشهوة . والتأثيرات
السيكولوجية للصلاة وذاكرة الكلمات . . .

بيد أن استبدال الروحي بالمادى لن يصحح الخطأ الذى ارتكبه النهضة . . فاستبعاد المادة
سوف يكون أكثر إضراراً بالإنسان من استبعاد العقل ، وإنما سيوجد الخلاص فقط فى التنحى عن
جميع المذاهب (١) .

إن الخطر على مقومات الإنسان وكيونته من الحضارة الصناعية المادية ، لا يدفع إلا بالعودة
إلى الدين .

الفصل الثالث

التفسير الاجتماعي للتاريخ

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ
قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »
(قرآن كريم)

وضع عبد الرحمن بن خلدون^(١) قواعد لتفسير التاريخ على أساس اجتماعي ، وقد نفى ابن خلدون أن يكون للخرافات أثر في تحليل حوادث التاريخ ، كما برهن على أن الحوادث مقيدة بقوانين طبيعية واجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون ، وأنها محكومة في مختلف مناحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التي تحكم ما عداها من ظواهر الكون كظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات ، ومن

(١) ولد عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين بن خلدون في غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ - (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) بتونس ، وتوفي سنة ٨٠٨ هـ (١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م) وهو من أصل عربي ، حفظ القرآن الكريم ، وتعلم على شيوخ عصره ودرس عليهم العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه على المذهب المالكي (الذي كان ولا يزال ، المذهب السائد في المغرب) وأصول وتوحيد ؛ ودرس عليهم العلوم اللسانية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب ، ثم درس المنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية ، وحظي في جميع دراساته باعجاب أساتذته ونال إجازاتهم . وقد تقلد عدة وظائف عامة ، ففي سنة ٦٤٨ هـ (١٣٧٤ م) التحق ابن خلدون بمناشأة أبي الحسن المريبى سلطان مراكش . وفي سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) تولى العلامة « ديوان الرسائل » لأبي محمد بن تافراكين المستبد على الدولة يومئذ بتونس . ثم إنه وصف لأبي عثمان صاحب فاس ، وكان يجمع العلماء في بلاطه ، فاستقدمه سنة ٧٥٥ هـ ثم استخدمه في آخر سنة ٧٥٦ هـ (آخر عام ١٣٥٥ م) وتقلب ابن خلدون في البلاد فكان عند بني مرين في فاس (٧٦٠ هـ = ١٣٥٩ م) وعند بني عبد الواد ، في تلمسان (٧٦٣ هـ) ثم عند بني الأحمر في غرناطة (٧٦٤ هـ) فأرسله بنو الأحمر في سفارة إلى بطريرك قشتالة (بطرس الرابع الفاسي) لإتمام عقد الصلح بينه وبين ملوك المغرب . ثم انتقل هو إلى المغرب ، ولكنه سئم التطواف والمناصب وخاف عواقب السياسة فأثر الاعتزال في قلعة سلامة ، شرق تلمسان ، فمكث عند بني العريف أربع سنوات ، وبدأ بتأليف كتابه في التاريخ . ولكنه احتاج إلى مواد لكتابه لم تكن متيسرة في قلعة سلامة فذهب إلى تونس (٧٨٠ هـ . ١٣٧٨ م) . وفي سنة ٧٨٤ هـ (١٣٧٤ م) سار ابن خلدون إلى الحج ، ولكنه لما وصل إلى مصر عرض عليه القضاء على المذهب المالكي فقبله وتأخر ذهابه إلى الحج إلى سنة ٧٨٩ هـ . وعاد من الحج إلى القاهرة وانقطع فيها للتدريس حينما ثم عاد إلى تولى القضاء (٨٠١ هـ = ١٣٩٩ م) .

ولما غزا تيمورلنك سورية ذهب الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق إلى دمشق ليفاوض تيمورلنك واصطحب معه العلماء وفهم ابن خلدون . ثم سمع الناصر فرج بمؤامرة عليه في مصر فاضطر إلى العودة فحمل ابن خلدون تبعه الحال وذهب سرّاً على رأس وفد لمفاوضة تيمورلنك في الصلح وألقى بين يديه خطبة نفيسة فأكرمه تيمورلنك وأعادته إلى مصر .

ذكر المؤرخون لابن خلدون كتباً مختلفة في الحساب والمنطق والتاريخ وسوى ذلك ، يهمنها كتابه المشهور في التاريخ « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » والجزء الأول من هذا الكتاب معروف بمقدمة ابن خلدون أو المقدمة فحسب .

كان لأسفار ابن خلدون ومغامراته السياسية واتصاله بكثير من الملوك من ملوك النصراني بالأندلس إلى ملك التتار بالشام فضل في تكوين فلسفته التاريخية .

ثم رأى أنه من الواجب أن تدرس هذه الظواهر دراسة وضعية كما تدرس ظاهرات العلوم الأخرى للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين .

ومن العوامل التي تكسب الأمم كيانها وطبائعها وميزاتها ما يلي :

١ - البيئة :

تختلف الأمم من حيث ألوانها ونشاطها العقلي والجسمي وشجاعتها وكثرتها العددية بحسب العوامل الطبيعية التي تؤثر فيها . ومن هذه العوامل المساكن التي لها على وجه الأرض من سهل وجبل وصحراء . والمناطق التي تعيش فيها الحارة والباردة وجذب أرضها وخصبها .

يقول ابن خلدون : « فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوال والفواكه ، بل والحيوانات ، وجميع ما يتكون في الأقاليم المتوسطة مخصوصة بالاعتدال ، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأدياناً ، أما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال فأهلها أبعد عن الاعتدال في جميع أحوالهم » .

فالعوامل الطبيعية من المناخ والإقليم وجذب الأرض وخصبها واعتدال الهواء وحرارة الجو ، كل ذلك له أثر في أخلاق الأمم وأحوالها النفسية وتقدمها وتأخرها . والأغذية أيضاً لها أثر فعال في صفات الأمم والسبب أن كثرة الأغذية ، والأخلاق الفاسدة ورطوباتها ، تولد في الجسم فضلات رديئة ، تنشأ عنها بعد أقطاره في غير نسبة ، ويتبع ذلك أنكسار الألوان وقبح الأشكال ، وتغطي الرطوبة على الأذهان بما يصعد إلى الدماغ من أنحرثها ، فتجىء البلاد .

وأثر الخصب يظهر في العبادة ، فنجد المتقشفين أحسن ديناً ولقبالا على العبادة . والمخصبون إذا نزلت بهم السنون ، وأخذتهم المجاعات ، يسرع إليهم الهلاك ، لأن أمعاءهم تكتسب رطوبة فوق رطوبتها المزاجية ، فاذا خولف بها العادة أسرع إليها اليبس ، فيهلك صاحبها ، فالهالكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد ، لا المجوع اللاحق . واثلاف الأغذية أو تركها إنما هو بالعادة ، فمن عود نفسه على صغار الخروج عنه داء ، وكذا من عود الصبر على الجوع كأهل الرياضات .

٢ - العوامل الاجتماعية :

كما أن العوامل الطبيعية التي تقدمت الإشارة إليها ذات أثر في حياة الأمم من حيث رقيها وانحطاطها ؛ كذلك العوامل الاجتماعية تؤثر في نشأة الأمم ، فحيثما يجتمع الناس في مكان واحد ، يجلبون من الضروري أنه لا بد من أن يتعاونوا على أسباب الحياة ، وفي أثناء اجتماعهم يقلد بعضهم بعضاً . ويتدرج الإنسان في التقليد ،

فهو نكلا باديء ذى بدء من هو أقوى منه فى الجسم ، من أسرته وأقاربه أو عشيرته أو أهل الحى الذى يعيش فيه ، فغريزة التقليد من أقوى الغرائز فى تنظيم الاجتماع الإنسانى .

يقول ابن خلدون : « والسبب فى ذلك أن النفس أبداً تفتقد الكمال فىمن غلبها وانقادت إليه ، أما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى إنما هو لكمال الغالب ، فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء .

ويتوسع ابن خلدون فى تطبيق هذه النظرية على كل من يرى الكمال فى غيره أى أنه لا يرى أن تكون الغلبة دائماً جسمية أو سياسية ، بل يكفى أن تكون معنوية ، ولذلك يقول : « إن الأمم تقلد جيرانها إذا كانوا أعظم منها ، والأبناء يتشبهون بأبائهم ومعلميهم لاعتقادهم الكمال فيهم » .

٣ - العصبية :

الاجتماع يدعو إلى العصبية (١) ، ولذلك جعلها ابن خلدون أساس قوة الدفاع والتعاون : وإذا كانت العصبية من أسس القوة فهى من دوافع التغلب ، والتغلب أساس الرياسة ، والرياسة فى الغالب تكون لأصحاب العصبية القوية .

والعصبية تنتج جاها وسلطاناً وشرفاً ، ولكن هذه كلها تستمر عموماً أربعة أجيال فقط ، فان نهاية الحسب فى العقب الواحد أربعة آباء ، وذلك أن باني المجد عالم بما عاناه فى بنائه ومحافظ على الخلال التى هى أسباب كونه وبقائه . وابنه من بعده مباشر لأبيه فقد سمع منه ذلك وأخذه عنه ، إلا أنه مقصر فى ذلك تقصر السامع بالشئ عن المعانى له . ثم إذا جاء الثالث كان حظه التقليد فقصر عن الثانى : ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم فيتهاون فى الأمر وتذهب عنه حقيقة المجد ويضعف فيثب عليه من هو أقوى عصبية . فاذا ذهبت الرئاسة من عصبية قل أن ترجع إليها . والاجتماع الحضرى يتطور من الاجتماع البدوى ، وفيه تستبحر الحضارة وتنشأ الدولة .

إذا قويت العصبية فى البدو واشتد ساعدها وظفرت بالرئاسة ثم زاد جاهها وسلطانها ومالها ، فانها تطمع بما فوق الرئاسة وتطمح إلى الملك للاستئثار بالحكم والتمتع بما لديها من الجاه والسلطان والمال . غير

(١) العصبية : بفتح العين المهملة وهو أن يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشمر عن ساق الجد فى نصره : مشوبة إلى العصبية وهم أقارب الرجل من قبل أبيه لأنهم هم الذابون عن منتهاهم ، وهى بهذا المعنى مدوحة ، وأما العصبية المذمومة فهى تعصب رجال لقبيلة على رجال قبيلة أخرى لغير ديانة .

أن ذلك لا يتاح لها في البدو ، إذ الرئاسة في البدو تكون بالتراضى ، ولا ترضى العصائب بأن يستبد بعضها ببعض ، ثم إن المال لا يفيد في البادية لفقدان وجوه الترف فيها . عندئذ يعزم أصحاب الرئاسة على الانتقال إلى الحضر .

والانتقال من البداوة إلى الحضارة إما أن يكون مهجر البادية إلى مكان قد سبقت إليه الحضارة ، وإما أن ينقلب جانب من تلك البادية حضراً يجلب عوائد الترف إليه . ويكون ذلك :

١ - بانقلاب الرئاسة بالعصبية ملكاً فتنشأ الدولة :

إذا كان لامرئ سوءدد ، وكان قومه يتبعونه عن رضا وطواعية فلذلك هو الرئاسة بالعصبية المألوفة في البدو ، وأما إذا احتاج صاحب العصبية إلى التغلب على من تحت يده وإلى فخرهم حتى يحملهم على طاعته فلذلك هو الملك .

والملك لا يحصل إلا بالغلب ، والغلب لا يكون إلا بالعصبية ، ولا يكون ذلك عادة إلا مع البداوة ، فطور الدولة من أولها بداوة . وبما أن الملك يدعو إلى الترف فإن الحضارة تتبع البداوة ضرورة ، لضرورة تبعية الرفه للملك .

ب - والملك يدعو إلى نزول الأمصار (المدن ، أو إلى إنشائها) طلباً للدعة والسكون وحباً بالترف ونزول الأمصار يدعو إلى الإعمار من بناء الدور وإنشاء البساتين وإذا حصل الملك (استقر) تبعه الرفه وإتساع الأحوال .

والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني .

ج - وباتساع الملك في الحضر تنشأ الدولة على الحقيقة وتستقر :

إن الرئيس بالعصبية (في البدو) يكون في الحقيقة حكماً في منازعات قومه وحاملاً عنهم أعباءهم ، فهو في الحقيقة خادم لهم : « والمثل العرنى القديم يقول : سيد القوم خادهم » .

أما في الحضر فالملك محتاج إلى عصبية جديدة لقهر الرعية على طاعته ، ثم هو محتاج إلى من يعاونه في الحكم والدفاع عن الملك فتنشأ المرافق المختلفة : القضاء والعجاية والجيش والأسطول ، وتلك هي الدولة : إدارة الملك والدفاع عنه .

والدولة نطاق من الأرض لا تتعداه ، كما يقول ابن خلدون ، حصه من الممالك والأوطان لا تريد

عليها ، والسبب في ذلك أن الملك إنما يكون بالعصبية ، واهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها . فاذا كان اهل عصبيتها أكثر عدداً كانت هي أقوى وأكثر ممالك وأوطانا وكان ملكها أوسع » .

وكما أن العصبية ضرورية لإقامة الملك ، فهي كذلك ضرورية للدين ، لأن الدعوة الدينية لا يمكن أن تصل إلى غايتها من التأييد والذيع والانتشار من غير عصبية يستند إليها الرسول أو النبي بالرغم من أنه مؤيد بالمعجزات والأمر الخارقة للعادة التي ليست في طاقة البشر .

والدعوة الدينية تساعد في نماء قوة الدولة ، فضلا عن قوتها المؤيدة بالعصبية ، التي أساسها النسب ، لأن الدين بطبيعته يقضي على صفات الأثرة والتنافس والحقد والحسد ويوحد الجهود ، ويوجهها نحو غاية واحدة ، وبذلك تقوى الدولة ، وتزداد قوة على قوتها . ولذا فإن فتح المسلمين للشام والعراق وفارس ومصر مع خضوع هذه الأقاليم لدولتين عظيمتين كان أيسر من فتح شمال إفريقيا التي يسكنها بربر لهم عصبية متينة ، بل لم يستطع الرومان قبل ذلك إخضاعهم .

والدولة يكون لها عادة نوع من السلطة المعنوية على رعاياها مما يكفل مقاومة الغزاة ، غير أنه لا يعجل بسقوط الدولة شيء كالأسباب الداخلية ، كفقْد ثقة المحكومين بالحكام ، وهذا ما فعله الشيعة الإسماعيلية في مصر قبل دخول الفاطميين ، بينما استطاع المسلمون مقاومة الغزو الاستعماري المتسارع بصليب المسيح بالرغم من تفكك الدول الإسلامية وضعف الخلافة .

والملك في رأى ابن خلدون أمر طبيعي للبشر ، إذ أن كل اجتماع إنساني بحاجة إلى وازع أو حاكم يقيم العدل ويدفع بعض الناس عن بعض ، ويشجع الناس على زيادة الإنتاج بالخوافز وعدالة التوزيع ، وأن يفرض الضرائب المعقولة . فالدولة يجب أن تقوم على العدل والمحبة المتبادلة بين الحاكم والرعية : « ليلوذوا به ويشربوا محبته ، ويستमितوا دونه في محاربة أعدائه فيستقيم الأمر من كل جانب » .

ويرى ابن خلدون أن للدولة أعماراً طبيعية كما للأشخاص ، وهو يحدد عمر الدولة تقريباً مائة وعشرين سنة تمر خلالها بطور النشوء والترسخ ثم الهرم ، يقول : أعمار الدول لا تعدو في الغالب أعمار ثلاثة أجيال من البشر ، وعمر الجيل أربعون سنة .

وذلك لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة من شظف العيش ، والبسالة والاشتراك في المجد ، فلا تزال سورة العصبية محفوظة فيهم فيجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون .

والجيل الثاني : تحول حالهم — بالملك والترفع — من البداوة إلى الحضارة ، ومن الشظف إلى الترف ، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد وكسل الباقيين ، فتتكسر سورة العصبية ، ولكن يبقى لهم الكثير مما أدركوا من الاعتزاز والمدافعة والحماية ، فلا يسعهم ترك ذلك كلية .

وأما الجيل الثالث : فينسون عهد البداوة والخشونة ، ويفقدون حلاوة العصبية مما هم فيه من القهر ، ويبلغ فيهم الترف غاية ، فيصرون عيالا على الدولة ، وتسقط العصبية بالجملة ، فيحتاج صاحب الدولة إلى الاستظهار بسواهم .

فهذه ثلاثة أجيال تبلغ فيها الدولة هرمها » .

وقد يجد ابن خلدون لذلك أمثلة كثيرة في التاريخ ، ولكننا نرى أن في المجتمع من العوامل الأخرى ما قد يعجل بأجل الدولة قبل ذلك ، كما قد يؤجله إلى أبعد من ذلك بكثير .

ويرى ابن خلدون أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء ، ويرهن على ذلك فقال : « والسبب في ذلك - والله أعلم - ما يحصل في النفوس من التكاسل ، إذا ملك أمرها عليها ، وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم ، فيقصر الأمل ويضعف التناسل ، والاعتماد إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنها من نشاط في القوى الحيوانية . فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهمة بالغلب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانهم ، وتلاشت مكاسمهم ومساعدتهم ، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم ، بما خضد (١) الغلب من شوكتهم ، فأصبحوا مغليين ، لكل مغلب ، طعمة لكل آكل ، وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا .

« وفيه - والله أعلم - سر آخر ، وهو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلافة الذي خلق له » (٢) « والرئيس إذا غلب على رياسته وكبح عن غابة عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه ورى كبده ، وهذا موجود في أخلاق الأناسي » ، ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وأنها لا تسافد (٣) إذا كانت في ملكة الآدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده » .

والعامل الخامس في ضعف الدولة هو الترف ، فإذا كان قد زاد من قوة الدولة في أولها فانه أشد العوامل أثرا في ضعفها وانهارها . ويفسر ابن خلدون ذلك بأسباب اقتصادية وخلقية ونفسية .

أما العامل الاقتصادي فان طبيعة الملك تقتضي الترف حيث النزوع إلى رقة الأحوال في المطعم والملبس

(١) خضد الشجر قطع شوكه .

(٢) يشير بذلك إلى قول الله عز وجل « بشأن آدم وذريته » « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »

« سورة البقرة : ٣٠ »

(٣) سفد « السفود » الخديعة التي يشوى بها اللحم .

والفرش والآنية ، وحيث تشيد المباني الفخمة والهياكل العظيمة وحيث إجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه الناس ، وإحراق الأرزاق على المجند ، ويزيد الإنغماس في الترف والنعيم لا من جانب السلطان وبطانته فحسب بل من جانب الرعية أيضاً إذ الناس على دين ملوكهم ، حتى يصل الأمر إلى أن الجبابة لا تبقى بخراج الدولة ، فتتدرج الزيادة في الجبابة بمقدار بعد مقدار لتتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق فتضرب المكوس على أثمان البياعات في الأسواق لإدراج الجبابة ، بل قد يستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجبابة يضربها على البياعات لينفي الدخل بالخراج حتى تثقل المغارم على الرعايا وتكسد الأسواق ، وذلك أن الجبابة مقدار معلوم لا تزيد ولا تنقص ، فإذا زادت بما يستحدث من المكوس فإن مقدارها بعد الزيادة محدود ، وإلا انقبض كثير من الأيدي عن الإعمار للذهاب الأمل في النفوس بقلة النفع ، ولا يزال الإعمار في نقص والترف في ازدياد حتى ينتقص العمران ويعود وبأل ذلك على الدولة .

ومن ناحية أخرى يتجاسر المجند على الدولة ، ويلجأ السلطان إلى مداراتهم ومداواتهم بالعطايا وكثرة الإنفاق ، وإذا لاقى المكوس بذلك فقد تسول للسلطان نفسه إلى جمع المال من أملاك الرعايا من تجارة أو نقد بشبهة أو بغير شبهة ، وقد يلجأ إلى مشاركة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع ، ولا يجروا أحد على منافسة السلطان في الشراء ، فيبيع بضاعته بتمن بخس مما يؤدي إلى كساد الأسواق وقعود الفلاحين والتجار عن تسمير أموالهم فتقل الأرباح ، أو قد يتفرون في الآفاق طلباً للرزق أو قد يتوقع بعض الحاشية وقوع المعاطب ، فينزعون إلى الفرار آخذين ما تحت أيديهم من أموال وإن كان الخلاص من ربة السلطان عسيراً ، وحتى إذا خلصوا إذا قطر آخر امتدت عيون الملك في ذلك القطر إلى ما في أيديهم من الأموال . هكذا تذهب رعوس الأموال وتكسد الأسواق وتقل جبابة السلطان ، وتفقر الديار وتخرب الأمصار .

أما العامل الخلق النفسى الذى يجعل الترف أهم معول هدم مؤدى إلى انهيار الدولة فذلك لما يلزم عن الترف من فساد الخلق ، إن عوائد الترف تؤدي إلى العكوف على الشهوات وتثير ملهومات الخلق فتذهب عن أهل الحضرة طباع الحشمة ويقذرون في أقوال الفحشاء فضلاً عن أن الترف يذهب خشونة البداوة ويضعف العصبية واليسالة حتى إذا انغمسوا في النعيم فأنهم يصبحون عيالا على الدولة كأنهم من جملة النسوان والولدان المحتاجين إلى المدافعة عنهم ، فالترف مفسد لبأس الفرد ولشكيمة الدولة ، والترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الفساد والسفه والترف مظهر لحياة السكون والدعة ودليل ميل النفس

إلى الدنيا والتكالب على تحصيل متعتها حتى يتفشى الخلاف والتحاسد ويفت ذلك في التعاضد والتعاون ويقضى إلى المنازعة ونهاية الدولة .

إن الظلم والترف وغلبة الأمم معاول تقضى على الدولة ، ويضرب ابن خلدون على ذلك أمثلة مماشاهده وما أطلع عليه في بطون التاريخ من ظواهر اجتماعية ، فقال : « واعتبر ذلك في أمة الفرس ، كيف كانت ملأت العالم كثرة ، ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير وأكثر من الكثير ، يقال إن سعداً يعني « سعد بن أبي وقاص » قائد جيش المسلمين في فتحه بلاد فارس » — أحصى من وراء المدائن (عاصمة الفرس حينئذ — فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً ، منهم سبعة وثلاثون ألفاً رب بيت ، ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً ، ودثروا كأن لم يكونوا ، ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم ، أو عدوان شملهم ، فلركة الإسلام في العدل ما علمت ، وإنما هي في طبيعة الإنسان إذا غلب على أمره ، وصار آلة لغيره » .

ويقرر ابن خلدون أن دراسة ظواهر الاجتماع على هذا النحو لم يسبقه أحد فيما يعلم ، وفي هذا يقول : « واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى إليه الغوص ، وليس من علم الخطابة الذي هو أحد العلوم المنطقية ، فإن موضوع الخطابة إنما هو الأقوال المقتنة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأى أو صدهم عنه ، ولا هو أيضاً من علم السياسة المدنية إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الإخلاق والحكمة ليحمل الجمهور من منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه . »

ويتابع ابن خلدون حديثه فيقول : وكأنه علم مستنبط النشأة ، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليفة » .

كتب عنه المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي في كتابه . «دراسة في التاريخ» : إنه لم يستلهم أحداً من السابقين ولا يدانيه أحد من معاصريه بل لم يترقبس الإلهام لدى تابعيه مع أنه في مقدمته للتاريخ العالمي قد تصور وصاغ فلسفة للتاريخ تعد بلا شك أعظم عمل من نوعه »

وقال عنه « دى بور » في كتابه « تاريخ الفلسفة في الإسلام » « إنه مفكر إسلامي حقوقي انفرد بما ابتكره من فلسفة الاجتماع وفلسفة التاريخ ، ولا تزال آثار تفكيره موضع إعجاب العلماء ودراستهم » .

ويقول جورج سارتون : وإنى لست أتردد فى أن أطلق على مقدمة ابن خلدون أنها أهم عمل تاريخى كتب فى القرون الوسطى . فيقول ابن خلدون إن المدنية تولد الفساد والانحلال والدمار ثم تنشأ مدنية جديدة وهكذا : . . ولقد اعتر ابن خلدون من وجهة النظر هذه رائداً للمفكر الألماني أزوالد شبنجلر .

ووصفه روبرت فلنت فى كتابه « تاريخ فلسفة التاريخ » : « إنه لا العالم الكلاسيكى ولا المسيحى الوسيط قد أنجب مثيلاً له فى فلسفة التاريخ . هناك من يتفوقون عليه كمؤرخ حتى بين المؤلفين العرب » أما كباحث نظرى فى التاريخ فليس له مثيل فى أى عصر أو قطر حتى ظهر فيكو بعده بأكثر من ثلاثة قرون . إنه يثير الإعجاب بأصالته وفطنته . بعمقه وشموله . لقد كان فريداً ووحيداً بين معاصريه فى فلسفة التاريخ » .

ومع احترامنا لأصحاب هذه الآراء ، فنحن لا نشاطرهم الرأى فى أن عبد الرحمن بن خلدون هو أول من ابتكر فلسفة التاريخ ، فقد قدم القرآن العظيم ملامح مبهج أصيل فى التعامل مع التاريخ البشرى . والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب ، إلى محاولة استخلاص القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية - التاريخية ، وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر فى القرآن على قصص الأنبياء والأمم السابقة وعلى وجود « سنن » « ونواميس » يخضع لها التاريخ فى سيره وتطوره .

يقول الدكتور محمد إقبال (١) : « التاريخ ، أو بتعبير القرآن ، أيام الله ، هو ثالث مصادر المعرفة الإنسانية بناء على ما جاء فى القرآن » .

من أهم أصول التعاليم التى جاء بها القرآن أن الأمم تحاسب بمجموعها ، وأن العذاب يعجل لها فى الحياة الدنيا بما اكتسبت من سيئات ؛ ولكى يؤكد القرآن هذا المعنى فانه دائب الإشارة إلى الأمم الخالية داعياً إلى الاعتبار بتجارب البشر فى ماضيهم وحاضرهم .

— « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » « سورة إبراهيم : ٥ » .

— « ومن خلقنا أمة يهودون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » وأملى لهم إن كيدى متين » . « سورة الأعراف ١٨١ - ١٨٣ » .

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، ترجمة عباس محمود : ص ١٥٩ .

— قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين « سورة آل عمران : ١٣٧ — ١٤٠ »

— « ولكل أمة أجل » « سورة الأعراف : ٣٤ »

وهذه الآية الأخيرة مثل من أمثلة الأحكام التاريخية العامة نتجلى فيها التعيين والتحديد ، وهى فى صيغتها البالغة الإيجاز توحى إمكان دراسة حياة الجماعات البشرية دراسة علمية باعتبارها كائنات عضوية . والحقيقة أنه يبدو أن مقدمة ابن خلدون تدين بالجانب الأكبر من روحها إلى مستوحاه المؤلف من القرآن ، بل هو مدين للقرآن إلى حد كبير حتى فى أحكامه على الاخلاق والطبائع .

يقول : ولا تتأتى كتابة التاريخ كتابة علمية إلا لمن تجمعت لديه خيرة أوسع ونضج أتم فى التفكير العلمى ، وأخيراً تحقق أعظم لبعض الأفكار الأساسية عن طبيعة الحياة والزمان ، وترجع هذه الأفكار فى جملتها إلى اثنتين وكناتهما أساس لتعاليم القرآن المجيد .

الفكرة الأولى : تقرر وحدة الأصل الإنسانى إذ يقول الكتاب الكريم :

— « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة » « سورة الأنعام : ٩٨ »

على أن إدراك الوجود بوصفه وحدة عضوية عمل بطلى ويتوقف على اشتراك الناس فى موكب الحوادث العالمية ، وهذه الفرصة سنحت للإسلام بازدهار إمبراطوريته المترامية الأطراف ازدهاراً سريعاً .

ولا شك فى أن المسيحية دعت إلى المساواة بين الناس قبل الإسلام بوقت طويل ، غير أن روما المسيحية لم تسم إلى فهم معنى الإنسانية بوصفها وحدة عضوية فهما تاماً . ولقد صدق « فلنت » إذ يقول :

« لا يمكن أن يسند إلى أى كاتب مسيحي من كتاب الإمبراطورية الرومانية أنه كان يعرف عن وحدة الإنسانية أكثر من فكرة عامة مجردة ، ومن باب أولى لا يمكن أن يسند هذا إلى أى كاتب آخر من كتاب ذلك العهد »

ومن أيام الرومان يظهر أن هذه الفكرة لم تفد الكثير من العمق والرسوخ فى أوروبا : أضفت إلى هذا أن نمو القومية الإقليمية والحاحها فيما يسمى بالخصائص القومية قد جنح إلى قتل العنصر الإنسانى الشامل فى الفن والأدب فى ربوع أوروبا .

أما الإسلام فكان الأمر فيه على خلاف هذا فهو لم يكن ينظر إلى وحدة الإنسانية على أنها فكرة فلسفية أو حلم من أحلام الشعراء ، بل كان بوصفه حركة اجتماعية يهدف إلى جعل هذه الفكرة عاملاً حياً في الحياة اليومية لكل مسلم ، وبها جعلها تعطى أكلها في صمت وخفاء .

والفكرة الرئيسية الثانية ، هي إدراك حقيقة الزمان إدراكاً دقيقاً ، وتصوير الوجود حركة مستمرة في الزمان . وهذه الفكرة هي أبرز ما نجده في نظر ابن خلدون إلى التاريخ .

(٥) مراجع الفصل :

- ١ - مقدمة ابن خلدون :
- ٢ - عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي .
- ٣ - فلسفة ابن خلدون .
- ٤ - د . هل عبد الواحد وا : في عبد الرحمن بن خلدون .
- ٥ - أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ .
- ٦ - ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون .

الفصل الرابع

فلسفة هيجل للتاريخ

« إذا ما قدر لأمة أداء دورها في التاريخ لتتصلد مسرح الأحداث
تلاشت الهوة بين الإمكانات المعبرة عن الوجود بالقوة وبين
الواقع الموضوعي المعبر عن الوجود بالفعل » .

هيجل

يرى هيجل (١) أن كل عصر أو فترة أساسية في تاريخ الحضارة الاجتماعية يمثل وحدة مستقلة ، وأن ملامحه السياسية والاقتصادية والحلقية والاجتماعية العامة والجمالية والعقلية والدينية كلها جوانب أو نواح للمجموع الحى ومنها جميعاً يتكون كيان متجانس ، وأن فترة أساسية تنمى فكرتها الجوهرية إلى الحد الأقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها ويستمر الصراع دائماً ، فتتحد المبادئ المتناقضة فى وحدة عليا هى « الموحد » ، وهذا الموحد يندفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى ويبدأ صراع جديد فيتولد حينئذ مرة أخرى موحد يحوى ما هو فعال من كل من الفرضية ونقيضها . وهذا الأسلوب تتقدم الفكرة فى النهاية إلى « المطلق » الذى يمكن أن نمنع فيه النظر طويلاً دون أن نتيقن فيه أى تناقض . ويمكن إيضاح ذلك بعدة أمثلة :

اعتنقت اليونان القديمة مبدأ الديمقراطية المحدودة أى أن بعض الناس وهم كل طبقة المواطنين ، أحرار ، وهذا اكتشفت أثينا مبدأ الفردية والحرية المقيدتين ، ولإذ دفعت الديمقراطية اليونانية مبدأ حرية الفرد إلى حد الأنانية المستغلة فإنها حطمت بذلك وحدة كيان الدولة . وكان النضوج فى الحضارة الرومانية أكثر قوة وصلابة بحيث صارت فكرة الدولة أكثر قوة . وكان فى إمكان الدولة أن تخضع الإرادة الفردية للاحتياجات العامة التى تتعلق بأمن الدولة وتوسع رقعتها . وسادت المسيحية فى الإمبراطورية الرومانية ونادت بفكرتها عن الإله البشرى ، وبالتحاد الشامل بين الفرد المستقل والروح العامة .

وقد حققت الشعوب الجرمانية هذا المبدأ أول مرة فى النظام السياسى الاجتماعى فكل الناس فيه أحرار كأشخاص ، ولكنهم إذ يكونون أشخاصاً فمعنى ذلك أن يكونوا أعضاء فى الدولة التى هى الوحدة الجامعة التى تحمى وتغذى الأسرة والمجتمع المدنى والكنيسة والحضارة .

فالدولة تجريد غير واقعى بدون أعضائها . والفرد لا يكون إنساناً ما لم يعمل بتعاون كعضو فى الدولة .

(١) ولد فردريش جورج وهللم فى شتوتجارت بألمانيا فى ٢٧ أغسطس سنة ١٧٧٠ . وتعلم فى مدارسها حتى بلغ سن الثامنة عشرة . ثم انتقل سنة ١٧٨٨ إلى معهد توبنجن فدرس الفلسفة والآداب اليونانية واللاتينية وحصل على الدكتوراه سنة ١٧٩٠ . وفى سنة ١٨٠١ نال إجازة للتدريس فى جامعة « يينا » . وظل هيجل يدرس بها حتى أكتوبر سنة ١٨٠٦ ؛ عندما استولت جيوش نابليون على يينا . ثم استقر بعد ذلك فى « نورمبرج » فكان مدرساً وعميداً بها من سنة ١٨٠٨ حتى ١٨١٦ . وعين هيجل أستاذاً فى جامعة « هيدلبرج » ، ثم عين سنة ١٨١٨ أستاذاً للفلسفة بجامعة برلين . وظل يقوم بالتدريس بها حتى سنة ١٨٣٠ ، فأصبح عميداً لها . وفى أواخر سنة ١٨٣١ انتشر وباء الكوليرا فأصيب بها هيجل ، وتوفى فى ١٤ نوفمبر ١٨٣١ .

وهذه الجماعة التي ظهرت في القرن التاسع عشر مجرد رد فعل للفردية : وهي في رأى هيجل خير وأكثر انطباقاً على الحقائق : إذ أنها تتضمن العناصر المؤثرة من الفردية أيضاً ، وفي كل حالة تظهر من التقاء الاتجاهات المتضادة نتائج مثمرة .

إن جوهر التطور — كما يرى هيجل — هو نتيجة صراع المتناقضات ، لأن كل ظاهرة تحتوى على تناقض داخلي يدفعها إلى الأمام ويؤدي بها في النهاية إلى أن تتحطم وتصبح شيئاً آخر ، غير أن تحطم ظاهرة ما إنما هي فرصة لانبثاق ظاهرة جديدة تدفع دون شك الظاهرة السابقة ، ولكنها في الوقت نفسه تحتوى في ذاتها على كل عناصرها الفعالة والمؤثرة ، وبهذه الطريقة يتحول النظام الفلسفي إلى نظام آخر .

ويرى هيجل أن الصيرورة (١) ليست متروكة للصدفة والأسباب العارضة ، بل إن هناك وراءها إرادة مخططة ، وأن هدف هذا الصراع والتوفيق هو تطوير روح العالم أي الروح المحركة لهذا العالم ، التي تتجه دائماً صوب غايتها ، ألا وهي تحقيق الذات : يقول هيجل : « إننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم أن تطوره كان دائماً صيرورة عقلية — أي الحركة الفكرية المتقدمة نحو الأعلى — وأن هذا التاريخ قد أنشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالم : تلك الروح التي طبيعتها دائماً واحدة لا تتغير والتي تعرض هذه الطبيعة في ظواهر وجود العالم (٢) لذلك فإن تفسير التاريخ هو بيان لعواطف البشر وعبقرياتهم وفواهم الفعالة التي تقوم بدورها على مسرح العالم الكبير ، وإن الصيرورة التي تقودها المشيئة السامية المهيمنة والتي تعرضها تلك العواطف والعبقریات والقوى الفعالة ، هذه الصيرورة تكون ما يسمى بصورة عامة بخطة المشيئة العليا (٣) »

فد يبدو لأصحاب النظر السطحي أن الناس أحرار في أن يعملوا ما يريدون ، وأن أعمالهم تنبعث عن ما يشعرون به من حاجات — وعواطف ، وما يتمتعون به من مزايا ومواهب ولكن ، هيجل يرى أن هذا تصور يجانبه الصواب عانى منه البشر الكثير منذ زمن سحيق : فهذه الأعمال جميعاً تتم بأمر « روح العالم » وهذه المجموعة الكبيرة من الرغبات والميول والنشاط تؤلف الأدوات والوسائل التي تستعين بها « روح العالم » لكي تبلغ غايتها وهي التي ترقى بها « أي بالروح » إلى الوعي وهي التي تجعلها حقيقة في عالم الوجود (٤)

(١) الصيرورة كلمة مرادفة للتغير ، وهي صفة أساسية للمادة الجامدة والحية على السواء . كل شيء في صيرورة دائمة ، فلا شيء ساكن ثابت مستقر . كل سكون وكل نبات وكل استقرار هي أمور نسبية . أما ما هو جوهري وما هو مطلق فهو أن كل شيء في تغير دائم ، في صيرورة دائمة . (موسوعة الهلال الاشتراكية ، مادة صيرورة)

I. Si bree : Hegel's philosophy of history, P. 11.

(٢)

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

ويرى هيجل أن عظماء التاريخ هم مجالات الفكر ، وليس عظماء التاريخ سوى العناصر التي يتحقق بها التقدم ، وهم بمثابة المقاييس أو العلامات التي يقاس بها التقدم وكذلك فإن أهداف كل العظماء تدخل فيها تلك القضايا الكبار من ناحية كونهم قد استمادوا غاياتهم ودعوتهم لامن الأوضاع العادية الهادئة التي يقررها النظام القائم بل من مضايير خفى : إنهم يعتبرون أنفسهم رجالا أحرارا يستمدون باعث حياتهم من أنفسهم ومما يشعرون به شخصياً من أنواع الاهتمام والميلول ولكن الحق أنهم دى فى يادى «روح العالم» فهم يجهدون تماماً الفكرة العامة التي يعرضونها عندما يسعون وراء تحقيق أهدافهم تلك . وليست عظمتهم فى الحقيقة إلا فى أن لديهم البصر النافذ الذى فيه من العمق ما يكفى لأن يدركوا متطلبات الزمن .

وكان مما امتازوا به أنهم عرفوا هذا المبدأ الناشئ ، وهو الخطوة الضرورية التي تعقب مباشرة طريق التقدم التي قدر للعالم أن يخطوها ، وأن جعلوها هدفهم وبذلوا طاقتهم من أجل نجاحها (١) .

والسؤال هو : ما الذى يميز هؤلاء الأبطال عن سواهم من عامة الناس ؟

الفرق الوحيد الذى يقول به هيجل هو وضوح الرؤية ، ونفاذ البصيرة ، فهم يسمعون نداء «روح العالم» بوضوح أكثر من بقية الناس . والنتيجة المنطقية لهذا أن هؤلاء الأبطال يجب ألا يعبروا سماعاً لنصح الجماهير لأن الجماهير لم توهب صفاء الذهن الذى يلتقط إشارات «الروح» .

يقول هيجل : «لذا فإن الرجال الخالدين فى تاريخ العالم أبطال عصر من العصور يجب أن يعترف لهم بصفاء البصيرة ، وأن أعمالهم وأقوالهم خير أعمال وأقوال ذلك العصر .»

لقد حدد العظماء أهدافاً يرضون بها أنفسهم ، لا الآخرين ، ومهما كانت الخطط الحكيمه والنصائح التي ربما يكونون قد تعلموها من الآخرين فإنها تكون فى سيرتهم العملية ملامح اضيق حادوداً وأشد تنافراً لأنهم هم أنفسهم يفهمون الأمور أفضل مما يفهمها الآخرون ، الذين يتعلم بقية الناس منهم ويؤيدون سياستهم أو على الأقل يرضخون لها ، إذ أن تلك الروح التي نخطت هذه الخطوة الجديدة فى التاريخ هي الروح التي تسكن أعماق كل فرد ، ولكن فى حالة من الغفلة وعلم الوعى فيوقظها هؤلاء العظماء الذين تتحدث عنهم ، لذلك فإن أصحابهم يتبعون قادة الروح هؤلاء . لأنهم يشعرون بأن قوة أرواحهم أنفسهم . هذه القوة التي لا تقاوم ، قد تجسدت بهذا الشكل (٢) .

(١) المصدر نفسه : ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٣٢ .

لذلك فهم معصومون من الخطأ وأعمالهم فوق كل أنواع النقد . وكل ما يفعلونه سلوك طيب حميد لأنهم عظماء وقد أرادوا شيئاً عظيماً ونفذوا إرادتهم وفقاً لحاجة العصر . وأن أعمالهم العظيمة هذه لها أهمية كبرى تجعلها أسمى من أن توزن في ميزان الفضيلة والأخلاق الكريمة .

يقول هيجل : « بل إنه يمكن لمثل هؤلاء الرجال أن ينظروا إلى المصالح العظيمة الأخرى . وحتى المقدسة منها بدون اكتراث ، وذلك تصرف يعرض أصحابه إلى تأنيب الضمير . ولكن هذا الشكل ذا القوة الكبيرة لا بد أن يدوس الكثير من الأزهار البريئة ويسحق الكثير من الأشياء التي تعترض طريقه »

هؤلاء العظماء وحدهم يعرفون ما هو الشر وما هو الخير ، وأعمالهم تحمل ختم المصير المطلق المتعالي .

يعتقد هيجل أن هذه الفكرة عن الأخلاقية تحل أحد الألغاز الكبرى في حياة البشر ، وهو أن الطبيب التقى ، غالباً ، أو في أكثر الأحيان ، يعيش حياة نكدية في هذا العالم ، بينما الخبيث الذي يميل إلى الشر يعيش حياة رغدة . فهو يرى أن الإنسانية إذا أخلصت نفسها لهدف واحد ووجهت جهودها إليه دون النظر إلى ما سواه فحينئذ لا يمكن أن يعتبر ما يسمى تعساً أو منعماً من الأفراد عناصر أساسية في النظام المنطقي المحكم الذي يسير عليه العالم . وكل ما هو مطلوب إنما هو أن يتحقق هذا الهدف العظيم ، وأن الناس يشعرون بعدم الرضا لمجرد أنهم لا يجدون الحاضر ملائماً لتحقيق الأهداف التي يعتقدون أنها حق وعدل (١) .

ولكن : ما هو الشكل الذي به يمكن تحقيق الهدف العظيم ؟

يجيب هيجل بأنه الدولة ، ولكنها لا تعني عنده السلطة الملزمة التي تكون قانوناً فوق كل فرد أو جماعة ، وتكون جزءاً من المجتمع . إنها الشكل الذي تتخذه الروح إذ تتجسد مجسداً كاملاً « وهذا هو اتحاد الذاتي مع الإرادة العقلية » إنها الكل الأخلاقي ، الذي هو ذلك الشكل من الحقيقة الذي يكون فيه للفرد حرية يتمتع بها ، ولكن على شرط أن يعترف بالأمور المشتركة لهذا « الكل » ويعتقد فيها وتتجه إرادته نحوها . إن الإرادة الذاتية ، والاندفاع الذاتي يحركان البشر ويدفعانهم إلى النشاط الذي يحقق « الوجود العملي » . إن الفكرة هي المنبع الداخلي للعمل ، والدولة هي الحياة الخلقية المتصورة التي توجد حقيقة في عالم الواقع .

(١) المصدر نفسه : ص ٤٠ .

لذلك فكل مالى الأفراد من أنخلاق إنما حصل لديهم بهذه الطريقة فقط : إنما فى الحقيقة فكرة الروح ظاهرة فى المظهر الخارجى للإرادة الإنسانية وحريتها ويعرفها هيجل بأنها « فكرة إلهية »

هذه بصورة موجزة فلسفة التاريخ كما عرضها هيجل :

إن هيجل عندما يصف تاريخ العالم بأنه عملية متعقطة ، فإنه بغير شك يعنى أنه من الممكن إنشاء رواية لها أهميتها « وذلك مقابل التقويم غير المترابط » للوقائع التى تتكون منه ، ولكنه يبدو أنه يعنى شيئاً آخر أكثر من ذلك . أى يمكننا القول ، بأنه لا يعنى ذكر علة ما حدث فقط ، بل يعنى كذلك أسس ودوافع ما حدث كذلك ،

فالقول بأننا نفسر الحادثة التاريخية ، عندما نكيف العوامل المختلفة العاملة بها ، ونقدر أهميتها ، لا يرضى هيجل ، بل هو يطلب تفسيراً أكثر من ذلك . وهو لا يقصد بكلمة « أكثر » فى هذا المقام أكثر من نفس النوع السابق ذكره ، فإنه لم ينزعج لعدم اكتمال القصة التى رواها المؤرخون ، بل انزعج لسطحياتها ، الضرورية . ولفهم التاريخ بالمعنى الحقيقى ، علينا أن نذهب إلى ما بعد وجهة النظر التجريدية وأن نتبع طريقة أخرى مختلفة تماماً ،

وقد تبدو النقطة أكثر وضوحاً ، إذا قلنا إن هيجل يسأل السؤال : « لماذا ؟ » فى التاريخ بمعنى يختلف عن الذى يسأله المؤرخون ، أو بمعنى آخر ، إنه يسأل : « لماذا ؟ » أولاً بمعناها ، أو معانيها التاريخية المباشرة ، ثم بمعنى آخر خاص به ويمكن الربط بين ما فعله ، ورغبته فى النفاذ إلى ما وراء ظاهر الظواهر التاريخية ، أى إلى الواقع الذى لا يخامره شك فى أنه يكمن وراء هذه الظواهر .

ولا نستطيع أن نتوقع إنجاز ذلك بوساطة المؤرخين الذين يعتبر تفكيرهم وفقاً للغو الهيجلى (متحركاً فى مستوى الفهم) ولكنه عمل يقع بكل وضوح فى نطاق الفيلسوف الذى لديه معرفة بالفكرة التى تعمق استنباطاته للوقائع .

ولكن لو كان هذا ما يسعى هيجل لتحقيقه ، فكيف يستطيع أن يعد نفسه لبلوغ نتائج

مشخصه ؟

إنه يستطيع ذلك بمحاولة استنباط تفاصيل التاريخ من مقولات منطقته فالتاريخ يصبح عملية عقلية

بالمعنى القوي الذى يفسر به هيجل هذه الكلمة ، إذا اقتصر على الديالكتيك^(١) التجردى للفكرة . ولكن كما رأينا لم يتوهم هيجل أبداً إمكانية تحقيق مثل هذا الاستنباط ، ولذا اختار الوسيلة البديلة وهى ألا يحاول استنباط تفاصيل التاريخ ، بل يستنبط أساسه أو هيكل خطته من المقدمات الفلسفية الخالصة .

ولكنه عندما اختار هذا الحل البديل ، ألم يعرض نفسه للإتهام بالقبالية التى سعى لرفضها ؟

وهل يستطيع فى الواقع أن يجيب إجابة مقنعة على هذا الاتهام ؟

ألا يبدو واضحاً ، كما أظهر هيجل ، أنه عرف قدراً كبيراً عن الاتجاه الذى يجب أن يتبعه التاريخ قبل أن يعرف أى وقائع تاريخية على الإطلاق ؟ فهو يعرف مثلاً أن التاريخ يجب أن يكون التحقق التدريجى للحرية ، ويعرف كذلك ، أن هذه العملية يجب أن تتم نفسها فى أربع مراحل متباينة ، وإذا تطلب الأمر

(١) ديالكتيك أو « جدل » : كان فى البداية تعبيراً عن الحوار الذى يقوم بين المتنازعين حول رأى من الأراء ، كما كان بعض الفلاسفة القدامى يستعملونه للتعبير عن المراحل المتدرجة للمعرفة . إلا أن الديالكتيك قد أصبح تعبيراً عن منطق جديد فى مواجهة منطق أرسطو القديم . فإذا كان منطق أرسطو يقوم أساساً على دراسة أشكال الفكر ، وفواعد استخلاص النتائج من المقدمات ، فإن الديالكتيك هو دراسة محتوى الفكر نفسه لا شكله وهو كذلك دراسة القوانين الأساسية للتعبير والحركة والتداخل فى الطبيعة والمجتمع على السواء . ويقوم الديالكتيك على الحركة ، ويقول بالتناقض أساساً فى نسيج الأشياء . إن الأشياء فى تحول وتغير دائمين والتناقض هو قانون تحولها وتغيرها .

ونلخص المبادئ العامة للديالكتيك فيما يلى : -

- ١ - كل شئ متداخل متشاك مؤثر ومتأثر بكل شئ آخر .
 - ٢ - أن كل شئ فى حالة تغير وحركة وصيرورة .
 - ٣ - التغيرات الكيفية هى نتيجة لتغيرات كمية . كما أنها كذلك تؤدى إلى إحداث تغيرات كمية . والتغيرات الكيفية تتم فى شكل طفرة ، إلا أن هذه الطفرة لا نحسب بالزمن ، فقد تتم فى دقائق ، وقد تستغرق السنوات .
 - ٤ - التناقض هو نسيج الأشياء ، فكل شئ يحتوى فى داخله على جانب إيجابى وآخر سلبى هناك فى كل شئ جانب ينمو وآخر يموت . وهذا المبدأ هو جوهر الحرية الديالكتيكية كلها .
 - ٥ - مبدأ نى نى الذى يحدد مسار العملية الديالكتيكية ، فهناك الموضوع ثم هناك نقبض هذا الموضوع أو نفيه ، ثم هناك نقيض هذا النقيض ، أو نى النى . فالنظام الرأسمالى هو نى للنظام الإقطاعى ، والنظام الإشتراكى هو نى للنظام الرأسمالى أى نى النى . والننى فى هذا المبدأ لا يعنى الألفاء وإنما يعنى التجاوز والتخطى أى الانتقال إلى مستوى أرق مع الاحتفاظ بكل ماهو متقدم وإيجابي والتطور به « موسوعة الللال الاشتراكية : مادة : ديالكتيك » .
- وقد نقد « كبر كيجورد » هذا المنهج بقوله : « إن محاولة توحيد شئ والتوفيق بين الأضداد والأفكار المتناقضة يقضى على هذه الأفكار ، ويبددها ويحلبها ألفاظاً جوفاء لا معنى لها بحيث لا تعود تفكر فى شئ ذى قيمة وإذا كان كل شئ صحيحاً إلى حد ما ، أصبح كل شئ غير صحيح إلى حد ما أيضاً وذلك لأن الحقيقة لا تقبل التجزئة أو التدرج » .

فانه يقدم براهين فلسفية لهذه القضايا : فاذا كان ذلك لا يقرر اتجاه التاريخ ، بصرف النظر عن التجربة ،
فن الصعب أن نعرف ما هو الذى يقرر هذا الاتجاه .

قد يجيب هيجل إن هذا النقد ردىء التصور ، لأنه يسلم بوجهة نظر « الفهم » ويعجز عن تقدير
الطبيعة الخاصة بالعقل الفلسفى ، وهذا العقل ملكة لا يقتصر عملها على البرهنة ، بل لديها قوة حدسية كذلك .
ولكن يجب أن نسأل كيف نعمل وأين هى هذه القوة الحدسية التى يفترض أنها تمارس ؟

قد يقال إن الفيلسوف يستطيع اكتشاف النموذج الذى ينبغى أن تتلاءم معه الوقائع التاريخية ،
بالضرورة ، وذلك بفحصها فحصاً عقلياً . فاذا كان هذا صحيحاً ، هنا يبرز السؤال التالى :

لماذا لا يستطيع المؤرخون اكتشاف النموذج كذلك ؟

فاذا كانت الإجابة على ذلك هى أنهم يفتقرون إلى معرفة المنطق الهيجلى ، فان الرد هو أنه يبدو أن
هذا المنطق بناء على ما ظهر كثير الشبه كما يزعم نقاد هذا المنطق (١) .

ويقال إن هيجل ظن أن التاريخ عملية عقلية ، لذلك فان تطور العقل هو تطور الحقيقة ، وهكذا فكل
شئ « سواء كان خيراً أو شراً ، له ما يبرره لأنه منطقى معقول » .

يعلق « بنبيد يثوكروجى » على هذه الناحية من فلسفة هيجل فيقول :

« إن فكرة هيجل عن الحياة كانت فلسفية بحيث أن النزعتين المحافظة والثورية ، كل فى دورها ،
تجد فيها ما يبررها . وفى هذه النقطة يتفق أنجاز الاشتراكي و المؤرخ المحافظ ترايتشه لأن كليهما يرى أن
تمائل المعقول والحقيقى يمكن أن يدعى إليه بصورة متساوية فى كل الآراء السياسية والأحزاب التى تختلف
عن بعضها ، لا من ناحية هذه الصيغة المشتركة ، بل فى تحديد ما هو المعقول والحقيقى وما هو غير المعقول
وغير الحقيقى . وفى كل مناسبة يعد ذلك الحزب السياسى العدة لشن حرب على نظام أو طبقة من طبقات
المجتمع فانه يدعى أن خصمه مخالف للمعقول أى أنه ليس له وجود ملموس وحقيقى ، ويكون بهذا
الادعاء قد وضع نفسه مع الفلسفة فى خط واحد (٢) .

(١) و . ه . وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ، ترجمة أحمد حمدي محمود ، ص ١٩٧ - ٢٠٢ .

(٢) Benedetto Croce : what is Living and what is Dead of the Philosophy of Hegel
pp. 66—67.

وثمة سؤال يورد على الفكر : كيف يمكن أن نعتبر نظاماً ما من أنظمة الحكم معقولاً أو غير معقول ؟

والجواب على ذلك هو أن العنصر العسكري وحده يقرر ذلك . وهذا ما حدا بالنقاد إلى أن يطلقوا على هيجل : « فيلسوف المجلس الحكم السرى وحكم طبقة الإداريين للدولة » وفي هذا القول شىء كثير من الحقيقة ففي هذا النظام الذى يمتزج فيه غير المحدود والمحدود فى شىء واحد والحير والشر يؤلفان صيرورة واحدة ، والتاريخ فيه هو عين حقيقة الفكرة والروح ، لا شيئاً خارج إطار تطورها التاريخى ، فى هذا النظام تكون كل حقيقة ، مجرد كونها حقيقة ، حقيقة للفكرة وتابعة للكل المحسوس الذى لا يتجزأ . لذلك فكل التاريخ عنده يصير تاريخاً مقدساً (١) .

وقد ترتب على نظرية هيجل أن توقف تقدم المذهب (٢) الذى يقول : بأن كل الناس إخوة وأن الفوارق القومية والعنصرية والاجتماعية إنما هى فوارق مصطنعة أنتجتها التربية المعيبة ، فهيجل يجعل من هذه الفوارق — التى تتحلى فيما تمتاز به أمة بذاتها أو جنس بذاته. عبقریات فريدة — شيئاً يرتكز على الضرورة التاريخية رغم ما يبدو جليلاً من أنه لا سند من العقل لهذه الفوارق .

إن الصيرورة الديالكتيكية التى قال بها هيجل علمت الناس عبادة القوة . وقد ساند هو نفسه كل وجل ارتقى كرسي الحكم « حين حاول نابليون بحراب جيشه أن يدخل العلاقات الرجوازية إلى المانيا ، كان هيجل ، الذى كان فى ذلك الوقت يضع أسلوبه الديالكتيكي ، يتجاوب مع الثورة الفرنسية ، ورحب بدخول جيش نابليون إلى « ينا » باعتباره التجسيد التاريخى لشكل جديد للروح المطلقة ، ثم سعى نابليون « الروح المطلقة على جواد أشهب » ولكن بعد عشرين سنة من ذلك حين اشتد ساعد الحكم الملكى الإقطاعى فى المانيا والذى كان على رأسه فريدريك وليم الثالث ، كان هيجل قد فقد أفكاره الثورية وأصبح فيلسوف الدولة فى مملكة بروسيا (٣) » .

وهيجل — كما عرفنا — يعتقد بان الانفصال شىء لا وجود له فى عالم الحقيقة . فالعالم ، كما بتصوره ، ليس مجموعة وحدات صلبة ، ذرات أو أرواحاً ، كل منها قائمة بذاتها تماماً . وأن ما يظهر من استقلال ذاتى للأشياء المحدودة هو وهم وخيال . وأنه ما من شىء حقيقى تماماً وبصورة نهائية إلا « الكل » .

هذه العقيدة أدت به إلى أن يستنتج أنه لما كانت الدولة تجسداً للكل فهى الحقيقة الصادقة وفيها وحدها توجد الفكرة الإلهية : وأن الفرد إذا أراد أن يحقق وجوده لم يستطع ذلك إلا كعضو من أعضاء الدولة . ولكن فى هذه الفكرة شيئاً كثيراً من التناقض .

(١) المصدر السابق : ص ٦٩ .

(٢) إيسيا برلين : كارل ماركس ترجمة عبد الكريم أحمد ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٣) تفسير التاريخ ، مرجع سابق ، ص ٧٩ .

فلماذا تأخذ الدولة وحدها كتجسيد للكل ، ولا تأخذ العالم كله « ككل » والدولة بمثابة أقسامه ؟
إن ذلك أقرب إلى الحقيقة وأكثر اتفاقاً مع فلسفة هيجل ، لأن « روح العالم » تعرض نفسها في كل أرجاء الأرض وما فيها من سكان . إنها لا تحصر نفسها في حدود بلاد أو دولة ، والعالم كله مسرح لها ، فيه البشر جميعاً ممثلون يؤدون أدوارهم وفقاً لرغبتهم .

إن هذا الإكبار للدولة ناتج عن رد فعل شعر به العالم بعد « حركة الإصلاح » . ولقد أدت فكرة الدولة هذه إلى نتائج خطيرة ، فقد ثبت في أذهان الناس أن يؤيدوا الدولة بدون قيد ولا شرط سواء كانت هذه الدولة تمثل العدل أو الظلم .

وفضلاً عن ذلك فإن هذه الفكرة عن الدولة أنتجت أشد الاتجاهات الفاشية لدداء في العالم ۞

إن الدولة تعتبر قانوناً بذاتها « إنها بالنسبة له العقل المطلق الواثق من نفسه الذي لا يعترف بأية سلطة سوى سلطته ، والذي لا يقر بأية قواعد مجردة للخير والشر والمخجل والوضيع والاحتيايل والتدبيرة »
وهكذا فإن اللجوء إلى كل أنواع الوسائل مهما كانت منافية للأخلاق يعتبر أمراً مشروعاً إذا كان من أجل الدولة
إن الأبطال المسؤولين عن مدّ رواق الدولة معصومون ، وكل ما يقومون به حق وعدل ، لذلك فلا يجوز لأحد أن يوجه إليهم النقد . إن هؤلاء الأبطال يجب أن يقوموا وحدهم بإملاء ارادتهم لأنهم يستطيعون أن يتصوروا عصرهم تصوراً صادقاً صحيحاً .

هذه النظرية قد حثت الناس على اتباع الحكام اتباعاً أعمى وزعزعت كيان الأخلاق من أساسه ۞

المراجع

١ - الكتب : حسب ورودها في الكتاب

- * ميشيل روزيه : حياة جوليو كوري ، ترجمة فؤاد حداد .
- A. Cresay Morrison : Man does not stand alone .
- * ول ديورانت : مباحث الفاسفة ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني .
- * ول ديورانت : قصة الحضارة .
- * جميل جبر : طاغور .
- * أ . كريسي موريسون : العلم يدعو للإيمان ترجمة محمود صالح الفلكي .
- * عبد الحميد جوده السحار : محمد رسول الله والذين معه .
- * أدولف إرمان وهرمان وانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ترجمة د . عبد المنعم أبو بكر ، ومجرم كمال .
- * محمد عبد الغفار الهاشمي : محمد رسول الله في بشارات الأنبياء .
- * ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل .
- * جوستاف جرونيياوم : حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .
- * طه عبد الباقي سرو : إقبال شاعر الحرية والكفاح .
- * زيجريد هوفكه : شمس الله على الغرب ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على .
- * البرت شفيترز : فلسفة الحضارة ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي .
- * أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟
- * جون ستياود مل : بحث في الحرية ترجمة دار البقطة العربية - بيروت .
- * محاضرات أرفولد تويثي في مصر (١٩٦١) كتب ثقافية .
- * الدكتور قسطنطين زويق : نحن والتاريخ .
- * هرقشو : علم التاريخ ترجمة عبد الحميد العبادي .
- * اليانج . ويد جري : التاريخ وكيف يفسر وفه ترجمة عبد العزيز جاويد .
- * أ . ج . أيفانز : هيودوت ، ترجمة أمين سلامة .

Froud : Three contributions of the sexual theory .

* أوجين جيننجر : فن الزعامة ترجمة ساوى حافظ وروجيه ناجى .

* إدورد كار : ما هو التاريخ ؟ ترجمة أحمد حمدي محمود .

* كارلايل : الأبطال ترجمة محمد السباعي .

* فؤاد محمد شبل : مناج توينبي التاريخي .

المشكلة اليهودية العالمية

دور مصر في تكوين الحضارة

* الدكتور أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ .

* الدكتور عبد الرحمن بدوي : شبلنجر .

* أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : الطب الروحاني .

* ابن خلدون : المقدمة .

* محمد صدقي الجبائني : الفن والقومية العربية .

* محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام ترجمة عباس محمود .

* ألكسيس كاريل : الإنسان ، ذلك المجهول ترجمة شفيق أسعد فريد .

* عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي .

فلسفة ابن خلدون

* الدكتور علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون .

* ساطع المصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون .

Jsibree : Hegel's philosophy of history .

* و . ه . وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ترجمة أحمد حمدي محمود .

* ايسياهرلين : كارل ماركس ترجمة عبد الكريم أحمد .

Beneditto Croce : What is living and what is dead of the philosophy of hegel .

* ج . ه . كول : تاريخ الفكر الاشتراكي (الرواد الأول) ترجمة عبد الكريم أحمد .

* عباس محمود العقاد : الشيوعية والإنسانية .

الفلسفة القرآنية

الله

أثر العرب في الحضارة الأوروبية

* زاهر مزب الزغبى : الإسلام ضرورة عالمية .

* هارولد لاسكى : الشيوعية .

Fundamentals and Marxism - Leninism .

* عبد الحميد صديق : تفسير التاريخ ترجمة كاظم الجوادى .

* كرين برنتن : أفكار ورجال ترجمة محمود محمود .

* حبيب سعيد : أعلام الفكر الأوروبى .

أديان العالم

* محمود الشرفاوى : مواقف حساسة في تاريخ محمد بن عبد الله .

الدين والدولة العصرية

الأنبياء في القرآن الكريم

للعادلة الاجتماعية عند العرب

Alexander Gray : The development of economic doctrine .

* جوستاف لويون : سر تطور الأمم ترجمة أحمد فتحي زغول .

* فوستيل دي كولنج : المدينة العتيقة ترجمة عباس محمود بيومي وعبد الحميد الدواخلى .

* الدكتور أحمد عبد القادر الجمال : مقدمة في أصول النظم الاجتماعية .

* جوستاف لويون : الحضارة المصرية ترجمة م . صادق رستم .

* جيمس هنرى برستيد : فجر الضمير ترجمة الدكتور سليم حسن .

* روجيه باستيد : مبادئ علم الاجتماع الدينى ترجمة الدكتور محمود قاسم .

* الدكتور عبد المنعم أبو بكر : اخفانوث .

* ج . برستيد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، ترجمة الدكتور حسن كمال .

* سبينو موسكاتى : انضارات السامية القديمة ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر .

* ل . ويلابوت : بلاد ما بين النهرين ترجمة محرم كمال .

* على أدهم : هداية الإنسانيّة في الشرق .

* أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة .

* الدكتور مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والتطبيقات السياسية .

* محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة .

مَنهج القرآن في بناء المجتمع

الفتاوى

- * توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة الدكتور حسن إبراهيم *
- * زكريا هاشم زكريا : المستشرقون والإسلام .
- * الدكتور اسماعيل راجي الفاروق : أصول الصهيونية في الدين اليهودي
- * الدكتور عبد الوهاب المسيري : نهاية التاريخ ، مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني .

H. G Wells : A short history of the world, teaching of Jesus .

- * رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى : المسيح ومشكلات العصر .
- * محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية .
- * هارولد لاسكي : العقل والإيمان والمدنية .
- * ر. ج. كولنجوود : فكرة التاريخ ترجمة محمد بكير خليل .
- * فرانز روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي .
- * الدكتور محمد البهي : الدين والحضارة والإنسانية .
- * محمد خلف الله : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة .
- * محمد عزة دروزة : الدستور القرآني .
- * محمد عبده : تفسير جزء عم .
- رسالة التوحيد تحقيق طاهر الطنطاوي
- * عبد المنعم محمد خلاف : المادية الإسلامية وإبعادها .
- * الدكتور راشد البراوي : التفسير القرآني للتاريخ .
- * محمد مصطفي المراغي : حديث رمضان .
- * محمد المدني : المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء .
- * الدكتور محمد شوقي الفنجري : المدخل إلى الاقتصاد الإسلامي .
- * الدكتور محمد فهمي لطيفة : علم الاقتصاد .
- * الدكتور محمد جمال الدين الفندي : الكون بين العلم والدين .
- * مولاي محمد علي : الإسلام والنظام العالمي ترجمة أحمد جودة السحار .
- * أنور الجندي : الإسلام وحركة التاريخ .
- * مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ترجمة عبد الصبور شاهين .

٢ - دوائر معارف ودوريات :

- * دائرة معارف الشعب .
- * موسوعة الهلال الاشتراكية .
- * وزارة التعليم العالي : تاريخ العالم .
- * وزارة الثقافة والارشاد القومي : تاريخ الحضارة المصرية .
- * مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق .
- * القرآن الكريم .
- * الكتاب المقدس .
- * كتب التفسير : تفسير ابن كثير .
- * تفسير المنار .
- * كتب الحديث :
- * صحيح البخاري .
- * صحيح مسلم .

الفصل الخامس

التفسير المادي للتاريخ

يرى كارل ماركس (١) أن القوى الحتمية التي تحكم التطور التاريخي في جميع حالاته تأتي من تحدد سلوك الإنسان وهو يتصرف ببعض الدوافع الاقتصادية .
فالحالة الاقتصادية هي التي تحدد بصفة حاسمة النظم الأخلاقية والدينية والاجتماعية والسياسية وأن التغييرات الاجتماعية التي قد تطرأ على المستويات الأخلاقية والثورات السياسية هي نتائج لتغيرات في العلاقات الاقتصادية .

(١) ولد كارل هنريش ماركس في ٥ مايو سنة ١٨١٨ في مدينة ترير بألمانيا ، وفي سنة ١٨٢٤ اعتنق والداه اليهوديان المسيحية .

بعد أن انتهى ماركس من دراسته الإعدادية في ترير ، أكمل دراسته العليا في جامعات بون وبرلين وينا . درس التاريخ والفلسفة وتأثر بالفيلسوف الألماني هيجل .
انضم في برلين إلى رابطة الطلبة الثوريين الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم « الهيجليين اليساريين » حصل على الدكتوراة سنة ١٨٤١ من جامعة يينا .
اتجه إلى الصحافة سنة ١٨٤٢ ، طرد ماركس من بلجيكا بعد قيام الثورة هناك ، فعاد إلى ألمانيا ، ولكنه طرد منها كذلك ، فذهب إلى لندن حيث استقر هناك إلى أن مات في ١٤ مارس سنة ١٨٨٣ .
وكانت حياة ماركس بالغة القسوة والفقر ، أنجب كثيراً من الأطفال ، ولكن مات أغلبهم .
ولولا معاونة انجاز ، لما استطاع أن ينتج ولا يشغل بالبحث عن لقمة العيش أو لمات جوعاً .
وبرغم هذا فقد استطاع ماركس أن يترك أثراً عميقاً في الفكر الفلسفي عامة والفكر الاشتراكي خاصة .

في سنة ١٨٦٤ نجح ماركس في تأسيس الدولة الأولى (الرابطة الدولية للعمال) وكان عقابها المفكر وقلبها النابض بالحركة والنشاط :

من أهم مؤلفاته : مساهمة في نقد فلسفة القانون عند هيجل — حول المسألة اليهودية — البيان الشيوعي (مع أنجلز) — رأس المال (لم يتمه في حياته) — الاقتصاد السياسي والفلسفي — العائلة « المقدسة » — الأيدلوجية الألمانية — ١٨ برومير ولويس بوناپرت — الصراعات الطبقة في فرنسا — مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي — الأجور والأسعار والأرباح — خطاب افتتاح الدولية الأولى — الحرب الأهلية في فرنسا — تاريخ العقائد الاقتصادية .

إيسيا برلين ، كارل ماركس .

وموسوعة الهلال الاشتراكية مادة (ماركس) .

وقد بدأ البيان الشبوعي الذي أعانته ماركس وأنجلز (١) سنة ١٨٤٨ بتقرير أن : « تاريخ المجتمعات التي وجدت حتى الآن هو تاريخ صراع الطبقات »

ويستطرد « البيان » ، من هذا التقرير العام عن التاريخ ككل ، ليذكر أن المجتمع في العصور الحديثة يتحول بصورة متزايدة إلى معسكرين كبيرين متعاونين البورجوازية والبروليتاريا (٢) . ثم يرسم صورة عامة لنشوء البورجوازية ، ويقول : إن كل خطوة من خطوات النمو الاقتصادي للبورجوازية كانت مصحوبة بتقدم سياسي بحيث أصبحت اليوم « المهمة التنفيذية في الدولة الحديثة مجرد لجنة تدير الشؤون المشتركة للبورجوازية كلها » .

وقد لعبت (٣) البورجوازية دوراً ثورياً طويلاً نشأتها ، ويستطيع المرء أن يتبين ما حققته اقتصادياً

(١) ولد فردريك أنجلز في بارمن بالمانيا في ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٢٠ ، وهو ابن أحد أصحاب شركات النسيج ، أشركه أبوه في أعماله ، وخاصة في شركة الغزل التي أنشأها في مانسستر بإنجلترا ، إلا أن ذلك لم يحرم أنجلز في من المشاركة في أحداث عصره الفكرية والسياسية .

وعندما بلغ سن التاسعة والأربعين تخلص من كل التزاماته العملية والإدارية ، وكرس حياته تماماً للنشاط السياسي والفكري .

اشترك عام ١٨٤١ في رابطة المهجابين اليساريين وكان متأثراً في البداية مثل ماركس بفلسفة هيغل ، وقد أسهم مع ماركس في النضال من أجل إنشاء الرابطة الدولية لأعمال (الدولية الأولى) عام ١٨٦٤ . وبعد موت ماركس عمل على إصدار الجزء الثاني (١٨٨٥) والثالث (١٨٩٤) من رأس المال لماركس .

وقد توفي أنجلز في ٥ أغسطس ١٨٩٥ .

ومن أهم مؤلفاته : حالة الطبقة العاملة الانجليزية — معارضة دوهرنج — جدليات الطبيعة — فورباخ ونهاية الفلاسفة — الألمانية التقليدية .

وبالاشتراك مع كارل ماركس : العائلة المقدسة — الأيدولوجية الألمانية ،

(موسوعة الحلال الاشتراكية — مادة : أنجلز) .

(٢) كلمة « البروليتاريا » مشتقة من تعبير روماني يصف المواطن الذي ليست له أية صفة أخرى في المجتمع سوى أن لديه أطفالاً . وبهذا المعنى القديم ، فالبروليتاريا هو كل شخص لا يسهم في المجتمع بأي نصيب غير انجاب الأطفال ، وبالتالي فليست له أية حقوق قبل المجتمع ، وليست عنده ممتلكات أخرى . وفي نحو سنة ١٨٣٨ استخدم سان سيمون تعبير « البروليتاريا » لكي يصف الذين لا يملكون أي نصيب في الثروة العامة . ولا يتمتعون بأي ضمان من ضمانات المعيشة ، وليس لهم ماض ، وليس لهم مستقبل .

تم استخدام كارل ماركس تعبير البروليتاريا بمعنى الشعب العامل الذي يستخدم الأساليب الاقتصادية الحديثة في ظل النظام الرأسمالي ، والذي يعني الاستغلال الواقع عليه من جانب الطبقة الرأسمالية . (موسوعة الحلال الاشتراكية : مادة بروليتاريا) .

(٣) ج . هـ . كول : تاريخ الفكر الاشتراكي (الرواد الأول) ترجمة عبد الكريم أحمد ص ٣١٥ .

في تثبيت دعائم فكرة « التقييم النقدي » بوصفها العلاقة الوحيدة المعترف بها بين الناس ، وفي حرية التجارة باعتبار أنها ما تتجسد فيه هذه العلاقة ،

ويقول البيان : إن البورجوازية لا تستطيع البقاء دون ثورة مستمرة في أدوات الانتاج ، وبالتالي في العلاقات الانتاجية بين الناس وبعضهم التي تنبثق من استخدام هذه الأدوات ، وتعمل الحاجة إلى إيجاد أسواق متوسعة على « ملاحقة البورجوازية في جميع أنحاء الكرة الأرضية » ويضفي استغلال السوق العالمي على نظامها طابعاً عالمياً يتمثل في الاعتماد المتزايد على مصادر أوسع فأوسع باستمرار فيما يتعلق بالمواد الأولية . وهي ترغم الشعوب المتخلفة على الأخذ بأساليبها في حدود حاجتها إلى خدمات هذه الشعوب وتشقى سيطرة المدينة على الريف وسيطرة الشعوب المتمدينة على الشعوب المهمجية .. وتعمل على تكديس الملكية ، وتركيز وسائل الانتاج في وحدات كبيرة ، وتركيز الملكية في أيدي أقل باستمرار ، وبسبب هذه الاتجاهات تركز على المركزية السياسية . وقد نمت البورجوازية داخل إطار المجتمع الاقطاعي حتى صار نظام الاقطاع قيداً لها يحيد نموها ، وعندئذ حطمت قيود نظام الاقطاع ، وحل محله نظام « المنافسة الحرة » . بيد أن المنافسة البورجوازية وصلت فعلاً إلى المرحلة التي لم تعد تستطيع فيها السيطرة على وسائل الانتاج الضخمة التي خلقتها . وعلامة هذا العجز هي الأزمات التجارية التي تزداد حدتها ، وهي تبدو في التجارب السخينة لما يسمى « تضخم الانتاج » .

إن ظروف البورجوازية لأضيق من أن تضم الثروة التي صنعتها « ولا يتغلب على الأزمات المتكررة إلا بواسطة تدمير شامل للثورة عن طريق الافلاس والخراب وبواسطة اكتشاف أسواق جديدة ، بيد أن هذه التطورات لا تفعل سوى أنها تمهد السبيل لأزمات أسوأ فأسوأ ؛

وبسبب هذه المتناقضات المتأصلة في الرأسمالية أوجدت البورجوازية أسلحة دمارها ، كما خلقت الطبقة التي تستطيع أن تستعمل هذه الأسلحة — البروليتاريا — إذ تنمو البروليتاريا بنسبة نمو البورجوازية ، والنظام البورجوازي قد حول فعلاً العامل اليدوي إلى مجرد سلعة .

ويقول : إن عدد البروليتاريا يزيد بانضمام قطاعات أخرى إليها مثل العمال الزراعيين .

وترد البروليتاريا على هذا الموقف بأن تنمو من مستوى الصراع الفردي وأعمال التخريب غير المنسقة التي تهدف إلى الاحتفاظ بوضعها القديم ، إلى صور من الكفاح أسمى تنظيماً ، أولاً على صعيد المصنع ، ثم على صعيد مدن بأكملها أو مناطق . وتم هذه الخطوات نحو حركة بروليتارية سياسية تحت زعامة بورجوازية ، لأن البورجوازية تجد نفسها في حاجة إلى استخدام البروليتاريا لهزيمة من بقي من أعدائها الاقطاعيين الارستقراطيين . بيد أن البروليتاريا تأخذ بصورة متزايدة في إدراك قوتها الخاصة بها ، وتتوحد أكثر فأكثر حيث الآلة تمحو كل الفروق بين أنواع العمل وتعمل على تخفيض الأجور في كل مكان تقريباً إلى نفس المستوى المنخفض . وفي نفس الوقت تجعل الأزمات المتزايدة كسب العيش أكثر تعرضاً للهزات وأقل أمناً . وتكون البروليتاريا نقابات ، ثم تنضم النقابات بعضها إلى بعض ، لتوحد قواها في الصراع الطبقي ، وتترعرع هذه التطورات من البورجوازية تنازلات تشريعية وغير تشريعية لصالح جماعات بذاتها من العمال .

ويصر « البيان » على أن البروليتاريا وحدها هي الطبقة الثورية ، وهذه الأوضاع تؤدي إلى قيام نوع من التوتر الاجتماعى ينتهى عادة بقيام ثورة يصحح فى ظلها الأوضاع القائمة .
ويلخص كارل ماركس نظريته فيقول :

« إن الناس ، فى الإنتاج الاجتماعى الذى يقومون به ، يدخلون فى علاقات محدودة لا غنى عنها ، وهى علاقات مستمدة عن إرادتهم ؛ وتقابل علاقات الإنتاج هذه مرحلة محددة فى نمو قوى الإنتاج لديهم .
وجماع هذه العلاقات الانتاجية ، هى ما يتكون منه البناء الاقتصادى للمجتمع — الأساس الحقيقى الذى يقوم عليه بناء فوقى قانونى وسياسى ؛ ويقابله صور محددة من الوعى الاجتماعى .
فأساوب الإنتاج فى الحياة المادية يحدد الطابع العام للعمالية الاجتماعية والسياسية والروحية فى الحياة ،
إن وعى الناس ليس هو ما يحدد وجودهم ، بل على النقيض من ذلك ، إن الوجود الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم .

وفى مرحلة من مراحل النمو ، تصطبغ القوى المادية للإنتاج فى المجتمع بعلاقات الإنتاج القائمة ، أو — وهو مجرد التعبير القانونى عن نفس الشئ — بعلاقات الملكية التى كانت تعمل داخل إطارها من قبل .
وتتحول هذه العلاقات من صور لنمو قوى الإنتاج إلى أغلال لها . وعندئذ تأتى فترة الثورة الاجتماعية ،
لإذ مع تغير الأساس الاقتصادى يتعدل البناء فوقى الضخم كله بسرعة معقولة .

وينبغى ، عند النظر ، فى هذه التغيرات ، أن نفرق دائماً بين التحول المادى للظروف الاقتصادية للإنتاج — الذى يمكن تحديده بدقة العلوم الطبيعية — والصور القانونية أو السياسية أو الدينية أو الجمالية أو الفلسفية ، وفى تكملة الصور الأيديولوجية التى يدرك الناس فيها هذا الصراع ويخوضونه .
وكما أن الفرد لا يقوم على ما يعتقد فى نفسه ، فكذلك لا نستطيع أن نحكم على مثل فترة التحول هذه على ضوء وعيها ، على العكس ؛ إن وعيها ينبغى أن يفسر على ضوء متناقضات الحياة المادية — من الصراع الفعلى بين القوى الاجتماعية للإنتاج وعلاقات الإنتاج .

ولا يحتفى أى نظام اجتماعى أبداً حتى تنمو كل القوى الانتاجية التى تستطيع أن تجد لها مكاناً داخله ،
ولا تظهر أبداً علاقات إنتاج جديدة فى نوع أعلى حتى تكون الظروف المادية لوجودها قد نصبت فى رحم المجتمع .

ومن ثم فإن الجنس البشرى دائماً لا يتناول إلا ثلث المشاكل التى يكون فى مركز يسمح له بحلها ،
لأننا عند ما نمنع النظر أكثر ، سنكتشف دائماً أن المشكلة نفسها لا تلبث إلا عند ما تتكون الظروف المادية التى ينطلبها حلها ، أو تكون على الأقل فى طريقها إلى التكوين .

ونستطيع بصفة عامة أن نميز أساليب الإنتاج الأسوية والقديمة والإقطاعية والبورجوازية الحديثة بوصفها مراحل زمنية فى تقدم التكون الاقتصادى للمجتمع .

وعلاقات الإنتاج البورجوازية هى آخر الصور العدائية لعملية الإنتاج الاجتماعية — عدائية لا بمعنى العداء الفردى ولكن بمعنى العداء الذى ينبج من الظروف المحيطة بحياة الأفراد فى المجتمع ،

وقى نفس الوقت تعمل القوى الانتاجية التى تنمو فى رحم المجتمع البورجوازى على خلق الظروف المادية لحل ذلك العداء . ومن ثم فان التكوين الاجتماعى يكون الفصل الختامى فى مرحلة ما قبل التاريخ بالنسبة للمجتمع البشرى .

يقول ماركس : « إن أى موجود كائناً من كان لا يمكن أن يكون مستقلاً فى عيى نفسه إلا إذا كان مستكفياً بذاته ، وهو لا يمكن أن يكفى نفسه بنفسه إلا إذا كان لا يدين بوجوده لأحد سواه : أما الإنسان الذى يحيا بمدد من إنسان آخر يكون له الفضل عليه فانه لا بد من أن يشعر فى نفسه بأنه مخلوق مستعبد خاضع مفترق : وأنا أشعر بأننى أحيا تماماً على حساب موجود آخر أو بفضل نعمة ذلك الموجود الآخر ، ليس فقط حينما أكون مديناً له ببقائى والحفاظة على حياتى ، وإنما أيضاً يكون هو الذى وهبى الحياة باعتباره مصدر كل حياة ، ولا بد أن يكون مصدر حياتى خارجاً عني ، حينما لا تكون حياتى من خلقي أنا . وهذا هو السبب فى أنه قد يكون من العسير بمكان طرد فكرة الخلق » من أذهان العامة : أما الرجل الاشتراكى فيرى تاريخ الكون بأسره عملية خلق الإنسان بفضل الانتاج البشرى أعنى عملية التحكم فى مصدر الطبيعة بفضل تدخل الإنسان ، ومن ثم فان الإنسان الاشتراكى إنما يملك الدليل الواضح الذى لا سبيل إلى دحضه على خلقه نفسه بنفسه . أو على عملية إيداعه لمصيره الذاتى » .

ورجع ماركس إلى التاريخ وتطوره فوجد فيه ما يؤكد صحة نظريته ؛ وجد أن التاريخ يمثل صراعاً عنيفاً بين الطبقات ، فى كل عصر نجد أن وسائل الحصول على مقومات المعيشة تقسم الناس إلى فئتين لكل منهما شعور خاص ، كما أن كل نظام انتاجى قد أتاح منذ فجر الإنسانية قيام طائفتين متنافرتين : المستغليين والمستغليين ، أى طبقتا أصحاب رؤوس الأموال والعمال ، ومصالح هاتين الطائفتين متعارضة ومتنافرة فتاريخ الإنسانية إذن ، هو تاريخ صراع الطبقات الاقتصادية وهذا الصراع هو الذى يحدد كل مظاهر التطور الاجتماعى وهو الذى تسبغ نتائجه على المجتمعات أشكالها ونظمها .

وبحدثنا التاريخ بأن هذا الصراع ينتهى دائماً على صورة واحدة هى انتصار الطبقة الأوفر عدداً والأسوأ حالاً على الطبقة الغنية الأقل عدداً ، ومن مظاهر هذا الصراع ذلك الكفاح الذى قام قديماً بين الأحرار والأرقاء ، ثم بين الأشراف والعامة ، كذلك بين الرؤساء والعرفاء فى نظام الطوائف . وقام حديثاً منذ فجر الثورة الفرنسية بين الطبقة البورجوازية وبين طبقة العمال ، فقد صارت الأولى سيدة المشروعات الاقتصادية واستطاعت منذ عهد الثورة الصناعية أن تستأثر بالثروة والنفوذ السياسى بينما لا تملك الطبقة الثانية إلا العمل العضلى مع أنها هى التى تقوم بأوفر قسط وأهم نصيب فى عملية الإنتاج ، هذا إلى أن مصالحها الحيوية رهينة برضاء الطبقة الأولى التى غالت فى استغلال طبقة العمال ، ولم تدفع لهم من الأجور إلا ما يحقق لهم بالكاد كفاف العيش ، والعامل مضطر إلى قبول ذلك لأنه لا يملك غير عمله ليبيعه فى نظير حصوله على الأجر .

ووفاء للأمانة العلمية ينبغى أن نوكد أن هذه النظرية التاريخية ليست كشفاً جديداً ، فالمادية التاريخية قديمة قدم أرسطو ، ولقد جعل منها بعض المفكرين من أمثال هاربتون وماديسون حجر الزاوية فى الأنظمة التى وضعوها ، ولم يكن كارل ماركس أيضاً هو الذى ابتدع نظرية الصراع الطبقي على أنه القوة المحركة للتغير . فقد كانت هذه النظرية على نقيض ما ذكره أنجلز من « أنها النظرية - الفريدة ، من نوعها التى أوجدها ماركس الطابع المميز لكل عقيدة متطرفة بعد عهد الثورة الفرنسية ، وقد أكدها بايوف »

في كتابه « بيان المساواة » الذي أصدره سنة ١٧٩٦ ، والذي لم يشر إليه كارل ماركس في حديثه عن الاشتراكيين المثاليين : وعاد إلى تأكيدها أيضاً « بلانكي » في محاضرات سنة ١٨٣٢ ، عند ما أدانت حكومة لويس فيليب جمعية أصدقاء الشعب ، وكانت مألوفة كذلك لدى سان سيمون وتلامذته وفي طليعتهم « بازارد » الذي تحدث في كتابه « عقيدة سان سيمون » عن « تقسيم الناس إلى طبقتين : طبقة المستغنيين والمستغنيين ، أى طبقة السادة والعبيد » . ويصدق هذا القول أيضاً على الاشتراكية الألمانية ، فقد كتب كارل برون سنة ١٨٤٤ عن التاريخ على أنه : « مجرد حرب مستمرة في جوهرها بين المحظوظين والمالكن والفائحين من ناحية وبين التعمساء والمضطهدين والمساوبين من ناحية أخرى ، ويمضى فيتساءل عما إذا كان التاريخ يستطيع أن يوجد مجتمعاً تنعدم فيه الطبقات . وحمل بعض المفكرين غير الاشتراكيين في منتصف القرن الثامن عشر من أمثال « لانجيه » و « سيسموندى » ، أفكاراً مماثلة ، ويمكن القول أن أحد المفكرين الفرنسيين المغمورين واسمه قسطنطين بيكيه ، قد أبرز نظرية المادية التاريخية بوضوح لا يقل شأواً عن وضوح كارل ماركس . وقد يقال إن ماركس قد أدرك كل هذا ، ولكنه رغم هذا يقول في بيانه عن الاشتراكيين المثاليين أن « واضعى هذه الانظمة رأوا بوضوح عوامل الصراع الطبقي كما رأوا عمل العناصر التي تعمل على تفكيك أشكال المجتمع السائد » .

ولا يختلف هو ، أو أنصاره عن سابقيهم إلا في النتائج التي توصلوا إليها في النظرية العامة ، إذ بينما كان المفكرون السابقون ، يبحثون كقاعدة عن أساس للاستقرار في فكرة غير اقتصادية عن العدالة كما هي الحالة مع سيسموندى ، أو في شكل خاص من أشكال المؤسسات التي اقترحها سان سيمون وقوزيه وبرودون ، يقف كارل ماركس موقفه على أسس مغايرة تماماً ، فهو يصر ، كما أن أتباعه يزيدون في إصرارهم ، على أن الانتقال من نظام معين للإنتاج إلى نظام آخر ، يجب أن يصحبه ثورة عنيفة ، وهو يؤكد كذلك بأن الصراع بين البورجوازية والطبقة العاملة ، هو المرحلة الأخيرة في الصراع الطبقي . وهذه الفروق جوهرية في متنها وأصولها ، إذ منها يشتق الجهاز الكلي المائل للطريقة السياسية والاستراتيجية التي تميز أنصار ماركس عن غيرهم .

لم يوضح كارل ماركس كيف يأتي الصراع بين الطبقات ، وكيف يقع ، فلايس من اليسير إيضاحه بصورة قاطعة ، ولقد توقع ماركس نفسه أن يقع هذا الصراع أولاً في أكثر البلاد تقدماً في الميدانناعى ، وهى نبوءة ، كذبتها التجربة الواقعية التي حدثت في روسيا .

يرى أنصار الماركسية أن انتصار حركتهم متوقف على قيام الثورة العالمية : ولقد كتب « بوخارين » : « إن تحقيق ديكتاتورية الطبقة العاملة ، قد يتعرض للخطر في بلاد ما ، إلا إذا لقي عوناً فعالاً من ال في البلاد الأخرى » . ولم ينكر ماركس قط وجود الروح القومية ، لكنه كان يرى فيها ، كما يرى ، وفي سيطرتها على العمال ، جزءاً من الحصون الدفاعية التي تقيمها الرأسمالية ، ويعترف بأن حب سان لوطنه شيء واقِع ومنتشر ، ولكنه يصر على وجوب التغلب على هذا الحب وقهره ، فبلاد العامل لحقيقية هى الطبقة التي ينتمى إليها .

يقول البيان : « إن العمال لا وطن لهم ، وأنتا لا تستطيع أن تأخذ منهم ما ليس لهم » : إن الوطنية (١) ليست بحيلة من حيل الإنتاج لأنها خائفة العنصرية وشبهتها في ظواهرها وبواطنها ، وليست هى — أى

(١) عباس محمود العقاد : الشيوعية والإنسانية ، ص ٢٥٩ وما بعدها .

العنصرية — من حيلة يقصدها أو لا يقصدها لأنها علاقة الدم والقرباة التي لا اختيار فيها لخادع أو مخدوع ، وليس أهزل من مفكر يعمد إلى شعور عام بين الناس على اختلاف أرزاقهم ومواردهم فيزعم أنه حيلة من مخدوعين يحتالون بها على مخدوعين آخرين — وما كان شعور الوطنية أو العنصرية أو أمة من الأمم وقفاً على طائفة أو طبقة أو صناعة أو هيئة اجتماعية دون هيئة أخرى فيقال إنه من أخاديع فريق للعبث بفريق .

أقرب من هذا التفتيش الدائب على عمليات النصب والاحتيال وراء كل سر من أسرار التاريخ ، أن ننظر إلى حكمة الخلق في كل بنية حية وكل كيان اجتماعي أو عضوي ، فترى هنالك أن حكمة الخلق تودع في كل فرد إيماناً قوياً بخدمته لمصلحته حين يعمل في خدمة الجماعة أو البيئة التي ينتمي إليها ، وأقوى ما يكون ذلك في خدمة النوع أو خدمة البيئة الحية ، ولو كان خدامها من الأعضاء التي لا عقل لها ولا إرادة ... من الذي يندع اليد فيرفعها إلى الرأس لتتلقى الضربة التي توشك أن تحطمه ؟

من الذي يندع الخلايا في باطن الجسد فيدفعها إلى التجمع لوقاية البنية كلها من فتك الجراثيم ؟ من الذي يندع الفرد فيشيع في بيته السرور بخطط النوع ويشيع في بنيته الصبر على مضائق الحمل والرضاعة والتربية ؟

هذه هي حكمة الخلق في شعور الفرد بمصلحة الجماعة وشعور الجزء بمصلحة سائر الأجزاء . هذه هي الحكمة التي تخلق لكل بنية اجتماعية ضرباً من « الأنانية » الكبرى تقترن بالأنانية الفردية لتعمل في خدمة الجماعة كما تعمل في خدمة الفرد على حدة ..

فكأما وجدت جماعة من الخلق وجدت معها « شخصية » أو أنانية كبيرة تصونها وتوكلها بالحفاظ على نفسها ، كما توجد « الأنانية » في كل مخلوق لحماية نفسه ومقاومة العوامل التي تنازعه البقاء من حوله . سنة الخلق في خلايا البنية ، سنة الخلق في أفراد النوع ، سنة الخلق في آحاد القبيلة أو العنصر أو الوحدة الوطنية ، سنة قريبة جد قريبة لمن يشاء أن يبصرها حيث استدار بنظره إليها ، ولكنها بعيدة جد بعيدة عن ينظر إلى وجهة فيأني أن يرى شيئاً غير النصب والاحتيال في قواميس الكون وقوانين الاجتماع وأسرار التاريخ

إن الجماعات البشرية لم تنل قسطاً من شعور كسعود الوطنية منذ عهد القبيلة الأولى ... ونحن نعرف شعور المصري الذي كان يؤمن بمقام المصري في المرتبة الأولى بين مراتب الأجناس البشرية ، ونعرف شعور العربي الذي كان يفخر على الأعاجم ويصف بالأعجمية كل من لا يتكلم العربية ، ونعرف شعور اليوناني الذي كان بطاق وصف البربرية على كل أمة لا تنسب إلى القبائل اليونانية ، ونعرف فخر الروماني بالمدينة الخالدة وإعنياره النسبة إليها ذروة المرتبة في الشرف والكرامة .

وهذا الشعور في كل جماعة من هذه الجماعات هو الحافز الذي كان ينهض بكل فرد للدفاع عن « شخصيته الكبرى » التي ركبت في طبعه إلى جانب الشخصية الفردية ، وما كان هذا الشعور بدعة في طبائع الجماعات والكائنات العضوية ، فاننا نرى أصوله عميقة مكيئة في غريزة النوع وفي تركيب الخلايا الجسدية وتركيب الأعضاء التي تتحرك لدفع الخطر عن البنية كلها ولو أصيبت بأخطر ما يصيب به العضو على انفراد ..

* * *

اعتبر كارل ماركس المادة أصل الحياة والحرك الأول لها ٥

وكان للمادية دعائها في القديم ، ومن آمن بها من الفلاسفة : هيرقليطس ، وليوسيس ودقريطس ، ومن آمن بها ودعا إليها في الحديث : بيكون ، وهوبز .

يقول هوبز : إن الأشياء المادية وحدها هي المحسوسة بالنسبة لنا ، فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله ، ووجودى الخاص هو وحده الأمر المؤكد ، أما ما عداه فخيال لا أصله .

وقال أنجلز : « إن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا ، والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليس الإدراك والتفكير إلا نتاجا لعضو من أعضاء جسمنا ، وهو المخ ، فليست المادة من انتاج العقل ، بل إن العقل نفسه ما هو إلا أسمى انتاج للمادة .

ولكن : ما هي المادة ؟

ليست هي^(١) هذا اللون المنظور ، لأنك لا تنظره إلا بشبكة العين الإنسانية فاذا ضاقت أمواجه أو اتسعت فلا لون أمام عينيك ، وليس هذا اللون بعينه منظوراً لكل ذى عين من الأحياء .

وليست المادة هذه الدقة التى تسمعها إذا ضربت المائدة بيدك ، لأن يدك لا تدق شيئاً إذا تضاعفت قوتها مئات الأضعاف أو ألوف الأضعاف ، بل تجرى دون المائدة كما تجرى في هذا الفضاء

وليست المادة هذا الوزن الثقيل أو الخفيف ، لأنها تقوم بغير هذا الوزن وراء حدود الجاذبية الأرضية ، : المادة ذرات ، والذرة لا يدري أحد أهي موجة أو جوهر فرد صغير بالغ في الصغر ولكنه يقبل الانقسام فيطير شعاعاً في الأثير .

وما هو الأثير ؟

كل ما قيل عن الروح أيسر فهماً وأقرب إلى الإدراك من هذا الأثير .

شئ لا لون له ، ولا كثافة ، ولا حركة ، ولا تصدق عليه خاصية من خواص المادة في علم العارفين بها والعاملين في ذراتها ...

وقيل أن نصل إلى هذا اللغز المركب نقف عند الذرة وما فيها من البروتون والتوترون والالكترون ، وما يقال عن البروتون السالب في الفضاء المستعصى على الفهم في حيز هذا الجو وعلى مقربة من عناصر المادة وأجزائها إلى أدق دقائقها المدركة بالفرض والتخمين .

وكارل ماركس مع هذا — يظن في علمانيته التي لا حد لها — أنه يفسر هذه المادة كل شئ ، وأن هذه المادة غنية كل الغنى عن تفسير المفسرين وتقدير المقدرين ...

يقول في البيان المشترك : « إن الشبهات التي تلقى على الشيوعية من جانب الدين ، أو جانب الفلسفة ، أو جانب الأفكار النظرية على العموم — غير جدية بالجد في تمحيصها واختيارها ، فهل يحتاج الأمر إلى بداهة عميقة لتعلم أن خواطر الإنسان وآراءه ومداركه — أو بكلمة واحدة وعيه — يتغير مع كل تغير يطرأ على كيانه المادى وعلاقاته الاجتماعية وحياته العامة » .

(١) عباس محمود العقاد : الشيوعية والإنسانية : ص ١١١ وما بعدها .

لا... إن هذه الحقائق المادية عائمة على السطح لا تحتاج إلى بدهية ، ولا اختيار ، ولا امتحان ، ولا ترده ولا تقبل كلمة أخرى غير الكلمة التي يرسلها « كارل ماركس » من طرف اللسان فلا يضطرب فيها قولان ، وندع أسرار المادة جميعاً ، ونسلم مع « كارل ماركس » أنها مجردة من كل سر نتظر به المستقبل لكشف خباياه ، وأنها مفسرة صالحة لتفسير جميع نواميس الكون ووقائع التاريخ ، فلماذا يلزم من ذلك أن وسائل الإنتاج هي التي تتحكم في تاريخ الإنسان ؟ ولماذا يكون الناس أحق بهذه القوة من الأدوات الصماء ؟

إن مطالب المعيشة ضرورة لا غنى عنها لجميع الأحياء ؛ ولكن ضرورتها هذه لم تمنع الأحياء أن يتعدوا أنواعاً وأفراداً لم تحصرها العاوم بعد ، ولم تحصرها الخواص والعقول ، واضطرارها جميعاً إلى مطالب المعيشة لم يمنع هذا التنوع الهائل في أجناسها وطبائعها وآحادها ..

فلماذا نسقط هذه القوى الحية من حسابنا ولا نلنفث في تفسير أطوار التاريخ إلا لوسائل الإنتاج الصماء ؟ لماذا تكون هذه القوى الحية رهينة بالآلات الصماء ؟

ولماذا تكون كذلك بعد ظهور نوع الإنسان وهو الذي يصنع تلك الآلات الصماء ؟

يقول « ماركس » و « أنجلز » فيما جاء من مجموعة الرسائل المختارة :

« إننا نعتبر أن الأحوال الاقتصادية هي العامل الذي يقرر أخيراً أطوار التاريخ ، ولكن النوع الحيواني هو نفسه عامل من العوامل الاقتصادية » .

وكثيراً ما جاء في كلام « ماركس » و « أنجلز » أن الإنسان فاعل منفعل ، وأنه بين القوى المادية هو القوة الوحيدة التي لها عقل وإرادة .. فلماذا تكون هذه القوى العاقلة المريدة رهينة بالآلات الصماء ولا تكون الآلات الصماء تابعة لها في جميع الأحوال ؟

وإذا هبطنا بالإنسان عن عليائه وسوينا بين تأثيره وتأثير المكنات ، فلا أقل من أن نسوى بين القوتين في التأثير ، تارة للجماعات العاقلة الرشيدة ، وتارة لأدوات الخشب والحديد . فهذه إذن حلقة مفرغة لا يتبين أحد منها على سبيل الختم موضع الابتداء وموضع الإتيان . ولا يستطيع أحد أن يقول على سبيل الختم أين ابتدأت إرادة الإنسان ، أو أين ابتدأ احساسه بالمطالب الجديدة في شئون المعيشة ، وأين ابتدأ عمل الآلات والمكنات . لا يستطيع أحد أن يقول إن الناس أحسوا هنا فأرادوا فغيروا واخترعوا ، وأن الآلات وجدت بعد ذلك فتسلمت بين يديها أطوار التغيير والتبديل ، وهما إذن على الأقل عاملان متساويان متعادلان مجهولان على حد سواء أو معلومان على حد سواء ، فلماذا اختار « كارل ماركس » على سبيل الختم أن يكون الحكم الأخير للآلة وأصر على ذلك .. ولم يقع اختياره على العامل الآخر عامل الإرادة والعقل والحياة ؟ .

يقول الدكتور دى نوى — أحد علماء معهد روكنتار ومعهد باستور في كتابه « مصير (١) البشرية » .. نحن نعيش في كون لا يحيط به إدراكنا ، فكل رأى نراه لا يمكن أن نسلم بأنه حقيقة لأنه رأى نسبي ، وفي هذا الكون الجبار نجد العلم يعث بأجزاء ضئيلة من المعرفة ولكن المهاوى التي تفصل بين ما نعرفه من الحقائق إنما هي مهاو شاسعة عميقة .. وقد استحال علينا حتى اليوم أن نعرف معرفة دقيقة كيف رفع الستار عن مسرح الكرة الأرضية لتبدأ تراجيديا الحياة وروعة تطورها .

(١) نقلا عن كتاب « الإسلام ضرورة عالمية » لزهرة عزب الزغبي .

ومن المستحيل أن نعزو إلى المصادفة المحضة ما تفرّضه عن بدء الحياة وارتقاءها إلى عجائب العقل البشرى ، فعلى الرغم مما يزعمه بعض الماديين من أن المصادفة وقوانين المادة تتحكم تحكماً مطلقاً في كل ما هو عرضة للفناء فإن الإنسان — وينطبق عليه هذا الوصف — حر في تصرفاته ، له أن يفعل هذا الأمر أو ذاك ، فأين هو تحكم المصادفة أو قوانين المادة في أفعاله ؟

ولما كان الإنسان حراً في أن يطيع غرائزه الحيوانية التي تليح له قدراً من المتعة الحسية ، أو أن ينشد غرضاً من ضرب آخر له أى قدر من سمو المقصد أو نبيل الدافع ، فلكي يبلغ ذلك الغرض عليه أن يناضل غرائزه الحيوانية القوية ، وكثيراً ما يعذبه هذا النضال ، بل يبدو وكأنه يستعذب ما في هذا النضال من ألم ، وقليل ما هم هؤلاء الذين يتجشمون في سبيل الهدف . ولكن هذه القلة هي التي كان لها شأن عظيم في التطور ، وعلى عكس الثلوج التي تذوب على قمم الجبال فتندفق على السفح لتصبح في السهل جداول وأنهاراً ، تسير بتؤدة نحو مصبها في البحر ، فهي في كل خطواتها تستجيب لناموس لا يرد هو قانون الجاذبية ، فان تطور الحياة قد صعد — وفق نظام غامض — من أسفل إلى أعلى ، ولم يغفل العلم عن البيانات التي يدل عليها هذا التناقض ، حتى نرى أشد الماديين عناداً مضطراً إلى التسليم بوجود قوة مجهولة ، ولم يكن هؤلاء من بد سوى أن يطلقوا اسماً على هذه القوة المجهولة لكي يتمكنوا من أن يدخلوها في نطاق تفكيرهم ، ولما كانت جوائنهم منطوية على نفور من اسم الله سبحانه وتعالى وصفوها بقولهم « عدو المصادفة » وما داموا يعترفون بوجودها فإيسموها بما شاءوا .

إن هذه النظرية تغرق نفسها في حصر التفسير العقلي للعمل الإنساني ، بحيث تنسى أن هناك شيئاً من مجهود الإنسان لا يمت إلى العقل بطبيعته .

كتب برتراند راسل يقول : « إن الأحداث الضخمة في حياة العالم السياسية تتقرر عن طريق التفاعل بين الأوضاع المادية والعواطف الإنسانية » .

ومن الواضح أن عقل الإنسان وذكاءه يستطيعان أن يلعبا دوراً في تعديل العواطف ، ولكن من الجلي أيضاً ، أن مثل هذا التعديل ان وقع ، لا يبدو أن يكون جزئياً . وعندما نقوم تبعاً لذلك بتقييم طبيعة أى نظام اجتماعي ، علينا أن نقيم مقاييسنا لا على مجرد ما تركه طريقة الحصول على الخبز في هذا النظام من أثر على الناس فحسب ، بل على ما في النظام من فرص تؤثر تأثيراً كلياً شاملاً على هؤلاء الناس ، وترضى لهم نزعاتهم الرئيسية .

وقد يختار الناس نظاماً اقتصادياً أقل فائدة ونفعاً ، حتى ولو كان هذا النظام قد استنفد أغراضه ، وذلك لأنهم يؤثرون نتائج النفسية ، على ما في نقيضه من مزايا (١) .

إن الاعتراض على النظرية المادية بأنها تعد العوامل الاقتصادية المؤثر الوحيد في تطور التاريخ الإنساني ، قد عالجته « فردريك أنجلز » فقال :

« إن الذي نفهمه عن الأحوال الاقتصادية التي نعدها الأساس الذي يعين تاريخ المجتمع هي الوسائل التي ينتج بها أفراد المجتمع البشرى وسائل عيشهم ، ويتبادلون بواسطتها المنتجات فيما بينهم ، وهذا يشمل إذن فن الإنتاج والنقل .

(١) هارولد لاسكي : الشيوعية ، ص ٦٣ - ٦٤ .

إننا نعتبر الأحوال الاقتصادية العامل الذى يعين فى النهاية التطور التاريخى .

ولكن هناك نقطتان يجب عدم اغفال شأنهما :

أولاهما : أن التطور السياسى والقضائى ، والفلسفى والدينى والأدبى يركز على التطور الاقتصادى ، ولكن هذه جميعاً يؤثر الواحد منها فى الآخر وكذلك تؤثر فى الأساس الاقتصادى ، وإذن ليس المركز الاقتصادى هو السبب الوحيد الإيجابى الفعال بينما ما عداه ذو أثر سلبى ولكن هناك تفاعلاً مشتركاً على أساس الضرورة الاقتصادية .

وثانيتهما : أن الناس يصوغون تاريخهم ، لابتناء على إرادة إجماعية ، أو حسب خطة إجتماعية أو حتى فى مجتمع محدود معاوم ، ولكن جهودهم تصادم ، ولهذا السبب وحده نجد أن هذه المجتمعات جميعها تحكمها الضرورة التى تحكمها الصدفة أو تبدو بمظهر الصدفة ، ولكن هذه الضرورة هى فى النهاية ضرورة اقتصادية .

وجاء فى كتاب « أسس الماركسية اللينينية » :

« إن الإدراك الحسى يتعلق دائماً بالفرد وبالوقائع العمالية ، وبالأوجه الخارجية للظواهر وهو يعكس كل هذا بدرجة كبيرة موضوعية . ولكن الإدراك المجرد يعكس الأعمال الداخلية للحقيقة ، لأنه لا يتبع الوجه الخارجى المحسوس للظواهر ، ولكنه يميز الصلات والعلاقات الجوهرية العميقة الموجودة عند جذورها . إن قوة الفكر تتمثل فى قدرته على تجاوز اللحظة وإدراك تطور الماضى وتطور المستقبل » بواسطة القوانين الموضوعية التى اكتشفها . وإن الفكر عملية نشطة وهى عملية خلق الأفكار والتفاعل معها ، غير أن الفكر ونتائج « الإدراك » متصل بالعالم الموضوعى ، ليس اتصالاً مباشراً ، ولكنه اتصال غير مباشر خلال نشاط الإدراك الحسى ، وفائدة الإدراك الفكرى أنه غير مقيد بالوقائع المحسوسة ، غير متوقف عليها نسبياً ، ولهذا فهو قادر على الدراسة النظرية وتحقيق الظواهر على تقريب غير محدود للحقيقة المجردة وانعكاس أكثر وأكثر دقة للعالم (١) .

وهكذا تراجع أنصار التفسير المادى للتاريخ عن رأيهم ، لمنح العقل حق التمييز عن المادة .

لقد منح كارل ماركس الانتاج خاصية التطور « الديالكتيكى » الدائى فهى قاموس الكون كله ، ومنهج حتمية معناها ضرورة سيادتها وأن معارضتها لن توقفها ولن تكون إلا تعبيراً عن الجهل والجمود . وسمى إطاعة هذه القوانين « وعى الضرورة » .

إن الجدل هو شريعة هذه الفلسفة والعمل به هو عبادة فرضت على المؤمن به . « رأيت (٢) أناساً يبطلون الأديان فى العصر الحديث باسم الفلسفة المادية ، فإذا بهم يستعبدون من الدين كل خاصة من خواصه ، وكل لازمة من لوازمه ، ولا يستغنون عما فيه من عناصر الإيمان والاعتقاد ، التى لاسند لها غير مجرد التصديق والشعور ، ثم يجردونه من قوته التى يبثها فى أعماق النفس ، لأنهم اصططنعوه اصطناعاً ، ولم يرجعوا به إلى مصدره الأصيل ..

(١) Fundamentals and Marxism — Leninism P. 102 — 193 '1

(٢) عباس محمود العقاد : المأساة القرآنية ص ١٢ .

فالمؤمنون بهذه الفلسفة المادية ، يطلبون من شيعتهم أن يكفروا بكل شيء غير المادة ، وأن يعتقدوا أن الأكوان تنشأ عن هذه المادة ، في دورات متسلسلة ، تنحل كل دورة منها في نهايتها لتعود إلى التركيب في دورة جديدة ، وهكذا دواليك ، ثم دواليك إلى غير انتهاء.

ويطلبون منهم أن ينتظروا النعيم المقيم على هذه الأرض ، متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعية . فان زالت الطبقات الاجتماعية في هذه السنة أو بعدها ببضع سنوات فتلك بداية الفردوس الأبدى ، الذى يدوم مادامت الأرض والسموات ، وتنتهى إليه أطوار التاريخ ، كما تنتهى بيوم القيامة ، في عقيدة المؤمنين بالآديان .

ولا يكلف دين من الأديان أتباعه تصديقاً أغرب من هذا التصديق ، ولا تسليماً أتم من هذا التسليم . ولا يخلو دين الفلاسفة المادية من شيطانه ، وهو « الرأسمالية » الشيئية العسراء . فكل ما فى الدنيا من عمل سوء ، أو فكرة سوء ، فهو كيد من هذا الشيطان الماكر المريد .

وكل ما فيها من عمل سوء أو فكرة سوء بزول ودول ، وتحل في مكانه بركات الفلسفة المادية ورضوانها ، متى سار الأمر إلى ملائكة الرحمة ، وذنب ذلك الشيطان إلى قرارة الجحيم .

ونناقش الآن فلسفة ماركس نفسها . ونسأل : ماهى قوى الانتاج ؟ كيف تأتى إلى هذا الوجود ؟ أهى حقاً العوامل الأولية في تطور الإنسان ؟

إن قوى الانتاج هى القوى التى يستخدمها الإنسان في الانتاج الاقتصادى ، من صفات الخصب في التربة ، والخواص التى تتميز بها المعادن والقوى الآلية والكيمائية في الطبيعة وحرارة الشمس وقوة البخار والكهرباء وكذلك قوى الحيوانات والإنسان نفسه . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هذه القوى وجدت منذ وقت غير معروف ، قبل أن يبرز فجر المدنية بكثير ، ومع تقدم الزمن اتسع عقل الإنسان فكتشف هذه القوى الكامنة في أعماق الطبيعة وأراح الحجاب عنها وسخرها لفائدته .

وتاريخ الإنسان حافل بالشواهد التى تؤكد أن ذكاء الإنسان كان العادل الأول في اكتشاف هذه القوى . ولنفرض أن المصادفات كشفت للإنسان عن كثير من قوى الطبيعة الخفية . فاذا كان هذا هو الأمر فإننا نقر بأن عدداً غير قليل من الاكتشافات يجب أن يكون من نصيب الحيوانات ، ويجب أن تكون الحيوانات لدينا قد أتت بالكثير من المخترعات المدهشة ، لأن المصادفات لا بد أن تكون قد صحبتهم هم أيضاً . ولكن التاريخ لا يدعم هذا القول . فلم يكن للحيوان اختراع ما لأنه ينقصه موهبة التفكير البناء الذى هو أمر ضرورى للاستفادة منه فائدة — كامنة ، ثم إن هذه الاكتشافات لم يتوصل إليها كل مخلوق ذى عقل ، ولم يحظ باكتشاف الأشياء الجديدة ووضع القوانين الجديدة وإزاحة الاستار عن المواد الجديدة المكنوزة في باطن الأرض أو في الفضاء إلا ذوو الذكاء الحاد من بنى الإنسان .

إن هذه الحقيقة تنكر إدعاء كارل ماركس ، فهو يرى أن تطور قوى الانتاج يقرر كيان المجتمع الاجتماعى والسياسى ، بينما يكشف التاريخ أن عقل الإنسان هو الذى يكتشف وينمى قوى الانتاج واحدة بعد الأخرى .

ويرى ماركس أن أسلوب الانتاج هو القالب الذى بموجبه تنمو أنظمة الأمة ، وأنه الأساس الذى عليه يرتفع صرح الحياة السياسية والاجتماعية لاية أمة . وأن وعى الأمة لا يقرر شكل وجودها ، وإنما شكل الحياة الاجتماعية هو الذى يعين وعيها . إنه يقول :

« إن مجموع علاقات الانتاج هذه يكون الهيكل الاقتصادى للمجتمع — وهو الأساس الحقيقى الذى يقام عليه الكيان القانونى والسياسى والذى ترجع إليه أشكال معينة من الوعى الاجتماعى » .
إن أسلوب الانتاج للحياة المادية يقرر مجرى الحياة الاجتماعى والسياسى والعنلى بصورة عامة ، وأنه ليس وعى الإنسان هو الذى يقرر حالة وجوده وإنما حالته الاجتماعية هى التى تقرر وعىه » .

والشئ المنطقى الذى يتبع هذا أن أسلوب الانتاج هو العامل الحاسم فى حياة الفرد أو المجتمع .
لذا فان الأشخاص أو المجتمعات التى تواجه نفس النوع من المشاكل يجب أن تتصرف بنفس الأسلوب ولكن هذا غير حقيقى ، فالرجل الذى يواجه فقراً مدقعاً يستطيع أن يسلك احدى سبل عدة : فهو قد ينهى حياته بطلقة من مسدس ، وقد يندفع إلى السرقة ، أو يتخذ سبيل الاستجداء .

أما أى هذه السبل يسلك وأىها يرفض فأمر يعتمد على تكوينه الفكرى وميوله الشخصية وتربيته .
هنالك عوامل كثيرة تساعد على اتخاذ قراره ، إنه دون ريب واقع تحت تأثير الوضع الاقتصادى ،
ولكن الوضع الاقتصادى لا يقرر حياته ،

وشبيه بذلك الجماعات والأمم : فقد كانت ثروة الهند التى نزع الاستعمار البريطانى النصيب الأكبر منها هى بداية تكوين المدخرات البريطانية التى استخدمت فى تطوير الزراعة والصناعة فى بريطانيا .

وإذا كانت بريطانيا قد وصلت إلى مرحلة الانطلاق اعتماداً على صناعة النسيج فى « لا نكشير » ،
فان تحويل مصر إلى حقل كبير لزراعة القطن كان شرياناً متصلًا ينقل الدم إلى قلب الاقتصاد البريطانى على حساب جوع وفقير الفلاح المصرى .

وهناك تجارب أخرى للتقدم حققت أهدافها على حساب زيادة شقاء العامل واستغلاله ، إما لصالح رأس المال أو تحت ضغط تطبيقات مذهبية مضت إلى حد التضحية بأجيال حية فى سبيل أجيال لم تطرق بعد أبواب الحياة .

يتضح من هذا المثال أن أمماً مختلفة تعيش فى نفس الظروف الاقتصادية ، وفى نفس أساليب الانتاج اتخذت طرقاً متباينة وفقاً لمشيئتها .

لذا فالقول بأن الوضع الاقتصادى أو أسلوب الانتاج يقرر كل أشكال نشاط الإنسان بجانبه الصواب .

إن الطريق الذى يختاره شعب ما يعتمد على عوامل عدة هى : النمو العنلى الذى نماء ، والمنهج الأخلاقى الذى ينتهجه ، والبيئة الجغرافية « ١ » .

وفى إطار الفهم الماركسى للطبقة بمعناها الاقتصادى فان أحداً لا ينكر العامل الاقتصادى فى فهم تاريخ كل مجتمع ، كما أن دراسة أى مجتمع لا تشمل دراسة طبقاته بمعناها الاقتصادى ووظائفها وتطورها والعلاقة بينها وإمكان الدخول إليها والخروج منها لا بد أن تكون دراسة قاصرة . والنظر إلى تاريخ المجتمعات باعتباره تاريخ الصراع الطبقي يعد من قبيل تبسيط التاريخ .

فالصراع جوهر الديناميكية التى تنقل الجماعات البشرية من حالة إلى أخرى .

(١) عبد الحميد صديق : فلسفة التاريخ ، ترجمة كاظم الجوادى ، ص ٩٦ .

يقول الله عز وجل :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » (١) ، إن الصراع يحمل معاني تتعدى المسألة الطبيعية فهناك صراع العقائد أو الصراع الفردي ... الخ . ونظرة عجيلى على التاريخ نجد العديد من الأمثلة التى لا تفسر لها من خلال التفسير المادى لتاريخ . كان آلاف «٢» اليهود المشتمين ، يتجمعون عادة فى أحياء يهودية خاصة بهم ، فى أنطاكية ، والاسكندرية وكورنثيا ؛ وكان اليهود بالفعل — ما عدا فى فلسطين — فى الأغلب مشتملين بالبيع ، والتجارة ، وتسليف الأموال ، وشئون الثقافة ، منعزلين عن البلاد . ويتضح حتى من هذه الصورة المجردة أن هناك ما يفرق بين اليهود والفلسطينيين ، والمالكين ، والمعابين ، والعاموريين ، وكل الشعوب المجاورة التى نجد أسماءها مبعثرة فى العهد القديم . وهذا الفارق ، فى أبسط صورة له ، هو الإصرار على البقاء ، وعلى أن يكونوا يهودا ، وأن يكونوا شعبا : والآن بعد ألفى عام من تاريخ تحطيم الرومان لدولة اليهود ظهرت مرة أخرى على الخريطة السياسية فى فلسطين المغتصبة .

وليس هناك اجماع فى الرأى عن السبب الذى جعل لليهود هذا التاريخ القذ : وبستطيع اليهودى المتدين — بطبيعة الحال — أن يزعم أن الله خلق اليهود واحتفظ بهم ، وسوف ينفى بوعده بالمسيح . ولكن المرء الذى يحاول تفسيراً طبيعياً أو منطقياً لا يجد هذا الحل المبسط بين يديه .

وهناك من يعتقد أن اليهود هم فعلا جنس بشرى ، ولهم فى الواقع صفات بدنية ، وعقلية موروثة هى التى وجهت تاريخهم وجهته .

ولا يقبل اليوم أى طالب جاد ممن يدرسون العلاقات البشرية أمثال هذه العقائد الساذجة فى الجنس والوراثة الجنسية . غير أنه من الواضح أن التفسير السائد المعاصر للعلاقات البشرية الذى يأخذ الظروف الاقتصادية والبيئات الجغرافية فى الاعتبار ، والتفسير المادى للتاريخ ، هو — بالرغم من ذلك — فى هذا الصدد غير شاف . لأن الظروف المادية التى نشأ فيها المعابيون ، والمالكيون ، والعاموريون ، وغيرهم ممن لم نذكر ، كانت على الأرجح مطابقة للظروف التى عملت على تشكيل اليهود على صورتهم .

ولنما يجب أن نبحث عن جانب من جوانب تفسير ما جعل لليهود صفتهم الخاصة فى تاريخ الفكر . ولو سلمنا بأن الفارق بين اليهود وبين جيرانهم هو — بتعبير مجرد مألوف — إيمانهم فى النهاية بوحداية خلقية رفيعة ، بقى أن نسأل : ولماذا تمسكوا وحدهم دون جيرانهم بهذه العقيدة ؟ وكيف نفسر هجوم الفرس على المدن اليونانية ، ثم الهجوم اليونانى المضاد ؟ أو نشوء ونمو حضارة ما بين النهرين وصراعها الرهيب مع ما يعرف بمنطقة الهلال الخصيب ؟ أو الحروب الإسلامية الأولى التى قضت على الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية الشرقية ؟ أو الحروب الاستعمارية الغربية ضد الوطن العربى والتى تسترت تحت شعار الصليب ؟ .

(١) سورة البقرة : ٢٥١ .

(٢) كرين برنتن : أفكار ورجال ، ترجمة محمود محمود ص ١٣٠ .

كيف يمكن تفسير هذه النماذج وغيرها بالرجوع إلى فكرة الصراع الطبقي ؟
قد يرد المؤمنون بسلامة منطق التفسير المادى للتاريخ بأن الدراسة تبحث أحوال كل مجتمع على حدة
وتهتم بما بداخله من صراع دون النظر إلى الصراع بين المجتمعات .

وهذه فكرة مرفوضة فعندما تقدم الجزئيات تحليلاً كلياً متناسقاً ومتكاملاً فإنها تفقد معناها وفائدتها
الحقيقية ، فالصراع داخل كل مجتمع ، والصراع بين المجتمعات كل يؤثر ويتأثر بالآخر .

وعلى سبيل المثال فالصراع الطبقي فى الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم كموته
وعودته إلى الظهور بحدة خلال القرن التاسع عشر كان ظاهرة إجتماعية عامة شملت كل المجتمعات التى
توافرت فيها الشروط المهيمنة له . فضلاً عن أن ظهور الصراع الطبقي خلال هاتين الفترتين بشكل واضح
لم يحجب أشكال الصراع القومى والعقائدى والفردى ،

وهكذا يتضح أن فكرة الصراع الطبقي كمفتاح لفهم تاريخ المجتمعات بصرف النظر عن عنصرى
الزمان والمكان فكرة لا تستطيع التصدى لتفسير التطور التاريخي فضلاً عن أنه لا يمكن قبولها تاريخياً .
وسجل التاريخ حافل بالأمثلة التى تنافض النظرية الماركسية ، فقد كان حب الوطن أو الأمة أو
الانتساب إلى دين ما أقوى بكثير من الباعث الاقتصادى المجرد .

وفى المحاورة التى دارت بين ربيعى بن عامر مبعوث سعد بن أبى وقاص أمير جيش المسلمين إلى
الفرس ، وبين رستم قائد الفرس قبيل موقعة القادسية ما يجلى هذه الحقيقة ويوضحها ،

لما نزل رستم بالقادسية تلاحق به الناس حتى اعتموا من كثرتهم : والمسلمون ممسكون عنهم .
ولما أصبح ركب وأشرف على بعض أمراء السرايا من المسلمين وعرض إليه بالصلح على أن يجعل له
جعلاً ،

فقال له الأمير :

— إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، والله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم : ولقتالكم بعد أحب إلينا من
صلحكم .

فأرسل رستم إلى سعد أن ابعث لنا رجلاً نكلمه ويكلمنا ، فأرسل إليه « ربيعى بن عامر » : فلما
خرج إلى معسكر رستم وبلغ القنطرة احتبسه الذين عليها من جنود الفرس وأرسلوا إلى رستم :
— « إن رسولاً من المسلمين قد أقبل » .

فجعل رستم يستعد لملاقاته وشاء أن يسلبه لبه بما عنده فأمر ببسط البسط والتمارق ، ووضع سرير
الذهب وألبسه زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة كلها بالذهب وتمدد عليه ، ثم أمر بدخول الرسول .

فأقبل ربيعى على فرس له عجفاء قصيرة ، وسيفه فى خرقه . : ورمحه مشدود بعصب : واستمر
على فرسه حتى وقف على البساط فنزل عنها . وتلفت حوله يبحث عن شئ يربطها به فلم يجد إلا وسادتين
مزركشتين فشقهما وأدخل فيهما الحبل ثم ربط الفرس . ونظر إليهم فلم يجد من يحاول منعه ، فأيقن أنهم
إنما أرادوا إشعاره بالهوان والهوان . فهب واقفاً وتقدم نحو رستم .

فقالوا له : ضع سلاحك .

فقال : إني لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم وأنتم . دعوتونى فإن أبيتكم إلا كما أريد ؟
ولإلا رجعت .

فقال رستم : دعوه . هل هو إلا رجل واحد ؟ .

فأقبل ربيعى يتوكأ على رمحه وشاء استحراجهم . فراح يعمل برمحه فى التمارق والبسط ويقارب خطواته فلم يدع نمرقة ولا بساطاً إلا هتكه وأفسده ، ولما دنا من رستم ركز الرمح أمامه وجلس هو على الأرض وأخذ ينظر إليهم كأنه نمر . فقال له رستم : ما جاء بكم ؟

فقال ربيعى : الله جاء بنا : وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وأرسلنا بدينه إلى خلقه فمن قبل منا قبلنا منه وتركناه وأرضه ، ومن أبى قاتلناه حتى نفيء إلى إحدى الحسينين — الجنة أو الظفر .

فسأله رستم أن أخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا فيه .

قال : نعم : كم أحب إليكم ، أيوم أم يومان ؟

فقال رستم : لا . بل حتى نكتب أهل الرأى من رؤسائنا وقومنا .

فقال ربيعى : إن مما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا ، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاثة أيام فنحن مترددون عنكم ثلاثاً فانظر فى أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاثة من الأجل :

اختر الإسلام ، فندعك وأرضك : أو الجزية ، فنقبل منك ونكف عنك ، وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه ، وإن كنت لإيئه محتاجاً منعناك . أو المنازلة فى اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ، وأنا كفيل لك بذلك على أصحابى وعلى جميع من ترى .

فقال رستم : أسيدهم أنت ؟

فقال : لا . ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أديانهم على أعلامهم ، وهم يد على من سواهم .

فاختلى رستم برؤساء قومه ، فقالوا :

— معاذ الله أن نميل لدين هذا الرجل .

فقال رستم : ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأى .

وعادوا إلى ربيعى وجعل أحدهم يسخر من سيفه ومن نعمة الخلق ، فأخرج ربيعى سيفه من خرقته كأنه شعلة من نار ، ثم أعمدته ، وقال لهم وهو ينصرف :

— أنظروا إلى الأجل .

وخرج وتركهم فاغرى الأفواه من الدهشة .

وبعد انتهاء الأجل درات معركة رهيبة بين الجيش الإسلامى وجيوش رستم ، انتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً ، لأن قلوبهم كانت عامرة بالإيمان ، وكانوا يحاربون عن عقيدة ، ودفاعاً عن دين ، ولإعلاء كلمة الله فى الأرض .

يقول هو نشو فى كتابه : « علم التاريخ » :

« ليس بين الدراسات الاجتماعية التي غدا التاريخ وثيق الصلة بها ما هو أشد ازوماً للمؤرخ من علم الاقتصاد » ١. . إن جميع المفكرين المسؤولين قد عدلوا عن العقيدة المسرفة التي صاغها ماركس وأنجزوا والتي تفسر التاريخ تفسيراً اقتصادياً محضاً ، إلا أن المؤرخين معترفون بأن العوامل الاقتصادية لعبت دوراً بارزاً في جميع عصور النشوء الاجتماعي للعالم وبخاصة في العصور القديمة ؛ أيام كان الإنسان مضطراً إلى أن يكافح من أجل وجوده كواحداً متصلاً أعداء طبيعيين مساوين له في القوة وشدة المراس . ثم إن جميع الساسة مدركون أن الشؤون الاقتصادية قد عادت فأصبحت مرة أخرى في مقدمة الصوالمح الانسانية ، ولذلك كان التاريخ الاقتصادي في الآونة الحاضرة دون غيره من فروع التاريخ محل اهتمام الجمهور وعنايته .

وقد تخيل « رينولدنيو جهر » ٢ « عقد ندوة من ندوات البحث والنقاش اجتمع فيها مارتن لوتر وكارل ماركس لهذا الغرض ، وقام « نيو جهر » بدور المعلم السائل :

ويبدأ بهذا السؤال : ما هو الإنسان ؟

فيجيب لوتر أولاً بقوله : إن الإنسان مخلوق ساقط ، خلق في الأصل في حالة البراءة والطهر ، وأودعت فيه قوى تفرق القوى البشرية كما نعرفها اليوم . ولكنه هوى من هذه المرتبة العالية وفقد صورة الله . لقد سقط بسبب الكبرياء لأنه أنصاع إلى وسوسة الماكر ، ورام أن يكون مثل الله . وهذه الكبرياء متسطة حتى اليوم ، وخاصة في المجتمع ، حيث بنقض الإنسان على أخيه الإنسان كالطيور الجارحة ، والإنسان التقى طائر نادر الوجود . . والمجتمع في الواقع أفضل قليلاً من قفص تجتمع فيه الوحوش الضارية ، حيث يلتهم القوى الضعيف : والإنسان فاسد في احساسه وعقائه وإرادته ، بيد أنه يرفض بعناد هذه الحقيقة : وهو يضيف إلى خطايا الأخرى خطية الادعاء بأن له فضيلة لا يملكها : والخطية منسوجة خيوطها في كل نشاط بشري ، هي لعنة أن نقدر أن نحرر منها أنفسنا ، وحتى نعمة الله لا تقدر أن تحررنا في هذا الجانب من القبر : وما نسميه ارتقاء أخلاقياً أدياً إن هو إلا استبدال خطية بأخرى ، والإنسان أشبه بالفلاح الخمر ، الذي تركبه على دابته من جانب ، ليستط حلالاً من الجانب الآخر .

ثم يجيء دور ماركس ليجيب « ٣ » على السؤال فيقول :

— إن الإنسان هو نتاج الأحوال الاقتصادية التي يعيش فيها . ففي البدء في حالة الشيوعية البدائية المثالية ، كان هائناً سعيداً ، وعاش في انسجام وتوافق مع اخوانه .

ولكن بادخال الملكية الفردية حلت عليه اللعنة ، وحكم عليه بالثقاء والعناء والمنازعات : ذلك لأن الإنسان حيوان يعيش على القنص والصيد في نظام الطبقات ، وليس ثمة شريعة بين طبقات المجتمع غير شريعة الغاب ، قاتلاً أو مقتولاً .

ولا يقدر أصحاب النفوذ والباطان أي اعتبار آخر غير المصالح الذاتية ، وإن كانوا يحاولون دائماً إخفاء أطماعهم وجشعهم وراء إدعاءات محكمة قوامها الفضيلة والغيرة والخدمة العامة . فالمجتمع

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ص ١١٩ .

(٢) ولد رينولد نيوبهر في ٢١ يونيو سنة ١٨٩٢ وهو من أبناء الألاس الألمانية . تلقى علومه في كلية المهورست وجامعة بيل بأمر يكا . اشتغل راعياً لكنيسة ليل الإنجيلية . وفي سنة ١٩٢٨ عين استاذاً للأخلاق المسيحية وفلسفة الدين بكلية أصول الدين في نيويورك .

(٣) حبيب سعيد : أعلام الفكر الأوربي ، ص ١٣٧ - ١٣٩ .

إذا مباءة للاستغلال ومستودع للتدمير والآنين ، وعلى الرغم من التقدم العلمى ، فان جماهير الكادحين لم يصبهم حظ من هذا التقدم ، ولم تفلح أية ثورة حتى الآن إلا فى إستبدال طبقة استغلالية بأخرى مثلها ، وفى كل مرة يقع المظلومون فريسة للخداع والتضليل .

وهنا ينبى المعلم السائل فيقول :

— شىء جميل : إنك يا ماركس تكاد تترجم بلغة السياسة كثيراً مما قاله لوثر بلغة الدين : ولكن لننتقل الآن إلى السؤال الثانى وهو :

إن كان هذا هو حال الإنسان البشرى كما تشخيصه ، فما العلاج الذى تقترحه ؟

يجيب لوثر على هذا السؤال باقتراحات ثلاثة :

إن المشكلة البشرية لن تحل إلا بنعمة الله وبإنجيل المسيح : إن الحياة فى هذا العالم فاسدة وشريرة والشهوات الرديئة تهتاج حتى فى قلب القديس ، ولكن هناك رحمة الله التى تحتملنا وتقبلنا . ولهذا وجب أن نعترف بأن كل برناقدارة ووسخ ، ونعتمد على المسيح وحده ، لا على شىء صالح فىنا .

وثانياً : بما أن لا أمل فى أن يقبل الإنجيل ويتبرر بالإيمان إلا أقلية ، فان الله قد أعد من فرط رحمته فى حالتنا هذه وسيلة للخلاص الزمنى . لذلك يحق لنا أن نطالب إلى السلطات التى عهد لإيها بالسيف أن تؤدب العصاة المتمردين ، وتكبح جماح الشهوات الثائرة ، وتوطد أسباب النظام والقانون ، لكى نتقبل فى هدوء وسلام تعزيات الإنجيل .

وأخيراً ، إن حالة العالم تنتقل من سىء إلى أسوأ ، لذلك وجب أن ننتظر فى رجاء عودة المسيح ونهاية هذه الحالة الأليمة الراهنة .

ويدلى ماركس بأدلتة مقننة كل اقتراح أبداه لوثر ، فالأقترح الأول ينبذه بخشونة وجفاء ، ويقول إن الدين خداع وتضليل ، وقد أثبتت لنا الوقائع القاسية بأنه مخدر لجماهير الكادحين ، يقدمه لهم سادتهم ، ورجال الدين الذين يستأجرهم أولئك السادة . وإن سامنا جدلاً بأن جوهر الدولة هو القوة ، فان ماركس لا يرى مسوغاً لأن يفيد أصحاب النفوذ والسلطان الحاليين باخضاع ضحاياهم وترويضهم على الطاعة والخنوع . والأولى ان يمسك هؤلاء الأخيرون بصولجان القوة ، ويجب أن تستعر حرب الطبقات إلى نهايتها المريرة حتى يتم النصر للمظلومين المكثودين : ومن الثابت يقيناً فى كل الشواهد السابقة ، أن الطبقة التى تستحوذ على القوة ، تعتمد بدورها إلى السلب والاستغلال . على أن هذا لن يحدث فيما بعد ، فانه متى استولت الطبقة الأخيرة على السلطان لا تجد شيئاً تستغله أو تسلبه ، وعند ذلك يزول نظام الطبقات ويسود العدل والانصاف ، وعمال العالم هم المنقذون المقدر لهم أن يخلصوا العالم .

ويعلق المعلم السائل على الندوة ، ويبين النتائج التى استخلصها فيقول :

— كما قلت من قبل ، إلى أجد مزيجاً غريباً من الاتفاق ومن الاختلاف فى موقف الاثنين . فمثلاً إن كان الإنسان قد سقط كما يقول لوثر ، فإن وصف ماركس للمجتمع يزودنا بصورة دقيقة للنتائج التى ترتبت على هذا السقوط . أما عن حل المشكلة ، فإني أميل إلى الأخذ بوجهة نظر لوثر فى الاقتراحين الأول والثالث .. كما أنى أشارك ماركس فى اقتراحه الثانى . وإنى أحسب التبرير بالإيمان هو الإمكانية

الوحيدة للفرد إن هو رام بلوغ السلام العقلى ، وهو أيضاً أساس الحياة الأخلاقية الأدبية . وإلى مقتنع أيضاً بأن الاعتقاد اليسير الهين فى التقدم والرقى الذى اعتصم به آباؤنا يجب العدول عنه . ذلك لأن التقدم العلمى لا يقضى على الشر ، بل قد يكون سلاحاً فتاكاً يعبث به الشر البشرى كما هو الحال فى تحطيم الذرة مثلاً . على أن ماركس واهم مخدوع فى بعض آرائه ، فهو يتخيل أن الطبقات العاملة ستكون بمنجاة من الطمع البشرى ، ولأنها ستجىء آخرها الكل ، ستزهد فى القوة والسلطان ، على أنه على حق حين يرفض التهذؤة التى يدغو إليها لوثر ، ويطالب باجراء سياسى لتوزيع القوى بين الجماعات والطبقات الاجتماعية .

أفلا نقدر أن نأخذ شيئاً من كل منهما ؟

أفلا نقدر أن نجعل ماركس مرشداً لنا فى العمل الإيجابى ، على أن نحتفظ فى الوقت عينه بآراء لوثر للتخفيف من شدة وطأة العمل الذى يدعو إليه ماركس ، وللاحتفاظ بدين شخصى ورجاء فى نهاية الحياة ؟ »

قال ماركس وأنجاز : « لقد كان أمام المبادئ المسيحية الاجتماعية فرصة ثمانية عشر قرناً للتطور ، ولن تحتاج إلى تطور آخر على يد القسوس والمبشرين . وقد أباحت هذه المبادئ الرق فى العالم القديم . وغطت عبودية الإنسان فى الأرض فى العصور الوسطى . وهى على استعداد إذا لزم الأمر للدفاع عن ظلم الطبقات العامة مهما أطرقت جباهها ، وتعاليم المسيحية الاجتماعية لا تعارض فى وجود طبقة حاكمة ذات سلطان ظالم ، وكل ما تقدمه للناس هو أمل المتقين فى أن يتحول الحاكمون إلى الخير .

والمبادئ الاجتماعية المسيحية تنقل مشكلة علاج أمراض المجتمع إلى العالم الآخر ، وتبرر بذلك دوام هذه الأمراض على الأرض . والمبادئ الاجتماعية المسيحية تعلن أن شرور الظالمين التى تقع على المظلومين إنما هى عقاب لهم عن ذنب أتوه أو متاعب اختارت حكمه الله التى لا نعرفها أن تقع على المختارين من عباده . والمبادئ الاجتماعية المسيحية تبشر بالجن والانشطاط بالنفس وقبول الأمر الواقع والخضوع والدلة وبالاختصار كل الصفات الدنيا ، وطبقة العمال لا ترضى أن تعامل هذه المعاملة .

إننا نحتاج إلى الشجاعة والثقة والكبرياء والاستقلال أكثر مما نحتاج إلى الخبز ، والمبادئ الخلقية المسيحية ماثوية وغير صريحة ، ولكن طبقة العمال ثورية » ،

إن ماركس يشن هجوماً شديداً على الأديان ، وهى فى حقيقتها ثورات استهدفت تحرير الإنسان من كل ما يعوق تقدمه ورقبه مادياً وروحياً . ولكن ماركس يرى أن الدين « نفثة المخلوق المضطهد ، وشعوره بالدنيا التى لا قلب لها . إنه أفيون الشعوب » .

ويتفق « ماركس » « وأنجلز » على أن الدين كما قال « أنجلز » فى الرد على « دهرنج » :

« ينشأ قبل أن تنهج الوسائل التى يكسب بها الإنسان معيشته ، وأن الإنسان يواجه الطبيعة مباشرة فى تلك الحالة فتتقف أمامه الطبيعة قوة غالبة غامضة يعبد منها مالا يدركه . . وما الدين إلا انعكاس القوى الظاهرية التى تسيطر على معيشته اليومية » .

إن تحليل العقيدة الدينية بضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من القوى الطبيعية والأحياء ، فلا غنى له عن سند يبتدعه ابتداءً ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلاوات في مصائبه وبلواه .

على أن القول بضعف الإنسان تمهيد حاصل إن أريد به بطلان العقيدة الدينية وإثبات التعطيل لأن الإنسان ضعيف على كلا الفرضين فليس من شأن ضعفه أن يرجح أحد الغرضين على الآخر .

فإذا ثبت أنه من خالق إله فعال قدير فهو ضعيف بالنسبة إلى خالقه ، وإذا لم يثبت ذلك فهو ضعيف بالنسبة إلى الكون ومظاهره وقواه . لكن الواقع أن الضعف لا يعال العقيدة الدينية كل التعليل لأنها تصدر من غير الضعفاء من الناس وليس أوفر الناس نصيباً من الحاسة الدينية أوفرهم نصيباً من الضعف الإنساني سواء أردنا به ضعف الرأي أو ضعف العزيمة . فقد كان الأنبياء والدعاة إلى الأديان أقوياء من ذوى البأس والخلق المتين والهمة العالية والرأى السديد . ومهما يكن من الصلة بين ضعف الإنسان واعتقاده فهو لا يزداد اعتقاداً كما ازداد ضعفاً ولا يضعف على حسب نصيبه من الاعتقاد وما زال ضعفاء النفوس ضعفاء العقيدة ، وذوو القوة في الخلق ذوو قوة في العقيدة كذلك .

فليس معدن الإيمان من معدن الضعف في الإنسان وليس الإنسان المعتقد هو الإنسان الواهي الهزيل ، ولا امام الناس في الاعتقاد أمامهم في الوهن والزال .

وإذا رجح القول بأن العقيدة « ظاهرة اجتماعية » بتلقاها الفرد من الجماعة فليس الضعف إذن بالعامل الملح في تكوين الاعتقاد لأن الجماعة تمارب الجماعة بالسلاح المصنوع وقوة الجنان مع القوة العددية . وتقيس النصر والهزيمة بهذا المقياس المعلوم فلا تاجاً إلى مقياس العقيدة المجهول إلا إذا آمنت به لباعث غير باعث التسامح والاستقراء .

ورأى « فرويد » قريب من رأى هؤلاء الذين يردون العقيدة الدينية إلى شعور الخوف في وسط العناصر الطبيعية وربما اختلط به مزيج من الغريزة الجنسية في بعض المهوسين وذوى الأعصاب السقيمة فإن حب الله كما يفسره « فرويد » عند هؤلاء هو بمثابة الحب الجنسي في حالة « التسامى » أو حالة « الحماسة » ، وتشابه العراض كلها مع هذا الفارق بين الحبين .

ومن الواضح أن حالة التسمي هي آخر ما ارتقت إليه الأديان فلا يمكن أن يقال إنها ينبوع العقيدة الهمجية الأولى .

ولا يمكن كذلك أن يقال إن العقيدة الدينية حالة مرضية في الآحاد والجماعات لأننا لا نتخيل حالة نفسية هي أصح من حالة البحث عن مكان الإنسانية من هذا العالم الذى ينشأ فيه . ولا يتجاهل حقيقته إلا وهو في حالة مرضية أو حالة من أحوال الجهالة تشبه الأمراض (١) .

وتاريخ الإسلام يدحض هذه النظرية .

إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه تؤكد أنهم تجردوا من الدنيا وضحوا بأثمن ما في الوجود في سبيل نشر هذا الدين ، لقد ضحوا بأرواحهم .

(١) عباس محمود العقاد : كتاب « الله » ص ١٨ - ٢١ .

كتب (١) : « واشنطن إيرفينج » وهو أمريكي كان سفيراً لدولته في أسبانيا أواخر القرن التاسع عشر . كتاباً عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم قال فيه وهو يبحث البواعث التي حملته على دعوته : « أكانت الثروة ؟ لقد أفاده زواجه من خديجة الغنى ، فظل سنوات قبل الوحي لا يبدي رغبة في زيادة ثروته ، أم كان يطلب المنازل المملوكة ؟ لقد كانت منزلته عالية في قومه وكان معروفاً بينهم بالفضل والأمانة ، وكان من قريش ومن أكرم فرع فيها ، وكانت سدانة الكعبة وما تفيده من العز والسلطان في أسرته منذ أجيال ... وكان من حقه أن يتطلع إليها فلما قام يحاول أن يهدم الدين الذي نشأ عليه قومه اقتلع جذور هذه المزايا جميعاً ، فقد كانت ثروة أهله ومنزلتهم قائمين على هذا الدين ، فهاجمه وجر على نفسه عداوة أهله ، وغضب مواطنيه وسخطهم جميعاً »

هل كان هناك في بداية سيرته النبوية ما يبعث الأمل أو يعوض هذه التضحيات ؟ إن الأمر كان على النقيض ، فقد بدأ محاذراً متوخياً الكتمان وظل سنوات لا يوفق ، وعلى قدر توسعه في بث دعوته ، وإذاعة رسالته ، كان يشتد ويعظم ما يلقي من العتب والسخرية والأذى والاضطهاد ، واضطر بعض أهله وأنصاره أن يهاجروا إلى بلاد أخرى ، واحتاج هو نفسه آخر الأمر أن يهاجر إلى بلد غير مكة ، فلماذا كان يصبر كل هذه السنوات الطويلة على « رجل » يسلبه كل متاع الدنيا في سن لا تسمح بأن يبدأ المرء حياته مرة أخرى ؟ فما قام بالدعوة إلا بعد الأربعين ، وقضى في مكة ثلاثة عشر عاماً ، وكان تاجراً حسن الحال فهاجر منها فقيراً معدماً لا يعرف ما كتب الله له في غيبه من النصر ، ولا ينبغي أكثر من أن يبنى مسجداً يعبد فيه ربه ، ولا يرجو إلا أن يعبد الله في سلام ، ولما جاءه النصر لم يتكبر ولم يتجبر ، ولم يغتر ، محافظاً وهو في أوج قوته ، على بساطته أيام ضعفه : وجاءه نصر الله بعد الهجرة ، ولكن الأيام لم تجر كلها على صعيد واحد ، وإذا كان قد انتصر كثيراً فقد انهزم أحياناً ، فلا النصر أبطره ، ولا الهزيمة أضعفت روحه أو فتت في عضده .

وكان عليه أن يضع للجماعة الإسلامية في المدينة القوانين والنظم في السلم والحرب وهو فيما أعلم الوحيد الذي بلغ الرسالة كلها ، وأتم عمله أجمعه في حياته ، فأكمل الدين وأسس الدولة ، ووضع القواعد كلها ، ووجه الأمة الجديدة الوجهة التي فيها الخير والصالح والعز : وليس لهذا مثيل في التاريخ - قديمه وحديثه - وهنا ينبغي أن نذكر مسافة الزمن التي تم فيها كل هذا ، كانت قصيرة جداً ، وأن دينه كان جديداً ، يخالف كل ما وجد عليه العرب ، وفي هذه المدة الوجيزة لم يغير للعرب عباداتهم وحدها ، بل غير نفوسهم أيضاً . ولا شك أن صرف امرئ عن عبادة حجر أو نحوه أهون جداً من صب النفس في قالب جديد .

وقد خلق من هؤلاء العرب المتنافرين المتعادين المتهاكين رجالاً يعدون في طليعة أبطال العالم ، وماذا كان هؤلاء جميعاً خليقين أن يكونوا لولا محمد ؟ ونعني بهم أبطال التاريخ الإسلامي من مثل الخلفاء والولاة والقواد والفقهاء .. أكان أحد يمكن أن يسمع بهم ؟

وليس من شك أنهم كانوا خلقاء أن يكونوا شيئاً مذكوراً بين قومهم ، ولكن قومهم أجمعين لم يكونوا شيئاً ، وما قيمة قوم انقسموا قبائل متعادية لا أثر لها في الحياة ، ولا يعابها حتى من يجاورها من الأمم ؟

(١) عن كتاب مواقف حاسمة في تاريخ محمد بن عبد الله / المؤلف طبعة دار الشهاب .

وليس من شك أنهم كانوا خلفاء أن يكونوا شيئاً مذكوراً بين قومهم ، ولكن قومهم أجمعين لم يكونوا شيئاً ، وما قيمة قوم انقسموا قبائل متعادلة لا أثر لها في الحياة ، ولا يعبأ بها حتى من يجاورها من الأمم ؟

ومن هذه العناصر خالق محمد أمة عظيمة فتحت الدنيا ، ونشرت الدين ، وأهدت إلى العالم حضارة كبيرة غيرت مجرى التاريخ الإنساني كله .

وفي التشريع الاقتصادي الإسلامي ما يهدم التفسير المادى فكيف نفسر إلغاء الربا والاحتكار وتحريمهما ومنع أن يكون المال دولة بين الأغنياء ، وكيف يحدد الاسلام وظيفة الملكية .. إلى غير ذلك من أصول الإسلام الاقتصادية . وكانت المرحلة — حسب التفسير المادى — تفرض عليه أن يكون غير ذلك ويتجاوب مع قوى الانتاج .

يقول « كيونو » (1) Cunow « المفسر المعروف لنظرية ماركس : « إن القبائل الرحل والتي تعيش على الصيد تنظر إلى المرأة لأن المرأة لا فائدة منها في الصيد وتربية الماشية وغير لا ثقة بدنياً للقتال الذي تكون هذه الشعوب المقاتلة مشتبكة فيه دائماً . ولكن لما أخذ الشعب بالزراعة وأصبحت هذه عملاً مهماً في المجتمع ارتفع مركز المرأة أيضاً في ميزان التقدير . فأخذ الرجال ينظرون إليها من زاوية ناعمة لا خشونة فيها . فأخذوا ينظرون إليها باحترام وتقدير .

إن السبب الأساسي لهذا التغير الجذري سبب اقتصادي محض . فبما أن المرأة أصبحت ذات فائدة للناس في نواح عديدة في غرس الأشجار وبذر البذور وجني الثمار .. مثلاً — ارتفعت مكانتها . ولكن هذا القول لا يثبت أمام التحصيل ، فلا يمكننا أن نجزم بأن المرأة كانت تحتقر عند كل قبائل العالم ، ففي مصر كانت المرأة دائماً موضع احترام كبير ، وكانت هناك شعوب عدة لا تحترم المرأة ، وعند الرومان ، كان مركزها القانوني ، مركز العبد .

ويستنتج مما قرره « كيونو » أن المرأة عندما أصبحت مفيدة في الزراعة فقد حظيت بالتقدير والاحترام . أي أن الإحترام هو لعمالها .

ونحن إذا صرفنا النظر عن الحقائق التي تثبت عكس هذا القول ، فإننا نجد أن العدل وحده لم يحقق السلطة والقوة ، وحتى في عصرنا الراهن فإن الكرامة والشرف اللذين يعطيان له محدودان جداً ، فهما موجودان بصورة عامة في الكلمات أكثر من الحقيقة . ففي كل الأوتات كان العمل يفرض على المرأة وعلى الضعفاء ؛ لقد كان العمل مفيداً للغاية ولكنه لم يكن شيئاً مكرماً . بل كان المكروهون هم الأقوياء الذين كانوا يسرقون البضائع التي ينتجها العمال . إن أنصار التفسير المادى للتاريخ يعرفون هذا سق المعرفة ، بل إنهم يؤكدونه تأكيداً شديداً ، فكيف يزعمون أن العمل الزراعى الذى قامت به المرأة جعلها تنال السلطة والقوة ؟

لأنهم لا يستطيعون أن يقرروا الأمرين . إن المرأة لم تتحسن أحوالها بمجرد أن المجتمع الإنسانى تحول من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة . إنما تحسن وضعها بالحركات الدينية التي قادها الأنبياء في الفترات

(1) نقلا عن كتاب « تفسير التاريخ » . ص ١٠٧ .

المختلفة من تاريخ البشر . فقد جاء في التعاليم المسيحية (١) : « لا يهودى ولا أغريقى ، لا عبد ولا حر ، لا ذكر ولا أنثى — كلكم واحد في يسوع » : فلما انتشر هذا المبدأ بين التابعين الأولين للمسيح : دخل النساء في المسيحية أفواجا : وهنا وجدت النساء أخيراً ديناً توافقهن مبادئه الكبرى ، ويمجد تلك الفضائل التي طالما علموهن أن يتحلىن بها ، ويرحب بهن شخصياً في حظيرته : وقد قامت الديانة المسيحية في أول عهدها على أكتاف النساء إلى حد كبير ، فكانت النساء مبشرات عاملات فيها ، يهن لها المال والحماسة ، ويؤدين الخدمات بأنفسهن ، وقد اعترف بهن قديسات ، وكانت لهن في مبدأ الأمر سلطة كبيرة . وكان حظهن من الحماية الدينية ، والاستشهاد في عصر الاضطهاد موفوراً ، وأصبحت القديسات منهن يباغن العشرات .

ومن المرجح أن تبوأ النساء هذا المركز البارز في الكنيسة الأولى كان عاملاً من عوامل نجاحها . وقد كانت هناك عوامل أخرى غير هذا العامل ، بيد أن النساء ساهمن بنصيب وافر في نصر الكنيسة . وكان مركزهن فيها من بين أسباب الظفر لا بحالة .

وقد فقد النساء مركزهن الخطير بعد ذلك ، وأصبحت المرأة حتى في بيت أبيها كالخادم . وما أن أشرق نور الإسلام حتى رفع شأنها الاجتماعي من جديد : يقول الله تعالى :

« يأياها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث متهمها رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً (٢) » .

هذه الآية وثيقة للمساواة والكرامة للمرأة : لقد كانت رسالة عظيمة لتحرير المرأة وإطلاقها من أسارها (٣) ، ورفع مستوى كرامتها . لقد ضمن الإسلام حقوقاً لم تكن قد نالتها من قبل ، وسأوى بين جنسها وجنس الرجل مساواة كاملة في القيام بجميع الأعمال .

حققت مبادئ الدين ثورة شاملة في وضع المرأة الاجتماعى : فهل يستطيع أحد بعد ، أمام هذه الحقائق الدامغة ، أن يزعم أن كل هذا إنما هو نتيجة العوامل الاقتصادية ؟

يجوز الادعاء بأن هذه الأوامر الإلهية نفسها تتبعه لبيئة المادية ، فان العوامل الاقتصادية وحدها هي التي ولدت هذه الأديان . أى أن ما جاءت به الأديان لم يوح به الله إلى الأنبياء وإنما هي متطلبات الزمن في ما يتعلق بالضرورة الاقتصادية ، هذا ما يزعمه أنصار المذهب المادى . ولكن أفكار ماركس لا تدعمها حقائق التاريخ فاذا كانت أساليب الإنتاج تعتبر حقاً القواعد الحقيقية التي تقرر كل البنيان الذى يشاد عليها ، والدين جزء من هذا البنيان ، فسنضطر إلى أن نصل إلى أن أسلوب الإنتاج نفسه يجب أن ينتج النوع نفسه من الحركات الروحية ونفس النوع من الأنظمة . ولكن الأمور في العالم تختلف تماماً . فنحن نجد أديانا متعددة تبيش كلها متجاوزة في نفس الظروف الاقتصادية : فاذا كان الدين مجرد

(١) السيدات : رأى سترانثى ، المرأة ومركزها وأثرها في التاريخ ، تاريخ العالم ، المجلد الأول ص ٣٩٣ - ترجمة محمود إبراهيم الدسوقي .

(٢) صورة النساء : ١

(٣) للنوع راجع كتاب « الدين والدولة العصرية » للمؤلف - طبعة دار الشعب .

انعكاس للظروف الاقتصادية التي يعيش فيها الناس ، فلا مجال لأكثر من دين واحد في وقت واحد .
ولكننا نجد أن الإسلام والمسيحية واليهودية والهندوكية والبوذية والزرذشتية وعشرات الأديان الأخرى
تسيطر على عقول إناس يعيشون في نفس الظروف الاقتصادية .

في الهند - مثلاً - عاش المسلمون والهندوس في نفس الظروف الاقتصادية ونفس النوع من أساليب
الانتاج مئات السنين ولكن هذه القوى ، رغم كل قوتها ، أخفقت في أن تصهر هذه الطوائف في كتلة
واحدة فهم اليوم يختلفون اختلافاً كبيراً في الدين كما كانوا يختلفون قبل آلاف السنين .

وصفحات التاريخ ، تحتوي على كثير من البراهين التي تدحض نظرية ماركس ، فقد نمت أنظمة
مختلفة في أحضان نفس البيئة المادية . إن الرومان ، وكذلك المسلمون الأولون - وفقاً للتقسيم الماركسي
للعهود التاريخية - ينتمون إلى مجتمع الرقيق ، بمعنى أن البنين الاقتصادي للمجتمع الروماني وكذلك
البنين الاقتصادي للمجتمع الإسلامي الأول كانا يرتكزان على قاعدة الاسترقاق ، وكلاهما كان يلجأ بنفس
وسائل الإنتاج ، وكانت أساليب التوزيع نفسها تقريباً ، ووفقاً للنظرية الماركسية - لا بد أن يكون
نظام الرق واحداً في كلا المجتمعين ، وكذلك يجب أن تكون نظرة السادة الرومان والسادة المسلمين
نحو عبيدهم متشابهة ، ولكن التاريخ يدل على عكس ذلك تماماً ، فالعبد في نظر الرومان لم يكن شخصاً
بل كان شيئاً ، وكان لسيده أن يقيه حياً أو يقتله .

أما معاملة العبيد عند المسلمين فكانت تختلف تماماً ، فقد فتح الإسلام كافة الأبواب لتحرير العبيد ،
وطلب مغالمتهم أفضل معاملة ، وحرّم على السادة أن يكلفوا عبيدهم فوق ما يطيقون ، فإذا كلفوهم
أعانوهم ، كما طلب إلى السادة أن يطعموا عبيدهم مما يطعمون ويلبسوهم مما يلبسون (١) .
ما أعظم الفارق بين نظرة الرومان ونظرة المسلمين نحو عبيدهم : هذا لغز لا يستطيع أنصار النظرية
المادية تفسيره تفسيراً علمياً .

إن ماركس - على حد تعبير « الكساندر جري » (٢) : « واضح أساطير ، فيها الحقيقة أمر ثانوي
ما دامت الأسطورة تصور ما يرغب في أن يعتقد ، وما دام في هذه العقيدة قوة تلهم العمل : هذه
الفلسفات لا داعي لأن تكون صحيحة في نفسها ولكنها يجب أن تتفق مع عواطف الجماهير المكافحة » .

(١) للتوسع راجع كتاب (العدالة الاجتماعية عند العرب) للمؤلف - مكتبة الأنجلو المصرية .

Alexander Gray, The Development of Economic Doctrine.

(٢)

الفصل السادس

الدين والتاريخ

« إن الأديان العليا تهيم للنفوس البشرية اكتساب رعية ملكوت الله على الأرض ، وهنا يتاح للإنسان المساهمة بقسط من الضالة في سير التاريخ الدينى ، وهو قسط يكفل له تأدية دوره فى الأرض » .

آرنولد توينبى *

لم يعرف التاريخ البشرى فترة لم يكن فيها الدين مؤثراً تأثيراً إيجابياً في حياة الإنسان : بقول جوستاف لوبون (١) « أول المسائل الأساسية في الأزمان الغابرة ، وفي الأزمان الحاضرة المسائل الدينية ، ولو أن الإنسانية رضيت بموت جميع آلهتها لكان هذا الحادث أعظم الحوادث التي تمت فوق وجه الأرض منذ ظهور المذنيات الأولى .

لا ينبغي لنا أن ننسى أن جميع الأنظمة السياسية والاجتماعية قامت منذ بداية التاريخ على معتقدات دينية ، وأن الآلهة هي التي لعبت أكبر دور في الحياة الإنسانية ؛ وأن الدين أسرع مؤثر في الأخلاق لا يدينيه مؤثر اللهم إلا الحب : والحب دين إلا أنه دين ذاتي غير دائم ،

والسبب في قوة الدين العظيمة كونه العامل الوحيد الذي تتوحد به وقتاً ما منافع الأمة ومشاعرها وأفكارها ، فيقوم المبدأ الديني بذلك دفعة واحدة مقام غيره من العناصر التي يتكون منها روح الأمة .

نعم لا يتغير مزاج الأمة العقلي بمجرد استيلاء دين على قلبها ، غير أن جميع القوى تتجه نحو غاية واحدة هي الانتصار للمعتقد الجديد وفي ذلك سر قوتها العظمى . لذلك نجد أن قدام الأمم بأعظم الأعمال كان في عصر هذا التطور الوقى أعنى عصر تدينها ، وتأسيس أكبر المسالك التي أدهشت العالم كان في عصر تدينها .

كذا اتحدت بعض قبائل العرب « بنمرة » محمد صلى الله عليه وسلم ، فاستطاعوا قهر أمم كانت لا تعرف منهم حتى الأسماء ، وشادوا تلك الدولة الكبرى .

والذي يجب الالتفات إليه قوة تمكن المعتقد في النفوس لا حقيقة المعتقد . لذلك ساد أتباع محمد « صلى الله عليه وسلم » وامتد ساطعهم على قسم كبير من الدنيا زمناً طويلاً .

وقد اعترف المؤرخ البريطاني هـ . ج . وياز بدور الدين في التاريخ « فالدين شيء نما مع قيام الترابط والاجتماع الإنساني كما نما بفضلله ، كما أن الله قد كشفه للإنسان ولا يزال يكشفه » . وهو يشير إلى أن « بدايات الحضارة وظهور المعابد شيئان متلازمان متآنيان على كثر التاريخ . فالأمران يسيران جنباً إلى جنب ، وبداية المدن هي مرحلة المعبد في التاريخ » .

— يرد أرنولد توينبي الحضارات إلى الأديان ، ذلك أن الامبراطوريات ليست هي مقياس الحضارة ، على العكس إنها تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة ، إذ تعتمد الأقلية المسيطرة على التوسع حين تنفقد مقومات الإبداع ، وهي لا تحمل إلا سلاماً مؤقتاً ولا تقدم حلولاً جذرية لمشكلات مجتمعاتها ، على عكس ذلك الأديان ، إذ وراء كل حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية ، فالعقائد الدينية هي التي تسير مجرى التاريخ وإذا كان هناك مستقبل للحضارة ما فذلك في حدود الدين وبسبب منه .

(١) جوستاف لوبون : سر تطور الأمم ؛ ترجمة أحمد فتحي زغلول ؛ ص ١٥٥ .

إن الأديان تظهر بين الجماهير وهى وإن احتاجت إلى حماية الدولة لها من أجل استكمال دورة حياتها فإن ذلك لا يعنى إطلاقاً إمكان أن تنبثق الأديان من بين السلطة الحاكمة أو أن يفرض الحاكم دينه على الرعية ، وكل محاولة لفرض دين أو مذهب عقائدى أو دينى فهى ليست فقط مكتوباً عليها الإخفاق — وإن نجحت مؤقتاً — إلا أنها تعد عقبة فى سبيل انتشار الدين أو المذهب ، دين الرعية أى أن يدين المالك بدين رعيته فى ذلك قوة للدين والدولة معاً أما أن يجعل الرعية على دينه هو فذلك ما لا يتم (١) .

وإذا كان ذلك هو دور الأديان السابقة ، فإنه للحضارات الماضية فما هو دورها فى الحضارات المعاصرة حيث لا مجال لظهور ديانات جديدة ؟

يرى توينبى أن الصراع كان قائماً فى الماضى بين الدين والفلسفة ، وإن حاول بعض الفلاسفة التوفيق بينهما ، أما الصراع الحالى فبين الدين والعلم (٢) ، ولا ينهى ذلك محاولة التوفيق بينهما ، وإنما أن يسلم الدين للعلم جميع المجالات التى هى من اختصاص الأخير ، على أن ذلك لا يعنى إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم ، فإن انتصار العلم على الدين انتصاراً ساحقاً يشكل كارثة على العالم والدين معاً ، إن أخطرت كارثة يواجهها العالم اليوم أن الجماهير — خصوصاً الغربية — قد استعاضت عن الفراغ الدينى بأيديولوجيات

(١) يذكر توينبى فى هذا الصدد نصيحة أحد مستشارى الإمبراطور سلف أكبر (ت ١٦٠٠ م) من أباطرة المغول : إن الدين والشريعة ليسا من مهام الماوك ولن تكون كذلك .

وحاول أحد رجال حكومة الإدارة إبان الثورة الفرنسية وضع دين جديد بدلا من المسيحية فاعترض وزير الخارجية يومئذ بقوله : إن يسوع المسيح لما وضع ديناً « صلب » ثم بحث من بين الأموات ويجب أن تسعى أن تكون كذلك أى أن تترك صفوف الحكم لتعتنق العمل كنبى من « الروليتاريا » .

وقد أخفقت المذاهب والأديان التى - حاول الحكام فرضها على رعاياهم : اخناتون مع سحر عقيدته فشل لأنه ملك ولو كان كاهناً لوفق إلى النجاح فى دعوته .

أخفق الخليفة العباسى المأمون فى حمل الناس على فكرة خناق القرآن .

هذا بالطبع غير حماية الدولة لدين قد فرض وجوده ثم اعتنقته الدولة مثل حماية الأكاسرة لدين زردشت أو اعتناق الإمبراطور قسطنطين للدين المسيحى .

« ٢ » بحث الإسلام المسلم على طاب العلم ، قال الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

ويقول الرسول (ص) : « طاب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

آيات القرآن التى تدفع الإنسان — بطريق مباشر أو غير مباشر — إلى تحصيل العلم فى صورته المختلفة — سواء فى صورته النظرية العقلية ، أو صورته الواقعية ، أو صورته التجريبية — كثيرة ومتنوعة .

قال الله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . « وفى السماء رزقكم وما توعدون » « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » .

لا تفرق عن الأديان البدائية من حيث وثنيها حيث عبادة الذات وإن تسرت تحت ستار القومية أو الإشتراكية — متمثلة في تأليه الدولة أو الحاكم ، الذين يعتبرون الأديان سرطانات مخطئون فان السرطان الحقيقي هو أن تحل الحضارات أو الأيديولوجيات السياسية محل الأديان لأن تحل الأديان محل الأيديولوجيات ؛ إن سيطرة الإنسان على الطبيعة لأقل أهمية للإنسان من إثراء الجانب الروحي فيه ، وإن ما نقوله اليوم ليس إلا ترديداً لما أعلنه سقراط منذ أكثر من ألفي عام : حين أعرض عن دراسة الكون للبحث في داخل الإنسان عن تلك الطاقة الروحية الكامنة فيه ؛ إنه لا أمل في استقرار السلام أو طمأنينة الإنسان إلا بالاستناد إلى الدين ؛ إن التاريخ يصبح قصة عابثة يرويها أبله إذا لم يكتشف الإنسان فعل الله الواحد الحق (١) .

ونحن إذا قلبنا صفحات التاريخ ، وتأملنا في نظم الأقدمين ، دون أن نمنع الفكر في معتقداتهم ، فسرى هذه النظم غامضة أشد الغموض ، ولا تفسير لها : لماذا وجد البطارقة (٢) ، والسوقة ، والأولياء ، والموالى ، والنسباء ، والوضعاء ، ومن أين أتت تلك الفوارق التي تولد مع الناس ولا تمحي ؟

وكيف تفسر الغرائب في القانون القديم ؟

وماذا كان يراد بالحرية التي يتكلمون عنها دائماً ؟

وكيف حدث أن أنظمة تبعد كل البعد عن كل ما نفهمه اليوم استطاعت أن تظل قائمة وأن تسيطر زمناً طويلاً ؟

وما هو المبدأ الأعلى الذي جعلها تسيطر على نفوس الناس ؟

ولكن لنضع المعتقدات الدينية قبالة هذه النظم ، فسرعان ما تصبح الوقائع أكثر جلاء ويعرف تفسيرها من تلقاء نفسه .

أما إذا ارتقينا إلى العصور الأولى للجنس البشري ، أى إلى الزمن الذي أسس فيه الإنسان أنظمته ، وأخذنا في الاعتبار الفكرة التي كونها الإنسان وقتئذ عن الكائن البشري ، عن الحياة ، وعن الموت ، وعن الحياة الأخرى ، وعن الجوهر الإلهي ؛ فاننا نلاحظ صلة وثيقة بين هذه الآراء ، وبين قواعد القانون العتيقة ، وبين المشاعر المشتقة من هذه العقائد ، وبين النظم السياسية .

كان الدين سبباً في قيام الحضارات ، فقد شاد الناس القصور للآلهة قبل أن يقيموها للملوك ، وما احتياج الناس الراسخ القوى المتين إلى الدين ، إلا مظهراً من مظاهر الطبيعة الإنسانية .

كما كان الدين سبباً في تكوين الوحدات السياسية والدينية الكبرى ، فقد كان المعتقد القائل بآلهة ذات قدرة محدودة نتيجة حتمية لتعدد الآلهة .

فلم يكن لأى من هذه الآلهة نفوذ مماثل لنفوذ بقيتها ، فكان هناك مثلاً تحت الثالث المؤلف من أقوى الآلهة جوبيتر وجونون ومنيرفا ، آلهة صغيرة ، ذات قدرة محدودة .

(١) في فلسفة التاريخ ؛ ص ٢٧٨ .

(٢) فومستيل دي كولنج : المدنية العتيقة ، ترجمة عباس بيومى وعبد الحميد الدواخلى ، ص ٣ ، ٤ .

وقد اكتسبت بعض المدن مركزاً ممتازاً بفضل شهرة آلهتها ، إذ ذاع صيت بعض الآلهة المحليين كآمون في طيبة ، وشماش وسير في بابل ، ولما كان الرئيس الأعظم للمدينة أو الإله الأعظم لا يقبل منافسين له ، فقد نشأ عن ذلك تطورات لها أهميتها . إذا اعترف بعض الرؤساء والآلهة المحليين بسيادة الحاكم الأعظم أو الإله الأعظم ، فتركز الدين لهذا السبب ،

بهذه الطريقة كان القطر يصبح كله وحدة سياسية ودينية كبرى ، مؤلفة من وحدات صغرى ، ويفسر هذا التطور كيف أصبح لبعض الرؤساء والآلهة في بعض الأحيان ، وظائف خاصة بعد أن كانت وظائفهم جميعاً متشابهة بعض الشبه أو كله . وكانت الوحدات المحلية تسترد استقلالها السياسى والدينى كلما تفككت وحدة النظام الكبرى (١) .

كان للدين تأثير عميق في حياة الإنسان منذ وجد على ظهر الأرض . يصف جوستاف لوبون أثر الدين في مصر القديمة فيقول (٢) : « وكانت الديانة عندهم أسوة بجميع الشرقيين وخاصة الهنود ، لما دخل في جميع أعمال حياتهم العامة والخاصة فيجدها الإنسان حتى في الكتابات النافذة وفي الأوامر الصحية وأوامر البوليس » .

والواقع (٣) أنه لا توجد قوة أثرت في حياة الإنسان القديم مثل قوة الدين ، لأن تأثيرها يشاهد واضحاً في كل نواحي نشاطه ، ولم يكن أثر هذه القوة في أقدم مراحلها الأولى إلا محاولة بسيطة ساذجة يتعرف بها الإنسان ما حوله في العالم ويخضعه بما فيه الآلهة لسيطرته ، فصار وازع الدين هو المسيطر الأول عليه في كل حين ، فما يولده الدين من مخاوف هي شغله الشاغل ، وما يوحى به من آمال هي ناصحه الدائم ، وما أوجده من أعياد هي تقويمه السنوى وشعائره — برمتها — هي المربية له والدافعة له على تنميته الفنون والآداب والعلوم .

على أن الدين لم يمس حياته في جميع نواحيها فحسب ، بل الواقع أن الحياة والفكر والدين امتزجت عنده بعضها ببعض امتزاجاً لا انفصام له يتكون منها كتلة واحدة تتداخل بعضها في بعض مؤلفة من المؤثرات الخارجية والقوى الإنسانية الباطنة . ولذلك كان طبيعياً ألا يقف الدين جامداً من غير أن ينسشى مع هذه العوامل الدائمة التطور من مرحلة إلى مرحلة .

لما كان التفسير المادى للتاريخ (٤) الذى قال به كارل ماركس وأنجاز يفسر دائماً الناحية المعنوية في المجتمعات بأنها تقوم على أساس تركيبها المادى ، ولما كان يجعل الحاجة الحيوانية شهوراً للتطور الإنسانى فقد كان هذا هو السبب نفسه في تفسيره الدين بأنه مجرد ظاهرة عرضية لا أهمية لها من الوجهة الاجتماعية . وقد كتب أحد أتباع ماركس ، فقال : « ما كان للدين أو الفلسفة أن يوجد دون الشروط الاقتصادية التى تجعل ظهورهما أمراً ممكناً » . فما كان للمسيحية أن توجد دون الانقلاب الذى صحب

(١) الدكتور أحمد عبد القادر الجمال : مقدمة في أصول النظم الاجتماعية والسياسية ص ٦٧ .

(٢) جوستاف لوبون : الحضارة المصرية ، ترجمة م . صادق رستم ص ٤٩ .

(٣) جيمس هنرى برستيد : فجر الضمير ، ترجمة الدكتور سليم حسن ، ص ٣٦ .

(٤) روجيه باستيد : مبادئ علم الاجتماع الدينى ، ترجمة الدكتور محمود قاسم ص ٢٠٥ - ٢٠٨ .

الفتوح الرومانية ، وما كان للمذهب البروتستانتي أن يوجد دون نشأة الطبقة المتوسطة ، ويرى هذا المذهب بصفة خاصة جداً أن نظام توزيع الأراضي يلعب دوراً هاماً ، ويفسر بعض الظواهر التي يبدو عليها غلبة الطابع الصوفي لأول وهلة مثل النبوات لدى اليهود أو مجيء المنقذ لدى المسيحيين : وهكذا لا تعكس أصول العقيدة والمعتقدات سوى المصالح الحيوية للطبقات الاجتماعية ، وسوى المنازعات الدينية والصراع بين هذه المصالح أو بين هذه الطبقات .

إن الظاهرة المضادة هي التي تحدث في أكثر الأحيان وذلك منذ الأزمان سحيقة البعد ، فتطور الدين هو الذي يغير النظام الاقتصادي لدى الشعوب .

وسنبين ذلك ببعض الأمثلة :

لقد وضع « جيفونس » و « فريزر » و « ريناخ » فرضاً يفسرون به أصول استئناس الحيوان ، وهو الفرض الذي يربط بين استئناس الحيوان وبين الديانة التوتمية . ففي الواقع لما اكتشف الهولنديون أستراليا كان أهلها يجهلون « ظاهرة » استئناس الحيوان . وقبل الكشف الأوربي لم يكن أهل أمريكا يعرفون من الحيوانات المستأنسة سوى حيوان « اللاما » : ومع هذا فانا نعلم عن طريق الكشف عن المغارات والمدن المشيدة على شواطئ البحيرات أن الناس قد استأنسوا الكلاب والثيران منذ زمن بعيد . فكيف كان هذا الأمر ممكناً ؟

من البديهي أنه كان من الضروري أولاً أن توجد حيوانات وحشية يمكن استئناسها كالحيل والماعز والأغنام . وفي البلاد التي لم تكن هذه الحيوانات موجودة فيها كأمريكا لم يكن من الممكن أن توجد ظاهرة استئناس الحيوان .

أما في البلاد التي توجد فيها فقد كان من الضروري أن يمر الإنسان بتجارب طويلة حتى يستطيع التمييز بينها وبين الحيوانات التي تظل عصية على الاستئناس .

وفيما عدا هذا فما كان من الممكن أن ينجم الاستئناس عن الصيد مباشرة ، لأن الصائد الجائع يقتل جميع الحيوانات التي يمكن أن تقابله . وقد كان من الضروري أن توقفه خشية خرافية حتى يقلع عن هذه المعجزة . ومن ثم « فالثابو » وحده هو الذي يكف يده . وحينئذ فما الحيوانات المحرمة ؟ إنها الحيوانات التوتمية فبدلاً من أن تقتل الشعوب الهمجية هذه الحيوانات نرى ، على عكس ذلك أنها تحاول الاحتفاظ بها على مقربة منها ، وتعمل على تربيتها ، لأن هناك رباطاً خفياً يربط بين حياة العشيرة ورخائها وبين حياة توئمها . وهكذا يمكن تفسير نشأة استئناس الحيوان . ويبدو هذا الفرض مقبولاً .

ويرى « مينهوف » أن استئناس الحيوان كان يهدف في بادئ الأمر إلى ضمان بقاء الفصائل النافعة في القرابين التي تقدم للآلهة . ومن المحتمل أن يكون الناس قد حاولوا استئناس جميع الحيوانات في أول الأمر (كما تدل على ذلك الصور البارزة في الآثار الآسيوية التي تبدو فيها عربات تجرها أسود) . وفيما بعد فرقوا شيئاً فشيئاً بين الفصائل الحيوانية عن طريق استخدامها . فتربى قبائل الجالا (جنوب إثيوبيا) الديوك من أجل القرابين لا غير . فلا يأكلونها أبداً كما لا يأكلون الدجاج والبيض أبداً . ويعبد حلب

البقر عيداً دينياً لدى قبائل ال « بوزو » ولا يقام هذا العيد إلا مرة واحدة كل سنة ، فهو طقس ديني يشترك فيه الجميع ويحتفظ باللبن أولاً للكهنة وللملوك الإلهية كشراب صوفي ، وفي كل حال ترجح ظاهرة استئناس الحيوان دائماً إلى أصل ديني ، مهما تكن طبيعة الغرض الذي يرتضيه المرء .

ويبدو « لجرانت ألين » و « منيوف » أن الأمر كان كذلك بالنسبة إلى الزراعة أيضاً : فالبدائيون لا يقبلون باطن الأرض ظاهرها إلا عندما يدفنون الموتى ، ثم ينثرون على الأرض بعد قلبها مباشرة بعض البذور البرية كطعام معد لغذاء الجثة ، ثم يسكبون الماء أو الدم المراق أو اللبن : ويساعد تحلل الجثة والأسمدة المراقبة في إنبات البذور وفي ازدهار النبات : فكأن أرواح القداى تشكر الأحياء على أعمالهم التقية .

وهذا هو السبب في أن زراعة « البطاطا » في بولنيز ياتبدو على هيئة القبور وبالتدريج يزدهر النبات البري ويطنخى على القبر .

وهكذا تنشأ زراعة الأرض عن عبادة الأسلاف بطريقة مباشرة .

وتؤدي الظاهرة الدينية المسماة « البوتلاتش » إلى تركيز الثروة في أيدي الرؤساء ، وأن النظام الهندي الخاص بتحديد وظائف الطبقات يرجع إلى أسباب دينية ، وأن الهيئات النقابية الإغريقية مثل نقابات الحطابين وتجار الخشب ونقابات صناع المعادن كانت طوائف للسحرة في أول الأمر : فبدلاً من أن نعد الدين مجرد ظل للحياة الاقتصادية يجدر بنا أن نقول بأن الدين هو الذي يسبق التغيرات الاقتصادية في أكثر الأحيان .

ولقد مرت القرون منذ ذلك الحين و بقيت هذه الفكرة صائبة على الدوام : فقد بين كثير من الاقتصاديين مثل « دولافيلي » أن رخاء الشعوب يتوقف على عقائدها ، وعندما يرى المرء أن البروتستانتين اللاتينيين يتفوقون على الشعوب الجرمانية الكاثوليكية ، وعندما يلاحظ أن تقدم البروتستانت أكثر سرعة واطراداً من الكاثوليك في نفس البلد وفي نفس الجماعة ومن نفس اللغة والأصل : فن العسر جلياً ألا ينسب تفوق هؤلاء على أولئك إلى طبيعة العقيدة التي يؤمن بها كل منهم .

ومع ذلك فبعد أن قرر « ماكس فيبير » — على خلاف التفسير المادى للتاريخ — أن الإصلاح البروتستانتي لم يكن ظلاً لظهور الطبقة الوسطى ، أبرز على ضوء الإحصاءات وجود علاقة بين المذهب البروتستانتي والنظام الرأسمالي في أسمى درجاته : وإذن فالحل الوحيد الذي يبقى أمامنا هو أن نقول بأن النظام الرأسمالي كان بالأحرى إحدى نتائج المذهب البروتستانتي : وليس معنى هذا أن البروتستانت يفوق الكاثوليك في اتجاهه المادى فإن « للمتطهرين » (١) فكرة تقوم على التشاؤم من هذا العالم والزهد فيه . ولكن لما كان الزهد يحفز إلى الاقتصاد فقد ساعد على تركيز رؤوس الأموال : وهكذا استخدم على نحو غريب كدعامة للنظام الرأسمالي أضف إلى هذا أن البروتستانت لما كان يتخذ عمله المهني سبيلاً إلى تحقيق سعادته الأخروية فإنه يؤدي عمله على أكمل وجه طبقاً لما يوحي به إليه ضميره ، وهكذا يصبح مديراً صناعياً ممتازاً .

(١) المتشردون في التمسك بحرفية الكتاب المقدس .

وقميا هذا لم يقف « ماركس فيبر » عند حد دراسة العلاقات بين المذهب البروتستانتي والنظام الرأسمالي : لأن بعض البحوث الأخرى ، وبخاصة فيما يتعلق بالاقتصاد الهندي والصيني أكدت له وجهة نظره الخاصة ، وهى أن النظام الرأسمالي الذى يبدو للوهلة الأولى أنه لا يرجع إلا إلى أصول مادية يحتاج فى نشأته ونموه إلى بيئات دينية ملائمة : ويبرهن فى هذا المثال بوضوح على وجود علاقة وثيقة بين النظم الدينية والاقتصادية ، ويدل بصفة خاصة على تأثير النظم الأولى فى النظم الثانية (١) .

كان الدين هو العامل على إنشاء الحضارات ، وإقامة المدن على مدى التاريخ . يقول المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى : عندما (٢) استطاع الإنسان السيطرة على أحواض الأنهار الكبرى وعلى الأحراش والمستنقعات ومياه الفيضانات وجعل نفسه سيداً للطبيعة غير البشرية ، ثم عندما استطاع تطويع أحواض الأنهار فالسيطرة على مياهها وتخويرها من برارى غير منتجة إلى أكثر المناطق إنتاجاً على سطح الأرض لصالح الإنسان ، وكان هذا النصر الاجتماعى نصراً عظيماً لقوة بشرية جماعية ومنظمة حتى لقد غير الإنسان معبوداته فبدلاً من أن يتخذ آلهته الرئيسية من الطبيعة غير البشرية اتخذ آلهته من قوته وقدرته هو . ولا جدال فى أن الإنسان حينما تعود على عبادة قوته الجماعية ، لم يكف عن عبادة الطبيعة غير البشرية ، ولكنه ألحقها بعبادته للقوى البشرية الجماعية التى تمثلت فى كيان الدولة .

و كانت تلك هى المرحلة من تاريخ العقيدة الإنسانية التى أصبحت فيها الدولة معبودة مثل الآلهة . ويمكن أن نرى ذلك بوضوح فى تاريخ مصر القديمة وذلك لأن فرعون كان ينظر إليه علانية وبوعى كامل على أنه إله تتجسد فيه كل القوى الخيرة فى الدولة أى القوى التى وحدت مصر وأخضعت لسيطرة الإنسان الواحد جميع أعمال الرى فى وادى النيل وفى الدلتا . وفى العراق - أى فى سومريا القديمة وبابل ، فإن الإنسان كان يعبد الدولة فعلاً منذ سنن بعض آلهة الطبيعة القديمة لتكون رمزاً للدويلات المحلية . وقد فعل اليونانيون القدماء ذلك فيما بعد ، فمثلاً كان للأغريق آلهة لشجرة الزيتون وهى « أثينا » واختار أهالى مدينة أثينا الآلهة أثينا لتصبح آلهتهم المحلية التى يتمثل فيها قوة ومجد أثينا . وكان أيضاً عند الأغريق آلهة البحر « بسيدون » وقد اختار أهالى مدينة كورنبت ، وكانت لها قوة بحرية عظيمة ، هذا الإله لكى يكون إله مدینتهم . وكان هذا التحول من عبادة قوى الطبيعة غير البشرية ، إلى عبادة القوى الإنسانية الجماعية ، كان ثورة دينية .

لقد كان هناك اعتقاد بأن القوى غير البشرية المقدسة هما جزعان أو مظهران لنظام كونى موحد . واعتقد أنه كان من الممكن فى نظر الإنسان ، كلما كان من المرغوب فيه المحافظة على قوى الطبيعة وقوى المجتمع البشرى فى حالة انسجام مع بعضهما البعض ، فلم يكن فرعون مصر أو امبراطور الصين مجرد ممثلين أو ما لکين للمجتمع البشرى ، الذى كان يرأسه ولكن كان كل منهما أيضاً المحافظ على القوى الطبيعية التى تعتمد عليها حياة ووجود ذلك المجتمع البشرى .

(١) المصدر نفسه : ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) محاضرات أرنولد توينبى فى مصر - ديسمبر ١٩٦١ - كتب ثقافية .

وإذا كنت على صواب فإن أحد الاحتفالات السنوية الهامة التي كان يقيمها فرعون - والتي كان يقيمها بعد انتهاء التاريخ المصري القديم حكام مصر اللاحقون حتى الحكام الأجانب منهم فترة طويلة بعد ذلك - هو الاحتفال بالفيضان أو وفاء النيل ، وهو يدل على أن سيد المجتمع الإنساني مسئول أيضاً عن التحكم في قوى الطبيعة .

وفي مرحلة التحول الدينية هذه كانت هناك قوة دينية سياسية وحيدة تحافظ على الإنسجام بين عبادة الطبيعة وعبادة الإنسان .

وقد تزعزع تصور الإنسان لطبيعة الكون وما ينبغي أن تكون عليه أهداف الدين من جراء الفشل السياسي الذي بدأت به الحضارة مستقبلها في أحواض الأنهار . فقد أصبحت الدول - نتيجة لذلك - موضوع العبادة الأول .

ولذلك لم يكن الفشل السياسي مجرد فشل سياسي ، لقد كان أكثر من ذلك كان فشلاً دينياً . وكان الإنسان يشعر بأنه فشل ديني .

وهكذا نجد أن فشل الدويلات السومرية ، وفشل الدولة المصرية العالمية أدى إلى خيبة أمل دينية ، كما أدى إلى خيبة أمل سياسية .

وقد كان من السهل نسبياً بعد فترة قصيرة نوعاً من الاستبداد إعادة بناء الكيان السياسي القديم ، ولكن لم يكن من السهل إعادة ثقة بني البشر بكفاية هذه الأنظمة السياسية في مجال الدين أو في مجال السياسة ، فلم يعد بنو البشر يشعرون بالرضى الكامل لعبادة القوة البشرية الجماعية وكذلك لعبادة القوى ذات الطبيعة غير الإنسانية ؛ وعندما بلغت متاعب الإنسان الخاصة وهي المتاعب التي يلقيها كل منا في حياته القصيرة فوق هذه الأرض ، حد الأزمة ؛ أقول عندما بلغت هذه المتاعب هذا الحد وزادت من جراء المتاعب العامة المؤقتة شعر الإنسان بحاجته إلى المعونة الإلهية أكثر من ذي قبل .

وعندما نشأت في مصر في أول تاريخها فكرة إيجاد حكومة مركزية يرأسها حاكم واحد هو الملك ، لقي ملوك الأسرتين الأولى والثانية الصعاب في تحقيق هذه الوحدة تحقيقاً مادياً طوال تلك القرون التي عاشتها هاتان الأسرتان ، ولذلك عمد أصحاب الوحدة إلى القول بأن مصر لم يكن يحكمها رجل من الصعيد ، أو آخر من الدلتا ، ولكن الذي يحكمها هو « إله » تتمثل فيه « القوى » التي تهيم على كل من القطرين هو « حوريس » الصقر ، إله السماء ، وهو الذي اتحدت في شخصيته الإلهتان « نخب » ربة مصر العليا ، و « واجيت » ربة مصر السفلى ، بل لقد ادعى الملك أنه الإبن الشرعي لإله الشمس « رع » وهم أعظم الآلهة جميعاً ؛ وقد نجحت هذه الفكرة واستقرت في نفوس الناس وأخذوا يعتقدون أن هذا الفرعون الذي يجلس على عرش مصر لم يكن إنساناً زائلاً ، ولكنه كان هو إله قوى قادر .

كان الملك بصفته إلهاً هو الدولة ، وهو البؤرة التي تتجمع فيها كل الخيوط التي تهيم على شئون الحكم في البلاد . لقد كانت كلمته هي القانون ولكن هذا القانون كان خاضعاً للرضاء الإلهي ووظيفته كإله ، ثم لتلك الفكرة التي عبروا عنها بكلمة « ماعت » والتي تعني الصفة الطيبة للحكم الصالح أو الإدارة الصالحة ، هي « الحق » و « العدل » و « النظام » . هي ذلك الشيء الذي نبع من عالم الآلهة وأصبح بمثابة

المنظم للظواهر التي تم خلقها على سطح الأرض ، إن الملك الإله يتمسك بأهدابها ويقدمها كل يوم للإله التي تسكن السماء كبرهان على أنه ينوب عنهم في وظيفته الإلهية في حدود « الماعت » .

وكان لهذا التقديس أثره العميق في توطيد نظام الملكية في مصر وتثبيت دعائمها^(١). حرص المصريون على الثقافة للدين والدنيا معاً ، واعتبروها أفضل سبيل إلى كرامة المنصب وحسن السمعة ، وقد أرجع أنصار هذه العقيدة إلى أصل ديني ، وردوها إلى معبود كريم أسموه « تحوتي » ونسبوا إليه أنه هدى الناس إلى أسلوب الكلام ، وأسلوب الحظ ، ووهب النجاح لمن اتبع هديه من أهل العلم والعرفان .

ونسبوا الكتابة والحساب إلى ربة أخرى سموها « ستات » أى الكاتبة ، وادعوا أنها كانت أول من خط بالقلم ، وأول من حسب^(٢) .

وقد نشأ الفن المصرى في أحضان الدين ، فكانت التماثيل في المعابد المصرية تمثل الإله نفسه ، في خلوده وجلاله وتساميه ، وعزلته عن الناس .

وحرص الفنان المصرى على إضفاء طابع الرزاة والوقار على صور الملك والأرباب ، وأن تتجلى عظمة المباني في بساطتها وضخامتها معاً .

ولى الدوافع الدينية ترجع إقامة التماثيل في المقابر ، وتماثل حقيقة أصحابها إلى حد بعيد . وكان احترام الموتى فرضاً أساسياً عند المصريين وهذا معنى جهد الفنان في إضفائه على عمله . وإذا كان الفنان مقيداً في نحت التماثيل وتشديد المعابد بنمط خاص ، فإنه وجد في زخرفة جدران المعابد والمقبرة ما يشبع رغبته في عَرْض موهبته وإظهار إحساسه بجمال النسب وروعة الألوان .

وكان أساس زخرفة التماثيل في المعابد مناظر الطقوس الدينية وصور الآلهة ، أما في المقابر فقد أطلق الفنان لمهارته العنان ، فأخذ يصور على جدرانها مشاهد دقيقة تفصيلية تتسم بالروعة لحياة أصحابها الدنيوية^(٣) .

كانت معتقدات الإنسان^(٤) في عالم الغيب سبب اختراع فنون التحنيط ونحت التماثيل والعمارة . ذلك أن حرص الأقدمين على حفظ جسم الميت ، ورغبتهم في عمل صورة شبيهة به في حياته ، وإقامة المباني لوقاية هذا الجسم ولتسهيل إقامة الطقوس اللازمة لإعادة الحياة إلى الميت وتغذيته بعد عودته إليه . إن هذا الحرص وهذه الرغبة هما اللذان أوحيا بهذه الفنون المختلفة ، بل إن الذى بعث في نفوس الأقدمين الرغبة في ركوب البحر وبناء السفن التي تجوب عباب البحر هو حاجتهم إلى الراتنج والبخور والأخشاب التي يحتاجونها في هذه الأغراض ، سعيّاً منهم وراء الأمل في الخلود الذى ظن المصريون الأقدمون منذ أكثر من خمسين قرناً أن في مقدورهم أن يحققوه بجعل الجنة غير قابلة للعطب ، وباتخاذ الوسائل السحرية لإعادة الحياة إليه .

(١) وزارة الثقافة والإرشاد القومى : تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى ص ١١١ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٠٨ .

(٣) فؤاد محمد شبل : دور مصر في تكوين الحضارة ، ص ٨٢ .

(٤) الدكتور أيوت سث : فكرة الإنسان عن خوارق الطبيعة وأثرها في تطوره ، تاريخ العالم ، المجلد الأول ، ص ٣٦٨ -

ترجمة الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقي .

ولقد كانت الطقوس الدينية التي يزعم الأقدمون أنها تؤدي إلى حدوث خوارق الطبيعة منشأً الثقيل والرقص ، والموسيقى ، ومعظم الألعاب التي يتألف منها القسم الأكبر من ضروب التسلية في هذا العصر . وليس الرقص إلا بقية من الطقوس التي يتوصل بها إلى أغراض سحرية .

ولعبة شد الحبل — مثلاً — نراها منقوشة على جدار قبر مصري بنى منذ أكثر من ثلاثين قرناً ، على أنها عراك مقدس بين مندوبين عن الوجهين القبلي والبحري بغية الحصول على جثة الملك المحنطة . وما زالت نفس الفكرة في جوهرها باقية إلى يومنا هذا في « بورما » حيث يشد الحل أثناء جنازة الراهب ليعرف أي الطرفين ينال شرف وضع الجثة على كومة الحطب لحرقها .

وكان شد الحبل بين عوامل الخير والشر في بلاد الهند هو الوسيلة التي يستخرج بها أكسير الحياة ، أي الغذاء المقدس الذي تطعم به الآلهة لتخاد ، ونجد هذه الصورة أيضاً في اليابان وفي أمريكا الوسطى . ومعظم ألعاب المهارة مثل كرة القدم ولعبة الكركت والتنس والدولو طا صالة وثيقة ما زالت قائمة مع الكنائس والحفلات الدينية في أوروبا ولكننا إذا رجعنا بتاريخ هذه الألعاب إلى أبعد من هذه العهود وجدناها هي نفسها في صورة مباريات بين الملوكة ، وتكون الممالك من نصيب الفائز فيها . وإذا رجعنا إلى أبعد من ذلك في عهود التاريخ وجدنا جزاء الفائز فيها هو الخلود ، ذلك أنه يصبر ملكاً ، ومن ثم يصبح إلهاً .

وفي نهاية الدولة القديمة قام الشعب المصري بثورة ، كان من جرائها انقلاب الأوضاع التي سارت عليها البلاد منذ عهد مينا . فقد ساد البلاد الفوضى فلم يعد هناك نظام سائد أو قانون مطلق ، وانتشر القحط ، وعم الانحلال الخلقي . كما ساد عدم المبالاة . بالتقاليد الدينية والمعتقدات الموروثة . وقد انتهت هذه الثورة بأن قسمت البلاد إلى مملكتين إحداهما في الجنوب وعاصمتها طيبة ، والأخرى في الوسط وعاصمتها أهناسيا المدينة ، وقامت بينهما حروب طاحنة انتهت بانتصار طيبة .

وهذه الثورة لم تكن ثورة سياسية وحسب ، بل كانت دينية إلى حد بعيد ، إذ أن أول نتيجة للتطور الاجتماعي السياسي الذي حدث في مصر كان فقدان سلطان الفرعون وهيئته في عين الشعب ، واعتبر الجرم الغفير من عظماء رجال الدولة أن المصير الملكي في عالم الآخرة لم يكن وفقاً على الفرعون وحسب ، بل أصبح منذ الثورة مصيراً مشتركاً حتى لكل أولئك الذين لم يكن في أيديهم ذل من السلطة .

وقد تمثل لنا بصورة محسنة نتائج هذا الانقلاب الديني في الكتابات التي وجدت على توابيت هذا العصر التي أصبحت ميزة خاصة به ، وتدل كتابات هذه التوابيت عن مقدار ما ناله الشعب من حقوق دينية لم يكن يتمتع بها إلا الفرعون وحاشيته ، على أنه قد أضيف إليها تعاويد أخرى سحرية أراد المتوفى أن يحصل بها على حياة سعيدة .

كانت هذه الثورة ، هي ثورة الشعب على من ظلموه ، وحادوا عن تعاليم ماعت « الحق والعدل والصدق » وقد أعلنت من شأن الفرد ، وأعلنت أن كل إنسان مسئول عما قدمت يداه من خير أو شر ، بل عن حسن نيته أو سوءها وأنه سيحاسب وسيجازى أمام الإله الأعظم على ذلك ، دون نظر إلى فقره أو غناه ، ودون اعتبار لقبر بشيده أو أوقاف يتركها ليستغلها الكهنة عندما يتلون الصلوات أو يقدمون لروحه قرابين صورية يستفيدون منها دون غيرهم .

وقد استمرت ثورة الشعب أكثر من قرن من الزمان إلى أن عاد قانون « ماغث » الذى وضعه الإله « رع » عندما خلق الدنيا — أى العدالة المطلقة على يد ملوك الدولة الوسطى .
وكان المصريون يعتبرون أن الإله آمون هو ناصر الفراعنة فى حروبهم وبعونه فحسب يستطيع الملوك أن يدمروا المدن ويفتكوا بالأعداء .
ولعل هذا المعنى يبدو واضحاً فى الكلمات التى سجلها تحوتمس الثالث ، القائد العسكرى المغوار الذى سجل أهم انتصارات أحرزها ملك من ملوك الفراعنة ، سجلها على جدران معبد الكرنك على أنه تلقاها من آمون رع العظيم :

« إن قلبى ينشرح بمجيئك إلى معبدى ، وتمنح يداى أعضاءك الحماية والحياة .
ما أرق الشفقة التى تظهرها نحوى .
ولهذا ، سأثبتك فى مأوى وأهلك معجزة .

إنى أمنحك القوة والنصر على كل البلاد ، وإنى أمهد لك المجد .
وأبث الخوف منك فى كل البلاد المنبسطة ، سأجعل الرعب منك يمتد إلى عمد السماء الأربعة .
إنى أجعل احترامك عظيماً فى كل الأجسام ، وأجعل نداءك الحربى يتردد بين جميع الشعوب .
إن عظماء البلاد الأجنبية فى قبضتك ، وإنى أمد يدي بنفسي وأصيدهم لك ، وأربط الأسرى من البدو بعشرات الألوف .
ومن أهل الشمال بمئات الألوف ، وإنى أجعل أعداءك يسقطون تحت نعليك .
إنى أمنحك الأرض طولا وعرضا ، فأهالى المغرب وأهالى المشرق تحت سلطتك (١) » .

ذلك هو حديث « آمون » إلى ابنه فرعون مصر ، ومنه نعرف مدى قوة هذا الإله وعظم الفضل الذى دان به الملوك : فما كان لهم حياله إلا الوفاء له ، فشيدوا لإلههم الأكبر المعابد الضخمة فى كل ركن من أركان الإمبراطورية الممتدة من آسيا الغربية إلى السودان ، ومنحوا هذه المعابد النصيب الأوفى من الأسرى والمغانم التى كانوا يعودون بها من فتوحاتهم المتعددة بآسيا ، كما وقفوا عليها الضياع الواسعة .
وقد حاول اخناتون أن يقدم للإنسانية ديناً يعتنقه كل الناس فى جميع البلاد ، ويجعل هذا الدين يحل محل القومية المصرية التى التزمها الشعب منذ أول العصور .

يقول اخناتون فى نشيده :

« بزوغك جليل فى أفق السماء يا آتون »

يا حى ، يا مبدئ الحياة .

إذا ما صعدت فى السماء الشرقية أفضت على الأراضى جمالك .

ما ذلك إلا أنك جميل عظيم ، نير فى السموات العليا ،

تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك .

أنت رع . أنت الذى أسرهم وقيدتهم بحبك .

(١) الدكتور عبد المنعم أبو بكر : اخناتون ، ص ٥٧ - ٥٨ .

أنت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال معها بأشعتك ٥
أنت عال لكن أشعتك واضحة في ضوء النهار ٥

٥ ٥ ٥

إذا ما غربت في أفق السماء الغربي أظلمت الأرض فأصبحت كالميتة ٥
فيقصد السكان نوم في حجر آتهم مغطى الرعوس هادئ الأنوف ٥
غير مبصرين فتسرق أمتعتهم من تحت رعوسهم دون أن يشعروا ٥
أما الأسود فتخرج من جحورها وكذا الثعابين اللداغة ٥
ويسود الظلام الكون وتسكن الأرض ٥
وما ذلك إلا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستربح في أفقه ٥

٥ ٥ ٥

إذا ما ظهرت في الأفق وأشرقت في النهار كآتون أضاءت الأرض ٥
إذا ما بزغت أشعتك خفي الظلام ، وشمل الفرح قطرى مصر ٥
كيف لا وقد أيقظتهم فيغتسلون ويكتسبون ويبتهلون بأذرعهم إليك ،
وقت شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم ٥

٥ ٥ ٥

البهائم كلها مستريحة في مراعيها ٥
والأشجار والنبات جميعاً يانعة ٥
والعصافير تحفق فوق المياه ناشرة أجنحتها إبتهاجاً إليك ٥
والأغنام ترقص على أرجلها ٥
والطيور تخلق في الجو تنسم الحياة إذا ما أشرفت عليها ٥

٥ ٥ ٥

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه ٥
وكل طريق عموى يصبح مساوياً لأنك ظهرت في الأفق ٥
أما السمك فيقفز أمامك في النهر ، هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم ٥

٥ ٥ ٥

أنت خالق الجنين في أمه ٥
أنت خالق نطفة الإنسان
أنت واهب الحياة للجنين في رحم أمه وملطفه حتى لا يتكدر فيبكي ٥
كيف لا وأنت المربي في الرحم ٥
أنت معطي نفس الحياة كل مخلوقاتك ٥

أنت فاتح قم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه .

• • •

أنت الذى تهب الحياة للفرخ فى البيضة فيصبح .
فإذا أتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحاً جهده واثباً بقدميه

• • •

ما أكثر مخاوفك التى نجهلها .

أنت الإله الأحـد ، لا شريك لك فى الملك .

خلقت الأرض بارادتك .

ولما كنت وحيداً فى هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان الكبير والصغير .

والمخاوف التى تدب على الأرض أو تطير بأجنحتها .

أنت الذى أحملت كل إنسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه .

وأنعمت عاياه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المحدودة .

لقد اختلفت ألـهـتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز الخلق .

أنت خالق النيل فى الدار الآخرة .

أنت أوجدته برغبتك فيه لتحافظ على حياة الأهل .

أنت سيد الجميع لأنهم ضعاف :

أنت سيد كل أسرة لأنك تشرق لأجلها .

أنت شمس النهار المهيـب فى الأراضى السحيقة كلها ، والواهب لها الحياة .

خلقت لهم نيلا فى السماء ليستقط عليهم ماؤه ، فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروى غيطانهم

بين مدنهم .

ما أبدع أعمالك أيها السيد الأزلى .

فنيل السماء (مخصص) للغرباء والندوب من كل البلاد ،

والنيل الذى بأتى مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة .

أشعته تغذى الحيتان ، فاذا ما أشرقت أينعت وأنبتت بتأثيرك .

• • •

جعلت الفصول لتخاق فيها جميع مخاوفك .

فالشتاء يعطيهم البرودة ، والصيف يهب لهم الحرارة :

أنت الذى رفعت السماء عالياً لتنظر ما خلقت فى وحدتك .

شارقاً حياً كآتون ساطعاً متألئاً ثم راجعاً إلى حيث ابتدأت .

• • •

أنت مبدع الجمال من نفسك ،
فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهار كلها عيون تبصرك أمامها ،
كيف لا وأنت آتون النهار فوق الأرض ،

أنت في قلبي ، لا يعرفك سوى ابنك اختاتون الذى جعلته عاملاً بآرائك وقوتك ،
العالم كله في تبصرتك كما خلقته ،
إذا ما أشرقت (عليه) حى وإذا أفلت مات ،
أنت الوجود ومسبب الحياة للإنسان
أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب ،
والعمل كله يبطل إذا ما أفلت في الغرب ،
فاذا ما أشرقت جعلت كل ذلك ينمو (١)

كان اختاتون يقول عن نفسه إنه يعيش في الحق الذى آمن به وأنفق حياته داعية إليه ، وانتظم
توحيده الخلائق كلها التى خلقها إله واحد أحد كما انتظم التسوية بين الناس في الدنيا تساويهم أمام هذا
الإله الواحد : ومن هنا كانت دعوته بعيدة المدى لا تتصل بما فوق الوجود ، وبما بعد الوجود فحسب ،
ولكنها تنطوي على فلسفة سياسية تناقض ما جرى عليه العرف في العصرين القديم والوسيط ، وكانت إيجابية
في الإكبار من شأن الحياة والأحياء ، وتحقق شخصية الفرد في ذاته وفي إحساسه بنفسه ، وفي اتقانه لعمله ،
وفي علاقته بغيره ، وتحقق ما يقارب الوحدة العالمية التى تقوم على التسامح لا على الغلب والاستئثار بالخير .
وكان من تأثير هذه العقيدة الدينية الجديدة أن انطلق الفنان المصرى من أسر القيود التى كبته ،
واستطاع أن يبدع فناً جديداً .

ولكن العقلية المصرية (٢) لا يمكن أن ترتضى أن يفرض عليها قسراً منحنى تفكيرى معين سواء
أكان في صورة عقيدة دينية أم متجه فكرى : اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى .

وقد يسكت المصرى - ساخراً - على كل ظلم يتصل بحياته المادية ، وقد يخضع له على مضض ولكن
يختلف الحال إن اتصل بأموره الروحية ، فإنه لن يسلم إطلاقاً باختضاع مقوماته الروحية لإنسان مهما كان
شأنه : وههنا يستبين لنا العامل الرئيسى في فشل اختاتون في حمل المصريين على الإيمان بدعوته ، وذلك لأنها
صدرت عن رئيس الدولة ، وكذلك فشل امبراطور بيژنطة في تحويل المصريين إلى مذهبه الدينى .

وكان العامل الدينى ، هو العامل الجوهرى الذى دفع الشعب المصرى إلى الثورة على حكامه البطالمة
فلم يتحمل المصريون كل مالقوه من عنت وعسف في سبيل آلتهم أو ملوكهم الوطنيين ، الذين يعتنقون
نفس المعتقدات الدينية ، أو يتكلمون نفس اللغة ، ويحيون نفس الحياة ، وإنما في سبيل ملك أجنبى
وجنس أجنبى بأسره أصطفاه ذلك الملك لمشاركته في حكم البلاد ، وإرغام أبنائها على بذل أقصى الجهد

(١) ج . برستيد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، ترجمة الدكتور حسن كمال : ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٢) الأستاذ فؤاد محمد شبل : دور مصر في تكوين الحضارة ، ص ٥٣ .

فى استغلال مرافق البلاد الاقتصادية . نبضت قلوب الشعب بكرهية الأجانب ، وتضافرت فى أشغال
لهيب الثورات المصرية ، ثلاثة عوامل لها أبعد الأثر فى حياة الناس فى كل مكان وزمان وهى : العامل
الدينى ، والعامل القومى ، والعامل الاقتصادى .

فثار الشعب ضداً ، وبطليموس الثانى ، وبطليموس الثالث ، وبطليموس التاسع .

وقد انتهت هذه الثورات بالفشل فى النخلص من الحكم الأجانب ، ولكنها نجحت فى إرغام هؤلاء
الحكام على النزول عن صافهم وجبروتهم والنظر إلى الشعب بعين جديدة فى الشطر الثانى من حكمهم .
وفضلاً عن ذلك فإن هذه الثورات كانت من أهم الأسباب التى أضعفت دولة البطالمة وعجلت بالقضاء
عليها (١) كان الدين هو العامل المؤثر فى كل ركن من أركان الحياة الإنسانية : وكانت نظرة أرض
الرافدين (العراق) إلى الأدب والقانون والفن هى نظرة الشرق الأدنى كله قديماً : فلم يكن ينظر إليها
إلا فى نطاق الدوافع الدينية ، وكانت هذه الدوافع متغلغلة فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، فكانت
قوام الجوهر العميق لتلك الحياة ، ولعل هذا أبرز خصائص الحضارة فى الشرق الأدنى القديم . فكان
الدين خلاصة القيم الإنسانية (٢) .

وقد أدت ملاحقة الأفلاك إلى تطور عظيم فى المعاومات الخاصة بالفلك فى أرض الرافدين ، ولا سيما
خلال العصر الكلدانى ، فلدينا عدة جداول من المعاومات الفلكية ، تبرهن على معرفة بالظواهر
السماوية .

وكان للبابليين منذ أقدم العصور مرصد حبقية مقامة على رءوس أبراج المعابد ، وكانوا يقيسون
مدارات النجوم بالساعة المائية ، ويسجلون تسجيلاً صحيحاً حركات الشمس والقمر ، فصارت لهم فى القرن
السابع قبل الميلاد القدرة على النبؤ بما ينتابهما من خسوف أو كسوف . وأطلقوا على مجموعات الكواكب
المختلفة أسماء أخذها عنهم اليونان فيما بعد ، فالغونان يدينون لبابل (٣) بجزء كبير من معلوماتهم الفلكية .

وكان علم الفلك الأساس الذى بنى عليه التقويم ، وهو من اثنى عشر شهراً قمرياً .
ويدل قياس الأبعاد الظاهرة بين النجوم وغير ذلك من الحسابات الفلكية ، وبعضها بالغ التعقيد ،
على تقدم فى معرفة الرياضيات .

وكان أهل الرافدين يعرفون النظام الستينى والنظام العشرى ، وكانوا يستطيعون الجمع والطرح
والضرب والقسمة ومضاعفة الأس ، واستخلاص الجذور ، وحل المعادلات المركبة ، وفى الهندسة
كانوا يستطيعون قياس المساحات والأحجام .

هذه المجموعة من المعارف الفلكية والرياضية هى ولا ريب من أعظم ما أسهم به أهل الرافدين ،
ولا سيما البابليون ، فى تاريخ الحضارة ، وكان نهوضهم بهذه العلوم وثيق الصلة ، كما رأينا ، بدينهم (٤) .

(١) وزارة الثقافة والإرشاد القومى : تاريخ الحضارة المصرية ، مصر فى عصر البطالمة ، المجلد الثانى ص ٨١ .

(٢) سبتينو موسكانى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر ، ص ٧٤ .

(٣) بابل معناها « مدينة الله » .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

وقد فسر السوميرو (١) أكاديون أصل الإنسان بأن المعبود صنعه من كتلة من الطين وأنه خالق من أجل خدمة الآلهة : وبين علم تكوين المخلوقات الكلداني أن مردوخ قد خلق البشر كي يقدم للآلهة مسكناً يأوون إليه حتى يسعد قلبهم .

كان أول واجب في الدين هو الخوف من المعبود : وكان حمورابي « يخشى الآلهة » وكان نبوخذ نصر الثاني ، بكل قلبه المؤمن يحب خشية معبوداته ، ويرتعد أمام سطوتهم .

وكان الواجب الثاني في الدين هو الدعاء أو الصلاة والتضحية :

« قدم الخضوع كل يوم لإلهك :

التضحيات والصلوات والبخور الواجب

ليكن قلبك نقياً أمام ربك .»

إن هذا هو ما يرضي المعبود .»

إن أنت قدمت التوسل والدعاء والصلاة والسجود في كل صباح .»

فانه سيتمنحك كل الكنوز .»

وسوف تزدهر أيامك بفضل إلهك .»

وبعقلك راع اللوحة :

الخوف يولد الرفق أو العاطفة .»

والتضحية تطيل العمر .»

والصلاة تخلص من الإثم .»

كان مصدر كل خير للإنسان رضى إلهه عنه وكان فقدان هذا الرضى أصل كل المتاعب . ولكي يشعر الإنسان بالاطمئنان والراحة النفسية لابد أن يتوب توبة نصوحا ، بعد أن يعترف بما ارتكب من أثم وخطيئة .

جاء في مزامير التوبة :

« مولاي ! إن آثامي كثيرة وذنوبي فظيعة .»

إلهي ! إن آثامي كثيرة وذنوبي فظيعة .»

إلهي ! إن آثامي كثيرة وذنوبي فظيعة .»

أيها الإله الذي أعرفه أو الذي لست أعرفه إن آثامي كثيرة وذنوبي فظيعة .»

أيها الآلهة التي أعرفها أو التي لست أعرفها إن آثامي كثيرة وذنوبي فظيعة .»

ألا فليخف الغضب في قلب مولاي .»

(١) ل . ديلا يورت : بلا دما بين النهرين ، ترجمة محرم كمال ، ص ١٩١ .

لتهدأ الإله الذى أعرفه أو لا أعرفه .

لتهدأ الآلهة التى أعرفها أو التى لست أعرفها .

ويكشف الاعتراف السلبى جزئياً عن الذنوب التى قد يقرها المؤمن وفيه - بعد الإشارة إلى الخطأ الذى يرتكب فى حق الآلهة - يأتى ذكر أولئك الذين يبذلون القرقة والكذابين والمشاكسين والتجار الذين يغشون فى النوع أو الكمية أو يطفنون وأولئك الذين ينقلون علامات الحدود من أماكنها ويسلبون بضائع الغير أو يضررون به والذين يزنون .

كان كل إثم يعاقب عليه فى هذا العالم وبالمثل كان للفضيلة هنا جزاؤها .

إن الوازع الدينى هو الذى حمى الضعفاء من النساء والأطفال والعييد ضد شرور الأقوياء ، كما أن الدين استخدم فى الأمور الصحية ، لأنه أجبر الناس على عزل الجثث .

كذلك حدد الوظائف الطبيعية الكبرى وقرر نظاماً فى الأمور التى لا يمكن أن تؤدى الغرائز العنيفة فيها إلا إلى الاضطراب ، وبصفة خاصة فى وقت الحمل .

وقد كان الدين مفيداً للأخلاق ، لأنه كان شبيهاً بفن تربية الإرادة . ولما علم الدين الإنسان كيف يتحرر من رغباته الذاتية ، وكيف يسيطر على مصالحه المادية ، وكيف يقهر عنف أهوائه أرشده إلى التضحية وانكار الذات (١) .

وكان الناس يعتقدون أنهم إذا خالفوا أوامر الإله ، وارتكبوا المعاصى ، وساد بينهم الظلم والفساد ، فإن الإله يوقع عليهم عقوبات مروعة ؛ كالفيضانات التى تحيل البشرية ، طيناً ووحلاً والقحط والمجاعة والأوبئة . وفى كل هذه المصائب كان الإله يظهر نفسه دائماً عطوفاً يسعى إلى انقاذ البشر (٢) .

ويستمد الأدب أصوله من الدين ، فالشعر الغنائى فى أرض الرافدين دىنى كله . فهناك ترانيم ومزامير غفران وصلوات تعبر فى صور مختلفة عن عباد الآلهة ، تلك العبادة التى كانت بمثابة الجوهر من حياة تلك الشعوب . وفيما يلى (٣) مثال مأخوذ عن ترنيمة لشمس إله الشمس :

إيه يا شمش ، يا ملك السماء والأرض ،

يا من توجه كل شىء فى عل وسافل .

(١) روجيه باستيد : مبادئ علم الإجتماع الدينى ، ص ١٠٠ .

(٢) بلاد ما بين النهرين : ص ١٩٢ .

(٣) الحضارات السامية القديمة ، ص ٩٠ .

يا شمس ، إن بيدك إعادة الميت إلى الحياة .

وتحرير الأسير من قيده .

إنك قاض لا سبيل إلى إفساد ذمته .

ومرشد لبني الإنسان

وابن رائع ، للإله تمرصت (اسم للإله سين ، إله القمر ومعناه الطالع المنير) .

ابن عظيم القوة والنبيل ،

نور البلاد .

وخالق كل ما في السماء وما في الأرض ،

هذا هو أنت يا شمس .

وعلى أسس الروايات السومرية القديمة أقيم أدب عريض للتعليم والحكمة ، يتناوب فيه النثر والشعر .
غنى بالنصائح والأمثال المنطوية على حكمة رائعة .

وهذه بعض النصائح ، وهي تروع القارئ بدعوتها الخلقية الرفيعة :

لا تسيء إلى خصمك ،

أحسن إلى من يسيء إليك ،

عامل عدوك بالعدل .

التقوى تولد السعادة ،

وتقديم القرابين يطيل الحياة ،

والصلاة تكفر عن الذنوب .

وجزاء كبير من الأدب النثرى الأكدي ديني أيضاً في محتواه ، وتوجد نصوص كثيرة من نصوص الطقوس ، نصف أعمال الكهنة والاحتفالات المقدسة ، ولا سيما الاحتفال بالعام الجديد في مدينة بابل ، وتشتمل هذه النصوص على فقرات شعرية في صورة ترانيم وصلوات ترتل خلال الطقوس .

وكان هناك أيضاً أدب استنبائي عريض يحتوي على النداءات والصلوات الخاصة التي كان يتوجه بها الأمراء إلى الآلهة يستنبئون منها عن المستقبل ، ولا سيما فيما يتعلق بالمشروعات الحربية ، والإجابات التي ترد بها الآلهة على الأمراء .

كان للدين أثر عميق في المجتمع الهندي ، كان بوذا (١) يرى أن خلاص الإنسان متوقف على نفسه لا على الآلهة ، والإنسان هو صانع مصيره .

وتبدأ ديانة بوذا ببيان ما يسميه الحقائق الأربع النبيلة ، فالحقيقة الأولى تعترف بوجود الشقاء ، والحقيقة الثانية تسلم بوجود سبب لهذا الشقاء : والحقيقة الثالثة تقرر أنه يمكن إزالة هذا السبب ، والحقيقة الرابعة تؤكد أن الطريق إلى ذلك ميسور للجميع .

وفي الكتب البوذية قصة تصلح مثلاً على كرم أخلاقه : يروى أن فلاحاً برهياً كان يحرق حقلاً ، وإذا ببوذا يجي إليه وفي يده وعاء يستعطى فيه .

فقال له الفلاح : أيها الناسك - على أن أحرث وأزرع ، لأكسب عيشي ، فعليك أنت أيضاً أن تكافح وتعمل ثم تأكل .

فأجابه بوذا : أيها البرهمنى : أنا أحرث وأزرع ، وبغير هذا لا أكل .

فيقول له الفلاح : لا أرى نيراً ، ولا محراثاً ، ولا منخساً ، ولا ثيراناً .

فيجيب بوذا بعبارات شعرية قائلا :

« أنا فلاح بحق ، أيها السيد ، والأراء الصائبة هي البذار المثمر الذي أبتدعه وتدريب النفس هو المطر الذي أسقي به : أما الحكمة فهي نيري ومحراثي ، والوداعة ميسمي ، والاهتمام بالغير محور عجلي ، واليقظة منخسي ... »

وبتهذيب الفكر والقول والفعل أتق الأَرْض من أعشابها الضارة ، وبطريق الخلاص أنادي .

أما ثوري فهو السعي المتواصل الذي يحملني في غير ملل إلى حيث لا يصيبني حزن حتى أقرب إلى ثرفانا ، وهو الهدف الذي إليه أسعى .

(١) ولد سقياموذي ، مؤسس البوذية في أوائل القرن السادس قبل الميلاد : وكان أبوه أحد ملوك الهند الوسطى « راجا » وكنية « بوذا » معناها المستنير أو العالم وهو اللقب الذي أطلق عليه . ورغم أن بوذا سليل عائلة عريقة ، وكان المستقبل الزاهر والحياة المترفة تنتظره : غير أن نفسه ظلت قلقة ، وظل يفكر في مسائل لا يرى حلاً لها ، فقد ظل عقله ينقب عن معنى الحياة ، ومشكلة الآلام الإنسانية وأسبابها . ولما لم يجد حلاً ، ترك حياة القصور ولجأ إلى حياة الزهد والتقشف لعل الغشاوة تزول عن عينيه بعد أن يتحرر من العالم وهمومه .

وانصرف إلى التأمل العميق .

وبعد فترة أشرق عليه نور يضيئه أن شقاء الحياة ، وعناؤها وضجرتها ينبعث من رغبات النفس ، وأن الإنسان يمكنه أن يكون سيد رغباته ، وأن في مقدوره الإفلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبة الآخرين .

ويرجع الفضل في نشر البوذية إلى الامبراطور « أسوكا » الذي حكم الهند كلها سنة ٢٥٠ ق . م .

عندئذ يصب الفلاح الأرز الممزوج باللبن في وعاء من الذهب ويقدمه إلى بوذا قائلاً :
« في الحق أنت فلاح بكل معنى الكلمة ، وحصاد الحق هو طعامك الشهى .

اشرب هذا يا سيد هنيئاً . وبعد اليوم أنا أطوع لك من بنائك (١) .
والبوذية تحاول انقاذ الناس من حبائل الشر ، والشر في رأيها أصيل في الوجود ، وليس سببه خطيئة الإنسان ، وحينما يوجد الوجود يصحبه الشر .
يرى بعض الكتاب (٢) أن من سوء حظ الهند خروج البوذية منها لأن الديانة البوذية بنزعتها الانسانية تقاوم نزعة التفريق بين الطبقات التي عاقت نهضة الهند وصدعت وحدتها وجعلتها هدفاً للغزاة والمستعمرين .
كان للبوذية أثر عميق (٣) في نفوس أهل المشرق ، فقد عمد بوذا إلى مهاجمة الخرافات والأوهام والضلالات التي كانت شائعة في عهده بين أهل المشرق وأهمها عبادة الأرواح ، أى جعل روح لكل كائن من الكائنات إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً .

وقد ثار بوذا على الأغنياء الذين يضطهدون الفقراء ويسموونهم سوء العذاب ، وهو مع ذلك لا تأخذه هوادة في تعنيف الفقراء والمستضعفين الذين لا يسرون في الطريق المستقيم ، فقد جعل الأخلاق القويمة والسيرة الطاهرة والذكر الحسن فوق الثروة والعناء ، بل فوق كل الطقوس والشعائر ، فالدين في رأيه هو المعاملة وليس هذه الطقوس والرسوم التي يصطنعها رجال الدين .

وفي سنة ١٩٤٥ (٤) وضعت الجمعية البوذية بالجناترا مختصراً لقواعد البوذية وتعاليمها ، وعرضت الجمعية هذا المختصر على مراكز البوذية في الدول البوذية : اليابان وسيام والصين وبورما وسيلان (سيريلانكا) والتبت فوافقت عليه .

وفيما يلي مختصر القواعد البوذية : —

١ — إن خلاص نفس أى فرد من الأفراد هي المهمة المباشرة بالنسبة لهذا الفرد .

فابدأ الآن بمواجهة الحياة كما هي وتعلم دائماً عن طريق التجربة الشخصية المباشرة .

٢ — إن الحقيقة الأولى في الوجود هي قانون التغير وعدم الدوام . إن كل شيء في الوجود من حيوان الخلد إلى الجبل ومن الفكرة من الفكر إلى الامبراطورية من الامبراطوريات يمر خلال دورة الوجود ذاتها ، أعنى : النمو والانحلال ثم الموت . والحياة وحدها هي الشيء المستمر وهي دائماً تسعى إلى الإفصاح عن نفسها في صور جديدة . والحياة جسر ، ومن ثم فلا تبني بيتاً فوق هذا الجسر ، والحياة عملية من عمليات التدفق والجريان فن يتعاقب بأية صورة من الصور مهما يكن جمال هذه الصورة فسوف يقاسى نتيجة لمقاومته لهذا التدفق والجريان .

٣ — إن قانون التغير ينطبق بالمثل على النفس . فالفرد خالو من أى مبدأ خالداً أو لا يتغير . والتجرد لمطلق هو وحده الحقيقة النهائية التي لا يصيبها التغير ، وكل صور الحياة بما فيها الانسان هي

(٢) على أدهم : : هداية الإنسانية في الشرق — بوذا

(٤) المصدر نفسه : ص ١٠٤ - ١٠٩ .

(١) حبيب سعيد : أديان العالم ص ٩٦ .

(٣) أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة ص ٩٣ .

مظاهر لهذه الحقيقة . وليس هناك من إنسان يملك هذه الحياة التى تدب فى أوصاله شأنه فى ذلك شأن المصباح الكهربائى . فهو لا يملك ذلك التيار الكهربائى الذى يبعث فيه الضوء .

٤ - والعالم هو مظهر القانون . وكل معلول له علة . ونفس الإنسان وطباعه هى مجموع أفكاره وأفعاله السابقة . و « الكارمه » « Karma » - ومعناها الفعل ورد الفعل - هى التى تتحكم فى الوجود بأسره . والإنسان هو المبدع الوحيد لظروفه وأحواله وانعكاساته عليها ، ولظروفه وأحواله المستقبلية ، ولمصيره الأخير .

وهو يستطيع بالنكر الصائب والعمل الصحيح أن يظهر بالتدريج طبيعته الباطنة ، وهذا العمل يستغرق جهوداً طويلة تشمل الحياة تلو الحياة على سطح الأرض ، ولكن سوف تصل فى النهاية كل صورة من صور الحياة إلى التنوير والثقة .

٥ - الحياة واحدة غير منقسمة وإن كانت أشكالها المتغيرة على الدوام لا حصر لها وهى قابلة للفناء ، وليس هناك فى الحقيقة موت وإن كان الموت مصير كل صورة من صور الحياة : إن الرحمة وليدة إدراك الحياة وفهمها .

وقد وصفت الرحمة بأنها قانون القوانين وأنها التناسق الأبدى وأن الذى يشذ عن هذا التناسق سوف يصيبه الألم والمكابدة ، كما أنه يؤخر من تنويره وثقافته .

٦ - لما كانت الحياة واحدة وجب أن تكون مصاحبة الجزء هى عين مصاحبة الكل . والإنسان لجهاه يظن أنه يستطيع أن يكافح بنجاح فى سبيل مصاحته الخاصة : وهذا النشاط الأنانى الموجه توجها خاطئاً يؤدي إلى المكابدة والألم . والإنسان يتعلم من مكابدته كيف يقلل من سبب هذه المكابدة ثم ينتهى به الأمر إلى التخلص من عاة هذه المكابدة .

ولقد عامنا بوذا أربع حقائق نبيلة هى : ١ - وجود الألم والمكابدة فى كل مكان . ٢ - علة المكابدة وهى توجيه الرغبة توجيهاً خاطئاً . ٣ - علاج المكابدة وذلك بالتخلص من علتها . ٤ - الطريق ذو الثمانى مراحل الموصل فى النهاية إلى القضاء على الألم والمكابدة .

٧ - إن هذا الطريق السالف الذكر يتألف من المراحل التالية : - الآراء الصحيحة ، والأهداف الصحيحة ، والقول الصحيح ، والأفعال الصحيحة ، والمعيشة الصحيحة ، والمجهود الصحيح ، والذاكرة الصحيحة ، والتأمل الصحيح ، وهذه المراحل تؤدى إلى التنوير الكامل .

٨ - إن الحقيقة شئ لا يمكن وصفه ، وإن كان القول باله له صفقات معينة ليس ذلك هو الحقيقة النهائية غير أن بوذا وهو الكائن الإنسانى قد غدا الشخص الذى بلغ كمال التنوير . وإن بلوغ حال الترفان - أى السعادة التى ليس من ورائها سعادة - أمر ممكن باوغه فى هذه الحياة الدنيا . إن الناس جميعاً وكل صور الحياة الأخرى تتضمن فى ذاتها إمكانية التنوير ثم يصبح هذا التنوير بالفعل باتباع الخطوات السابقة .

٩ - إن الطريق الأوسط يقع بين التنوير بالقوة والتنوير بالفعل ، وهذا الطريق يبدأ من الرغبة وينتهى إلى حالة الطمأنينة والسلام . وهو طريق وسط بين المتناقضات ، يتحاشى السائر فيه الأطراف

النهائية . وقد سار بوذا في هذا الطريق حتى نهايته ، والشئ الوحيد المطلوب الإيمان به في البوذية هو أنه ما دام بوذا المرشد قد سار في هذا الطريق فعلياً أن نسير فيه . ويجب أن يسير الناس جميعاً في هذا الطريق ، فلا يقتصر الحال على خيارهم فقط ، ولا بد من أن يتقدم القلب والعقل في الوقت ذاته إلى الأمام .

١٠- إن البوذية تهتم أشد الاهتمام بالتأمل والتركيز الباطني وهذا يؤدي مع مضي الزمن إلى تنمية الملكات الروحية . فالحياة الذاتية هامة مثل الحياة المادية المحيطة بنا : وإن فترات من الراحة والطمأنينة للنشاط الباطني للمرء لأمر ضروري لحياة متوازنة .

إن البوذي يجب عليه في كل الأوقات أن يكون حاضر الذهن رابط الجأش عزوفاً عن التعاقب العقلي أو العاطني بالمظاهر العابرة : وهذا التيقظ والانتباه للظروف - التي يدرك أنها من إبداعه - يساعده على أن يجعل انعكاساته بصدد هذه الظروف تحت رقابته وسيطرته .

١١- لقد قال بوذا : « اعمل على خلاص نفسك بجد ونشاط » ولا تعرف البوذية دعامة للحق سوى وجدان الشخص وبعديته ، وكل فرد يتحمل نتائج أفعاله الخاصة وهو يدرك ذلك إبان قيامه بمساعدة زملائه على خلاص أنفسهم .

١٢- إن البوذية ليست مذهباً يتصف بالتشاؤم أو الحروب من مواجهة الحقائق ، ولا هو بالمذهب الذي ينكر وجود الله أو الروح ، وإن كان يسبغ على هذه الألفاظ معانيه الخاصة . بل إن البوذية على العكس من ذلك طريقة للتفكير ، ودين من الأديان ، وعلم روحي وأسلوب مفعول في الحياة يتصف بأنه عملي ومحيط بكل شئ .

وقامت الحضارة الصينية القديمة على أساس من العقيدة الدينية : ووصف ابن بطوطة رحلته في الصين تذكر حقيقة تاريخية هامة ، وهي استخدام أهل الصين لورق النقد . وقال إن أهل الصين أعظم الأمم أحكاماً للصناعات ، وأشدّهم اتقاناً فيها ، أما التصوير فلا يجاريهم أحد في أحكامه ، لا من الروم ولا ممن سواهم .

هذه الحضارة الصينية السامقة ليست إلا ثمرة من ثمرات الإيمان الصيني والعقيدة الصينية :
كان كونفوشيوس (١) يرى أن إصلاح الفوضى الخلقية لا يتم إلا عن طريق إصلاح النظام الأسرى

(١) ولد كونج . فودره : سنة ٥٥١ ق . م في مدينة « تشوفو » أحد أعمال المقاطعة التي تسمى الآن ولاية « شان شونج » . توفر على دراسة الأدب الصيني وثقف نفسه بمختلف المعارف المعروفة في عصره ، فتح مدرسة صغيرة يعلم فيها التاريخ والشعر والآداب العامة . وكان محاضراً ومساجلاً كسقراط ولذلك فقد وصلت إلينا آراؤه ونظرياته عن طريق أتباعه ومريديه . وكان في حياته مثالا لسمو الأخلاق ورفعة النفس : يستنكر مؤامرات الساسة ورجال الدولة ، وتقلد وظائف هامة في مملكة « لو » مثل كبير القضاة ووكيل وزارة الأشغال العامة وانتهى به الأمر أن عين وزيراً للعدل فقضى على الجريمة قضاء تاماً . وأحبه الشعب واعتنق تعاليمه . توفي سنة ٤٧٩ ق . م (ويقال سنة ٤٧٨ ق . م) عن اثنين وسبعين عاماً .

فى المجتمع - لأن أساس المجتمع هو الفرد المنظم فى الأسرة المنظمة ؛ فكأنه نادى بالنظرية القائلة بأن الرقى الدافى هو أساس الرقى الاجتماعى (١)

فإذا أحسن الفرد حكم نفسه استقر النظام فى الأسرة وبذلك تصلح الدولة ويسهل حكمها ؛ فالسياسة إذن فى نظره جزء من الأخلاق .

وفى هذا الصدد يقول : « إن الملوك القدامى الذين يرجع إليهم الفضل فى نشر الفضائل عندما أرادوا تنظيم ولاياتهم بدءوا بتنظيم أسرهم - وعندما أرادوا تنظيم الحياة الأسرية لجئوا أولاً إلى تهذيب نفوسهم وذلك عن طريق التطهير والمعرفة والإخلاص والتوسع فى البحث عن حقائق الأشياء ؛ فلما تم لهم ذلك وكمل علمهم ، خلصت أفكارهم فتطهرت قلوبهم وتهذبت نفوسهم ؛ ومن ثم انتظمت شئونهم الأسرية ؛ فصالح بذلك حكم ولاياتهم . ومتى صالح الحكم وساد النظام والاستقرار حققت الإمبراطورية سعادتها وكما لا (٢) » .

ونادى كونفوشيوس بنظرية « سيادة الشعب » فالشعب هو المصدر الفعلى الحقيقى للسلطة السياسية . ومع أنه اعترف بالحق الإلهى للملك ؛ فإنه لم يوافق على السلطة الماكية المطلقة التى سارت عليها البلاد منذ فجر نشأتها . وجعل هذه السلطة مرهونة برضاء الشعب .

وطالب كونفوشيوس بتحقيق العدالة الاجتماعية ، وذلك بتوزيع الثروة فى أوسع نطاق ، وأن يكون الفقير فى كنف الغنى ، حتى يسعد المواطنون جميعاً بحياة اجتماعية آمنة ، دعائها الفضيلة والعدالة والمساواة .

وكان من رأى كونفوشيوس أن التعليم هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق المساواة ، لأن انتشاره يؤدى إلى تفهم حقائق الأمور ، فيدرك كل فرد مركزه الاجتماعى ، وحقه فى الحياة . ويلج فى طلب حقوقه كاملة غير منقوصة . ومتى أثمر التعليم على هذا النحو ، انعدمت الفروق بين مختلف الطبقات الاجتماعية .

وقد ارتبط المجد السياسى لإيران « فارس » قبل الإسلام بمدى تمسكها بدين زردشت (٣) ، فكلما روعى تطبيق قواعد الدين كلما ارتقت إيران وناهضت ونهضت ، وحين يضعف الروح الدينى تخمل وتخور ويغلبها الرومان وتفسد فيها حياة الناس .

ومنذ ذلك الوقت وضع دستور إيران على أساس الفكرة المشهورة الدين والدولة توئمان .

(١) الدكتور مصطفى الحشاش : تاريخ الفاسفة والنظريات السياسية : ص ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٨ .

(٣) ولد زردشت فى الجزء الغربى من إيران الذى يعرف باسم آذربيجان سنة ٦٦٠ ق . م وتوفى سنة ٥٨٣ ق . م وتذكر الروايات أنه عندما خرج زردشت إلى نور الحياة لم يلبك مثل سائر الأطفال وإنما ضحك بصوت مرتفع اهتزت له أركان البيت . ويقال إنه ظهرت عند ولادته عدة خوارق منها أن الأرواح الشريرة قد هربت إلى العالم السفلى عندما جاءها نبأ ولادته « كما يقال إن نور إلهياً نمر بيت أبيه « بورشاه » عندما ولد له ابنه زردشت .

وما إن بلغ زردشت السابعة من عمره حتى عهد به إلى أحد الحكماء ليقوم على تعليمه وتهذيبه ؛

وقامت الدولة الساسانية السابقة على ظهور الإسلام ، على أساس مبادئ دين زردشت .
كان زردشت يحث المؤمنين على تكوين الأسرة ، والوطن الناهض مجموعة من الأسرات الصالحة
ولذلك حث زردشت على الزواج : وهو يأمر الزوج والزوجة على السواء بالاستقامة والعفة والتحلل
بمكارم الأخلاق .

وحدث زردشت على التعليم ، و « الأوستا (١) » نفسها ليست كتاب دين فحسب ، ولكنها كتاب
علم كذلك : وعهد زردشت في البرنامج الذي أعدته للتعليم إلى أن يقوى الروح الوطني لدى الشعب الإيراني
عامة . والذي يتعلم لا يخدم نفسه ووطنه فحسب بل يرضى ربه أيضا ، لأن التعليم جزء من الدين .
وحين يتحدث زردشت عن الصدقات التي يجب للفقير عند الغنى ، لا يقصر كلمة الصدقة على
الحاجة المادية وحدها ، وإنما يتحدث كذلك عن الصدقة العلمية التي يجب للجهلاء على أهل المعرفة ،
لتسد الحاجة العقلية والروحية .

وتؤكد الأساطير الفارسية أن زردشت قضى فترة طويلة قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره في التأمل
والتفكير .

تم التمهيد للنبوذة المنتظرة إذ بلغ زردشت إبان عزلته في الصحراء شأوا كبيرا في الحكمة والصلاح
والتقوى وشعر في قرارة نفسه أنه رسول من عند أهرمزدا - الله عند زردشت - وأنه على أتم استعداد لأن
يحمل هذه الرسالة وأن يبلغها لبني البشر .

كان زردشت حامل رسالة الأمل إلى بني الإنسان الساعى إلى تخليصهم مما هم فيه من شرور ومفاسد
وضلالات ، العامل على إنشاء نظام إجتماعى وخلقى جديد .

كان الدين الجديد الذى يدعو إليه زردشت يقوم على أساس القلب والوجدان : إن القلب الكبير
والنفس الثابتة النادرة هي أفضل قربان يقدمه المؤمن إلى خالقه ، وإن دموع الندم المنسكبة من قلب تائب
نادم هي القربان المفضل عند الله .

أما موضوع هذا الدين الجديد وهدفه فهو السلوك المستقيم ، وعباداته قائمة على العدل والورع
والاستقامة ، وهذه صفات باطنة يتصف بها القلب والضمير ، أما المظاهر الخارجية لهذا الدين فهي
النية الطيبة والكلام الطيب والأعمال الطيبة .

اتهم الكهنة زردشت بأنه يدعو إلى عقائد وآراء تهدم دين آبائهم وأجدادهم كما أنه يسب آلهتهم
ويكفر بها ويحض الناس على اتباعه ، لذلك لجئوا إلى الطبقة الحاكمة طالبين إبعاده عن البلاد لأنه خطر
يهدد أمن الناس وسلامتهم . وقد استمع الحكام لرجال الدين فهددوا زردشت فترك مسقط رأسه
وأخذ يتنقل من بلد إلى آخر يدعو لدينه الجديد : وقد لقي زردشت الاعراض من الناس ، والسخرية
منهم ، فلم يهن ولم يضعف بل استمر يدعو إلى عقيدته الجديدة . وقد اعتنق الملك كشتاسب الديانة الزردشتية
ووقف نفسه وجنده وماله لنصرة هذا الدين . وبذلك تقوضت أركان الدين الإيراني الوثني القديم .

(١) كتاب الديانة الزردشتية ،

وأوصى زردشت بأن يكون التعليم للناس كافة ، رجالاً ونساء .

وكان للطب الزردشتي أثر كبير في ازدهار علوم الطب في إيران ، واشتهارها بهذا الفرع من العلم . وقد كانت مدرسة « جنديسابور » من أهم مدارس الطب قبل الإسلام وظلت كذلك في القرون الإسلامية الأولى .

كانت الزراعة من أهم النواحي التي دعا زردشت أتباعه إلى العناية بها ، وهو يدعو الناس إلى العمل لفلاحة الأرض وزرعها . ويأمر من يقطع شجرة بأن يغرس شجرتين قبل أن يمد يده بالقطع . والزراعة عند زردشت أهم سلاح لمحاربة الجوع ، والزراعة تقضى على البطالة ، والبطالة قرينة الشهوة والعار ، لأنها تدعو شياطين الجوع والعطش ، وتدعو المرض والألم ، وتدعو الخسوع والدلة .

ودين زردشت يحرم على المؤمن إهمال الأرض ، ويفرض عليه إصلاحها ، ولما سن أردشير القانون اتبع ما قال به زردشت فكان ينزع ملكية الأرض البور التي لم يفلحها صاحبها ، ويعطيها لمن يقدر على استصلاحها وزرعها .

ووجه زردشت عناية فائقة إلى الحيوانات النافعة ، وكان للطب البيطري شأن في العلوم الطبية في المدارس .

يقول زردشت : « ليكن أهرامزدا - إله زردشت - في عوننا كي نسعد الملاك وهو منه الذي يحمي الحيوانات النافعة ، والذي ينشر السلام بين المخلوقات الطبية . الحيوانات كلها في رعايته ، إن من يريد إرضاءه عليه أن يحافظ على الحيوانات الأليفة ويرعاها ويهيئ لها مكاناً آمناً . وعليه أن يدافع عنها إذا أوقع بها قساة القلوب من غلظتهم عذاباً . ويجب ألا يعطي الحيوان لرجل ظالم جبار .

وعلى المؤمن أن يدبر للماشية علفها في الصيف حتى لا يجبرها على الخروج لترعى في برد الشتاء القارس . وحرام على المؤمن أن يبعد عنها صغارها وأن يحرمها من ألبانها . فإن الحيوانات الأليفة في هذه الدنيا هي الصورة الثانية لو هو منه ، الذي يحمي الفكر الطيب ويحميها جميعاً (١) » .

إن « أهرامزدا » هو (٢) الإله الأعظم عند زردشت ، وهو قديم أزلي وهو وحده الذي لم يولد ولن يموت وهو علة العلل وليس له علة وهو المصدر الأول لجميع الموجودات . وهو روح الأرواح لا يرى ولا ينظر لأن الصفة الأساسية لما هو روعي أن لا يراه أحد ، فهو وإن كان موجوداً في كل مكان إلا أنه لا يرى في أى مكان .

وأهرامزدا يعلم الماضي والحاضر والمستقبل وهو في علمه هذا ليس له ند .

وهو وحده الذي يتصف بأنه العالم بكل شيء . وهو يعلم الغيب ودخائل النفوس إذ لا يخفى عليه سر من الأسرار .

(١) الدكتور يحيى الخشاب : هداية الإنسانية في الشرق - زردشت ص ٨٨ .

(٢) أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة ، ص ٤٤ .

وهو القدير على كل شيء على الرغم من « عصيان » الشيطان له .

الرجل الذي يعمل الخير ويتجنب الشر ليس بكاامل الإيمان عند زردشت ، لأن المؤمن عنده هو من يعمل الخير ويقاوم الشر ، إنه لا يوافق على السلبية في الدين .

وآثم من يرى الشر ويسكت عنه اكتفاء بأنه هو خير نفسه ، لا يقل عن إثم من ارتكب الشر ذاته ، لأن المعركة الأزلية قائمة بين الأصليين .

ورسالة زردشت قائمة على حث الناس على الوقوف في صف الخير والعمل الجدى على قهر الشر .

وقد اعتبر مؤسس الدولة الساسانية دين زردشت ، ديناً رسمياً للدولة ، واتخذ من هذا الدين برنامجاً عملياً لحكمه وحكم أسرته من بعده .

وقد حافظ رجال دين زردشت على رسالتهم في بادئ الأمر ، لأنهم أحسوا بأنهم مسئولون عن البلاد التي شرع من أجلها زردشت هذه الشريعة السماوية ، ولكنهم مالبثوا أن انغمسوا في الشهوات والملذات ، وانصرفوا إلى جمع المال ، فسادت الأنانية بين الناس ، وانصرف كل إلى شأنه لا يعبأ بغيره ، فثار الشعب ضد حكماءه . وتسامع الناس بالمثل العليا والمبادئ النبوية التي ينادى بها محمد صلى الله عليه وسلم في الجزيرة العربية ، فأمنوا بهذه المثل ، ووجدوا فيها المنقذ مما هم فيه . ولم تكد الدعوة الإسلامية تطرق عليهم الباب حتى فتحوا لها القلوب وأقبلوا عليها بالترحاب ودخلوا في الإسلام .

يستهدف الإسلام تحرير وجدان الإنسان تحريراً كاملاً ، من كل شبهة شرك في ألوهية ، أو قداسة ، قد تضغط هذا الوجدان ، وتخضعه لمخلوق من عباد الله ، وإن يكن نبياً أو رسولا ، فانه عبد من عباد الله يقول الله جل شأنه :

— « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » « آل عمران : ١٤٤ » .

ويخاطب النبي في صراحة قوية :

— « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم » « آل عمران : ١٢٨ »
ويأمره أن يهجر بحقيقة موقفه جهراً :

— « قل : إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا . قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً : قل إني لن يجرى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً » . « سورة البجن : ٢٠ - ٢٢ »

ويرجع انتصار الاسلام إلى إيمان الناس به كعقيدة ، وكفاحهم من أجل تثبيت دعائمه .

ففي غزوة بدر أعد الرسول القائد جيشه إعداداً قوياً ، وشاور أصحابه .

فقال المقداد بن عمرو : يا رسول الله ؛ إمض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا

إنا معكم مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (أى أقصى معمور الأرض)
لجالدنا (أى جاهدنا) معك من دونه حتى تبلغه .

وقال سعد بن معاذ : قد آمننا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به الحق ، وأعطيناك على ذلك
عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك
بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا
غدا ، إنا لصبر في الحرب ، وصدق في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على
بركة الله .

بعد أن استشار الرسول أصحابه ، واتخذ قرار خوض المعركة ضد الارستقراطية القرشية ، خرج
الرسول يبادر قريشاً إلى الماء ، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به ، فقال الحباب بن المنذر :
— يا رسول الله ؛ أرايت هذا المنزل ؟ أمئزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر ، أم هو الرأي
والحرب والمكيدة ؟

قال الرسول : بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

قال الحباب : يا رسول الله ، فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم
فنتنزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب
ولا يشربون .

ونفذ الرسول ما أشار به الحباب بن المنذر حين اتضح له صواب رأيه .

و دارت المعركة بين كتيبة الإيمان ، وقريش ، وانتصر المسلمون انتصاراً باهراً .

وفى غزوة أحد ، لم يصبر الرماة الذين كانوا يحمون الجيش الإسلامى من ورائهم ، واندفعوا وراء
الغنيمة فأصابهم القرع فى تلك الغزوة .

وإذا كان الظفر يعتمد على الكفاح ، فان الاتباع يقوم على الاقتناع . ومن ثم توارت المعجزات
الحسية فى الإسلام ، ولم يعد لها دورها القديم الذى أدته فى الإعلام : وكانت معجزة الإسلام الخالدة
على مدى الأيام كتاب هو القرآن : والقرآن حين يطلب من الناس أن يؤمنوا بالله الواحد الأحد ، الفرد
الصمد ، لا يحملهم عليه إكراها ، لأن طبيعة الإيمان تأبى الإكراه ، ولا يتحقق إيمان باكراه : يقول
القرآن : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » « سورة البقرة ٢٥٦ »

وكذلك لا يحملهم على الإيمان عن طريق الخوارق الحسية ، التى يبهربها عقولهم ، ويلقى بهم فى حظيرة
الاعتقاد دون نظر واختبار .

يقول الله تعالى :

— « إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » « سورة الشعراء : ٤ » .

أى إننا لا نشاء ذلك ، لأننا نريد منهم إيماناً عن تقبل واختيار (١) .

لا يحملهم على الإيمان بالإكراه ، ولا يحملهم عليه بالحوار ، وإنما يحملهم عليه بالبرهان الذى يملأ القاب . وعلى هذا المبدأ عرض القرآن عقائد الإسلام عن طريق الحجة والبرهان .

— « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر مما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » « سورة البقرة ١٦٤ » .

— « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها ، فنعم الماهدون ، ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » « سورة الذاريات ٤٧ — ٤٩ » .

وإذا كان الإسلام قد أفاد فى ذبوعه وانتشاره من وسائل أخرى كقوة العرف الاجتماعى والسلطان السياسى ، فإن كل هذه الوسائل بشرية لا تندرج تحت باب الحوار الحسية ، ثم هى بعد ذلك تالية فى الزمن والمكانة للإقناع وحده . ولم يكن حد السيف أو أسنة الرماح سبباً لا انتشاره فى يوم من الأيام .

يقول المستشرق الانجليزى « ر : ه : نولت » فى كتابه « حقيقة الإسلام » :

« ومن حيث أن أى دين من الأديان لا بد أن يكون ذا تأثير قوى فى حياة معتنقيه وتصرفاتهم فإن للإسلام تأثيراً كبيراً مماثلاً لتأثير أى دين آخر ، بل يزيد عليه ، وذلك بما تنطوى عليه طبيعته » .

ويؤكد المؤرخ الانجليزى « توماس أرنولد (٢) » : « إن سوء حال فارس الدينية والاجتماعية كان سبب ذلك الانتصار الذى حالف الفتح العربى ، وجعله يظهر فى صورة تخليص الأهالي مما أصبحوا فيه ، وما إن تم للمسلمين ما أرادوا على هذا النحو حتى تنفس الفرس الصعداء ، ورحبوا بالعرب .

وقال : إن الإسلام دين الفطرة الطبيعية السليمة ، ولهذا تتقبله القلوب والضمائر متى تفتحت له ، وإن المسلمين كانوا يقاتلون بكل قلوبهم رجاء الحسينيين وشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله . وبين من يقاتل دفاعاً عن عقيدة فاسدة ، ودولة عاتية ، ونظام اجتماعى ظالم ممقوت » .

وكتب « ميك » فى كتابه « قبائل نيجيريا الشمالية » يقول (٣) : « إن الإسلام لم يترك أثراً عميقاً فى التركيب الجنىسى لهذه الشعوب فحسب ، بل إنه جاء بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابعاً اختيارياً متميزاً لا يزال واضحاً حتى اليوم مؤثراً فى نظمهم السياسية والاجتماعية ذلك أن الإسلام حمل الحضارة إلى القبائل المتبربرة وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوباً وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة ، فقد وسع آفاقهم ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعى أرقى وخلع على أتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين

(١) الأستاذ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ١٤ .

(٢) كتاب الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم .

(٣) زكريا هاشم : المستشرقون والإسلام ص ٧٨ .

لقد حث الإسلام على تعلم القراءة والكتابة وحرم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر وغير ذلك من العادات الوحشية . وأتاح لازنجي السوداني الفرصة لأن يصبح مواطناً حراً في عالم حر .

إن هذا الاعتراف الواضح الصريح الذي ذكره « ميك » في كتابه يقف بجانب الإسلام في دعوته أنه دين مبادئ تهوى إليها النفوس من كل جانب لا دين سيف مصلت على رقاب الضعفاء ليرغمهم على اعتناقه عنوة وقهراً .

يقول الكاتب الإسباني « بلاسكو أبانيز » في كتابه « ظلال الكنيسة » :

« لقد أحسنت (١) أسبانيا استقبال أولئك الرجال الذين قدموا إليها من القارة الإفريقية ، وأسلمتهم القرى أزمتها بغير مقاومة ولا عدا . فما هو إلا أن تقترب كوكبة من فرسان العرب من إحدى القرى حتى تفتح لها الأبواب وتتأقماها بالترحاب ،

وكانت غزوة تمدين ولم تكن غزوة فتح وتديخ : ولم يزل سيل المهاجرين يتدفق من جانب المضيق وتستقر معه تلك الثقافة الغنية الموطدة الأركان ، نابضة بالحياة ، بعيدة الشوط . ولدت منتصرة وبث فيها النبي حمية قدسية واجتمع إليها أفضل ما في وحى بنى إسرائيل وعلم بيزنطية وتراث الهند وذخائر فارس والصين وهكذا تسرب الشرق إلى أوروبا على نهج غير نهج داردا وزركسيس من قبل أثينا التي قاومته خوفاً على حريتها . وإنما اختار له في هذه المرة نهجاً مقابلاً لأثينا من الناحية الغربية وهو الجزيرة الأندلسية حيث ساطن الملوكة « اللاهوتيين » والقساوسة المجاهدين فتلقته مفتوحة التراجعين .

وفي خلال سنتين اثنتين استولى الغزاة على ملك قضى مستردوه سبعة قرون كاملة في استرداده ، ولم يكن في الواقع فتحاً فرض على الناس برهبة السلاح بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مرافق الحياة ، ولم يخل أبناء تلك الحضارة زمناً عن فضيلة حرية الضمير وهي الدعامة التي تقوم عليها كل عظمة حقنة للشعوب . فقبأوا في المدن التي ملكوها كنائس النصراني وبيع اليهود ، ولم يخش المسجد معابد الأديان التي سبقته فعرف لها حقها واستقر إلى جانبها غير خاسد لها ولا راغب في السيادة عليها ، ونمت على هذا ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر أجمل الحضارات وأغناها في القرون الوسطى ، وفي الزمن الذي كانت أمم الشمال فريسة لافتن الدينية والمعارك الممحية يعيشون عيشة القبائل المستوحشة في بلادهم المتخلفة كان سكان أسبانيا يزادون فيزيدون ، على ثلاثين مليوناً تنسجم بينهم جميع العناصر البشرية والعقائد الدينية ، وخفق قلب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التي عرفها تاريخ الجماعات البشرية ،

وعاشت بفضل هذا التفاعل الحي بين العناصر والعروق جميع الآراء والعادات والكشوف العلمية والمعارف والفنون والصناعات والمخترعات الحديثة والأنظمة القديمة ، وانبثقت من تجاوب هذه القوى مواهب الإبداع والتجديد ، ووصل من الشرق الحرير والنسج والتهوة والورق واليهود والبرتقال والرمال والسكر مع هؤلاء الوافدين ، كما وصلت السجاجيد والمنسوجات والبارود والمعادن المنقوشة ،

(١) نقلاً عن أثر العرب في الحضارة الأوروبية تأليف عباس محمود العقاد ، ص ١١٦ .

وأخذنا عنهم الحساب العشرى والجبر والكيمياء والطب وعلم الفلك والشعر المقتنى ونجا الفلاسفة الإغريق من الضياع في غمرة النسيان حيث تبعوا العرب في فتوحه وغزواته : فتربع أرسطو في جامعة قرطبة التي ذاعت شهرتها في الآفاق ، وظهرت بين العرب الأندلسيين فكرة الفروسية التي تبناها فيما بعد رجال الشمال كأنها ميزة مقصورة على الأمم المسيحية .

وبينما كانت شعوب الفرنجة والسكسون والجرمان يعيشون في الأكواخ ويعتلى ملوكهم وأشرفهم قمم الصخور في القلاع المظلمة ، ومن حولهم رجال هم عالة عليهم يلبسون الزرد ويأكلون طعام الإنسان الأول قبل التاريخ : كان العرب الأندلسيون يشيدون قصورهم القوراء ويرودون الحمامات كما كان سراة رومة يرودونها من قبل للمساجلة في مسائل العلم والأدب وتناشد الأشعار وتناقل الأخبار .

وقامت في البلاد مدن تضارع في تعداد سكانها الحواضر الحديثة ، واختصت بعض القرى بمعامل النسيج ، ووزعت الأرض في شبه الجزيرة بأسرها ،

إن صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، هي التي جعلته يصمد ، في وجه الضربات الهائلة التي وجهت إليه من الاستعمار ، والصهيونية العالمية . فهذا الدين أضخم حقيقة ، وأصلب عودا ، وأعمق جذورا ، من أن تفلح في اقتلاعه تلك الجهود كلها ، ولا هذه الضربات الوحشية كذلك .

إن الإسلام هو الذي حمى الوطن الإسلامي في الشرق من غزو التتار ، كما حماه من غزو الاستعمار الصليبي ، ولو انتصر الصليبيون ، ما بقي جنس عربي ، ولا وطن عربي .

والإسلام هو الذي كافح كفاحاً مرأً في الجزائر ، وهو الذي استبقى أرومة العروبة فيها ، حتى بعد أن تحطمت مقوماتها الممثلة في اللغة والثقافة ، حينما اعتبرت فرنسا اللغة العربية — في الجزائر — لغة أجنبية محظوراً تعليمها !!

هنالك قام الإسلام — وحده — في الضمير ، يدمدم الأرض تحت أقدام الغزاة حتى ارتفعت راية الحرية فوق أرض الجزائر .

والإسلام هو الذي هب في السودان في ثورة المهدي الكبير ضد الاحتلال البريطاني في مصر والسودان .

والإسلام هو الذي ناضل في ليبيا ضد الغزو الإيطالي ، حتى عادت ليبيا إلى صاحبها الشرعي الشعب العربي الليبي .

ويكشف اللورد « جلادستون » عن هذه الحقيقة في كلمته المشهورة في مجلس العموم البريطاني : « ما دام هذا القرآن موجودا ، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان » . ومما سبق يتضح لنا أن للعقائد الدينية دور خطير للغاية في مجريات التاريخ ، ومصدقا لهذا الرأي :

١ — تولدت الحضارتان المسيحيتان (الغربية والشرقية) عن الحضارة الهلينية ، عن طريق العقيدة المسيحية .

٢ - تولدت حضارة الشرق الأقصى عن الحضارة الصينية عن طريق بوزية المهايانا .

٣ - تولدت الحضارة الهندية عن الحضارة السندية عن طريق العقيدة الهندوكية .

٤ - تولدت الحضارتان الإيرانية والعربية عن الحضارة السريانية عن طريق الإسلام .

ويرى المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي «١» أنه لن تتحقق للبشرية وحدتها المرتجاة من غير مشاركة الله .
فاو أسقطت المرشد العاوي من إعتبارها ، لاندفع الإنسان إلى الفتنة والتنافر ، وهو ما يجافى طبيعته
القائمة على الألفة والمعاشرة ، ولعذبه ذلك الحس الكامن في نفسه بحكم كونه كائناً اجتماعياً : ذلك العناء
الذي يزداد حدة كلما ازداد الإنسان قدرة على أن يرتفع بحياته إلى تحقيق الاحتياجات المعنوية لطبيعته
الاجتماعية ، طالما سعى الإنسان أن يلعب دوره في مجتمع نبذ الإله الواحد الفرد الصمد : وهذا العناء ناجم
عن أن الجهد الاجتماعي الذي يبذله المرء ليستكمل ذاته ، يتعدى بمراحل حدود حياته على الأرض ،
زماناً ومكاناً . وعلى هذا ، يصبح التاريخ عند كل امرئ يشارك فيه منفرداً ، مجرد حكاية أبله . لكن
هذا الشيء الذي لا معنى له ، يكتسب معنى روحانياً عندما يكشف المرء فعل الإله الواحد الحق .

وعلى هذا النحو ، قد تكون الحضارة ، أية حضارة ، ميداناً للدراسة مفهوماً بعض الوقت ، إلا أن
ملكوت الله هو ميدان العمل الوحيد المسام به أخلاقياً .

وعند الأستاذ توينبي أن الأديان العليا تهيم بالنفوس البشرية اكتساب رعية ملكوت الله على الأرض .
وهاهنا يتاح للإنسان المساهمة بقسط غاية في الضمالة في سير التاريخ الدنيوي ، وهو قسط يكفل له تأدية
دوره في الأرض .

ولكن على اعتبار أنه مساعد ذو إرادة لإله يضفي سلطانه على جهود الإنسان لتأدية رسالته في الدنيا :
يضفي عليها قيمة ومعنى ربانيين .

(١) فؤاد محمد شبل : منهاج توينبي التاريخي ، ص ٨٢ .

مراجع هذا البحث

- ١ - الكتب : حسب ورودها في البحث
- ميشيل روزيه : حياة جوليو كوري ، ترجمة فؤاد حداد .
- A. Cresay Morrison : Man Does not stand alone.
- ول ديورانت : مباحث الفلسفة ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني .
- ول ديورانت : قصة الحضارة .
- جميل جبر : طاغور .
- أ . كريسي موريسون : العالم يدعو للإيمان ترجمة محمود صالح الفلكي .
- عبد الحميد جوده السحار : محمد رسول الله والذين معه .
- أدولف أرمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ترجمة د . عبد المنعم أبو بكر ، ومحرم كمال هـ .
- محمد عبد الغفار الهاشمي : محمد رسول الله في بشارات الأنبياء .
- ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل .
- جوستاف جرونياوم : حضارة الاسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .
- طه عبد الباقي سرور : أقبال شاعر الحرية والكفاح .
- زيجريد هونكه : شمس الله على الغرب ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على .
- ألبرت شفيتر : فلسفة الحضارة ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي .
- أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بالخطأ المسلمين ؟
- جون ستيوارت مل : بحث في الحرية ترجمة دار البقطة العربية - بيروت .
- محاضرات أرنولد توينبي في مصر (١٩٦١) كتب ثقافية .
- الدكتور قسطنطين زريق : نحن والتاريخ .
- هرنشو : علم التاريخ ترجمة عبد الحميد العبادي .
- ألبان ج . ويدجري : التاريخ وكيف يفسرونه ترجمة عبد العزيز جاويد .
- أ . ج . ليفانز : هيرودوت ، ترجمة أمين سلامة .
- Freud; Three contributions of the sexual theory.

- أوجين جنتنجر : فن الزعامة ترجمة سلاوى حافظ وروجيه ناجى .
- أدورد كار : ماهو التاريخ ؟ ترجمة أحمد حمدي محمود .
- كارلايل : الابطال ترجمة محمد السباعي .
- فؤاد محمد شبل : منهاج توينبي التاريخي .
- المشكلة اليهودية العالمية
- دور مصر في تكوين الحضارة
- الدكتور أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ .
- الدكتور عبد الرحمن بدوي : شيلنجر .
- أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : الطب الروحاني .
- ابن خلدون : المقدمة .
- محمد صادق الجبائخي : الفن والقومية العربية .
- محمد اقبال : تجديد التفكير الديني في الاسلام ترجمة عباس محمود .
- الكسيس كاريل : الانسان ذلك المجهول ترجمة شفيق أسعد فريد .
- عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي .
- فلسفة ابن خلدون
- الدكتور علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون .
- ساطع المصري : دراسات عن مقدمة بن خلدون .
- Isibree : Hegel's Philosophy of History.
- و . ه . وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ترجمة أحمد حمدي محمود .
- ايسابراين : كارل ماركس ترجمة عبد الكريم أحمد .
- Beneditto Croce : what is living and what in Dead of the Philosophy of Hegel.
- ج . ه . كول : تاريخ الفكر الاشتراكي (الرواد الأول) ترجمة عبد الكريم أحمد .
- عباس محمود العقاد : الشيوعية والانسانية .
- الفلسفة القرآنية
- الله
- أثر العرب في الحضارة الأوروبية
- زاهر عزب الزغبى : الاسلام ضرورة عالمية .
- هارولد لاسكى : الشيوعية .

Fundamentals and Marxism — Leninism

- عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ ترجمة كاظم الجوادى .
- كرين برنتن : أفكار ورجال ترجمة محمود محمود .
- حبيب سعيد : أعلام الفكر الأوربي .

أديان العالم

- محمود الشرقاوى : مواقف حاسمة فى تاريخ محمد بن عبد الله .
- الدين والدولة العصرية .
- الأنبياء فى القرآن الكريم .
- العدالة الاجتماعية عند العرب .

Alexander Gray : The Development of Economic Doctrine

- جوستاف لوبون : سر تطور الأمم ترجمة أحمد فتحى زغول .
- فوستيل دى كولنج : المدنية العتيقة ترجمة عباس بيومى وعبد الحميد الدواخلى .
- الدكتور أحمد عبد القادر الجمال : مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية .
- جوستاف لوبون : الحضارة المصرية ترجمة م . صادق رستم .
- جيمس هنرى برستيد : فجر الضمير ترجمة الدكتور سليم حسن .
- روجيه باستيد : مبادئ علم الاجتماع الدينى ترجمة الدكتور محمود قاسم .
- الدكتور عبد المنعم أبو بكر : اخناتون .
- ج . برستيد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، ترجمة الدكتور حسن كمال .
- سينيو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر .
- ل . ويلابورت : بلاد ما بين النهرين ترجمة محرم كمال .
- على أدهم : هداة الانسانية فى الشرق .
- أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة .
- الدكتور مصطفى الخشاب : تاريخ الفاسفة والنظريات السياسية .
- محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة .

منهج القرآن فى بناء المجتمع

الفتاوى

- توماس ارنولد : الدعوة إلى الاسلام ترجمة الدكتور حسن ابراهيم .
- زكريا هاشم زكريا : المستشرقون والاسلام .

- الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي : أصول الصهيونية في الدين اليهودي *
- الدكتور عبد الوهاب المسيري : نهاية التاريخ ، مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني *
- H. G. Wells : A short History of the world, teaching of Jesus.
- رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى : المسيح ومشكلات العصر *
- محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية *
- هارولد لاسكي : العقل والايمان والمدنية *
- ر. ج. كولنجوود : فكرة التاريخ ترجمة محمد بكير خليل *
- فرانز روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ترجمة الدكتور صالح أحمد الغلي *
- الدكتور محمد البهي : الدين والحضارة والانسانية *
- محمد خلف الله : الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة *
- محمد عزة دروزه : الدستور القرآني *
- محمد عبده : تفسير جزء عم *

رسالة التوحيد تحقيق طاهر الطناحي :

- عبد المنعم محمد خلاف : المادية الاسلامية وأبعادها *
- الدكتور عيسى عبده ابراهيم : الاسلام والاشتراكية *
- الدكتور راشد البراوي : التفسير القرآني للتاريخ *
- محمد مصطفى المراغي : حديث رمضان *
- محمد محمد المدني : المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء *
- الدكتور محمد شوقي الفنجرى : المدخل إلى الاقتصاد الاسلامي *
- الدكتور محمد فهمي لطيطه : علم الاقتصاد *
- الدكتور محمد جمال الدين الفندى : الكون بين العلم والدين *
- مولاى محمد على : الاسلام والنظام العالمى ترجمة أحمد جودة السحار *
- أنور الجندي : الاسلام وحرارة التاريخ *
- مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ترجمة عبد الصبور شاهين *

٢ — دوائر معارف ودوريات :

- دائرة معارف الشعب .
- موسوعة الهلال الاشتراكية *

- وزارة التعليم العالي : تاريخ العالم ،
- وزارة الثقافة والارشاد القومي : تاريخ الحضارة المصرية ،
- مجلة المجمع العلمى العربى - دمشق ،
- القرآن الكريم ،
- الكتاب المقدس ،
- كتب التفسير : تفسير ابن كثير ،
- تفسير المنار
- كتب الحديث :
- صحيح البخارى ،
- صحيح مسلم ،

إفصل السابع :

التفسير اليهودي للتاريخ

« وأعطيهم قلباً ليعرفوا أنني أنا الرب ،
فيكونون لي شعباً ، وأنا أكون لهم إلهاً ،
التوراة

تقوم نظرة اليهود إلى التاريخ أساساً وفي أوسع شمول على المذهب التآليهي^(١) : فالطريق إلى فهم التاريخ هو فكرة السيطرة الإلهية . ومع أن الاصحاحات الأولى من سفرهم الأول وهو سفر التكوين ربما اعتبرها بعضهم أسطورية ميثولوجية ، فإن تلك الكتب تنطوي على فكرة جوهرية هي أن بداية التاريخ البشرى إنما ترجع إلى الله . فهو الذى خلق الأرض بكل ماها من خصائص تجعل التاريخ ممكناً على ظهورها : وهو الذى خلق الكائنات البشرية في صورة أرواح لها أبدان : وهو الذى أدخلهم في رفرف من السعادة والحبور : « جنات عدن » . ولكن التاريخ يحتوى على الشر ، كما أن قصة « سقوط » آدم وحواء ، وهما أول الكائنات البشرية ، تقدم إلينا تبياناً لأصل ذلك الشر^(٢) .

« ١ » التاريخ وكيف يفسرونه : ص ٨٥

« ٢ » غضب الله كما جاء في سفر التكوين لأن الإنسان أكل من الشجرة التي نهى عنها ، وهي شجرة معرفة الخير والشر ، أو شجرة المعرفة الإلهية فقال الرب الإله : « هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر والآن نعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيى إلى الأبد » .

ومن هنا ساءت اللعنة بالإنسان لأنه أكل من الشجرة ، وبالمراة لأنها استمعت إلى غواية الحية ، وبالحيوة لأنها سولت لها هذا المصعب . وكان قضاء مبرماً على نوع الإنسان كله بعد آدم . فقال الرب الإله للحيوة : « لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسمن وتراًباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلها : هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه . وقال للمرأة : « تكثيراً أكثر أتعاب حبلك . بالتوابع تلدين أولادا ، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك .

وقال لآدم : « لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً : لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكاً وحسكاً نبتت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود » (تكوين : ٣) .

ولم يكن الإنسان بالمتعبد الوحيد على إرادة الله . فإن أبناء الله سكان السماء ، ويراد بهم الملائكة . نظرنا إلى بنات الإنسان فرأوا أنهم حسنات فاتخذوا منهم نساء ، وغضب الرب فقال : « لا يدين روجي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه . هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرون سنة » .

وبعد ذلك أيضاً « دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا ، وهؤلاء هم الجبابرة المشهورون » .. « فرأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض ، وأن تصور أفكار قلبه إهما هو سرير كل يوم . فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض ، وتأسف قلبه . فقال الرب : ألمح عن وجه الأرض الذى خلقته : الإنسان مع بهائم ودواب وطيور السماء لآى حزنت أنى عملته ، وأما نوح فوجد نعمة في عين الرب » .

وقد جاء في الأسفار المتعددة كلام صريح عن تقسيم الخطوط بين الآحاد وبين الشعوب من قبل الميلاد . فن ذلك تمييز بني إسرائيل على غيرهم من الناس .

ودارس التوراة لايسعه إلا أن ينكر كل أقوال جهوه وأفعاله ، فلا يعقل أن شعباً يسخر إلهه لتحقيق مآربه وأن يحده إذا حقق له أهدافه وأنه بهم بكل النقائص من غش وخداع وفضاق إذا جاءت أفعاله على غير هوى شعبه المختار .

إن الذين كتبوا التوراة في المنى كانوا أول طبقة في حكماء صهيون ، وهم الذين رسموا سياسة الوعد الإلهي بأرض الميعاد أرض فلسطين ليكون لهم حق في أرض اغتصبوها من أصحابها بقرار من رب العالمين .

وتنطوى القصة ضمناً على فكرتين دامتا بقوة في نظرة اليهود إلى التاريخ :

وأولى هاتين الفكرتين أن للإنسان مطلق الحرية في طاعة الله وعصيانه . وابتعاد الإنسان عن الله عن طريق المعصية هو أصل الشر وأساسه ، كما أن جميع أنواع الشرور الأخرى تتوقف توقفاً مطلقاً عليها . ومع أن الله قد طرد آدم وحواء من جنة عدن ، فإنه لم يباعد بين ذاته وبين البشر ، إذ ذهب اليهود إلى أن الله ظل دائماً على اتصال بالناس في التاريخ . ومع أن سفر « التكوين » يرى أن من اللعنة أن يكتسب الإنسان خبزة بعرق جبينه ، فإن الكتب المقدسة تعود بعد ذلك فتعالج الحاجة إلى العمل باعتبارها بركة ونعمة . وقد منح الله الإنسان « حكمة القلب ليقوم بجميع أصناف الأعمال . على أن الكتب المقدسة لم تعطنا أية إشارة من امتناع القوم بوجود أى تقدم متواصل في التاريخ . وإنما هناك ، على الأصح تعاقب للحركات ، أماما وخلفا ، وأوقات الرخاء وأوقات الشدائد . . .

وقد تدخل الله في ظروف معينة في التاريخ : والشر وإن وصف بأنه يهبط على الإنسان أصلاً بسبب مغريات الشيطان (وهو روح شريرة) ، إلا أن ما ورد في الكتب المقدسة العبرانية من إشارات إلى الشيطان قليل .

وتصور اليهود لله يعتبر ذا أهمية قصوى بالنسبة لرايهم في التاريخ . فالله روح ولا يمكن أن تمثله صورة مرئية ، ومع ذلك فإن الله خلق الإنسان « على صورته ومثاله » وبذا يكون الإنسان روحاً أيضاً ، وبهذا التماثل في الوجود ، تستخدم عن الله مصطلحات مماثلة لما يستخدم عن الإنسان . وأنه صاحب حكمة وإرادة ومشاعر كالحمية والغضب في سبيل البر والحق .

يعتبر اليهود أنفسهم شعب الله المختار ، أما شعوب العالم فهي في مركز منحط يطلقون على أفرادها كلمة « الأمميين » هم بتعبير الشاعر البريطاني كبلينج : سلالات دنيا لا شريعة لها^(١) وأن يهوه إله شعب إسرائيل ، يغضب من العبريين لانتفاتهم إلى غيره ، وقال لهم كما جاء في سفر أشعيا الثاني :
« بمن تشبهونني وتسوونني وتمثلوني لتتشابه » .
وكان النبي أرميا يقول لهم بلسان الرب إلههم :

«وما من شيء في إسرائيل أصيل ، وكل ما بها من لغة وحكمة ومعتقدات دينية قد سلبت من الكنعانيين والمصريين والبابليين فوثائق المعاملات المكتوبة بالخط المساهي متداولة قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م في آسيا الصغرى وكان استعمال تلك الكتابة المساهية في فلسطين أمراً مألوفاً دائماً عند حلول القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وقد سرت بجانب هذه المعاملات البابلية النقائيد والقوانين التجارية التي كان التجار البابليون يسرون على مقتضاها .

وبعض هذه القوانين نفسها ما انحدر إلى البشرية عن طريق قانون حمورابي كانت متداولة الاستعمال كذلك في فلسطين قبل عهد العبرانيين ، ثم وصلت عن طريق « العهد القديم » إلى الحضارة الغربية .

يقول برستد في كتابه فجر الضمير : « ولدينا الآن الأدلة الوافرة على أن التطور الديني الذي أحرزه العبرانيون بعد عودتهم من المنفى (في بابل) كان متأثراً بتعاليم « زروستر » « زردشت » ، وأنه يجب لذلك أن نضيف إلى المؤثرات الدولية التي تعرضت لها الحلقيات العبرانية ، التعاليم التي جاء بها هذا النبي (الميدي الفارسي) العظيم زروسر « زردشت » .

« ١ » فؤاد محمد شبل : المشكلة اليهودية العالمية : ص ٩ .

« إن آباءكم قد تركوني وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها وإياي وتركوا وشريعتي لم يحفظوا » .

ثم يقول الرب :

« وأعطيتهم قلباً ليعرفوا أنني أنا الرب فيكونون لي شعباً وأنا أكون لهم إلهاً » : كان هو الحاكم على لسان الملك أو الكاهن . وكان الشعب إذا ترك « يهوه » سلمه إلى أيدي أعدائه جزاء وفاقاً على تمردهم عليه وعصيانهم له . ومخالفتهم لأوامره ونواهي . فان أظهروا الندم وتابوا توبة صادقة بعث فيهم مخلصاً منهم ينشلوهم من الوحدة التي انحدروا إليها لعصيانهم الرب .

ولا يقتصر وصف التوراة^(١) لهذا الرب بالتعنت مع شعبه ، إذ تظهره أنه نكد ، متقلب مندفع ، يحب أشعة الشواء ، وأنه يتمشى في ظلال الحديقة ليتبرد بهوائها . ولا يرضى « يهوه » بالقرابين الحيوانية وحدها ، بل لابد من تقديم القرابين البشرية إليه .

(١) يشك المؤرخ .. ول ديورانت . في صحة التوراة ، ويرى أن أهواء اليهود قد لعبت بها ، فحملت من أسفارها سجلاً للأحداث التي مرت بهم فكان كل سفر منها يحمل طابع العهد الذي دون فيه ، مصطبغاً بما في نفوس أبناء هذا العهد من بؤس ونعيم ، أو هزيمة وانتصار . إذ لم تكتب التوراة في وقت نزولها على موسى ، وإنما كتبت بعده بمئات السنين .

جاء في سفر التثنية الإصحاح الرابع والثلاثون وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل بنوإلى رأس النسيجة الذي قبالة أريحا ، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان ، وجميع نפתالى وأرض أفرايم ومنسى (أبى يوسف) وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر . وقال له الرب : هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلاً : لنسلك أعطيها . قد أريت لك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر . فأت موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب . ودفنه في الأجواء في أرض موآب مقابل بيت فقور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم »

إذا أنعمنا الفكر في دراسة هذا الإصحاح نجد رواية تاريخية كتبها كاتب التوراة ولا يمكن أن تكون حياً . فالكاتب يقول : فأت هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ، وهذا الخبر وكل ما بعده حتى نهاية الإصحاح هو قرار من الكاتب ، فلا يعقل أن موسى عليه السلام قال بعد موته : « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا دهست نضارته . فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يوماً ، فكملت أيام بكاء مناحة موسى » .

يحكى « ديورانت » قصة الظروف التي أدت إلى التفكير في كتابة التوراة ، والناظر في الظروف والملاسات التي باشرت هذا الحدث يتبين له أن شيئاً من التحريف والتبديل قد دخل على أصل التوراة ، مناسبات الحال التي صار إليها اليهود بعد أن لعبت بهم الأحداث ، وبعد أن أصابهم ما أصابهم على يد الغزاة من تقتيل وتشريد . يقول « ديورانت » : وكان سبب كتابتها - أي التوراة - أن الشعب شرع يرتد عن عبادة « يهوه » إلى عبادة الآلهة الأجنبية ، وأخذ الكهنة يتساءلون : ألم بأن لهم أن يفتقروا وقفة قوية يمتعون بها تدهور العقيدة الدينية ؟ ورأوا الأنبياء يحزون إلى يهوه ما يحشون في صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدون ، فاعتزموا - أي الكهنة - أن يبلغوا الناس رسالة في الله نفسه في صورة سنن إلهية ، تبيث النشاط والقوة في حياة الأمة الخلقية ، ويضمنون بها معاونة الأنبياء .. وذلك بما تتضمنه من آرائهم القلبية التطرف .. وسرعان ما ضموهم إلى جانبهم الملك « يوشيا » فلما كانت السنة الثامنة أو نحوها من حكمه - يوشيا - أبلغ الكاهن « حلقيا » الملك أنه « وجد » في سجلات « الهيكل » ما عجباً ، قضى فيه موسى نفسه على جميع المشكلات التاريخية والخلقية ، التي كانت متار حدل عتيف بين الكهنة والأنبياء .

وكان لهذا الكشف أثر عظيم في نفوس القوم . فدعا « يوشيا » كبارهم إلى الهيكل ، وتلا عليهم فيه سفر « الشريعة » في حضرة آلاف من الشعب ، ثم أقسم ليعلمين من ذلك الوقت ما جاء في هذا السفر .

ويعلق ديورانت على هذا الخبر فيقول :

وتعدد التوراة أحكامه الجائرة التي لا تعد ولا تحصى كما تبدى التوراة شدة بطشه بالناس كقوة غشوم لا تبقى ولا تذر :

وقد انعكست صفات هذا الرب على شعبه طوال الفترة التي كانوا فيها أقوىاء ، فلما أصابهم النكبة تلو النكبة وحق بهم الذل والهوان ، واجهوا تحديات عصرهم باستجابات روحانية وعندما اتبحت لهم فرصة الاستبداد والطغيان ارتدوا إلى ماديتهم : وقد تمثلت أولى مكابدات اليهود في الثورة الاجتماعية والاقتصادية التي أخذت بخناق شعب إسرائيل في غضون القرن الثامن قبل الميلاد .

وتفسير ذلك أن الاقتصاد النقدي وسبل الحياة الحضرية قد تسربت إلى الريف ومرتفعات كنعان مثلاً بسطت ظلها قبل ذلك على المدن الفينيقية والفلسطينية : فكان أن انجرفت ثروة الريف إلى المدن واستأثرت بالثروة قلة من السكان باتت تستمتع بالحياة المترفة ، وتزداد رفاهية وثراء بفضل عمال المضاربة وللربا ويستفحل فقر الجماهير العريضة :

وترتب عن ذلك انقسام الجماعة اليهودية انقساماً معنوياً : فاندفعت الجماهير الفقيرة تتساءل عن حكم الرب « يهوه » في هذا الانقسام الاجتماعي ، لقد كانت رسالته تتمثل حتى ذلك العهد في حماية عصبته من عدوان المجتمعات المعادية ، أما كيف يحمي أغلبية شعبه الساحقة من ظلم أقلية المسيطرة فهذا ما لم يخطر على بال عباده وأصفيائه .

« ولسنا نعلم على اليقين ماذا كان «سفر الشريعة» هذا فقد يكون سفر الخروج من الإصحاح العشرين إلى الثالث والعشرين - . وقد يكون سفر « تنحية الاشتراع » . وليس ثمة ما يضطرنا إلى أن نفترض أنه قد وضع في تلك الساعة .. فكل ما فيه أنه يقطن ، ويسجل أوامر ومطالب ونصائح نطق بها خلال عدة قرون أنبياء بني إسرائيل وكهنة « المهد (١) » .

وقد وقعت بعد هذا العهد الذي أقسم فيه اليهود على احترام ماجاء في سفر الشريعة . وقعت أحداث زلزلت عقيدة اليهود في « يهوه » وتغيرت تبعاً لذلك نظرهم إلى الحياة .

كانوا قد أصبحوا بضربة قاضية على يد « نبوخذ نصر » فقد دمر الهيكل . وضاع كل أمل اليهود في إقامة دولة . تعتمد على يهوه . وكان من المحتم ، اجراء تعديل في الشريعة القديمة التي عثر عليها « حلقياً » وادعى نسبتها إلى موسى عليه السلام . وذلك لكي ترضى الشريعة القديمة تلك النزعة التي ولدتها الأحداث في نفس اليهود ، والتي تغذرت بها نظرتهم إلى يهوه (٢) . وكما ظهر « حلقياً » في الحركة الأولى ظهر « عزرا » في تلك الحركة ... ففي عام ٤٤٤ ق . م .

دعا عزرا - وهو كاهن عالم - اليهود إلى اجتماع عام ، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه - سفر شريعة موسى - وظل هو وزملاؤه سبعة أيام كاملة يقرءون ماتحتويه ملفات هذا السفر . ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ، ويتخللونها دستوراً لهم يتبعونه ، ومبادئ يسبغون على هديها ، ويطيعونها إلى أبد الآبدين . وكان هذا ابتداء العهد الجديد .

وقد ظلت تلك الشرائع - شرائع العهد الجديد - من تلك الأيام النكدة إلى يومنا هذا الخور التي تدور عليه حياة اليهود ، ولا يزال تقيدهم بها طوال تجوالهم وعهدهم من أهم الظواهر في تاريخ العالم (٣) .

١ « قصة الحضارة : ج ٢ ص ٣٥٦ .

٢ « يفسر بعض العلماء اسم يهوه » بأن معناه هو الذي يكون ويفسره آخرون بأن معناه هو الذي يوجد بكسر الجيم أي الخالق .

٣ « قصة الحضارة : ج ٢ ، ص ٣٦٦ .

فى ذلك الحين ، فى القرآن الثامن قبل الميلاد ، قال أنبياء اليهود بأن الرب نصير العدالة والحق ، واقتبسوا ذلك كله من صفات « رع » الإله المصرى خاصة ومن قواعد الديانة المصرية عامة ، وهى ديانة تجعل العدالة والحق (أى ما يطلق عليه باللغة المصرية القديمة معات) دعامة المجتمع الفاضل وعماد الحكم الصالح ومبرر طاعة الشعب لحكامه .

ونادى أنبياء إسرائيل وقتذاك بأن على طغاة إسرائيل إظهار الندم على ما ارتكبوه فى حق جماهير الشعب ، والتزام الحق ، والصدق وإلا فان « يهوه » يقابل إساءتهم للشعب بانزال عقابه الصارم على الشعب جميعا ، حكاما ومحكومين . ولم تجد تحذيرات هؤلاء الأنبياء آذانا صاغية ، أو قلوبا واعية ، فكان أن حاقت النكبات والمصائب باليهود .

وقد ضيق اليهود أفق عبادة « يهوه » فكان شعبه المختار فى مبدأ الأمر شاملا قوم إبراهيم ثم أصبح بعد بضعة قرون مقصوراً على قوم يعقوب بن اسحق ، ثم أصبح مقصورا على قوم موسى ثم على أبناء داود وعلى من يدينون لعرشه بالولاء . ومن ذريته كان ينبغى أن يظهر المسيح المخلص لهم فى آخر الزمان ، بعد أن وضحت استحالة تحقيق الخلاص بجهود الشعب وحدها . ومناطق الخلاص اخضاع العالم بأسره لسيطرة اليهود .

وهكذا عمد اليهود إلى إلقاء عبء تنفيذ مشروع مستحيل التنفيذ من على عاتقهم على عاتق « يهوه » الذى سيقوم هو شخصيا بتنفيذ المشروع وإخراجه إلى حيز الوجود لصالح اليهود على حساب بقية شعوب العالم وأجناسه .

ولم يبلغ القدر عند نبي إسرائيل أن يكون نظاما كونياً يجرى عليه قضاء الله مجرى النواميس والشرائع الخلقية ، بل كان « يهوه » يجرى فيه على حكم ثم يندم عليه ويبدله تارة بعد أخرى على حسب الحالة التى تطرأ بغير حساب ، قال النبي أرميا يتحدث باسم يهوه :

« قم أنزل إلى بيت الفخارى وهناك أسمع كلامى . فنزلت إلى بيت الفخارى إذا هو يصنع عملا على الدولاب . فقد الوعاء الذى كان يصنعه من الطين بيد الفخارى . فعاد وعمله وعاء آخر كما حسن فى عيني الفخارى أن يصنعه فعاد إلى كلام الرب قائلا : أما أستطيع أن أصنع لكم كهذا بيدى يا بيت إسرائيل ؟ يقول الرب : هوذا كالطين بين الفخار أنتم كهذا بيدى يا بيت إسرائيل . وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالقلع والهدم والإهلاك فترجع تلك الأمة التى تكلمت عليها عن شرها فأندم على الشر الذى قصدت أن أصنع بها . وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالبناء والغرس فتفعل الشر فى عيني فلا تسمع لصوتي فأندم على الخير الذى قلت إنى أحسن إليها به » .

وأكد التلمود تمييز اليهود عن باقى البشر :

« وتتميز أرواح اليهود عن باقى الأرواح بأنها جزء من الله كما أن الابن جزء من والده » ومن ثم

كانت أرواح اليهود عزيزة عند الله بالنسبة لباقي الأرواح ، لأن الأرواح الغير يهودية هي أرواح شيطانية وشبيهة بأرواح الحيوانات^(١) ولا يدخل الجنة إلا اليهود ، أما الجحيم ، فهو مأوى الكفار .

وبما أن اليهود جزء من الله كما أن الإبن جزء من أبيه ، لذلك جاء في التلمود :
« أنه إذا ضرب أمي اسرائيلياً ، فالأُمى يستحق الموت »^(٢)

وقد صور التلمود غير اليهود بأنهم حيوانات في صورة إنسان ، هم حمير ، وكلاب ، وخنزير ، بل الكلب أفضل منهم ، لأنه مصرح لليهودى في الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم « الأجانب » وغير مصرح له أيضا أن يعطيهم لحما ، بل يعطيه للكلب لأنه أفضل منهم .

« وخلق الله الأجني على هيئة الإنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود ، الذين خلقت الدنيا لأجلهم »
إن اليهود يعتبرون أنفسهم مساوين للعزة الإلهية ، فتكون الدنيا لهم ، ولهم حق التسلط عليها^(٣) .

والربا محرم في اليهودية ، قال النبي نحميا في الاصحاح الخامس من كتابه :

« إني بكنت العظماء والولاة وقلت لهم إنكم تأخذون الربا كل واحد من أخيه »

والمقصود بإشارة نحميا أن الربا المحرم هو الربا الذى يأخذه الاسرائيلي من أخيه ، لأن الربا المأخوذ من أبناء الأمم الأخرى مباح كيف كان .

والاصحاح الثالث والعشرون من سفر التثنية صريح في إباحة أخذ الربا من الأجني .

حيث يقول مخاطباً شعب إسرائيل :

« للأجني تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك » .

فليس هذا تحريماً إنسانياً منبثقاً من شعور بالرحمة والعدل فى المعاملة ولكنه تحريم عصبية يبيع من الفسوة على أبناء الأمم الإنسانية كافة ما يحرمه فى معاملة الإسرائيلى لأخيه .

والأسرى يعاملون كالطريدة من الحيوان . جاء فى كتاب التثنية الاصحاح العشرون :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يديك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهايم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها تغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك حذاً الى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبى منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً .

وقد زعمت كتب اليهود ، أن اسرائيل سأل إلهه قائلاً :

« ١ » الكنزى المرصود فى قواعد التلمود : ص ٥٠

« ٢ » المصدر نفسه : ص ٥٠

« ٣ » المصدر نفسه : ص ٦٩ - ٧٠

— لماذا خلقت خلقا سوى شعبك المختار ؟

فأجابه قائلا :

« لتركبوا ظهورهم ، وتمتصوا دماءهم ، وتحرقوا أخضرهم ، وتناولوا طاهرهم ، وهدموا عامرهم .
إن (١) إدعاء اليهود أنهم شعب الله المختار خرافة مطبقة . »

وتلك حالة لا نظير لها على الإطلاق في تاريخ العقائد الدينية ، ففي الحالات الأخرى يندمج الشعب ومعبوده إندماجا تاما منذ البداية ، في حالات أخرى يتحول شعب إلى عبادة معبوده : أي يختار الناس معبودهم ، ولم يحدث قط — كما في هذه الحالة — أن اختار الله عابديه : فالمنطق يفرض علينا أن نقرر أن موسى قد جعل من اليهود شعبه ، أي شعبه المختار بعد ما تبين له عزوف المصريين عن الوجدانية « بني اليهود نظرتهم في التفضيل على الناس ، على أساس الوعد الذي قطعه الرب لإبراهيم .
« قال الرب لإبراهيم ، اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم أسمك وتكون بركة وأبارك مباركك ، والعن لاعنيك ، وتبارك جميع قبائل الأرض » (٢) .

إن كل ما حدث في التاريخ مبنى بناء مباشرا على هذا الأمر والعهد . فهو ليس بمعلول بل علة كل معلول هو العلة الأولى التي لا تفسير ولا داعي ولا سبب لها .

وهذا هو التفضيل الذي يمكن أن يتخذ أساسا للانفرادية عن سائر البشر : وأقام اليهود نظرية تفوقهم على البشر وانفرديتهم عن الناس ، وأفضليتهم على جميع المخلوقات في نظر الخالق على أساس هذا العهد وعليه وقفوا تكوينهم أمة فريدة تقف من الأمم موقف المختار الذي يتمتع بحقوق ليست لغيره ، وهم يفتخرون ، بأنهم أبناء إبراهيم الذي اختير وفضل على العالمين ، فالاختيار في نظرهم ، لا للرجل فحسب بل لأبنائه وسلالته ، وهم يعترفون أن هذا الاختيار لم يكن أخلاقيا وليس له علة (٣)
جاء في سفر التكوين (٤) :

« اسمع يا اسرائيل أنت اليوم عابر الأردن لكي تدخل وتمتلك شعوبا أكبر وأعظم منك ومدنا عظيمة ومحصنة إلى السماء ، قوما عظاما وطولا . بني عناق الذين عرفتهم وسمعت من يقف في وجه بني عناق فاعلم اليوم أن الرب إلهك هو العابر أمامك نارا آكلة . هو يببدهم ويذهبهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعا كما كالمك الرب . لا تقل في قلبك حين ينفهم الرب إلهك من أمامك قائلا : لأجل برى أدخلني الرب لأمتلك هذه الأرض . ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لكي يني بالكلام الذي

« ١ » المشكلة اليهودية العالمية : ص ٤٤ .

« ٢ » الاصحاح ١٢ : ١ - ٣ .

« ٣ » دكتور اساميل راجي الفاروق : أصول الصهيونية في الدين اليهودي ، ص ٦٢ .

« ٤ » الاصحاح ٩ : ١ - ٦ .

أقسم الرب عليه لأنك إبراهيم واسحق ويعقوب ، فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة (١) .

فلا يجوز إذا لليهود تبرير اختيارهم على أى أساس خلقى .

يرى الكاتب اليهودى كلود مونتيفيورى فى كتابه « معالم اليهودية المتحررة » أن الله « يتصرف فى تاريخ الإنسان وله فيه هدف . فالتاريخ الديوى له قيمته فى حد ذاته ، كما أنه يعد أيضا تمهيدا لحياة مستقبله .

« ا » إن الذين كتبوا التوراة بأيديهم فى المنفى كانوا مشردين وكانوا يتطلعون فى شوق ولهفة للعودة إلى أرض كنعان أرض فلسطين ، وما كان لهم حتى فى تلك الأرض فأرادوا أن يثبتوا ذلك الحق بوعد الخى ، فكتبوا بأيديهم أن الله سيكون إله إبراهيم ونسله من بعده ، أما نأقى البشر . إن كان اليهود يسمحون بأن يكون غيرهم بشرا ، فقد تركوا بلا إله ، فاصبح رب الناس ، إله الناس رب العالمين إله لنسل إبراهيم وحده . وإسماعيل مانصبه فى هذا الوعد ؟

لأنه من نسل إبراهيم فهو يساركو هو ويده فى هذا الوعد . ولما كان ذلك لابرصى اليهود فقد أخرجوا إسماعيل وبنيه من ذلك الوعد ، فجعلوا إبراهيم يقول : لبت إسماعيل بميش أمامك ، فلا دمجب ذلك القول رب إسرائيل الذى لم يكن قد ولد بعد فيقول : « بل سارة امرأتك لتلد لك ابنا وتدعوا اسمه إسحقى ، واهب عهدى معه عهدا أبديا لنسله من بعده . وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأمره وأكره كثير جدا . انى عتير رئيسا يلد وأحعله أمة كبيرة . ولكن عهدى أقيمه مع إسحق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتية » .

وهكذا وضع أول حكماء صهيون أول بذرة فى مشكلة فلسطين ، حملوا الله بلا سبب معقول مختار إسحق الذى لم يكن قد ولد بعد ليقم له عهدا أبديا لنسله من بعده ويخرج إسماعيل من ذلك العهد .

ولم ترو التوراة كيف تحقق وعد الله بأن يبارك إسماعيل وحمله أمة كبيرة ، وقد يكون لكتاب التوراة عذر فقد تحقق ذلك بعد عهدهم المهم أنهم وضعوا على لسان الله كلاماً يخدم نصبهم ويجعل لهم حقاً إلهياً فى أرض فلسطين . وقد ذكر أنبياء بنى إسرائيل أنه الختان هو علامة العهد بين الله وبين إبراهيم ونسله . وقد يكون ذلك الكلام صحيحاً لو أن الختان لم يكن معروفاً قبل ذلك العصر ولكن قدماء المصريين كانوا يختنون ، فهل كان الختان علامة عهد بينهم وبين الله ؟

كانت العداوة قائمة بين الكنعانيين أصحاب الأرض الحقيقيين وبين بنى إسرائيل واليهود الذين أرادوا اغتصاب الأرض منهم ، ولم ينس الذين كتبوا التوراة فى المنفى تلك العداوة أبداً ، وأرادوا أن يؤكدوا وعد الله باعطاء أرض فلسطين إلى نسل إسحق فجعلوا إبراهيم وهو يتحد بأنفسه بقول لعبده كبير بنه المستولى على كل ماكان له . « ضيع يدك تحت فخذي ، فاستحلفك يالرب إله السماء والأرض أن لاتأخذ روحه لاني من بنات الكنعانيين الذين اذا ساكن بهم . بل إلى ارضى وإلى عشبى تذهب وتأخذ زوجة لى اسحق فقال له العبد : ربما لاتشاء المرأة أن تنتمى إلى هذه الأرض هل ارجع بابنك إلى الأرض التى خرجت منها » أوربالعراف ؟ فقال له إبراهيم : احذر من أن نزلح يابى إلى هناك . الرب إله السماء الذى أخذنى من بيت أبى ومن أرض ميلادى والذى كلمنى والذي أقسم لى قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض ، هو يرسل ملاكه أمامك فتأخذ زوجة لابنى من هناك وإن لم تشأ المرأة أن تتبعك برأت من حلى هنا . أما ابى فلا ترجع به إلى هناك . فوضع العبد يده تحت فخذي إبراهيم مولاه وحلف له على هذا الأمر ؟

وينور هنا سؤال : إذا كان وعد الله باعطاء أرض فلسطين لإسحق ونسله معروفاً فكيف خطر على قلب كبير بيت إبراهيم أنه يعود بإسحق إلى أور إلى الارض الى خرج منها إبراهيم ؟

لقد كان وعدا وكان خشنا وكانت ابهجات بختان إبراهيم وإسماعيل والعبيد ثم إسحق بعد كل ذلك فكيف غابت كل تلك الإبتهاجات عن كبير بيت إبراهيم ؟ لعل الذين كتبوا التوراة فى المنفى خشوا أن يكون قارئ التوراة قد نسي الوعد فأرادوا أن يؤكدوه كما يفعل معظم القصاصين الذين ينسبونهم الفلق على هرائهم فيعيدوا سرد بعض الأحداث للتذكرة والتأكيد .

« محمد رسول الله » والذين معه ج ١٦ ، ص ٣١٠ »

ونحن نعتقد أن الجنس البشرى قد تقدم ولا يزال يتقدم بصورة وإن كانت وثيدة فهي على كل حال أكيدة - من بر هزيل إلى بر دسم غنى ، ومن أفكار أدنى وأشد فجاجة وأكثر خطأ حول الله ، إلى أفكار عنه أعلى وأتقى وأصدق . ومن أجل نفاذ أهدافه في التاريخ ، هب الله شعوباً وأفراداً معينة قدرات مختلفة وينوط بهم أعمالاً مختلفة .

وهكذا كان اليهود « شعباً مختاراً » ، لم يجر اختياره ليحرز النجاح أو الغنى أو القوة أو وفرة العدد ، ولم يجر اختياره من أجل الغنى ولا العلم ولا الفلسفة ، ولكن جرى اختياره ليتعلم ويساعد على نشر المبادئ والخبرة الحقة عن الله والبر ، وعن علاقة الإنسان بالله وعلاقة الله بالإنسان :

وكان مونتيفورى ممن يعتقدون بأن « بقاء الجنس اليهودى » ليس وليد الصدفة : « فانه لم يتم دون إرادة الله ونيته » . وذلك لأن جوهريات الأخلاق والدين كما تعبر عنها الديانة اليهودية أصول عاملة شاملة . ولكن اليهود جنس مثلما أنهم أنصار دين ، وهو يبدى أسفه لأن بعضهم أشد انشغالا بالمسألة الأولى : وهى الجنس ، منهم بالمسألة الثانية : وهى الدين .

وبهذه الخلة يظهرون أنهم لم يقدروا بدرجة كافية ما لديهم من صفة الشمول . وقد عبر عن رأيه بأن نشر جوهريات الدين اليهودى تمت على يد المسيحية والإسلام أكثر منها على يد اليهود .

ومع ذلك ، « فان المسيحية لا تبدو لليهود سوى مرحلة فى إعداد العالم لتقبل يهودية نقية مصفاة متطورة ومتجهة إلى الشمولية والتعميم » (١) .

إن أحداث التاريخ لا يراها اليهودى لا كأحداث تاريخ لها مسبباتها ومقوماتها ونتائجها التاريخية ، بل كأحداث غيبية ، إلهية تأتى وتروح لالمساسها بواقع الأمور ، بل كجزء وعقاب لأنه يعنى فى عصره ، ولم يحافظ عليها ولأنه لم يمثل لأمر « يهوه » بالمحافظة على العنصر اليهودى صافياً كاملاً . أما الأحداث الطيبة فهو يراها لا كنتيجة حتمية لأعماله البارة - مهما كان معنى البر عنده - بل كمكافأة « يهوه » له لأنه حبيبه وشعبه المختار كتنفيذ لعهد الذى قطعه لإبراهيم وتحقيقاً للقسم الذى أقسمه بأن يبقى على ذرية إبراهيم ونسل داود ومملكته .

ولكن كيف يمكن التوفيق بين الهلاك الذى سبترله « يهوه » بشعبه لإنحرافه وتخلفه عن أرائده بأن يحفظ عنصره ، وبين الخلاص وإعادة المجد الذى لا بد « ليهوه » أن يحققه ؟ فإذا كان الهلاك ضرورياً ، لا يمكن أن يكون الخلاص ضرورياً ، وإذا كان الخلاص ضرورياً ولا بد منه فيجب أن لا يكون الهلاك ضرورياً . لقد حل العقل اليهودى هذه العقدة حلاً بارعاً : هو نظرية البقاء :

تقول هذه النظرية بأنه مهما تحول الشعب اليهودى عن يهوديته ، ومهما عصى « ليهوه » وأوامره ، ومهما خالف فى طقوسه وعاداته ، فان بقية منه لن تتحول ولن تنحرف ولن تتخلف ، بل تبقى على إخلاصها

(١) التاريخ وكيف يسروه : ص ٩١

وولائها وقد استهت وطاعتها وخيرتها وبدى أن الغاية من هذه النظرية ، هو التمكين من الإبقاء على الشعب اليهودي ، أى العنصرية ، فطالما أن هناك بقية صالحة فالحلاك الكلى ليس ضروريا . ولكن الخلاص ليس للجميع (١) لأن الحقبة الواقعة هى أن ليس الجميع صالحين ، أى عنصريين . لهذا جاءت نظرية البقية مهدى الخلاص للذين تريد العنصرية اليهودية لهم الخلاص ، كما دفعت بالهلاك إلى الذين كانت تريد لهم الهلاك :

ولهذه النظرية مزية أخرى : فطالما أن الحكم بالهلاك ليس مطلقا ، يتمكن اليهودى فى أى وقت يشاء من الإفلات من قبضة الأخلاق ، وبأخلاقه هو يخلق العنصرية ، أى يجعلها خلقية بنسبة أعمالها إلى البقية الصالحة ، وليس أدل على هذا التلاعب بالأخلاق من أن نقارنه بالحكم القرآنى . فى القرآن على المؤمنين واجب هو تحقيق أمانة السموات التى رفضتها الملائكة وتقبلها الإنسان ، فإن حققها المؤمنون كانت لهم جنات تجري من تحتها الأنهار فى الدنيا والآخرة ، وإن لم يحققوها باعوا بغضب من الله كبير ، لا فى الآخرة فحسب ، بل وفى الدنيا أيضا ، بل أكثر من هذا وأشد صراحة ، إن لم يحققوها فسيهلكهم الله جميعا بدون استثناء ويستبدلهم بقوم آخرين يحققوها ويرثون المؤمنين ومالهم من أرض ومال وتاريخ .

ومما يؤخذ على اليهود أنهم عنوا بتفسير التوراة تفسيرا ماديا محضاً كأنهم يعتقدون صفقة تجارية فهم كما يقول المؤرخ البريطانى هـ : ج . ويلز : « يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالمين جميعاً ، رب بر وصلاح ، ولكنهم يقولون أيضا أنه رب تاجر ، فقد عقد فى أمرهم صفقة مع أبيهم إبراهيم ، وهى صفقة جد رابحة لهم ، يلتزم فيها لهم بأن يرقى بهم فى النهاية إلى السيادة على العالم كله (٢) »

وهذا هو جوهر الخلاف بين اليهودية والمسيحية ، فى حين كان اليهود بمجدون من ذاتهم ويعلمون من شأن أنفسهم بأنهم شعب الله المختار ، وأن الله وعدهم الملك والسيادة على العالم ، إذ بالمسيح يسفه من أحلامهم ويبشر بعقيدة تجب آمالهم فى ملكوت السموات والأرض فبنادى بأن الله هو رب البشر جميعاً ، وأن الناس كلهم سواسية أمام الله ، وأن رعاية الله وعنايته تظل كل أتباعه ، وهذا هو نفس جوهر الخلاف بين اليهودية والإسلام فلم يميز الإسلام أبناء إسماعيل على غيرهم من الشعوب ولم يجعل لعربى فضلا على أعجمى إلا بالتقوى .

واليهود فى رؤيتهم للتاريخ والواقع المادى لا يرون شيئا سوى فكرتهم الثابتة الخاصة بالعودة إلى أرض الميعاد لإقامة الدولة اليهودية فيها .

إن « يهوه » لا يتوانى لحظة عن ذكر تلك الأرض ، وإعادة الوعد كأنما قد فرغ من شئون السماء والأرض ولم يعد له شأن غير ذلك الوعد الذى قطعه على نفسه إكراما لهؤلاء العصاة الذين قال عنهم لموسى عليه السلام إنهم سينسون كل ما فعله لهم ويعبدون سواه .

(١) أصول الصهيونية : ص ٦٤

(٢) H.G. Wells : A short History of the World; Teaching of Jesus.

وخطب الرب يشوع ويعبد له الوعد كأنما بشوع لم يكن مع موسى عليه السلام يوم قال الذين كتبوا التوراة بأيديهم إن الرب نزل في سحابة وأعاد الوعد إلى موسى وإلى قومه :

« وكان بعد موت موسى عبد الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً : موسى عبدى قد مات ، فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم — أى لبني إسرائيل — كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كانت موسى ، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » .

قاد يشوع جيوش بني إسرائيل حتى عبروا نهر الأردن . فجعل الذين كتبوا التوراة بأيديهم ذلك الذى حدث فعلاً قبل إعادة كتابة التوراة أمراً إلهياً : « وغضب الرب على بسبيكم وأقسم إنى لا أعبر الأردن ولا أدخل الأرض الجيدة التى الرب إلهك يعطيك نصيباً . فأموت أنا فى هذه الأرض ، لا أعبر الأردن ، وأما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الجيدة . احترزوا من أن تنسوا عهد الرب إلهكم الذى قطعته معكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً صورة كل ما نهك عنه الرب إلهك ، لأن الرب إلهك هو نار آكلة ، إله غيور » .

ويسرد الذين كتبوا التوراة ما حدث لبني إسرائيل واليهود حتى حملوا إلى بابل أرض السبي على أنه وعد من الله ، ثم لا يتركون اليهود فى ظلام بل يحاولون رفع الروح المعنوية لشعبهم فيجعلون الله لا يتخلى عن شعبه . ولأول مرة نجد أن الرب قد وصف بالرحمة لأن الأمر يتعلق باليهود . « إذا ولدتُم أولاداً وأولاد أولاد وأطلتم الزمان فى الأرض وفسدتم وصنعتُم تمثالاً منحوتاً صورة شيء ما وفعلتم الشر فى عيني الرب إلهكم لإغاظته ، أشهد عليكم اليوم السماء والأرض أنكم تسيّدون سريعاً عن الأرض التى أنتم عابرون الأردن إليها لتمتلكوها . لا تطيلون الأيام عليها بل تهلكون لا محالة ويبددكم الرب فى الشعوب فتبقى عدداً قليلاً بين الأمم التى بسوقكم الرب إليها . وتصنعون هناك آلهة صنعت أبدي الناس من خشب وحجر مملاً يبصر ولا يسمع ولا يأكل ولا يشم . ثم إن طلبت من هناك الرب إلهك تجده إذا التمسته بكل قلبك وبكل نفسك . عندما ضيق عليك وأصابتك كل هذه الأمور فى آخر الأيام ترجع إلى الرب إلهك وتسمع بقوله . لأن الرب إلهك إله رحيم لا يتركك ولا يهاكك ولا يأسى عهد آبائك الذى أقسم لهم عليه » .

أحداث وقعت قبل عصر التدوين ودعوة إلى العودة إلى الله لاستنهاض الهمم وتذكير بوعد الله للآباء إنهم فى كل اصحاح من اصحاحات الأسفار الخمسة لا ينسون الوعد ، ومامن مناسبة تمردون أن يجعلوا الله يكرر ذلك الوعد وإن موسى عليه السلام يقول فى رعمهم : « ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم : إسمعى يا إسرائيل القرائض والأحكام التى أتكلّم بها فى مسامعكم اليوم وتعلموها واحترزوا لتعملوها ، الرب إلهنا قطع معنا عهداً فى حوريب . لبس مع آباءنا قطع الرب هذا العهد ، بل معنا نحن الذين هنا اليوم جميعاً أحياء . وجهاً نوجه تكلم الرب معنا فى العجبل من وسط النار أنا كنت واقفاً بين الرب

وبينكم في ذلك الوقت لكي أخبركم بكلام الرب : لأنكم نخفتم من أجل النار ولم تصعدوا إلى الجبل : فقال : أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية » .

أمر الرب يشوع أن يصنع لنفسه سكاكين من صوان وأن يختن بني إسرائيل لأن الذين ولدوا في التيه لم يختنوا : وهذا أمر يدعو إلى التساؤل : فقد جعل الرب الختان عهدا بينه وبين بني إسرائيل وأمرهم أن يختنوا أولادهم في اليوم السابع من مولدهم ، فهل تعذر على بني إسرائيل أن يختنوا أولادهم ؟ وإذا كان رجال الحرب لم يختنوا أكانوا يعيشون بلا عهد بينهم وبين ربهم ؟

إن الرب الذي تصوره الذين كتبوا التوراة في المنفى يهتم جيدا بالختان ، حتى إنه يقول بعد أن يتم ختان الرجال : « اليوم قد دحرجت عنهم عار مصر »

وعملوا الفصح وانقطع المن عنهم لما أكلوا من غلة الأرض ، ثم حماوا تابوت العهد وداروا به حول المدينة في سبعة أيام : « ... وكان في اليوم السابع أنهم بكروا عند طواع الفجر وداروا دائرة المدينة على هذا المنوال سبع مرات : وكان في المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق أن يشوع قال للشعب : اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة : فتكون المدينة وكل ما فيها محرماً للرب . راحب الزانية فقط تحيا . هي وكل من معها في البيت لأنها قد خبأت المرسلين الذين أرسلناهما . وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لثلاث تحرموا وتأخذوا من الحرام وتجعلوا محله إسرائيل محرمة . وتكدهروها ، وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للرب وتدخل في خزانة الرب ، فهتف الشعب وضربوا بالأبواق . وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيماً فسقط السور في مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة » .

هذه أمنية الذين كانوا في الأسر : إنهم لا يريدون أن يخوضوا حرباً للعودة إلى فلسطين بل يتمنون أن ينفخ الكهنة في الأبواق السبعة ، وأن يهتف الشعب هتافاً عظيماً فيجد نفسه في أرض فلسطين . إنها أمنية ليست عزيزة على الرب ولكنها ليست من سنته ، فإن الله ينصر من ينصره ، وينصر الذين يقاتلون في سبيله ، صفا واحداً كأنهم بنيان مرصوص . فالمسلمون قد حاربوا الكفار أعداء الحياة الجديدة التي كان يدعو إليها محمد صلى الله عليه وسلم ، ووقفوا عقبة في سبيل تقدم البشرية ورقيا ، وأبلى المسلمون بلاء حسناً في معركة بدر الكبرى فأيدهم الله بالنصر . ودارت معركة رهيبية يوم أحد بين المسلمين وقريش وقد محص الله فيها الذين آمنوا واتخذ منهم شهداء .

إن المؤمنين حقاً وصدقاً يقاتلون ويجاهدون ويصرون حتى يأتي النصر من عند الله ، أما أن تسقط أسوار المدن إذا ما نفخ في الأبواق وصاحت الأصوات صيحات مدوية فانه وهم الخاملين .

وتقوم حروب بين بني إسرائيل وبين ملوك المنطقة . ويرمى الرب أعداء بني إسرائيل بحجارة عظيمة من السماء ، ويسلط عليهم البرد ، ثم يكلم يشوع الرب « يوم أسلم الرب الأمورين أمام بني إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل : يا شمس دومي على جيعون ويا قمر على وادي آياون ، فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه » .

وينطلق بشوع بن نون يفتح المدن ويقتل الرجال ويشعل في المدن النيران باسم الرب إله إسرائيل :
« فلا تكون عليهم رافة بل يبادوا كما أمر الرب موسى » .

إن كل شيء في إسرائيل : بناء المذبح وصنع الفطير وتابوت العهد لا يتم إلا بأوامر من السماء ه
فما أبسر أن يضع أحبار اليهود الكلام على لسان الرب أو يجعلوه يهتم بتوافه الأشياء ، فقد زعموا أن الرب
علمهم كل شيء حتى كيفية وضع الفطير صفوفاً على المذبح .

وقد ظهرت ترنيمة لشاعر مجهول ظلت تلهب عواطف اليهود المكبوتة - في المنفى - وتوحي
قسوتهم وأنانيتهم وكراهيتهم للناس جميعاً .

وكانت في عدويتها وعمقتها رجع الصلبي لنفوسهم الكليمة فظلت فكرة الدولة اليهودية وحلم العودة
إلى أرض الميعاد حية في ترنيمة هذا المزمور (١) :

« على أنهار بابل هناك جلسنا .

بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون .

على الصمصاف في وسطها علقنا أعوادنا

لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ،

ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين :

رنموا لنا من ترنيمات صهيون .

كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة ؟

إن نسيك يا أورشليم فلتنس يميني مهارتها وليلتصق لساني بخنكي إن لم أذكرك ه

إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي .

أذكر يارب لبني آدوم يوم أورشليم القائلين :

هدوا : : هدوا : : حتى إلى أساسها .

يابنت بابل المخربة .

طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا .

طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة (٢) »

« لماذا رفضتنا يا الله إلى الأبد

أذكر جماعتك التي اقتنيتها منذ القدم وفديتها سبط ميراثك ه

(١) يرى الدكتور إسمايل الفاروقي في كتابه « أصول الصهيونية في الدين اليهودي » أن هذا المزمور ألف في المنفى ، وربما
كان مؤلفه أشعيا الثاني بالذات .

(٢) مزامير . ١٣٧ : ١ - ٩

جبل صهيون هذا الذى سكنت فيه .
ارفع خطواتك إلى الحرب الأبدية .
الكل قد حطم العدو فى المقدس .
قد زجج مقاوموك فى وسط معهدك .
أطلقوا النار فى مقدسك : دنسوا الأرض مسكن اسمك .
حتى متى يا الله يعير المقاوم ويهين العدو اسمك إلى الغاية .
لماذا ترد يديك ويمينك : أخرجها من وسط حضنك . .
أفنى : : : أذكر هذا أن العدو قد عبر الرب وشعباً جاهلاً قد أهان اسمك .
لا تسلم للوحوش نفس يمامتك .
قم يا الله : أقم دعواك : أذكر تعيير الجاهل أياك اليوم كله (١)
وتأتى البشرى بأن الخلاص قدم أخيراً ، يقول أشعيا :
« عزوا عزوا شعبي يقول إلهكم :
طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل .
إن إثمها قد عفى عنه »
أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها .
على جبل عال إصعدى يامبشرة صهيون (٢) .
إرفعى صوتك بقوة يامبشرة أورشليم .
إرفعى لا تخافى .
قولى لمدين يهوذا هوذا إلهك . هو ذا السيد الرب بقوة يأتى وذراعه تحكم له (٣)
هوذا أجرته معه وعجلته قدامه (٤) .
هوذا الأمم كنقطة من دلو وكخباز الميزان تحسب .
هوذا الجزائر يرفعها كدفعة .

(١) كما قبله ١٠٧٤ - ٧٧

من يتقدم من طابور الحش بالأبواق معانث للناس عودة الجيش ظافراً منتصراً إلى بلده .
يهود المنتصرون إلى اورشليم ، كعودة الجيش المنتصر الذى يأتى بقوة ، بل هو يتمثله كأنه الإله .
جيش المنتصر يتقدمه الأسرى والغنائم التى اكتسبها فى الحرب فكذلك جيش يهوه ، أى المنفيون ، يتقدمهم

ولبنان ليس كافيا للإبقاء وحيوانه ليس كافيا لمحرقه .

كل الأمم كلا شيء قدامه .

من العدم والباطل تحسب عنده (١)

ويتعال اليهود في العودة إلى أورشليم بحلم نبي من أنبيائهم يصور إسرائيل يعود مطهرا وقد خلص من دنسه ففي حزقيال :

« هكذا قال السيد الرب .

هأنذا آخذ بني إسرائيل من بين الأمم التي ذهبوا إليها وأجمعهم من كل ناحية وآتي بهم إلى أرضهم وأصيرهم أمة واحدة على الأرض ، على جبال إسرائيل . وملك واحد يكون ملكا عليهم كلهم ولا يكونون بعد أمتين ولا ينقسمون بعد إلى مملكتين .

ولا يتنجسون بعد بأصنامهم ولا برجاساتهم ولا بشيء من معاصيهم بل أخلصهم من كل مساكنهم التي فيها أخطأوا وأطهرهم فيكونون لي شعباً وأنا أكون لهم إلهاً (٢) »

وينسب أشعيا إلى الله هذه الكلمات التي تفيض عنصرية وتبجحاً بشعب إسرائيل .

يقول إن الرب قال :

« وقالت صهيون قد تركني الرب ، وسيدى نسيى .

هل تنسى المرأة رضيعها ، فلا ترحم ابن بطنها ؟

حتى هؤلاء ينسين ، وأنا لا أنساك .

هوذا على كفي نقشتك . أسوارك أمامي دائماً .

قد أسرع بنوك :

هادموك وخربوك منك يخرجون .

ارفعى عينيك حواليك وانظري .

كلهم قد اجتمعوا . . .

إنك تلبسين كلهم كحلي وتنطقين بهم كعروس .

إن خربك وبراريك وأرض خرابك إنك تكونين الآن ضيقة على السكان ويتباعد مبتلعوك »

هكذا قال السيد الرب .

ها أنى أرفع إلى الأمم يدي وإلى الشعوب أقيم رايتي ،

(١) أشعيا ، ٤٠ : ١ - ١٧ .

(٢) حزقيال ٣٧ : ٢١ - ٢٣ .

فيأتون بأولادك في الأحضان وبناتك على الأكثاف يحملن .

ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك .

بالوجه إلى الأرض يسجدون لك ، ويلحسون غبار رجليك .

وأنا أخاصم غاصميك وأخلص أولادك .

وأطعم ظالميك لحم أنفسهم ويسكرون بدمهم ،

كما من سلاف .

فيعلم كل بشر أنني أنا الرب مخلصك وفاديك عزيز يعقوب^(١) : «

وليس من شك أن الصهيونية تستوحى إيمانها بصهيون من هذه الكلمات ، وهي تعتقد كما اعتقد أشعيا أن الله ذاته هو الذي يعمل دائماً على عودة المنفيين من اليهود أنني كانوا ، محمولين في الأحضان ، أو على الأكثاف » إلى أورشليم ، وهناك في أورشليم سيسجد الملوك وشعوبهم أمام إسرائيل وربها ويعلنون خضوعهم لقانونها^(٢) .

وإذا كانت التوراة هي التي كوفت الشعب اليهودي فان السبي البابلي عام ٥٨٦ ق . م هو الذي دفعهم إلى التجمع حول التوراة وهو الذي نقلهم من شعب بدوي فبلى جاهل لم يسهم بأى فسط في الحضارات القديمة إلى شعب متحضر يلهبه الشعور العنصري ، يستطيع أن يقرأ التوراة ويلتمس فيها مثله الدينية والعنصرية ولعل اليهود لم يدركوا من قبل هذه القوى الروحية التي تنطوى عليها ديانة إبراهيم وتعاليم موسى ولا ذلك الإيثار الإلهي الذي كان لهم عند الرب والذي رددته التوراة كثيراً حتى أوجد عندهم نوعاً من التمييز والاستعلاء العنصري .

إلا أن الشعور العنصري الذي شمل اليهود إبان السبي البابلي وكان ثمرة الغربة والتجمع حول التوراة ، كان من ناحية أخرى ثمرة التألف الفكري لليهود . فكان أن اعتنقوا فكرة أن يظلوا يهودا في جميع الظروف والأحوال وأن يقاوموا مغريات الحضارات التي يعيشون بين ظهراتها خشية أن ينجرفوا في تيار الاندماج في مجتمعاتها فتضيع مقوماتهم الذاتية ، وأن يصمدوا للمحن التي تواجههم بسبب اصرارهم على الاحتفاظ بذاتيتهم المميزة . وذلك إلى أن تسنح لليهودي فرصة العودة إلى « مملكة يهودا » وقيم هناك دولة لا تقتصر فحسب على المنطقة التي كانت تشغلها هذه المملكة في سالف الأيام ، بل تضم كذلك جميع الأراضي ، وتخضع كل الشعوب .

ويأمل اليهود في بعث المسيح المخلص الذي يفك إسماعيلهم ويعود بهم إلى أرض الميعاد فيراه أشعيا رجل أحزان وأوجاع يحمل كل أوزار إسرائيل :

(١) أشعيا ٤٩ : ١٤ - ٢٦ .

(٢) أصول الصهيونية في الدين اليهودي : ص ٧٧ .

« لكن أنحن حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسناها مصابا ومضروباً من الله ومذلولا . وهو يخرج
لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبجبره شفينا^(١) » .

ويراه زكريا ملكا وديعاً منصوراً يحيى راكبا على حمار وعلى جمحش ابن آتان فيقول :
ابنهي جلدأ يابنة صهيون .

اهتفي يابنت أورشليم .

هوذا ملكك بأني إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جمحش ابن آتان . واقطع
المركبة من أفرام والفرس من أورشليم وتقطع فوس الحرب .

ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض . وأنت أيضاً فاني
بدم عهدك قد أطلقت أسراك من الجب الذي ليس فيه ماء .

أرجعوا إلى الحصن يا أسرى الرجاء .

اليوم أيضاً أصرح أني أرد عليك ضعفين^(٢) .

ويراه حزقيال ملكاً من نسل داود :

« وداود عبدي يكون ملكاً عليهم ويكون لجمعهم راع فبسلكون في أحكامي ويحفظون فرائضي

ويعملون بها .

ويسكنون في الأرض التي أعطيت عبدي يعقوب إياها التي سكنها آباؤكم ويسكنون فيها هم
وبنوهم وبنو بنوهم إلى الأبد .

وعبدي داود رئيس عليهم إلى الأبد .

واقطع معهم عهد سلام فيكون معهم عهداً مؤبداً وأقرهم وأكثرهم وأجعل مقدسي في وسطهم
إلى الأبد .

ويكون مسكني فوقهم وأكون لهم إلها ويكونون لي شعبا .

فتعلم الأمم أنني أنا الرب مقدس إسرائيل ، إذ يكون مقدسي في وسطهم إلى الأبد^(٣) .

إن التطور في فكرة المسيح المخلص هو التطور في العقيدة الدينية ، التطور من عالم المادة إلى عالم الروح ومن عالم
الحس إلى عالم الضمير ومن المراسم والطقوس الحسية إلى الحقائق المعنوية المجردة .

وجاء المسيح مبشرا بملكوت السماء فعلم الناس أن ملكوت الله قائم فيهم وأنه موجود في كل زمان
ومكان ، وجاء بشرا ونذيرا للناس كافة لا لجماعة بعينها ولا لقوم دون الآخرين .

(١) أشعيا ٥٣ : ٤ - ٦ .

(٢) زكريا ٩ : ٩ - ١٢ .

(٣) حزقيال ٣٧ : ٢٤ - ٢٨ .

وعندما أعلن المسيح أن مملكته ليست في هذا العالم ، ثار عليه اليهود ووصموه بكل تقيصة بل وأقاموا له الصليب ولكن الله رفعه إليه وجعل كلمته هي العليا .

يقول المؤرخ اليهودي « نحمان كروكمال Nahman Krochmal (١٧٨٥ - ١٨٤٠) » في كتابه « دليل للحائرين هذه الأيام :

« إن الأمة اليهودية ليست مثل بقية الأمم ، فكل الأمم تمر بدورة نمو ثم نضوج ثم اضمحلال ثم موت ؛ أما اليهود فلا يمرون بمثل هذه الدورة إذ أن الحياة تدب فيهم مرة أخرى . ويبدعون دورة أخرى . ويفسر الكاتب مقدرة اليهود على التغلب على الموت والاضمحلال بأن اليهودية روح سرمدية تعرف من تجدد الحياة ذاتيا ، فبينما سيطر على الأمم الأخرى وجودها الجسدي أو أرضها القومية ، سيطر على اليهود روح الجماعة » وحدها ، بل إن الكاتب يرى أن روح « هيجل » « المطلق » ليست سوى إله إسرائيل الذي يرتبط به الشعب الإسرائيلي برباط وثيق ، وتحقيق إرادة هذا الإله أو الروح المطلق هو للشعب اليهودي بمثابة المثل الأعلى بل والمصير المحتوم . وهذا تصبح الأمة اليهودية ليست ظاهرة حضارية منعزلة عن كل الحضارات القومية الأخرى ، بل على العكس تصبح وثيقة الصلة بها وتحتويها كلها في وحدة عضوية منسجمة (١) » .

وكل الظواهر التاريخية حسب التصور اليهودي قد قررت حركتها حسب خطة ربانية مسبقة وضعت قبل بدء التاريخ ، بل إن تدخل الله المستمر والعلني هو تأكيد بأن التاريخ يدفع من الخارج ، وأنه لا مجال للإرادة البشرية فيه .

إن التاريخ (٢) اليهودي بدأ من مطلق لا يقبل النقاش أو التقييم (الميثاق مع إبراهيم) يقطعه المطلق من آونة لأخرى (الميثاق مع اسحق ثم يعقوب) وينتهي بمطلق : ظهور المسيح المنتظر .

وتدخل الله المستمر في التاريخ هو ما يكسبه معنى ويضفي على فوضاه اللامتناهية شكلا : « إن يد الله لم تقد هذا الشعب خلال أربعة آلاف عام وعبر آلام الجحيم ، ولم تخضره مرة أخرى إلى أرضه للمرة الثالثة (في العصر الحديث) دون أى معنى ومسار التاريخ بهذا المعنى يصبح له هدف واضح ، ويتجسد هذا الهدف في فكرة المسيح المنتظر الذي هو نهاية التاريخ . إن تقاليد الإيمان بالخلاص تؤكد (وجود النور الروحاني الذي يمكن اليهودي من أن يفهم نفسه ويدرك معنى جميع أحداث تاريخه حتى الجيل الأخير الذي ينتظر الخلاص والذي بات في متناول يده .

إن مسار التاريخ يصبح واضحا ، له بدايته ونهايته تماما مثل أى مسرحية ، لأن الاختيار اختيار والاشراى منبى الشر ، كما أنه يشبه أى ميلو دراما لها نهاية سعيدة . إن « موسى » « وإيليا » هما جزء من عملية الخلاص هذه ، أحدهما يمثل بدايتها والآخر قمته ولذلك فكلاهما يحقق هدفها .

(١) للدكتور عبد الوهاب المسيري : نهاية التاريخ - مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني ص ٦٨ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٥٦ - ٥٧ .

وأسطورة المسيح المنتظر قد تنطوى على فكرة التقدم نحو هدف أعلى إلا أنها على الرغم من ذلك لا تاريخية لأنها تفترض أولاً ثبات النقطة التي يتحرك نحوها التاريخ ، ولأنها تفترض ثانياً عدم جدوى الإرادة الإنسانية ، إذ أن العصر « المسبحاني » سيأتي عن طريق تدخل الله .

إن فكرة التقدم والتعبير والتبدل ، التي هي عماد التاريخ والوعي التاريخي ، تستند إلى فكرة النمو التدريجي للوعي الإنساني المستقل الحر عن طريق التجريب والمحاولة الواعية ، وعن طريق الخطأ والنجاح وكلما نما هذا الوعي كلما ازداد نجاح الإنسان ، وكلما ازداد تحرره من الطبيعة ومن قانون الضرورة وتحكم فيهما ، لذلك يكون الهدف المسبحاني الذي يتسم بالثبات (رغم كل نبه وسموه) والذي يلغى الوعي الإنساني (رغم كل الفوائد الجمّة التي قد تعود علينا من ذلك) هدفاً هو في صميمه معاد لفكرة التقدم ، لأن الإنسان التاريخي إنسان حر واع متطور ويحور في هدفه بمقدار زيادة نموه وبمقدار نجاحه وفشله وحسبما تمليه عليه ظروفه المحسوسة (١) .

والتاريخ اليهودي تاريخ مثالبات وكائنات مكانية مقدسة متحركة ، إنه ليس تاريخ بشر محسوسين يعيشون في فرح وحزن معرضين للنصر والهزيمة .

(١) المصدر نفسه : ص ٥٧ - ٥٨

الفصل الثامن

التفسير المسيحي للتاريخ

« وإن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب » ويخلص ما قد هلك »
فبمحبه ورحمته قد صنع طريقاً للخلاص »
« انجيل لوقا »

تقدم المسيحية التاريخ في صورة ضرب من الدراما المسرحية : والفصل الأول في المسرحية هو « سقوط آدم » مما أعقبه من استمرار الخطيئة ، التي تباعد عن الله ، ذرية آدم .
والفصل الثاني هو دخول الله في التاريخ متجسداً في صورة بشرية في يسوع « المسيح » وتضمن هذا الفصل ما يلي :

(أ) تأسيسه الكنيسة المسيحية بجمعه التلاميذ بتأثيره الشخصي وأسلوب حياته وتعاليمه .

(ب) تخليصه البشرية بوفاته على الصليب ،

(ح) بعثه وصعوده إلى السماء معطياً البشر تأكيداً لمخلودهم .

والفصل الثالث هو تبشير العالم بالانجيل تبشيراً مضى مع اتساع نطاق الكنيسة المسيحية : ولا يزال هذا الفصل مستمراً .

أما الفصل الرابع والآخر فهو عودة المسيح للمرة الثانية إلى العالم جالِباً معه « يوم الحساب » : وافتتاح مملكة السماء الموسومة بالكمال والمقرونة بإتمام البركات :

أما فيما يتعلق بحياة المسيحيين وانتشار المسيحية في التاريخ ، فإن الله حاضر في صورة « الروح القدس » وبهذا المفهوم تصورت المسيحية الله في صورة ثالث في واحد : الأب والابن والروح القدس : وهم يرون أن الأب يعد بصورة سامية لا تلحق ، خالق الدنيا وبارئ البشر ، وأنه بذلك قد طوع ظهور التاريخ ، ويرون في « الابن » مخلصاً قصد به أن يرد التاريخ إلى هدفه الذي أراده الله منه ، ويرون أن الروح القدس هو الذي يطهر الناس في أثناء عملية التاريخ (١) »

جاء في كتاب « المسيح ومشكلات العصر الحديث » : « أثبت (٢) التاريخ عجز الإنسان عن خلق مدينة كاملة تتحقق فيها جميع القيم في وقت واحد وبصورة متناغمة . غير أنه لم يكف عن المحاولة للوصول إلى ذلك منذ فجر التاريخ إلى اليوم ، فعبّر عن شوقه هذا في مختلف صور تدينه وعقائده وشرائعه ونظمه الروحية والاجتماعية وفنونه وعلومه :

والمسيحية تؤكد صحة هذه المحاولات وتفسر عدم نجاحها بأن سقوط الإنسان في الخطيئة أدخل الشر إلى العالم ، وصدم النفس المخلوقة على صورة الله صدمة عنيفة شوهت قواها دون أن تقضى عليها ، وأسدت عليها ظلمات دون أن تطوى كل حيوياتها ، فظلت تحن إلى قيم الخير والحق والجمال وإلى التعبير عنها بمختلف العناصر المدنية وأشكالها . ونلمس هذه الحقيقة عند الشعوب البدائية والمتحضرة على السواء ، في مختلف صور التدين : الطوطم والطابوية والفيثية والأرواحية وتعدد الآلهة والتوحيد ، ووراء نظم التعايش الاجتماعية المختلفة والرسوم والطقوس الدينية والفنون المختلفة .

(١) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ١٠٢ .

(٢) رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى . ص ١٩ .

إن هذه الإفصاحات والمبدعات الحضارية يشوبها النقص دائماً لأن ناموس الخطيئة العجاثم على أغوار النفس البشرية يحط بكل كنهه على الإنسان ، ويعمل على سيطرة الشر على التاريخ كله . وتتجلى آثاره في المرض والألم والموت ، والعداوة والغيرة والحصام والحسد والقتل والحرب . ويدور تاريخ البشرية كله على الصراع المريع بين هذين العاملين الخطيرين ، عامل الحنين إلى تحقيق قيم الخير والحق والجمال والعيشة بها ، وعامل ناموس الخطيئة الذى يعمل على دفع الإنسان إلى السلبية والعدم بطريق استعباده للغرائز المنحطة والمطالب المادية وتجاهل المطالب العليا الروحية للنفس . ولم تخل مدينة من أثر هذين العاملين .

وقد تجسد كلمة الله وصار بشراً سوياً ، مثلنا فى كل شيء ، ماعدا الخطيئة ، فحمل عنا نيرها إذ مات على الصليب ، ثم قام منتصراً على الشر ونتائجها ، ليعطى الحرية والحياة للمؤمنين به العائشين فيه . ومن بعد صعوده إلى السماء أرسل روحه القدس ليبقى مع الكنيسة المجاهدة على الأرض ليظل باب الخلاص والتحرر الحقيقي مفتوحاً أمام كل نفس إلى منتهى الدهور . وهكذا ظل تأثيره الخلاق فى التاريخ مستمراً بواسطة المؤمنين الواعين لإرادته الذين يحيا هو فيهم ، وهم يعملون معه ، لأن المسيحية الحققة ليست تعاليم المسيح الأخلاقية والميتافيزيقية وحدها منفصلة عنه ، وإنما هى المسيح نفسه والحياة به وفيه

ولهذا فإن المسيح هو النور الأعظم القائم فى مركز التاريخ ، الذى ينير كل إنسان آت إلى العالم ، وهو الذى يضئ على الحياة معنى ، ويعطى التاريخ هدفاً .

وليس الإنسان المخلص إلا إنساناً جديداً ، ليس هو باليونانى « الوثنى » ولا هو اليهودى المتزمت المغلق على نفسه ، وإنما هو خليقة جديدة . وقد دعا الناس جميعاً — بلا تمييز بين ذكر وأنثى — أو عنصرية وأخرى ، أو بين عبد وحر ، وفقير وغنى ، إلى مدينة جديدة متكاملة يشترك الإنسان مع الله فى بنائها « إن الله من صفاته المحبة ، ومحبة الله ظهرت فى تديره طريق الخلاص للعالم ، ولأن العالم من عهد سقوط آدم فى الخطيئة ، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا ، مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة . ولكن الله من فرط محبته ، وفيض نعمته رأى أن يقربه بعد هذا الابتعاد ، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم ، ليخلص العالم .

وقد جاء فى الإنجيل لوقا :

« وإن ابن الإنسان قد جاء لكى يطلب ، ويخلص ما قد هلك ، فبمحبة ورحمته قد صنع طريقاً للخلاص » .

لهذا كان المسيح هو الذى يكفر عن خطايا العالم ، وهو الوسيط الذى وفق بين محبة الله تعالى ، وبين عدله ورحمته ، إذ أن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون فى الابتعاد عن الله بسبب ما أقترف أبوهم ، ولكن باقتران العدل بالرحمة ، وبتوسيط الابن الوحيد وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق قرب الناس من الرب بعد الابتعاد ، وقد كان التكفير الذى قام به المسيح هو الصלב ، لهذا صلب ، ورضى الله عن

صلبه ، وهو ابنه ، ودفن بعد الصلب ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام من قبره ، ويقولون إنه كان قد أنبأ بذلك قبل صلبه^(١) .

فالتاريخ في هذا التفسير تحكمه جبرية تجعل الأمم المسيحية تتجه جميعا في حركة صاعدة إلى مثلها الأعلى ، مهما اقترفت من ذنوب وارتكبت من آثام ، ما دام المسيح عليه السلام قد « خلصها » بصلبه ، فقد رفعت عنها المسؤولية وسبقت إلى مصيرها دون مقاومة أو عناء .

والنذر التي يقدمها الله سبحانه وتعالى تبدو في التفسير المسيحي مسطرة على أولئك الذين لا يؤمنون بفكرة الخطيئة والخلاص .

تولى بولس نشر المسيحية في أوروبا^(٢) ، وقد كتب رسائله بعد القرن الأول الميلادي وهي شهادة على امتزاج الأمثلة الدينية بصور الفلسفة — ولا سيما فلسفة الحلول — وكان يقول : إن المسيح جالس على عيني الله ، ويدعو لمن يطلب لهم الخير « أن تسكن فيهم كلمته » ويسأل لهم الغفران منه ، ويبشرهم بأنهم سيبلغون المجد متى عاد إلى الأرض . ويبدو من جملة كلامه أنه كان ينتظر معاده في زمن قريب : وكثيراً ما أشار إليه — صلوات الله عليه — باسم « ربنا يسوع المسيح » وسمى نفسه باسم « رسول يسوع المسيح بحسب أمر الله مخلصنا وربنا يسوع المسيح » .

لم يكن بولس^(٣) يعتقد أن المسيحيين سوف يعيشون أمداً طويلاً فوق هذه الأرض — شأنه في ذلك شأن أكثر أبناء جيله — وقد قال المسيح نفسه — كما جاء في الإنجيل الأول : « سوف يكون هنا نوع من البقاء ، الذي لا يعرف طعم الموت حتى يشهدوا « ابن الإنسان » قادماً إلى مملكته » .

واعتقد المسيحيون الأوائل أن المسيح سوف يعود في يوم من الأيام ، ويقضى على هذه الدنيا ، دنيا التجربة الحسية ، وسوف يكون هناك حساب في النهاية ، ونعيم أو جحيم أبدي في عالم آخر .

ومن الطبيعي أن أولئك الذين كانوا يؤمنون بهذه العقيدة لم يأبهوا بالمشروعات بعيدة المدى ، أو بقياس الميول والاتجاهات ، أو بالعمل البطيء الذي يؤديه المرء بتفكيره العام . ولو أن بولس اعتقد أن الكائنات البشرية سوف تبقى في ألقي العام المقبلة على الأقل ، لكانت آراؤه — فيما أتصور — أكثر اتفاقاً مع الطبيعة البشرية^(٤) . ذلك أن كثيراً من تعاليم بولس كانت متزمتة ، فقد كانت آراؤه فيما يتصل بالعلاقات الجنسية — على سبيل المثال — صدمة للكثيرين ، والاصحاح السابع من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ، والعبارة الصريحة التي جاءت به وهي : « الزوج أصلح من التحرق » هو في الواقع كلام

(١) الأستاذ محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية ، ص ١١١ .

(٢) الأستاذ عباس محمود العقاد : كتاب « الله » ص ١٦٩ .

(٣) كرين برنتن : أفكار ورجال ، ترجمة محمود محمود ص ١٨٤ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٨٤ .

غامض ليس من شك في أن بولس كان يود لو امتنع الجنس البشري بأسره عن الاتصال الجنسي : ولكن جانب التجربة والخبرة في هذا الرجل العملي جعله يدرك استحالة ذلك ، حتى وإن كانت نهاية العالم قريبة منا ، ولذا نصح بالزواج المسيحي .

الحياة الطيبة إذن عند بولس حياة زهد فيما يتعلق بالمتع الحسية ، وهي كذلك حياة خالية من الخطايا البطولية : فقد أراد بولس للرجال والنساء أن يخلصوا أنفسهم من حياتهم الفردية الصغيرة الأنانية ، إلى ذلك التيار العظيم الذي لا يتلاطم فيه الموج ، وهو حياة الروح .

يقول بولس في الاصحاح الثالث عشر من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس : « المحبة تتأني وترفق : المحبة لا تحسد : المحبة لا تتفاخر ، ولا تتعالى ، ولا تتعجب ، ولا تطلب ما لنفسها ، ولا تتحد ، ولا تظن السوء ، ولا تفرح بالإثم ، بل تفرح بالحق ، وتحتمل كل شيء ، وتصدق كل شيء ، وترجو كل شيء ، وتصبر على كل شيء : المحبة لا تسقط أبدا : أما النبوات فستبطل ، والألسنة ستنتهي ، والعلم سيبطل ، لأننا نعلم بعض العلم ، ونتنبأ بعض النبوءة : ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض : لما كنت طفلا ، كطفل كنت أتكلم ، وكطفل كنت أفطن ، وكطفل كنت أفكر ، ولكن لما صرت رجلا أبطلت ما للطفل : فأننا ننظر الآن في مرآة في لغز ، لكن حينئذ وجهاً لوجه : الآن أعرف بعض المعرفة ، لكن حينئذ سأعرف كما عرفت ، أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة ، هذه الثلاثة ، ولكن أعظمهن المحبة » .

إن بولس لم يهتم بتوسيع فكرة المسيح الأصلية وتنميتها ، وهي فكرة « ملكوت السموات » ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب ، بل إنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيرا عن خطيئة البشر ، فموته كان نصحية مثل ممات الضحايا القديمة من الآلهة في أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشرية^(١) وعمد بولس إلى إرضاء طبقة السادة والحاكمة فجعل طاعتهم ديننا كما طاعة المسيح ، قال للعبيد :

« أيها العبيد ، أطيعوا ساداتكم حسب الجسد بخوف ورعدة بساطة قلوبكم كما للمسيح لخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس^(٢) »

يقول هارولد لاسكي^(٣) إن الدين المسيحي لم يبطل الرق بل قرر أن الناس ما داموا سواء عند الله فإن الرق شيء يتعلق بالظاهر ليس له شأن ما . فالمسيحية إذن قد وجدت مكانها داخل النظام الاجتماعي الروماني لا خارجه ، ثم جعلها قسطنطين دين الدولة الرومانية في سنة ٣٥٥ م ، فكانت مصالحها القائمة على التملك هي قوام النظام الإقطاعي :

Wells : A Short History of the World, P.P. 178 — 179.

(١)

(٢) أنس ٦ : ٥ - ٧ .

(٣) هارولد لاسكي : الملل الاقتصادية للتاريخ ، تاريخ العالم ، المجلد الأول ، ص ٤٠٧ ترجمة محمود إبراهيم الدسوقي .

وكانت الكنيسة تتحكم في الوصايا لكيلا يموت أحد دون أن يخلف لها نصيباً مناسباً من أملاكه . وكان أهم سبب حمل البابا جرجى السابع على إدخال سنة الرهينة أن زواج رجال الكنيسة كان يخرى القسس بأن يعولوا أسرهم من أملاك الكنيسة . : ولما دعا القديس فرنسيس إلى العودة إلى ما كان عليه رسل المسيح من فقر احتالوا على التخلص من هذه الدعوة باقامة نظام للتملك يقول بأن هذه الإملاك أمانة عند ملاكها للطائفة وكان من يخلص لمبادئه يسجن ويعذب .

بل إن الحروب الصليبية نفسها باتت مغامرة تجارية إلى حد كبير ، وكانت صكوك الغفران وما شاكلها موارد للكنيسة أكثر مما كانت عملاً من أعمال الدين .

ومن العجيب أن نلاحظ كيف وصمت بالمروق فرق كانت في العصور الوسطى تسعى إلى تخفيف وطأة النظام الاقتصادي كفرق المتنسكين المختلفة ، وقد كان من الطبيعي أن تصب الكنيسة جام غضبها على من يحاول نقض أساسها لأنها كانت أغنى الملاك جميعاً^(١) .

وقد حرر الإصلاح الديني طائفة من العقائد قوائم حاجات التجارة والصناعة الجديدة إلى حد عجيب ، فقبضه بدأت النزعة الرأسمالية تسيطر على العالم الغربي . كذلك يجب ألا تغيب عنا أن العوامل الاقتصادية كانت أكبر أسباب الإصلاح الديني في إنجلترا ، فقد كانت الكنيسة الرومانية يغيضة إلى النفوس لما كانت تمتصه من مال البلاد ، وتعد القوانين الخاصة بحرمان البابا من تعيين القساوسة والتدخل في شئون الدين في إنجلترا ، وهى القوانين التي يرجع عهدها إلى أيام ادورد الثالث احتجاجاً من الدولة على ابتزاز هذه الأموال ، وقد قام الإصلاح الديني على إبطال هذا الابتزاز من جهة ، كما قام من جهة أخرى على ما فعله هنرى الثامن من منح طبقة جديدة من النبلاء ما يقرب من ربع أملاك الكنيسة المصادرة . فاشترى بذلك تأييدها لنظام في الحكم كان لولا ذلك خليقاً أن يثير في أذهانها ريباً خطيراً .

وكان للاعتبارات الاقتصادية دور في نشأة التسامح في الدين . فقد أفضى تعدد المذاهب الدينية التي يضطهد بعضها بعضاً إلى حقبة من الحروب الدينية . وشاهد ذلك أن فرنسا أنهكتها الفتن تسع مرات بين عامى ١٥٥٩ و ١٥٩٤ ولم يتركوا رأياً في تبرير التسامح إلا التمسوه فقالوا إن المسيحية تأبى الاضطهاد لأنها تقوم على الحب . وأكدوا أن التعصب لا يعقب صفاء في القلوب وأنكروا أن الكتاب المقدس يبرر استخدام السيف ، بيد أن الذى أقنع الناس في الحقيقة بسفه الاضطهاد هو عدم نفعه من الوجهة الاقتصادية .

ويقول لاسكى : فاذا كان التفسير الاقتصادي الذى قررناه فيما سبق هو خير تفسير للتاريخ ، فليس معنى هذا أنه ليست هناك تفسيرات أخرى .

مثال ذلك : أن العوامل الاقتصادية لا تزال عاجزة إلى حد كبير أمام النزعة القومية المتأججة ناراها في قلوب أهل البلقان ، وتمت مئات الألوف من العمال يقدمون نداء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية على مطالب الطبقة العاملة التي ينتسبون إليها .

١ . (١) يتحدث لاسكى هنا عن الكنيسة الغربية .

ولا ينبغي أن يغيب عنا أيضا أنه إذا كانت النظم الاقتصادية تنتج أفكارا وثقافة فإن للفكر والثقافة أثرهما في النظام الاقتصادي : فقد كان للعوامل الاقتصادية أثرها في نجاح « مارتن لوثر » لكن هناك عوامل أخرى كان لها أثرها في هذا النجاح ولا تمت إلى الاقتصاد بصلة .

وقد قال ماركس نفسه ذات مرة أن الرغبة في المساواة من العوامل ذات الأثر الفاصل في العالم الحديث ، ولا شك في أن بعض هذه الرغبة وليد الحاجة الاقتصادية ، ومن الجلي أيضا أن معظمها يتساقى عن هذه الحاجة .

على أننا إذ قلنا إن السبب في كل ما يحدث من تغير هو السبب الاقتصادي فإن مراعاة العدل في شئون الاقتصاد واجبه إذا كان المقصود أن يتم التغيير في سلام . وقد يكون الاهتداء إلى ما ينطوي عليه هذا العدل قضية عسيرة مضمينة ، والحق أنها قضية خليقة بأن تبدل الجهود لفهمها ، وليس ثمت قضية أجدر منها ببذل تلك الجهود .

يقول «نقولا بردياف»^(١) : إن الإنسان مدعولكى يتعاون مع الله في عملية الخلق والابداع . والهدف ليس خلاص النفس ، فان مثل هذا الهدف ضئيل الشأن ، محدود الأثر . وليس الهدف مجرد خلق نظام بشري عادل ، تزول فيه الطبقات ، لأن مثل هذا الهدف يغفل الأجيال السابقة التي لم تسعد مثل هذا المجتمع ، فضلا عن منافاته لنظام الطبيعة . إنما ينبغي أن يكون الهدف « تجلى » العالم بقوة الروح القدس ، ورفع الإنسان والطبيعة للمشاركة في حياة الله ذاته . وهو يصر كل الإصرار على أن نبدا لتحقيق هذا الهدف هنا على الأرض ، ومن الآن . وفي هذا يقول : « إن نهاية العالم يعدها الإنسان بنشاطه دوإبداعه . وستكون هذه النهاية عملا مشتركا بين الله والإنسان » وهذه الطريقة تقرن الجهود الحالية لإصلاح المجتمع بالآمال القديمة في أحياء ملكوت الله الذى سيأتى في آخر الأمر .

يرى القديس^(٢) أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠ م) التاريخ يدور حول كل من الموقت والأبدى . فالله أبدي وهو خالق الزمن . ولا يجوز فهم الأبدى ولا وصفه من وجهة نظر الموقت . فالله موجود وحال في الزمان كله ، مثلما هو أبدي . والزمن وإن لم يمكن فهمه بمفاهيم الدهن ، فمن المقطوع به أنه مما ممارسه الإنسان .

يقول : إذا ما هو الزمن ؟ : ومن ذا الذى يستطيع فهمه ولو بفكره بحيث يستطيع أن ينطق بكلمة عنه ؟ وأى شيء نذكره في حديثنا ذكر الدارى الآلف والمدرك العارف أكثر من الزمن ؟
وإذن فما هو الزمن ؟

إذا لم يسألنى أحد عن ذلك ، فإني أعرف ، وأن رغبته في تفسيره لمن يسأل ، لا أعرف : « والعلاقة بين الموقت والأبدى ، تلك العلاقة المتى يعدها أوغسطين حقيقة وذات أهمية للدين ، غير مفهومة للإنسان .

(١) حبيب سعيد : أعلام الفكر الأوربي ص ٧٣ .

(٢) التاريخ وكيف يفسرونه : ص ١٠٥ .

و « الله » في إطار التاريخ البشرى هو « العناية » فشئون التاريخ الأرضى يتولاها الله الواحد ويحكمها كما يشاء . وليس في الإمكان مطلقا الاعتقاد بأنه ترك ممالك البشر . . خارج قوانين العناية . فان الممالك البشرية تقوم بفضل العناية ، فهي لم توجد اعتباطاً ولا بحكم إحدى الضرورات . ولابد من قيام « حساب أخير » ونحن وإن لم يتهياً لنا على الدوام تمييز ذلك الحساب ، فان حكمه « تعالى » موجود في نسيج الشئون الإنسانية . وحتى عندما يستعرض الإنسان النكبات الظاهرية التي تلم بالطيبين واليسار الذي ينعم به الخبيثون الشريريون ، لا يمكن أن يكون نعت الله بالظلم صحيحا .

وأوضح أوغسطين في « الاعترافات » كيف أتعبه مشكلة الشر قبل اعتناقه المسيحية ، فتوصل إلى الاعتقاد على أساس من الفلسفة ، أن الشر كله يولد الحرمان ، الذي هو امتناع الخير . وليس هناك على الإطلاق طبيعة تتصف بالشر ، وليس هذا إلا الافتقار إلى الخير . والشر نوعان أحدهما : ما يفعله المرء وثانيهما ما يقاسيه . فما يفعله هو الخطيئة ، وما يقاسيه هو العقوبة . وعناية الله التي تتحكم وتتصرف في كل شيء ، يسيء الإنسان فيها بالشر بارادته لكي يقاسى من الشر الذي لا يريده .

والخطيئة في الإنسان تقوم في قلة إخلاصه لله وعدم قدرته على الالتفات إلى ما في الوجود الأرضى من خير ، وإلى الخلق الشخصى والحب الاجتماعى الذى يريده الله له . ويقول أوغسطين : إن الخطيئة وإن تكن « وصمة مخزنة » في الفرد ، فان العالم يتزين حتى بالآثمين ذوى الخطيئة .

وعندما وصف الجحيم بأنه أبدي ، فلا بد أنه عنى بذلك حالة من الحرمان الذى لا نهاية له : « والله يجعل غوايات الشيطان للناس لكي يفيد بها الإنسان . وحين « يعرضنا الله للمحن ، فذلك لإحدى غايتين ، إظهار ما بنا من كمالات ، أو تصحيح ما بنا من نقائص ، وفي مقابل صبرنا وتجلدنا على ما يرمينا به الدهر من آلام ، يحتفظ لنا بالثواب الأبدى . . .

وفي كتابه^(١) «مدينة الله» لم يجعل المسيحية مجرد دراما ، وإنما ، تقدما عبر الزمن . وأثبت أن كثيراً من المدن والإمبراطوريات قد انحلت وسقطت قبل وحي المسيحية بزمن طويل ، فان من طبيعة المدن في هذه الدنيا أن تزول ، وليست هناك مدينة أبدية إلا « مدينة الله » ولم تظهر هذه المدينة بعد على الأرض ، بالرغم من أننا قد وعدنا بها في هذه الدنيا . ولكن الله قد كشف لنا عن وجودها وهياً لنا جميعاً عن طريق ابنه يسوع فرصة المواطنة فيها غير أن مدينة الأرض الأخرى سوف تعيش ، والمدينتان في حرب أهلية أبدية حتى تنفصلا أخيراً وإلى الأبد في يوم الحساب . ولا ينقسم بعد ذلك المواطنون فيهما بامكان المتحول من مدينة إلى أخرى ، فمن يرضى عنهم الله يباركون إلى الأبد ، من يغضب عليهم يعذبون إلى الأبد .

ورفض أوغسطين قبول نظرية الدورات المتكررة في التاريخ ، وذلك لأنه من ناحية ، اعتبر أن

«١» أفكار ورجال : ص ٢٣٦ .

« التجسد » يحدث مرة واحدة لا تتكرر ، ونشبهها بما يرويها الكتاب المقدس عن خالق الله للعالم في ستة أيام واستوائه على العرش للراحة في السابع^(١)

قسم التاريخ إلى سبعة أقسام :

١ - من آدم إلى الطوفان ،

٢ - من الطوفان إلى ابراهيم .

٣ - من ابراهيم إلى داود .

٤ - من داود إلى الأسر .

٥ - من الأسر إلى ميلاد المسيح .

٦ - العصر الحاضر .

٧ - الذى سيستريح فيه الله كما حدث في اليوم السابع ، وسبمنحنا الراحة في ذاته .

ووازن أوغسطين بين طريقتين للعيش في التاريخ . وهما تعبران عن اتجاهات الأفراد ومختلف الجماعات الاجتماعية . « ليس هناك أكثر من نوعين من المجتمع البشرى نستطيع بالحق أن نسميهما مدينتين تبعاً للغة التى تستخدمها الأسفار المقدسة ، والنوع الأول يتكون ممن يرغبون في العيش حسب الجسد واللحم ، والنوع الآخر هو الذى يرغبون في العيش حسب الروح » .

ويحتوى كتابه « الاعترافات » على تعبيرات كثيرة عن تقديره لما في الدنيا من خيرات : ولكنها مجرد خيرات مؤقتة ، لا يجوز أن تمنح المقام الأسمى في الحياة . ولا أن تنشُد دون اهتمام بالقيم الروحية ، التى هى شئ أبدي . فإني كانت حياة المرء مسيطرة عليها الناحية الروحية ، فإن في إمكانه أيضاً أن يطلب ويستمتع بما منحه الله للناس مما خلق في العالم الفيزيائي .

يقول أوغسطين في « الاعترافات » : « وذلك أنه حينما تحولت نفس الإنسان ما لم تتجه إليك » « أنت » . فإما تكون مركزة على الأحزان . نعم ، وإن ثبتت على الجميل من الأشياء . ومع ذلك ، فإن هذه الأشياء (إن كانت) خارج شخصك ، وخارج النفس ، لم تكن لتكون ، ما لم تصدر عنك ، فهي تشرق وتغرب وبشروقها تبدأ كما هو مقدر أن يكون ، وهي تنمو لكي تصل إلى الكمال ، حتى إذا بلغت الكمال شاخت وذبلت ، وكل شئ لا يشيخ ، ولكن كل شئ يذوى ويضمحل . وهكذا إذن ، عندما تقوم الأشياء وتترع أن تكون ، فكلما زادت سرعة نموها حتى يمكن أن تكون ، زادت سرعة في ألا تكون . وذلك هو قانونها . وذلك هو النصيب الذى قسمته لها ، لأنها اجزاء من اشياء لا يوجد فجأة ، ولكنها بدهاها وتعاقها تكمل مجتمعة ذلك الكون الذى هى أجزاء منه . .

(١) هذه وجهة نظر أهل الكتاب ، وهي تختلف تماماً عن وجهة النظر الاسلامية فالله جلى شأنه لا يمسّه نصب أولغوب . وهو قادر على كل شئ . يقول الله تعالى : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » . لغوب الفتور الذى يعقب التعب .

وعلى نحو هذه الطريقة نفسها تقريباً يتم حديثنا بواسطة علامات تصدر صوتاً ، ولكن هذا أيضاً لا يبلغ الكمال ما لم تمر كلمة واحدة وتذهب في سبيلها بعد أن تقوم بدورها حتى تستطيع أخرى أن تعمداً . وتتبع هذه الأشياء جميعها دع نفسي تسبح بالثناء عليك يا الله ياخالق كل شيء . ولكن لا تدع نفسي أن تثبت على هذه الأشياء بغراء الحب عن طريق حواس البدن . وذلك أنها تذهب حيثما كتب لها أن تذهب ، لكي لا تكون ، وهي تمزقها بالتشوقات الويلة ، وذلك لأنها تتشوق أن تكون ، ومع ذلك تحب أن تسريح فيها تحب ، ولكن هذه الأشياء ليس فيها مكان للراحة ، فهي لا تستقر وإنما تفر ، ومن ذا يستطيع متابعتها حواس الجسد ؟ نعم ، من ذا الذي يستطيع أمسكها وهي أقرب إليه من جبل الوريد ؟ وذلك أن حس جسد (اللحم) مبطيء ، لأنه حس الجسد (اللحم) ، وبذا يكون محدوداً ، إذ هو يكتفي لما صنع من أجله ، على أنه ليس يكتفي لا يقف أشياء تجرى شوطها من نقطة ابتداءها المعينة حتى النهاية المعينة . وذلك أنها في كلمتك ، التي بها خلقت تسمع الحكم بمصيرها ، منذ الآن وحتى الآن : « لقد صنعنا الله من أجل نفسه » كما أن قلبنا سيظل بعيداً عن الراحة حتى يرقد فيه . ومحبة الله ، القيمة العليا في الحياة البشرية ، تمنح من الرضا ما لا يستطيع شيء آخر منحه .

ويبغى أن تكون تلك المحبة هي المعنى الجوهرى لتاريخ الإنسان على هذه الأرض وما بعدها .

ولم تكن دلالة كلمة « أبدى » عند أوغسطين بالدلالة الفلسفية بقدر ما هي دينية . فالله أبدى بصورة جوهرية من حيث « أنه » موجود أبداً لكي « يسريح فيه الناس » .

هذه أول محاولة تعبر عن نظرة كلية إلى التاريخ وتفسير لمسار وقائعه ومع ذلك يتعذر أن يعد أوغسطين من خلال محاولته هذه مؤسس فلسفة التاريخ لأنه قيد مفهوم العناية الإلهية تقييداً لم يتجاوز فيه أصول الإيمان المسيحي ومن ثم يتعذر أن يسلم بنظريته غير مسيحية ، بل لقد ذهب هرنشو إلى أنها ليست فلسفة ولا تاريخاً ولكن مجرد لاهوت وقصص ، ومجرد مسخ للحقيقة وتخليط لضروب شتى من اللغو ، وتفلسف يرد البشر مجرد لعب كلعبة الصبيان ، أو مجرد ييادق لا حيلة لها في اللعبة الرهيبة الدائرة رحاها بين الإله والشيطان على رقعة اللانهاية وخلال آمام الأبدية (١) .

فبعد عن الحقيقة تصور حضارات العالم القديم على أنها مثل الشر ، وأبعد عن الحق حتى من الناحية الدينية تصور بني إسرائيل على أنهم ممثلون للخير أو مدنة الله وإلا كيف يفسر قتلهم الأنبياء بغير حق ، ومن ثم لقد وجدت هذه النظرية ردود فعل عنيفة في عصر التنوير ، فقد حمل فولتير حملة شديدة على الكنيسة ورجال الدين والمؤرخين الذين اعتمد رأيهم في التاريخ على الإيمان بالعناية الإلهية . ووجه نقداً مراراً إلى أوغسطين لأنه نتجاً لشل شعوب الشرق ذات الحضارات العريقة ويوجه عناية فائقة إلى العبرانيين ، كما لو كانت تلك الحضارات لا قيمة لها إلا من حيث علاقتهم باليهود .

أن أصل الشعب اليهودي طائفة من الساميين الرحل عاشوا مشتتين في صحراء ممتدة بن مصر وسورية ، وتشير الوثائق التاريخية القديمة إلى أن أماسيس أو مرتباج « منفتح » ملك مصر قد طرد من بلاده قبيلة

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ترجمه عبد الحميد العيادى . ص ٢٨ .

من الأشخاص المصابين بالجذام قارتدت نحو الصحراء ، كما يشير تيودور الصقلي إلى أنه حين خاض ملك مصر غمار الحرب في أراضي الخبيثة هاجمت مصر أثناء غيابه عنها جماعة من قطاع الطرق وأعملت فيها السلب والنهب فألقى الملك القبض عليهم عقب عودته وقطع أنوفهم وآذانهم ونفاهم إلى صحراء سيناء حيث صنعوا الشباك لصيد السمك ، هؤلاء هم أجداد اليهود .

ومن الخطأ القول أن اليهود كانوا مضطهدين في الدولة الرومانية أو غيرها لاعتقادهم في إله واحد في عالم وثني بل لأنهم يمتنون الأمم الأخرى ، أنهم بরাيرة يقتلون أعداءهم المغلوبين بلا رحمة ، إن هذا الشعب المخرف الجاهل العاقل عن الإبداع الفكري كان يحتقر أكثر الأمم حضارة : إنهم أحقر شعوب الأرض ، منحطون في الفقر ، وقحون في الغنى ، إذا كتب لهم الظفر فتكروا بالمغلوبين وبطشوا بالنساء والأطفال في نشوة جنونية وإذا كتبت عليهم الهزيمة تجدهم في ذلة مشينة : فهل شمل الله بعنايته هذا الشعب كما تقول التوراة ليكون شعب الله المختار ، أو ليكونوا مخلص الجنس البشري ؟

ليست هذه نزعة معادية للسامية ولكنه رد فعل لنظريات التاريخ ضيقة الأفق التي حصرت العناية الإلهية في تاريخ بني إسرائيل محقرة حضارات زاهية متهمة إياها بالخرافة والوثنية ، ومن ناحية أخرى أفصح فولتير عن خطأ الاستناد إلى قصص العهد القديم واتخاذها أساساً للتاريخ ليس لمبالغة هذه القصص في الاهتمام بالعبرانيين واحتقار شعوب الشرق الأخرى فحسب ، بل لأن هذه القصص موضع شك من الناحية التاريخية .

وقد انتقد فولتير مفهوم العناية الإلهية نقداً جديلاً لاستبعاده كأساس لتحديد مسار التاريخ : « إن الله خلق العالم وفقاً لقوانين ثابتة لا علاقة لها بأفعال الإنسان من خير أو شر ، وأن الله منح الإنسان العقل ليحسن استخدامه من أجل سعادته وسعادة الآخرين ومن ثم فإن التاريخ لا يسير وفقاً لمفهوم العناية الإلهية لدى اللاهوتيين وإنما بمقتضى العقل البشري نحو الأفضل ، لقد تحرر الإنسان من الجهالة والخرافة في العصور التي تحكم فيها العقل ، إن التقدم انتصار لقوى النور على الظلام حيث يكون العقل هو المرشد » .^(١)

يرى دانتى (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) في الكوميديا الإلهية أن التاريخ البشري غير مقصور على الأرض وحدها ، بل إنه يتجاوز ذلك إلى ما يصيب الإنسان في المستقبل من جحيم ومن مطهر وفردوس .

وقد تخيل دانتى - في خريطة ما وراء الحياة - أن الجحيم يقع في منتصف الأرض ، أو نقطة الوسط تماماً ، وأن جبل « المطهر » يبرز خلال سطح الأرض في موقع يقابل « بيت المقدس » تماماً ، وأن « جنة عدن » فوق ذروته العليا ، ومنها بدأ يرقى إلى السماء . ومع أن الناس قد يشتركون في جماعات وجهتها الخير أو الشر ، فإن الاتجاهات الروحية والأعمال الخلقية مسائل تخص الأفراد وحدهم ، وتعتمد أساساً على إرادتهم الخاصة : والواقع أن مبدأ العدالة يتدفق في كل أجزاء الكوميديا الإلهية « ويرسم دانتى في « الجحيم » صورة واضحة القسمة لخطايا البشر ، إذ يربط كل خطيئة بعقابها : فالجشع الشره مثلاً ، يمثله وهو يبلغ

(١) في فلسفة التاريخ : ١٨٣ - ١٨٤ .

في الأقدار كالحزير ، والعاشقان الآثمان يرسمهما وعواصف الشهوات تتلاعب بهما في عنفت ، والبخيل يبينه وهو يحاول عبثاً أن يزحزح صخوراً هائلة .

وبعد أن ألم دانتى بهذه الآثام كلها ، ورجع عن ممارستها ، اقترب من « المطهر » وكأنه طفل ولد لثوه ، فهو طاهر من كل خطيئة من عمله ، وإن ظلت عالقة بروحه اللعنة التي أورثها إياها « آدم » « وحواء » بخطيئتهما ، ولكن هذه اللعنة وما تبقى من ميل إلى الحسد والغرور والكفر ، لا تلبث أن تمحي في أثناء جهاده لتساق جبل « المطهر » ، فاذا بلغ قمته ، دخل « جنة عدن » وهو طاهر تماماً ، كما كان آدم وحواء ، قبل أن يطردا من الجنة . وإذ ذاك يصبح جديراً بأن يقاد خلال طبقات « الفردوس » مقتربا من الضوء الباهر الذي يعيشه العيون . . نور الله .

إن تفسير دانتى للتاريخ البشري لم يكن تفسيراً يدور حول العالم الآخر تماماً . فقد كانت لديه فكرة عن فردوس أرضي يمكن بلوغه في نهاية الأمر .

يرى جاك بنيتي بوسيه (١٦٢٧ - ١٧٠٤) أن التاريخ يمضي في تعاقب نسبي ، حيث تعتمد حوادث أحد القرون على حوادث القرن الذي سبقه .

قال : « ليس لنا بعد الآن أن نتحدث عن الصدفة ولا الخلق ، أو إن أردنا تحدثنا عنهما على أنهما وصف نخلق به جهلنا . فإن ما نعتبره في رأينا صدفة من الصدف ، يعد تصميمًا قاطعاً » في رأي أسمى من رأينا ، أي في الرأي الأبدى الذي يضم جميع الأسباب وكل النتائج في نظام واحد .

ووفقاً لهذه الخطة الإلهية تقوم الدول وتنهار ، وتسيطر على الناس في التاريخ قوة فوقهم ، كلما أنهم متأثروا ، إذ يعملون أكثر أو أقل مما يقصدونه هم أنفسهم ، ينفذون أوامر العناية الإلهية ، والهدف الجوهري الذي تهدف إليه البشرية كلها هو الدين . ومن نقطة ارتكاز الدين هذه راح بوسيه بوجه خاص يستعرض التاريخ ويمسحه . على أنه رفض جميع مدعيات الأديان ما عدا أديان العبرانيين والمسيحيين . « إن الله الذي عبده العبرانيون والمسيحيون دائماً ، لا يشترك في شيء مع الآلهة الأخرى ، البالغة الشر والبعيدة عن الكمال ، والتي عبدها سائر العالم » .

ثم انتهى الأمر بأن ظهر الله للبشر متجسداً في شخص يسوع المسيح ، مشيراً لهم إلى « طريق جديد » ومعطياً الاتجاه المسيحي للتاريخ . وقد أوضح المسيح صدق الحياة الآخرة ، كما كشف عن أن الصليب^(١)

(١) يقول الأستاذ حبيب سعيد في كتابه « أديان العالم » ص ٢٤٠ : « الصليب هو رمز الإيمان المسيحي ، وذلك لأن موت المسيح بأيدي آئمة أبغضوه وأسأموه فهم رسالته ، « حقيقة تاريخية » . ويسمى التعليم المسيحي عن الصليب « عقيدة الكفارة » فكان موت المسيح على الصليب أقام « فنترة » على الفجوة التي كانت قائمة بين الله والناس . وهذا لا يعني أن الله قد انفصل عن البشر وتغاضى عنهم ، ولكن العكس هو الصحيح ، فالناس هم الذين بعدوا عن الله بمصيانهم وذنوبهم ، ولكن محبة الله لهم ظلت قائمة ، وقد حاول الله أن يردنا إليه بمحبته التي تهبّت في المسيح ، لكي نصير خليقة جديدة فيه ، هذا هو لب الإيمان المسيحي والاختبار المسيحي .

وينبغي أن تفكر في موت المسيح ، لا كموضوع قائم بذاته ، بل مرتبط بما سبقه وما خلق به . بدعوة المسيح وحياته على الأرض حيث كان الله يتكلم في إبنه (كلمته) ، داعياً الناس إلى الخلاص . وقد كانت محبة الله ورحمته وقوته على الخطية والموت في

هو السبيل إلى الجنة » « وقد حمل المسيح الصليب طوال حياته ومات عليه . ومنذ تلك اللحظة فصاعداً تصبح الكنيسة جسماً يرى « بوسويه » ، العامل المركزي في التاريخ ، ولم يستطع حتى الآن أن يدمرها لا المعارضة من الخارج ولا المنازعات من الداخل .

ويبدع بوسويه وجهة نظره بقوله إن الكنيسة ظلت متصرة على الدوام وأن اليهود الذين رفضوا يسوع المسيح ظلوا يقاسون الآلام على الدوام « إن للكنيسة جسماً دائماً الوجود لا يستطيع أحد فصل نفسه عنه دون أن يضل الرشاد » فكل من اتحدوا معها وعملوا أعمالاً تليق بعقيدتهم ، فهم على يقين من حياة أبدية . وقد علق المؤرخ جون باجنل بيوري (١٨٦١ - ١٩٢٧) على ذلك بقوله ، إن نظرية بوسويه قائمة على : « المبدأ الظاهر الذي لا يكاد يخفى ، من أن البشرية إنما خلقت من أجل الكنيسة . على أن بوسويه ، عما نشأ فيه من نشأة وبيئة ، لم يكن لتصور إمكان قيام دين حق بدون وجود الكنيسة . ولم تخلق البشرية من أجل خاطر الكنيسة ، ولكن من أجل الحياة الأبدية ، تلك الحياة التي كان بوسويه يعتقد أنه لبلوغها أنشئت الكنيسة (١) » .

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر جاء الإصلاح الديني البروتستنتي ، بيد أنه لم يغير شيئاً من الاتجاه المسيحي للتاريخ . فقد ظل دعاة الإصلاح يعتقدون أن الحياة على الأرض إنما هي مزرعة للحياة الآخرة . أما ما حدث بعد ذلك من أن معظم البروتستنت أصبحوا يعترفون بالمعانى الأصيلة للثقافة ، فلم يكن سوى لون من ألوان التوفيق بين مذهبهم وبين تطورات المذهب الإنساني وتقدم حرية الفكر . ومع أن البروتستنت رفعوا من قدر الاهتمام بالحياة الدنيا ، فإنهم لم يلتمسوا معنى التاريخ في المقيض الزمعي للأحداث . فالتاريخ موجود قبل كل شيء من أجل الرفاهية الروحية للأفراد ، وقد شجع حنا كلفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) اجتهد الإنسان في عمله ، ومع ذلك طالب بالقصد في الحياة وترك الترف . أما النجاح في هذه الحياة الدنيا فأمر يعتمد على الله وحده ولن يؤدي الاجتهاد إلى تقدم أي إنسان « ما لم يمد الله إليه يده ويسط عليه كرمه »

ويرى كلفن أن الله قد نظم هذا العالم ، فكل إماراته ومقاطعاته صور من مملكة السيد المسيح « فيجب علينا ألا نجعل هذه الحقيقة ، كما لا نجعل أنه تعالى يلحظ هذا العالم بعنايته وعدالته ؛ لأن إنكار

« قلبة يسوع على الموت ، وفي القيامة التي زكت هذه الحياة الطاهرة ، وأيدت غلبة الخير على الشر » ، الحق على الباطل » وجهة النظر هذه تخالف وجهة النظر الإسلامية يقول الله تعالى في سورة النساء : « وقولهم إنا تمثلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ماظم به من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه بغيبا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً » .

ويقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت في كتاب الفتاوى « إنه ليس في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء وأنه حتى إلى الآن فيها وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض . وأن كل ما تفيد الآيات الواردة في هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه مستوفيه أجله ورافعه إليه وعاصمه من الذين كفروا ، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبوه ولكن وفاه الله أجله ورفع له » للتوسع في هذا الموضوع اقرأ كتاب « الأنبياء في القرآن الكريم » للمؤلف الناشر دار الشعب .

(١) التاريخ وكيف يفهمونه : ص ١١٠ - ١١١ .

عدالته وعنايته ليس بأهون من إنكار ذاته « فكل ما نشاهده من مظاهر الملك والإمارة والعدالة ومآثر
التنظيمات السياسية هي أعمال الله التي نقرأ فيها بوضوح وجود الخالق ومجده »

ويضيف كلفن « أن هذه الاعتبارات والأفكار من شأنها أن تزيد في حبنا لنظام هذه الدنيا لأن الله
تعالى قد أقام لنا الدليل على حبه الأبوى وعطفه القدسي بأن وفر لنا الطمأنينة في ظل عنايته وعدلته^(١) »
وقد اتفق كل من كلفن ومارتن لوثر^(٢) في إنكار حرية الاختيار لدى الإنسان بشكل ما ، وإن كان
لوثر قد سلم بشيء من الاختيار في الشؤون العلمانية . كما أن كلفن لم يقصد أن ينكر الاختيار كله .

قال في رسالة كتبها ضد أحد الملحدين : « إن هؤلاء الملحدين لا ينسبون إلى الإنسان أي اختيار »
فكأنما هو قطعة من حجر ، كما أنهم يحكون كل تمييز بين الخير والشر ، إلى حد أنه لا يمكن أن يخطئ
أحد - في رأيهم - في عمل شيء ، ما دام الله هو مرد كل عمل » .

وأصر كلفن على مسئولية البشر فيما يصدر منهم من أعمال . وقصارى ما كان كلفن ولوثر يقصدانه «
أن يضعنا في منزلة الصدارة أن خلاص الإنسان الروحي يعتمد على الله بدرجة أكبر كثيرا من اعتماده على
الإنسان نفسه . وأن كون الله في التاريخ يصنع من أجل رفاهية البشر من الناحيتين البدنية والروحية أكثر
من الإنسان ، يعد نقطة جوهرية في المذهب التأليمي المسيحي .

كان دعاة الإصلاح يهدفون إلى الحد من طغيان الكنيسة ، وأعطوا الحكام حق الهيمنة على الكنيسة كي
يصلحوها ، ولكن الحكام تقاعسوا ، ومنهم من لم يحاول إصلاح الكنيسة ، بل حاول القضاء على طلاب
الإصلاح ، وأنزل بهم اضطهادات وبلايا وشدائد ومذابح . كما حدث لبروتستنت فرنسا ، وكان ذلك
إما تعصبا للكنيسة وإما مجاملة ، وإما كراهة للمصلحين ، لأن منهم من كانت لهم آراء في إصلاح نظم
الحكم بجوار آرائهم في إصلاح الكنيسة ، وقد كان الحكم استبدادياً مطلقاً ، بلا نظام يقيد الحاكم ،
ويلزم المحكوم .

فلما يئس طلاب الإصلاح من الحكام كما يئسوا من رجال الكنيسة اتجهوا إلى أن يجعلوا لآرائهم
جماعة : ووحدة دينية منفصلة عن الكنيسة وآرائها غير خاضعة لسلطان الكنيسة ، وأنشؤا لهم كنائس
ليست معترفة لكنيسة روما بأى سلطان ، وسلطة رجال الدين فيها محدودة ، ولرجال الدين من الحقوق

(١) الدكتور مصطفى الخشاب : تاريخ الفاسفة والتفكرات السياسية ، ص ٣٢٧ .

(٢) يعتبر مارتن لوثر زعيم الإصلاح الديني . وهو راهب ألماني من رجال القرن الخامس عشر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) دافع عن
البحث الحر وناقش الدين مناقشة حرة صريحة واعتبره عملا إنسانيا . وبقرر بساطته ووضوحه وسهولة استساغته مبادئه ، وقرّبه
إلى منطق العقل . وبعزوه إلى رجال الدين سوء النوايا في تعقيد أحكامه وتأويل نصوصه ، وإحاطته بهالة من الغموض والإبهام ،
والسمو به عن مثال العقل الإنساني .

فأدى بضرورة الحد من نشاط البابوية والقضاء على الأساليب الخارجة عن نطاق الدين التي يلجأ إليها للأثراء والارتقاء في أعضاها
الشؤون الدنيوية التي لا تتفق مع كرامة المنصب البابوي . وأثار عواطف القوميات ومظاهر الخقد الدين في قلوب الإمبراطورية
والبابوية . وساعده في بداية دعوته بعض أمراء ألمانيا الأقوياء . ووجد ملوك أوروبا في دعوته خير معين للقضاء على نفوذ البابوية
والتخلص من مظاهر تحكمها .

ما قرروا من مبادئ ، وسميت هذه الكنائس كنائس الإنجيلية . أى أنها لا تخضع لإلحكم الكتاب المقدس ويقيد بأحكامه رجل الدين أمام رجل الشعب ، وجميعهم مسئول أمام ذلك الكتاب .

وقد انتشر المذهب الجديد فى ألمانيا والدانمرك وأسرج والنرويج وهولندا وإنجلترا ، وأمريكا الشمالية ومويسرا ، وإن لم تصر كلها على هذا المذهب^(١)

أقر^(٢) فردريك فون شلوجل (١٧٧٢-١٨٢٩) فى كتابه « فلسفة التاريخ » بأن فلسفة التاريخ ينبغى أن تنشأ عن التأمل فى التاريخ الواقعى ، فانه يرى أن بالعقيدة المسيحية أساسيات تعتمد على أشياء بعيدة كل البعد عما يستطيع المؤرخ المحترف الحصول عليه من دراسته للتاريخ . وقد أثبت الاستقراء أن مجرى التاريخ قد تطابق ويتطابق دائماً وما فى هذه الأساسيات من مضامين . ذلك أن فلسفة التاريخ نظراً لأنها روح التاريخ أو فكرته ، ينبغى أن تستنتج من الأحداث التاريخية الحقيقية ، التى هى مجموع التاريخ الواحد المتماثل الكلى .

وقد ميز فون شلوجل بين نظريتين رئيسيتين متعارضتين حول التاريخ .

والإنسان حسبما ترى النظرية الأولى مجرد حيوان تزكى وشرف وهدب بالتدريج ، حتى بلغ مرتبة العقل تم رفع قدره وسما أخيراً إلى العبقريّة . ونرى تلك النظرة أن تاريخ الحضارة البشرية ليس إلا تاريخ نحسن تدريجياً مطرد التقدم ولا نهاية له .

أما النظرية الثانية فترى أن طبيعة الإنسان الحقه ومصره تفومان فى مشابهته لله ويمقتضاها « ينبغى أن يكون تاريخ الإنسان هو اسرجاع المشابهة لله أو التقدم نحو ذلك الاسرجاع .

وتقوم النظرية الأولى مع الاقتناع بقابلية الإنسان « للكمال » ، وهو اقتناع سلم فون شلوجل بأن فيه شيئاً بالغ الاتفاق مع العقل ، ومع ذلك ، فان قابلية الإنسان للفساد لا تقل صمخامة عن قابليته للكمال على أن التاريخ الواقعى يكشف عن مجرى للحوادث يتعارض وهذه النظرة .

وقد ذهب فون شلوجل إلى أن الحقيقة التاريخية الأولى ، هى أن الإنسان وقع وسقط تحت سيطرة الطبيعة ، فالقوة العمياء للطبيعة تعمل فى داخله ، وهكذا بدرت فيه بذور الشقاق ، ثم انتقلت إلى جميع العصور والأجيال . وهى تتكرر فى كل فرد . وهى شئ عام منتشر ويمكن اعتباره ظاهرة سبكيولوجية . وتوجد عواقب هذا السقوط بين أكناف التاريخ ، إذ ليس هناك حد لما يمكن أن يصيب الإنسان من انحطاط

ويتوقف التقدم أو النكوص جزئياً على الإنسان ، بوصفه روحاً ، بملك حرية الاختيار . فالصراع بين الخير أو المبدأ الإلهى فى جانب ، وبين الشر أو المبدأ المعاكس فى جانب آخر ، هو بالضبط السبب فى تكوين فحوى الحياة البشرية والتاريخ البشرى ، منذ بداية الزمان حتى آخره . ويقتضى العمل الكبير المنوط بالبشرية عامة وبكل فرد من الأفراد ، إعادة الانسجام بين الإرادة الطبيعية والإرادة الإلهية . ويؤلف التقدم والنكوصات التى تلم بذلك العمل ، جزءاً جوهرياً فى التاريخ . .

(١) الاستاذ محمد أبو رهرة : محاضرات فى النصرانية ص ١٩٦ .

(٢) التاريخ وكيف يصورونه : ص ١١٤ .

ويذهب فون شلوجل إلى أن الله عندما خلق الإنسان لأول مرة ، أعلن إله ذاته تعالى وأوضح له طريقة الحياة التي يفصدها للبشر ، وعلى الرغم مما ألم بالبشر في ناحية تقاليدهم المقدسة من انحطاط ، فإن هناك أوضح الدلائل فضلاً عن آثار متناثرة للتجلى الأولى ، وإن جاءت مختلطة بالاختطأ في كثير من الأحيان .

وقد حاول فون شلوجل أن يدل على ذلك في استعراضه التفصيلي لتواريخ مختلف الشعوب . ولحظ أن تلك التواريخ تقع في عصور مختلفة : فالتاريخ الأول هو تاريخ الطفولة الساذجة ، والتاريخ الثاني هو تاريخ الشباب ، ثم يجيء فيما بعد عنفوان الرجولة ونشاطها ، ونجىء في النهاية أعراض حلول الشيخوخة وهي حالة انحلال تام . على أن لكل شعب دوره الخاص في التاريخ : مثال ذلك ، أن الوجود التاريخي للعبرانيين ومصرهم بأكملهما محصوران بين دفئ واحدة من تلك الحقب الكبرى التي تتجلى فيها تصارييف العناية — وذلك الوجود لا يسجل إلا مرحلة واحدة في الزحف العجيب الذي تقوم به الإنسانية نحو هدفها المقدس . ومع ذلك فإن المجرى الجبار للعدالة الإلهية لا يبرح موجوداً طوال جميع عصور العالم . وبهذه الفكرة اعتر فون شلوجل تشتت اليهود وما أصابهم فيما بعد من شقاء ، جزاء وفاقاً لرفضهم الإيمان بالمسيح .

وعلى مدى التاريخ ، وفي ظل العناية الإلهية ، كان الميثاق اليهودي ، والوحي الذي أنزل على العبرانيين ، واللغة اليونانية والفكر اليوناني ، والدولة الرومانية — هي الأركان التي قامت عليها المسيحية أما فيما يتعلق بالأصل الحقيقي للمسيحية فإنه يقول : عندما ننظر العملية كلها بعين الإيمان — وعندما نتأمل كل ما نما وترعرع في العالم منذ تلك اللحظة ثباتاً من بدايات واضحة الضالة والصغر ، جنحنا إلى الاعتقاد بأن ما في حياة وموت « مخلصنا » من أسرار ومعجزات ، كلا ، بل مجموع مبادئه كلها التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك الأسرار والمعجزات ، ينبغي أن ترك مخاضها للدين « فهي تسمو فوق الفلك العادي للتاريخ ، وهي وإن كانت لها أهمية لدى فلسفة التاريخ ، فإنها مما لا يجوز تفسيرها بها . فكل وصف ينعت يسوع المسيح بأنه مجرد إنسان ، فشيء » لا تمت إلى التاريخ « أو هو بالحرى « مضاد للتاريخ » . وبهذه العبارة اعترف فون شلوجل بتصوره للتاريخ مؤكداً أنه يتوافق والعقيدة المسيحية التقليدية . فلو أننا أزلنا هذا حجر العقد وهو العماد المقدس في عقد التاريخ العام ، سقط كيان التاريخ العالمي بأكمله حطاماً وانقاضاً . وبغير الإيمان بالاعتقادات المسيحية يصبح العالم بأكمله عدماً لا يزيد عن لغز لا سبيل إلى حله — ويتحول إلى متاهة لا يستطيع اجتيازها — وكومة ضخمة من الكتل والقطع في عمارة لم ينم بناؤها — وتظل المأساة العظمى للبشرية خالية من كل صدق لائق . وبالمثل ينبغي لسر النعمة الكبيرة المتجلية في الفداء الإلهي للبشرية ، أن يفهم ضمناً ويفرض مقدماً في فلسفة التاريخ المسيحية . فهو شيء يسمو فوق ذلك التاريخ الدنيوى . على أن المراحل المتعاقبة في التقدم البشرى تتميز بمعطيات تاريخية ثلاثة :

(١) وجود وحي أولى (ب) تأسيس المسيحية (ج) صدارة أوروبا العصرية في مضمار الحضارة . فالنحوى الحق الذي ينطوى عليه التاريخ العصري هو بث التقدم والمزيد من التطور فيما تتضمنه المسيحية .

ووضع فون شلوجل موازنة بين المؤقت والأبدى ذلك أن روح الزمن « تتعارض والسايطان الإلهي » فضلاً عن الديانة المسيحية . وهذه هي الروح التي تبدو واضحة عند من يعتبرون ويفقدون الزمن وكل الأشیاء المؤقتة ، لا استناداً إلى قانون الأبدية واحساسها ولكن من أجل المصالح المؤقتة أو بدافع البواعث المؤقتة ويغيرون ما يدور حول الأبدية من أفكار وإيمان أو يقللون من قبمها ، بل وينسونها .

ويرى ه . بتر فبلد في كتابه «المسيحية والتاريخ» أن المناهج العلمية في التاريخ لا يمكن أن تفهم فهماً صحيحاً على أنها محاولات لمعالجة الإنسان بالأساليب الطبيعية بوصف كونه مجرد جزء من الطبيعة الفيزيائية .

فالمرور لا يعامل الإنسان باعتباره جوهرية جزءاً «الطبيعة» ولا هو بتأمله ابتداءً — على هذا الاعتبار . والتاريخ دراما بشرية تجري حوادثها على مسرح الطبيعة ، إن صح هذا التعبير ، دراما ، مدارها الحياة البشرية بوصفها شأن الشخصيات الفردية التي تملك الوعي الذاتي والعقل المفكر والحرية . والتاريخ التكنيكي لا يعرف الناس معنى الحياة . كما أن التاريخ الديني لا يفسر نفسه بنفسه . ومع ذلك ، فإن التاريخ الواقعي هو عملية صنع الشخصيات ، وأن كان ذلك باذاقهم الوان الشقاء .

وقد أكد بتر فيلد فكرة جوهرية ، في إصراره على أن التاريخ التكنيكي يتعارض — من حيث المبدأ — مع الاختصار على البحث عن المعنى في مستقبل بعيد — على نحو قاطع أو حتى غالب . « ذلك أن تكنيك الدراسة التاريخية ذاته يتطلب أن ننظر إلى كل جبل من الأجل ، باعتباره — على سبيل المجاز على الأقل — عالم قوم يعيشون بحكم ما لهم من حق مقرر » .

« إذ لا يقوم الهدف من الحياة في المستقبل البعيد . كما أنه ليس كما تصور أحياناً كثيرة قاب قوسين أو أدنى منا ، ولكنه كله قائم » هنا والآن على أكمل وجه وأوفى صورة ممكنة على ظهر هذا الكوكب على أن الذي يرتبط دائماً بعلاقة مباشرة بالأبدية هو الآن — وليس المستقبل البعيد ، فإن الخبرة المباشرة للحياة هي دائماً التي مهمنا في آخر المطاف .

ولما كان التاريخ من حيث الجوهر شأننا يخص افراداً ذوي وعي ذاتي ، وكان التاريخ التكنيكي لا يستطيع إصدار أحكام يوثق بها على معناه — فإن كل فرد مصطر بوصفه واقفاً منفرداً على هذا العالم ، أن يصدر قراره حول أهمية التاريخ ومعناه . ومنحنا التاريخ التكنيكي شيئاً من العون . فهو يظهر أنه سواء آمن المرء بالله باعتباره « العناية » أم لم يؤمن . فإن في تكوين التاريخ صرباً من الترتيب الذي تلحظه عين العناية والذي يتجاوز ويخلف عما يعنه الناس شعورياً ، ويجاهدون فصداً في بلوغه . وآية ذلك أن ملايين من الناس في أي قرن معين ، ممن لا يعون شيئاً سوى المضي في مضطرب الحياة والعمل ، قد استطاعوا مجتمعين أن ينسجوا نسيجاً أجود في كثير من الوجوه مما دار نخلد أي واحد فيهم . وربما حدث في بعض الأحيان أن أجيالاً تالية فقط هي التي تصبح على بينة من أسلوب ذلك النسيج ومن فكرته المتسامية فوق الرعوس . ويشهد التاريخ التكنيكي بما بشيع بين الناس من معرفة ناقصة معينة « ذلك أن من التشويه الخطير للصورة أن يفترض وجود عالم يتكون من أناس حكماء بسليقتهم وإبرار بطبعهم » .

« والتاريخ يكشف عن خطيئة الإنسان العامة الانتشار : وهذه حقيقة من حقائق التاريخ » وليست فكرة مسيحية . والتاريخ التكنيكي يساند فكرة إصدار الأحكام في التاريخ ، وإن لم يستطع التأكيد بأنها أحكام كاملة ومضبوطة . وهو يبدو كأنما يجد أشياء كثيرة تتفق والإقناع (المعبر عنه قديما في العهد القديم) بأن الناس يقاسون في التاريخ ، لا لمجرد ما يقرفونه من سيئات . إذ أن من الآلام ما عرفت بأنه ينمي الشخصية ويطورها . وكثيرا ما يكون الحب مصدر الإلهام في تحمل الألم عن الآخرين ، ونظرا لأن التاريخ لا يمكن أن يخلو من عنصر المأساة ، فإن الحب نفسه يدفع إلى الاشتغال في محيط الخبرة البشرية بلهيب أشد تأججا .

ويتوقف كل تفسير « للكون وللتاريخ » على إيمان المرء بالله أو عدم إيمانه ، على أن ذلك الإيمان لا يعتمد على التاريخ التكنيكي ، ولا هو في النهاية يعتمد حتى على الفلسفة نفسها . « وإنني لأعترف بعجزى عن أن أرى كيف يستطيع امرؤ أن يجد يد الله واضحة في التاريخ الديوى ، مالم يكن وجد أولا أن لديه تأكيداً بوجودها صادرا من خبرته الشخصية » . ومع أن « الله » بوصفه العناية « لا بد أن يكون قادرا على جلب الخير من الشر » ، فإنه تعالى لا يضمن للناس التقدم ومن هنا « وجب علينا ألا نتصور أنفسنا في صورة من يدهم وحدهم سلطة صنع التاريخ ، ولكن باعتبارنا مولودين لكي نتعاون « والعناية » هي التي « بيدها مقاليد الكلمة الأخيرة فيما يتعلق بالنتائج » وبهذا الاعتقاد في الله نتمثل أماننا صورة لتاريخنا تحت الضوء المناسب إن نحن قلنا : إن كل جيل — بل والحق يقال كل فرد — إنما يوجد من أجل مجد الله ، على أن من أخطر الأمور في الحياة ، إخضاع الشخصية البشرية للإنتاج ، أو للدولة ، أو حتى للحضارة نفسها ، أى لا شيء ما عدا مجد الله .

وبتحدث بترفيلد عن المسيحية ، فيقول إنها — أى المسيحية — واصلت تمسكها مع ديانة العرائين وهي من ثم تعترف بأن « الله هو رب التاريخ » ولكن هناك فوق ذلك نقطة أخرى ، هي أن المسيحية التقليدية ، « ديانة تاريخية بمعنى تكنيكي خاص » وذلك لأنها تذهب إلى أن التجسد والصلب والقيامة كانت أحداثاً في الزمان . وهي تعد هذه الوقائع بمثابة عملية « اقتناص لشطر من الأبدية » . وإدخاله في الزمان « مهما يكن معنى ذلك » .

وهو إذ ينظر إلى تاريخ الغرب نظرة مؤرخ محترف ، يبدى استعداده لأن يقول : إن السنوات التي قضاها المسيح على الأرض ينبغي أن تبدو « على كل حال أشد التواريخ مركزية رئيسية » . فعند هذه النقطة تسقط أضواء أقوى على الحساب والمأساة والألم بدل الغير والعناية « فكل إنسان يتأمل الناحية الخلقية للدراما البشرية ، يجد هنا أوج القصة وأزمته — وهو المكان الذي نستطيع أن نميز فيه شيئاً جوهرياً يدور حول طبيعة التاريخ عنها » .

ولكن الفصل فيما إذا كان ينبغي للمرء أن يتقبل الاعتقادات التقليدية في التجسد والصلب والقيامة على أنها أمور تاريخية (يخرج عن طريق المؤرخ) .

فلو أن أى إنسان قال : إن التاريخ قد أثبت أو نقض علماً ألوهية المسيح ، لوقع لنفس السبب في لثم تلك الصلافة الذهنية التي تعمل عملها في العلوم جميعاً عندما يعمد كل منها إلى تجاوز حدوده ليحصل على سلطان مغتصب .

وهو يختم كتابه بتقديم هذه النصيحة :

« تمسكوا بالمسيح ، وفيما عدا ذلك ، ابتعدوا كل البعد عن الالتزام بشئ »^(١)

جاء انتصار المسيحية^(٢) التي تمكنت بمرور القرون من توسيع نطاق الفتوحات التي أحرزتها على الرغم من سقوط روما . وهكذا بدأ الدين الجديد يكتسح الحضارة الغربية ببطء ولكن بخطوات ثابتة فبعث في معتنقيه القدرة على التغلب على شعورهم باليأس ومكنهم من استعادة ثقتهم في المستقبل .

وكانت نتيجة ذلك بمرور الزمن ، أن انبعث جو يسوده الأمل بدلا من اليأس والعمل المتواصل بدلا من الكسل والتراخي .

وكان انتصار المسيحية على الوثنية يعنى إحياء العقل البشرى ، وأتاحت للناس القدرة على مواجهة المستقبل بشكل إيجابي ، بعد أن كانوا يعمدون إلى الوسائل السلبية في مواجهتهم للمستقبل . وجعلتهم يؤمنون بأنه لا بد من أن يصلوا إلى سبيل الخلاص على الرغم من الأعباء التي كان يفرضها عليهم كفاحهم .

وبناء على هذا اليقين الذي بعثته المسيحية في نفوس الناس وعلى سيطرة العقل على الخواطر التي بعثها الدين في نفس الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع تمكنت المسيحية من أن تلعب دوراً هاماً في سبيل إعادة بناء المدينة القديمة. ولأنني أعتقد أنه ليس هناك من يستطيع أن يدرس بعناية حالتنا في العصر الحاضر دون أن يفكر في أننا نحتاج ثانية إلى بعض الإيمان لإحياء العقل البشرى إذ يبدو أن القيم التي نستشعرها قد انهارت كما حدث أيام تدهور الإمبراطورية الرومانية فالتقدم العلمي والمادى واتساع آفاق المعرفة ، كل هذه العوامل متجمعة لم تمكننا من الشعور بالثقة في المستقبل ، بل على العكس من ذلك فإننا نرى أن الحرب العالمية الثانية أصبحت تمثل ذروة عصر سادس اليأس

لم يكن الصراع الذي ساد من أجل القيم الإنسانية أقل بشاعة ولا سخرية من أى صراع آخر نشب في أية فترة مضت منذ عهد الإصلاح حتى الآن .

إن الإيمان بالتقدم قد انحدر فبعد أن كان مبدءاً للعمل الاجتماعي أصبح إيماناً خاصاً بالدولة الفاضلة يتبع المؤرخ في تحليله له نفس الأسلوب الذي يتبعه عند دراسته لزوال أى إيمان مذهب أو بأي عقد اجتماعي . إن الفكرة القائلة إن هدف المجتمع هو إرضاء شعور الشخصية الإنسانية بالعزة — هذه الفكرة التي أخذت تعمل قرناً من الزمن على الأقل على تخطي عقبات المولد والجنس والغنى والعقيدة — هذه الفكرة بدأت تزول وتندثر قبيل ظهور الفكرة القائلة إن جموع الشعب لا تليق لتولى السلطة وأن الفئة الممتازة هي

(١) التاريخ وكيف يفسر منه : ص ١٢٣ - ١٢٥

(٢) هارولد لاسكي : العقل والإيمان والمدينة ص ٣١ .

التي لها القدرة على مزاوله السلطة . ولم يعد لمبادئ الإخاء والمساواة أية قيمة في كل مكان بل إن فكرة الحرية نفسها كانت تعتبر سلطة وكان على كل حكومة رشيدة أن تحدد استهلاكها بين المواطنين . وكانت في كل أمة طبقة قليلة العدد تغرق في الترف والنعيم إلى درجة خيالية بحيث يمكننا أن نقارن الفارق بين مستوى كل من طبقتي المجتمع في الوقت الحاضر بذلك الفارق الذي كان قائماً بين الطبقة الارستقراطية وطبقة الدماء في أواخر أيام الإمبراطورية الرومانية . وإن كان الأثرياء في روما مقابل الإمبريالات العظيمة التي كانوا يتمتعون بها فقد أصبحت الخدمات الإجتماعية الفدية التي يدفعها الأغنياء في عصرنا الحاضر لإقضاء جميع الشعب عن الاهتمام بالأمور التي تتصل بالنظام الاجتماعي الذي يعتبر تشجيع الشعب على بحثه ودراسته أمراً خطيراً . إن انهيار القيم أصبح واضحاً في كل مكان .

كانت الفضيحة العظمى التي صاحبت الكنيسة المسيحية في أوائل عهدها تكمن في تأكيدها تهذيب الرجل العادي . إذ أنها أتاحت لأدنى المؤمنين بها الحق في الإيمان بالخلاص كما حطمت نطاق القومية الضيق الذي كانت تنحصر فيه العقيدة وعملت على الانطلاق إلى العالمية التي جعلت أوجه التشابه بين الأفراد أكثر أهمية من أوجه الخلاف بينهم ، لذلك كان العبد الأسود الذي يعيش بالاسكندرية مجرّد أن ينعم بهذا الإيمان يستحوذ على منبع فياض لغذاء روحى يزيد حياته الباطنية سعادة مهما يلقى من العذاب على أيدي سادته الوثنيين الذين كانت لهم سلطة الحياة والموت . . والواقع أن إيمانه بأنه سيموت في سبيل الله الذي يعبدّه أكد له فكرة الخلاص التي جعلته يلتقي على جميع الأشياء نظرة جديدة وتقديراً مختلفاً عما قبل .

كان من نتيجة هذه الأفكار المسيحية أن أثرت على فكرة التاريخ في ثلاثة اتجاهات (١) :

(١) ظهور نزعة جديدة نحو التاريخ ، تذهب إلى أن نشاط الأحداث التاريخية ليس من قبيل النشاط الإنساني وأهدافه ، وإنما هو إقرار لمشئته الله . وما دامت مشئته الله قد قصد بها أن تكون مشئته الإنسان . . مشئته متضمنة في الحياة الإنسانية وتحقق عن طريق الإرادة الإنسانية ، فإن نصيب الله في نشاط هذه الأحداث ، مقصور على تقديره السابق للهدف وعلى تحديد الأهداف التي ترغب فيها الإنسانية بين آن وآخر . ومعنى ذلك أن كل فرد من بني الإنسان يعرف ما يحتاج إليه ، ثم يلتزم السبيل لتحقيقه ، ولكنه لا يعرف لماذا يحتاج إلى هذا الهدف بالذات . بل إن السبب في احتياجه إلى هذا الشيء بالذات ، هو أن الله قد كتب عليه أن يحتاج إليه لأنه بذلك يساهم في تنفيذ مشئته سبق تقديرها في علم الله .

ونحن نجد هنا في معنى من المعاني ، أن الإنسان هو القوة الفعالة في أحداث التاريخ ، لأن كل حادثة من هذه الأحداث ترتبت على إرادته ، ثم نجد في معنى آخر أن الله هو القوة الوحيدة ، إذ الواقع هو أن نشاط الإرادة الإلهية وحدها ، هو الذي يدفع الإرادة الإنسانية في أية لحظة من لحظاتها صوب هذه النتيجة ، لا نتيجة أخرى تختلف عنها . كذلك نجد في معنى من المعاني ، أن الإنسان هو الهدف الذي من أجله تنشط الأحداث التاريخية لأن مشئته الله تقتضى الإبقاء على مصالحة الإنسان ، وكذلك نجد في معنى آخر أن حياة الإنسان إن هي إلا إرادة قصدتها تنفيذ المشئته الإلهية ، لأن الله لم يخلقه إلا لتحقيقاً لمشئته التي

(١) د . ج . كولنجورد : فكرة التاريخ ، ترجمة محمد بكير خليل ص ١٥٠ .

تتحقق هن طريق الحياة الإنسانية ونشاطها في هذه الحياة الدنيا . وهذا التقدير للنشاط الإنساني مكسب عظيم للتاريخ ، ذلك أن الاعتراف بأن الأحداث الإنسانية مستقلة عن إرادة أى إنسان ، أو غير مشروطة بها ، أمر لابد من افتراضه مقدماً إذا أريد فهم الأحداث التاريخية وماهيتها .

(ب) وهذه النظرية الجديدة للتاريخ لا تيسر لنا الوقوف على حقيقة نشاط القوى التاريخية فحسب ، وإنما تفسر لنا كذلك حياة وطبيعة القوى نفسها بوصفها الأساليب التي ابتدعتها الأهداف الإلهية ، ومن ثم كانت لها أهميتها التاريخية . وكما أن روح الفرد شيء قد خلق وتبلور في وقته ليستوفى تلك الخصائص التي يتطلبها الوقت إذا كان لمشية الله أن تنفذ ، فكذا نجد أن شيئاً مثل روما ، ليس من قبيل القيم الأبدية وإنما هو شيء زائف موقوت ، برز إلى الوجود في الوقت التاريخي المناسب ليؤدي وظيفة معينة محدودة ، ثم يمضي بعد ذلك حين تنهى المهمة التي خلق لها .

لقد استحدث هذا الضرب من التدليل ثورة عميقة في التفكير التاريخي ، كان معناه أن عملية التغيير التاريخي ، لم تعد ظاهرة عابرة تطفو على سطح الأحداث ، ومن ثم تتناول الأعراض لا الجوهر ، وإنما عملية تتناول جوهر هذه الأحداث ، وبذلك تنطوي على عملية بناء حقيقي وهدم حقيقي أيضاً . وليست عملية الأحداث المتغيرة هذه إلا تطبيقاً لفكرة مسيحية في نطاق التاريخ . . . فكرة تذهب إلى أن الله ليس مجرد صانع ، صاغ هذه الدنيا من مادة أزلية كانت موجودة قبل ذلك ولكنه خالق خلقها من العدم .

والواقع أن التسليم بأن العملية التاريخية تبتدع الأداة الكفيلة بسرمان نشاطها ، أمر ينتهي معه أن تكون دول كروما أو إنجلترا من قبيل الصروح الأزلية التي تسلم بوجودها منذ القدم ، لأنها ما جاءت إلا نتيجة للأحداث التاريخية ، ومثل هذا التسليم هو الخطوة الأولى لإدراك الخصائص الجوهرية للتاريخ .

(ج) وهذان التعديلان اللذان استحدثا في فكرة التاريخ ، قد اشتقا على نحو ما رأينا من النظرية المسيحية التي نصت على الخطيئة الأولى وفضل الله (والخليقة) ونمة تغيير ثالث استند إلى شيوخ هذا الاتجاه المسيحي وانتشاره .

لقد اعتقد المسيحي أن الناس جميعاً على قدم المساواة أمام الله ، ولا يوجد شعب اصطفاه الله دون سائر الشعوب ، ولا يوجد جنس يمتاز على غيره أو طبقة اجتماعية تمتاز على غيرها كذلك لا توجد هيئة اجتماعية اسمى مكاناً أو مقاماً من غيرها . كذلك يساهم كل فرد وكل شعب في تنفيذ مشية الله ، ومن ثم تكون العملية التاريخية في كل زمان ومكان على نسق واحد ، وكل مرحلة منها مرحلة من هذه العملية التاريخية بمعناها الكامل ، إن المسيحي لا يمكن أن يقنع بالتاريخ الروماني أو التاريخ اليهودي ، أو أى تاريخ آخر يعرض لأحداث جزئية أو حالات خاصة ، وإنما يطلب تاريخاً للعالم أجمع . وتاريخاً عاماً يكون موضوعه التطور العام للأهـداف التي رسمها الله للحياة الإنسانية .

مراجع هذا البحث

- ١ - الكتب : حسب ورودها في البحث .
- × ميشيل روريه : حياة جوليو كوري ، ترجمة فؤاد حداد .
- A. Cresay Morrison : Man Does not stand alone.
- × ول ديورانت : مباحث الفلسفة ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني .
- × ول ديورانت : قصة الحضارة .
- × جميل جبر : طاغور .
- × ات كريسبي موريسون : العلم يدعو للإيمان ترجمة محمود صالح الفلكي .
- × عبد الحميد جوده السحار : محمد رسول الله والدين معه .
- × أدولف أرمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ترجمة د د عبد المنعم أبو بكر ، ومحرم كمال .
- × محمد عبد الغفار الهاشمي : محمد رسول الله في بشارات الأنبياء .
- × ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل .
- × جوستاف جرونياوم : حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .
- × طه عبد الباقي سرور : إقبال شاعر الحرية والكفاح .
- × ريجريد هونكه : شمس الله على الغرب ترجمة الدكتور فؤاد حسن علي .
- × البرت شفيتزر : فلسفة الحضارة ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي .
- × أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟
- × جون ستيورت مل : بحث في الحرية ترجمة دار النقطة العربية - بيروت .
- × محاضرات أرنولد توينبي في مصر (١٩٦١) كتب ثقافية .
- × الدكتور قسطنطين زريق : نحن والتاريخ .
- × هرنشو : علم التاريخ ترجمة عبد الحميد العبادي .
- × البان ج . ويدجري : التاريخ وكيف يفسروه ترجمة عبد العزيز جاويد .
- × أ. ج . إيفانز : هيرودوت ، ترجمة أمين سلامة .
- "rroud; three contributions of the sexual theory.

- × أوجين جنتجر : فن الزعامة ترجمة سلوى حافظ وروجيه ناجي .
- × « أدورد كار : ما هو التاريخ ؟ ترجمة أحمد حمدي محمود .
- × كارلايل : الأبطال ترجمة محمد السباعي .
- × فؤاد محمد شبل : منهاج توينبي التاريخ .

المشكلة اليهودية العالمية

دور مصر في تكوين الحضارة

- × الدكتور أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ .
- × الدكتور عبد الرحمن بدوي : شبلنجر .
- × أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : الطب الروحاني .
- × ابن خلدون : المقدمة .
- × محمد صدقي الجبائخي : الفن والقومية العربية .
- × محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام ترجمة عباس محمود .
- × الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ترجمة شفيق أسعد فريد .
- × عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي .

فلسفة ابن خلدون

- × الدكتور علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون .
- × ساطع المصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون .
- J sibrec : Hegel's Philosophy of History.

- × و. ه. وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ترجمة أحمد حمدي محمود .
- × إيسيا برلين : كارل ماركس ترجمة عبد الكريم أحمد .
- Beneditto Croce : what is living and what in Dead of the Philosophy of Hegel.

- × ج. ه. كول : تاريخ الفكر الاشتراكي (الرواد الاول) ترجمة عبد الكريم أحمد .
- × عباس محمود العقاد : الشيوعية والإنسانية .

الفلسفة القرآنية

الله

أثر العرب في الحضارة الأروبية

- × زاهر عزب الزغبي : الإسلام ضرورة عالمية .
- × هارولد لاسكي : الشيوعية .

Fundamentals and Marxism-Leninism.

- × عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ ترجمة كاظم الجوادى .
- × كرين برتن : أفكار ورجال ترجمة محمود محمود .
- × حبيب سعيد : أعلام الفكر الأوربي .

أديان العالم

- × محمود الشرفاوى : مواقف حاسمة في تاريخ محمد بن عبد الله .

الدين والدولة العصرية

الانبياء في القرآن الكريم

العدالة الاجتماعية عند العرب

Alexander Gray : The Development of Economic Doctrine

- × جوستاف لوبون : سر تطور الأمم ترجمة أحمد فتحى زغلول .
- × فوستيل دى كولنج : المدينة العتيقة ترجمة عباس بيوى وعبد الحميد الدواخلى .
- × الدكتور أحمد عبد القادر الجمال : مقدمة في أصول النظم الاجتماعية .
- × جوستاف لوبون : الحضارة المصرية ترجمة م : صادق رستم .
- × جيمس هنرى برستيد : فجر الضمير ترجمة الدكتور سليم حسن .
- × روجيه باستيد : مبادئ علم الاجتماع الدينى ترجمة الدكتور محمود قاسم .
- × الدكتور عبد المنعم أبو بكر : اخناتون .
- × ج . برستيد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، ترجمة الدكتور حسن كمال .
- × سيزونرسكائى : الحضارات السامية القديمة ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر .
- × ل . ويلابورت : بلاد ما بين النهرين ترجمة محرم كمال .
- × على آدهم : هداة الإنسانية في الشرق .
- × أحمد الشتناوى : الحكماء الثلاثة .
- × الدكتور مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والنظريات .
- × محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة .

منهج القرآن في بناء المجتمع

الفتاوى

- × توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة الدكتور حسن إبراهيم
- × زكريا هاشم زكريا : المستشرقون والإسلام .

- ✕ الدكتور امهايل واجى الفاروقى : أصول الصهيونية فى الدين اليهودى .
- ✕ الدكتور عبد الوهاب المسيرى : نهاية التاريخ ، مقدمة الدراسة بنية الفكر الصهيونى .
- H.G. wells : A short History of the world, Teaching of Jesus.
- ✕ رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى : المسيح ومشكلات العصر .
- ✕ محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية .
- ✕ هارولد لاسكى : العقل والإيمان والمدنية .
- ✕ د. ج. كولنجوود : فكرة التاريخ ترجمة محمد بكير خليل .
- ✕ فرانز روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى .
- ✕ الدكتور محمد البهى : الدين والحضارة والإنسانية .
- ✕ محمد خلف الله : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة .
- ✕ محمد عزة دروزه : الدستور القرآنى .
- ✕ محمد عبده : تفسير جزء عم .

رسالة التوحيد تحقيق طاهر الطناحى

- ✕ عبد المنعم محمد خلاف : المادية الإسلامية وأبعادها .
- ✕ الدكتور عيسى عبده إبراهيم : الإسلام والاشتراكية .
- ✕ الدكتور راشد البراوى : التفسير القرآنى للتاريخ .
- ✕ محمد مصطفى المراغى : حديث رمضان .
- ✕ محمد محمد المدنى : المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء .
- ✕ الدكتور محمد شوقى الفنجري : المدخل إلى الاقتصاد الإسلامى .
- ✕ الدكتور محمد فهمى لهيطه : علم الاقتصاد .
- ✕ الدكتور محمد جمال الدين الفندى : الكون بين العلم والدين .
- ✕ مولاي محمد على : الإسلام والنظام العالمى ترجمة أحمد جودة السحار .
- ✕ أنور الجندى : الإسلام وحركة التاريخ .
- ✕ مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ترجمة عبد الصبور شاهين .

٢ - دوائر معارف ودوريات .

- « دائرة معارف الشعب .
- « موسوعة الهلال الاشتراكية »
- « وزارة التعليم العالي : تاريخ العالم
- « وزارة الثقافة والأرشاد القوي : تاريخ الحضارة المصرية
- « مجلة المجمع العلمي العربي — دمشق .
- « القرآن الكريم -
- « الكتابة المقدس
- « كتب التفسير :
- « تفسير ابن كثير .
- « تفسير المنار
- « كتب الحديث :
- « صحيح البخاري .
- « صحيح مسلم .

الجزء الخامس

إفصل التاسع :

التفسير الاسلامى للتاريخ

« وتلك الأيام نداولها بين الناس »
« قرآن كريم »

يقوم مبدأ التصور الإسلامى للتاريخ على مبدأ التآليه : فالله ذات ، هو روح فردية « قل هو الله أحد »
الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

ومن صفات الرحمن : القوة ، والحكمة ، والرحمة ، وهو موجود لا موجد له ، أبدى أزلى موجود
فى كل مكان ، كريم ذو جلال ومجيد حميد .

وعندما ظهر الرسول كانت اليهودية والمسيحية منتشرين فى الجزيرة العربية ولها آراء متشابهة فى
التفسير التاريخى للحياة الإنسانية ، غير أن الدين الإسلامى الذى بشر به الرسول كان يتميز بالوضوح
والقدرة على تفهم أسس هذا الوجود بصورة واضحة جداً وفى غير تعسف ، والواقع أن مفاهيم الإسلام
أوضح وأقل جموداً من ناحية العقيدة ، من مفاهيم اليهود والنصارى الدينية^(١) .

لقد أدرك الرسول الوجود التاريخى العظيم ، وأن العالم سينتهى يوم القيامة وهو يوم الفصل الذى تسأل
فيه كل نفس عما فعلت فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة حادث ثابت معروف فى المستقبل ، وقد وصفه
القرآن الكريم وصفاً دقيقاً بحيث أصبحت أحداثه واضحة للناس ، وكأنها قد حدثت فى الماضى القريب
رغم أنها لما تحدث بعد . لقد كانت تاريخاً للمستقبل بنفس المعنى لوجود تاريخ للماضى .

قال الله تعالى : « إن يوم الفصل كان ميقاتاً . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا وفتحت السماء فكانت
أبواباً ، وسيرت الجبال فكانت سراباً . إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لا بين فيها أحقاباً ،
لا يلدقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغساقاً ، جزاء وفاقاً ، إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا
بآياتنا كذاباً ، وكل شيء أحصيناه كتاباً ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً . إن للمتقين مفازاً ، حدائق
وأعناباً ، وكواعب أتراباً ، وكأساً دهاقاً ، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذاباً ، جزاء من ربك عطاء حساباً .
رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً ، يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا
يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ، ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ، إنا أنذركم/
عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً^(٢) »

« إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ، يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا ، فويل يومئذ
للمكذبين ، الذين هم فى خوض يلعبون ، يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون ،
أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون . أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم
تعملون ، إن المتقين فى جنات ونعيم ، فاكهين عما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ؛ كلوا

(١) فرائز روز نثال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ص ٣٩

(٢) سورة النبا : ١٧ - ٤٠ .

وأشربوا هنئاً بما كنتم تعملون ، متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ، والذين آمنوا وأنعتبهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين ، وأمددناهم بغاكة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم (١) .

وفكرة يوم القيامة يمكن أن تطبق مباشرة على تقدير أعمال الحاضر ، من حيث أن المرء يحاسب في الآخرة على كل ما جنت يده في هذه الدنيا وأن كل ما يعمل اليوم مسجل عليه ولن ينسى ، وبذلك اكتسبت كافة أعمال البشر سمة الخلود ، وكان ذلك دافعا واضحا للتذكر وتسجيل الأعمال .

كان الرسول نفسه غاية عمليات التاريخ التي بدأت منذ خلق الله العالم : لقد ظهر الأنبياء في أزمنة وأقاليم متعددة ، ولاقوا النجاح أو الفشل في أداء رسالتهم إبان حياتهم بمعنى أن الذين صفت قلوبهم وفتحت عقولهم لدعوة الحق الذي جاء به الأنبياء يعتبر نجاحا ، وإعراض الذين عميت بصائرهم عن الحق يعتبر فشلا ،

ومحمد هو خاتم الأنبياء والرسول ، ورسالته آخر الرسالات ، لم يكن الرسول بدعاً في الرسل ، بل كان متصلاً تاريخياً بسلسلة من الأنبياء ، وهو بصورة خاصة خليفة إبراهيم ، وقد وجه الرسول دعوته — بادئ ذي بدء — إلى قومه العرب « وأنذر عشيرتك الأقربين » كما أرسل أنبياء آخرون إلى شعوب مختلفة ، لكن دعوة محمد كانت رسالة للناس كافة في كل زمان وفي كل مكان .

وقد وردت في القرآن معلومات تاريخية تختلف عما يدعى اليهود وجوده في التوراة فقد حرفت التوراة ، وتمسك المسلمون بما جاء في القرآن .

كان شعور الرسول التاريخي عميقاً ، غير أنه أنصرف إلى التبشير بالدين الإسلامي ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . ولم يشر القرآن إلى الأحداث العالمية المعاصرة إلا مرة واحدة عندما تنبأ عن مصائر النزاع بين الروم والفرس حيث قال تعالى : — « ألم . غلبت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم (٢) » .

أما الأحداث التي أحاطت بالرسول والمسلمين فقد أشار القرآن إلى كثير منها وكانت هذه الآيات تتفق مع موقف الرسول تجاه التاريخ ، وكان نزول هذه الآيات التي تذكر هذه الأحداث له أهمية في

(١) سورة الطور : ٧ - ٢٨ .

(٢) سورة الروم : ١ - ٥ .

التاريخ الإسلامى ، لأن الأحداث التى أشارت إليها صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين ، واستثارت للبحوث التاريخية .

إن الهدف الرئيسى من القرآن هو جمع الناس إلى التنبه إلى علاقاتهم بالله تعالى ، فالإنسان لا يستطيع مطلقاً الفرار من الله فى التاريخ ، ولكنه جل شأنه لم يجيء فى التاريخ فى صورة كائن بشرى ، ويؤكد القرآن أن المسيح بشر : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » . وقد أرسل الله تعالى الرسل والأنبياء وأنزل الكتب لهداية الناس ، ومنذ مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن تحصل البشرية على هدايتها فى التاريخ إلا من القرآن ، ويتم الاتصال الشخصى بالله فى الصلاة^(١) ومن ثم فنقطة الدوران الرئيسية فى التاريخ هى نزول القرآن .

وقد خلق الله تعالى العالم بكل ما حوى من نواميس مطردة ومن خصائص أخرى تيسر حدوث التاريخ البشرى ، وتضفى عليه دلالة وأهميته .

فالعالم لم يخلق عبثاً ، ولكن لغاية جادة ، وعالم الطبيعة ليس ثابتاً بصفة نهائية فالله قادر أن يخلق باستمرار : « يزيد فى الخلق ما يشاء » .

والله حين خلق الليل والنهار وأوجد تعاقبهما قد جعل الحياة مؤقتة للبشر وقد خلق الناس أرواحاً وهبها الأجساد فى هذه الحياة .

ويشير القرآن إلى أن الله قد فضل الناس تفضيلاً خاصاً : فاختار الله آدم : « إن الله اصطفى آدم » ثم اتجه إليه وهده : وجعل الإنسان خليفة فى الأرض .

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة » قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال : إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى

(١) الصلاة هى أن يتجه الإنسان فى خشوع نحو الله ونحو جلاله ، وأن يناجى هذا الجلال بقوله : الله أكبر - ليحصل فى الإنسان قيمة الوجود كله . وقيمته عندئذ : أن شيئاً واحداً فيه كله له العظمة والجلال ، وأن ماعداه تضمحل قيمته وتتضائل ... فإذا ثبتت هذه القيمة فى نفس المصل ، كانت نفسه نفساً مطمئنة ، لأنه يستبعد من المصل ، بعد أن يدرك هذه القيمة ، أن تميل نفسه وتعرضه على تحصيل شيء فى الوجود دون الله ، وليست النفس الأمارة بالسوء ، إلا تلك النفس التى تخضع الإنسان إلى غير الله فى الوجود ، وهى لا تفرق عندئذ عن الشيطان ، فى الهدف والغاية . وإذن الصلاة عبارة قصد بها أن تكون نفس المصل نفساً مطمئنة ، قصد بها أن يكون صاحب اتجاه واحد ، وعندئذ تتحقق وحدة الإنسان ، ويرتفع فوق التردد بين النفسين (دكتور محمد البهى : الدين والحضارة الإنسانية ، ص ٩٣) .

واستكرم وكان من الكافرين : وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، اتجاه الإسلام من التاريخ ، اتجاه يقوم على المذهب التحسنى ففى تزايد إقبال الأفراد والشعوب على الطاعة لإرادة الله ، تحسنت الأمور وعاش الناس سعداء والإسلام هو الذى سيفوز بالظفر فى النهاية .

يقول الفيلسوف « جوستاف جرو نيباوم » فى كتابه : « حضارة الإسلام »^(١)

« الإسلام مجتمع الله . فالله جلت قدرته هو الحقيقة الحية التى يدين لها الإسلام بوجوده : والله مركز خبرته الروحية وهدفها ، على أنه أيضا الرأس الديوى لمجتمعه ، ذلك المجتمع الذى لا يقف الله عند حد الولاية عليه بل يحكمه فعلا ، فهو السبب فى وجود الدولة ، وهو أصل وحدنها وفكرنها الأساسية الذى يجمع بين دعم الدولة وتبرير استمرارها . وهذا أمر من شأنه أن يجعل الجيش الإسلامى « جيش الله » والخزانة الإسلامية « بيت مال الله » هذا إلى أنه يضع حياة المجتمع فى مجموعها فضلا عن الحياة الخاصة لكل فرد من أعضائه تحت السلطان المباشر لقوة تشريعه وإشرافه » فالإسلام إذ يعترف إعترافاً صريحاً ، بذاتية الفرد ، وبوجوده جسداً ، وعقلاً ، وروحاً ، لا يمنحه هذا الاعتراف إلا وهو كائن اجتماعى ، أى يعيش فى مجتمع ، ويتفاعل معه ، فلا يكاد أن يلتقى الإسلام بالفرد إلا وهو داخل جسد إجماعى ، يتنفس فيه ، ويتحرك داخل دائرته .

يقول الأستاذ هارولد ب . سمث : « الإنسان »^(٢) مدين بوجوده لله . فهو مخلوق من مادة سواها الله ، وهو مخلوق حى ، لأنه مخلوق من الدم ، والدم ، كما هو الشأن فى كل التفكير السامى ، يمثل مبدأ الحياة ، وهو تلقائى ومسير لنفسه إلى درجة ما : وقد ميز الإنسان من سائر الأشكال الحية بأن الله ينفخ فيه من روحه . ولما كان الإنسان مخلوقاً ، ومخلوقاً من تراب أو من طين ، فلا يمكن أن يظن أنه مساو لله فى أى وجه من الوجوه ، كما لا يستطيع هو نفسه أن يجروء على مناهضة السلطان الإلهى : والإنسان — باعتبار ما — من الأرض ، فهو أرضى ومخلوق غير مستقل . إلا أن روح الله التى نفخت فيه تفصله عن سائر المخلوقات غير المستقلة ، وتفضله عليهم ، وتهب له علاقة فريدة بخالقه . إنه كائن قادر على السلوك العقلى ، والحكم على الأشياء ، والتقدير الإرادى ، والاختبار الأخلاقى . والقرآن يدعم هذه الحقيقة الروحية بتقريره أن الله قد خلق الإنسان ليكون خليفته فى الأرض . وقد أقيم الإنسان على الأرض ليسيطر على سائر المخلوقات التى جعلت خاضعة لإرادته » .

(١) ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص ١٨٣ .

(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، مقال ، مذهب الإسلام فى الإنسان وأثره فى المذهب فى السياسة الإجتماعية والنظرية السياسية للاستاد هارولد ب . سمث . جمع وتقديم محمد خلف الله ، ص ٥٧ .

الإنسان جسد وروح . . .

وقد أدرك الإسلام أنه بدون الخبز لا يحيا الإنسان ، ولكنه أدرك أيضاً وبنفس المستوى أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

ولذلك فإن الإسلام لا يقتصر على مجرد العقيدة ، وإنما جاء أيضاً شريعة وتنظيماً سياسياً وإجتماعياً واقتصادياً للمجتمع . فالحياة لا يمكن أن تستقيم بدون عقيدة توجهها وشريعة تنظمها ، بل لا يمكن أن تستقيم العقيدة وتسمو الأخلاق ، إذا لم يطمئن الإنسان على يومه وغده . فالعقيدة والشريعة في الإسلام يكمل كل منهما الآخر ، ولا يقوم أحدهما بدون الآخر .

وفي القرآن المجيد ، آيات تضع القواعد لتنظيم علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وبالمجتمع على أسس كفيلة بتوطيد الحق والعدل والمساواة والحرية والإخاء ، وأن يستمتع بالطيبات من الرزق .

وقد فكر بعض صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم في نفص اليد من الدنيا والتسك والتخلي عن اللذائذ والمتع الحلال والنساء وطيب المأكول والمشرب والتكسب والانقطاع للعبادة . وتعاهدوا على ذلك ووثقوا عهدهم بالإيمان ، فبلغ ذلك الرسول الكريم فكرهه . ونزل فصل قرآني في الحادث نهى فيه المسلمون عن تحريم طيبات الله على أنفسهم ، وأمر بالتمتع برزق الله الطيب الحلال ، ونبه عليهم بأن الله لا يؤاخذهم باللغو في أيمانهم في سبيل أمر ، فيه خير وحق ، وعلمهم كيف يكفرون عن أيمانهم التي ليست من هذا القبيل ليعودوا إلى ما حرموه بها على أنفسهم ، وبالتالي تضمن الفصل معنى من معاني الاستنكار والكراهية^(١) .

يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون . لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم وأحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون »^(٢) .

وقال جل شأنه :

« فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »^(٣) ،

(١) محمد عزه دروزة : الدستور القرآني ص ٢٢ .

(٢) سورة المائدة : ٨٧ - ٨٩ .

(٣) يقول الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير هذه الآيات : « فليعلم أن يعبدوا رب هذا البيت الذي حماه ، ويمكن منزلته في النفوس وقد أطعمهم بذلك ، وأوسع لهم من الرزق ، ولولا ذلك لكانوا في جوع وضئك عيش .

فأساس العادة في الإسلام والسبيل إليها هو تأمين الناس في حياتهم المعيشة .
وروى القرآن سير الأنبياء والرسل ، رواد الحياة الروحية الذين ارتادوا للأمام الطريق إلى الله ، وكانوا في الوقت نفسه روادا في طريق العمل المادى .
فقد كان « نوح » رائدا في صناعة السفن ، حينما صنع سفينة بوحي من الله لبحمل فيها من آمن معه من قومه ، ومن كل حيوان زوجين اثنين ، لينجوا من الطوفان .
وكان أدريس عالما فلكيا ، وهو أول من خط بالقلم ، وأول من لبس المخيط .
وكان « إبراهيم » وابنه « اسما عيل » بتقنان صناعة البناء ، وبذلك رفعا قواعد البيت الحرام في مكة .
وكان « يوسف » رائدا من رواد الاقتصاد في مصر ، فحماها وما حولها من الآفاليق من خطر المجاعة « قال اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » .
وكان « موسى » قويا أميناً مكنته قوته وأمانته من أن يدفع عن بني قومه ، وأن يساعد ابنتى « شعيب » على سقى قطيعهما ، مما رشحه لزواج إحداهما والعمل عند أبيهما .
وكان « داود » وابنه « سليمان » رائدين في الصناعة يصنع أولهما الدروع السابغات وبأكل من عمل يده ، ويشرف ثانيهما على كثير من الصناعات وبسخر في سبيل ذلك قوى الطبيعة الظاهرة والخفية .
وكان العلم والخلق والعقل سبب اختيار الله لبعض البشر ، فقد اصطفى « طالوت » ملكاً على اليهود في ظرف من ظروفهم العصبية ، وقد رشحه لذلك ما أوتى من بسطة في العلم والجسم : « قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم » .
وكان « المسيح » يطلب الأجسام ويشفى الناس من الأمراض باذن الله .

وكان « محمد » يرعى الغنم ، ويتاجر ، ويحارب دفاعاً عن الحق الذى جاء به من عند الله .
فالخاتمة المادية خلقة بأن نعبرها العناية التامة الجديرة بمكانة المادة في ملكوت الله كما اعارها هو نفسه إذ جعلها مجالى لظهور علمه وقدرته وحكمته وفنون إبداعه في الخلق ما شاء . وإذ جعل رواد الدعوة إلى معرفته والإيمان به ، والتعبد له رواداً في الوقت ذاته للعمل في المادة وتدبيرها وتصنيعها والانتفاع بها^(١)

« وآمهم » من التمدى وتطاول الأيدي إلى أموالهم وأرواحهم . ولولا ذلك لأخذهم الخوف من كل مكان . فاذا كانوا يعرفون أن هذا كله إنما هو فضل رب هذا البيت فلم يتوسلون إليه بتمتاع غيره وتوسيط سواه عنده ، مع أنه لأفضل لأحد من يوسعون فيه في شيء من النعمة التي هم فيها : نعمة الأمن ، وهي أكبر نعمة ، ونعمة الرزق وكفاية الحاجة . من الحق أن يفرده بالتعظيم ويخصوه بالإخلاص » (تفسير جزء عم طبعة دار الشعب)
(١) عبد المنعم محمد خلاف : المادية الإسلامية وأبعادها ص ١٦ .

إن المشكلة الاقتصادية في نظر الإسلام ليس سببها قلة الموارد الطبيعية مما قد يتعذر التغلب عليه ،
وليس نابعه من عدم بلوغ التطور عايته ، مما قد يستتبع إفرار الظلم الإجتماعي عبر المراحل التاريخية
السابقة . وإنما تتجسد هذه المشكلة في ظلم الإنسان بسوء توزيع الثروة إلى جانب كفرانه للنعمة بإهماله
استثمار الطبيعة وموقفه السلبي منها ، أو عدم استغلال جميع المصادر التي تفضل الله جل جلاله بها عليه
استغلالاً تاماً .

عالج الإسلام كفران النعمة بما وضع للنتاج والتداول من أحكام ، كما كفل نحو الظلم بما وضعه
للتوزيع والاستهلاك من تعاليم ونظم .

يشدد الإسلام على وجوب العمل :

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه »

وقال عليه الصلاة والسلام :

— « ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده ، ، وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده »

— وقال صلى الله عليه وسلم :

— « من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له يوم القيامة » .

اعتبر الإسلام السعي على الرزق وخدمة المجتمع أفضل صروب العبادة ، فقد ذكر للرسول الأعظم
رجل كثير العبادة فسأل من يقوم به ؟

قالوا : أخوه .

قال : أخوه أعبد منه .

وأراد أحد الصحابة الخلوة والاعتكاف لذكر الله سبحانه وتعالى ، فقال له الرسول : .

— « لا تفعل فان مقام أحدكم في سبيل الله — أي في سبيل المجتمع — أفضل من صلاته في بيته سبعين
عاماً » .

ولخص عمر بن الخطاب رضي الله عنه نظرة الإسلام إلى العمل والإنتاج فقال :

— « والله لنن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد يوم القيامة »

إن الإسلام يعتبر العمل فرضاً واجباً على القادرين ، وأن على الدولة أن توفره لكل مواطن ، وبذلك
تنتفي البطالة التي هي تبيد للقوة البشرية وهي من أعظم الموارد التي خلقها الله جل شأنه .

قال الله تعالى :

« فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنتك لا تظلماً فيها ولا تضحى^(١) » .

في هذه الآيات الكريمة قضايا هامة^(٢) ، منها :

١ - نخبرنا الله جل شأنه بأنه نبه آدم ، إلى أن الشيطان عدوله ولزوجته وحلده من الاستماع إليه حتى لا يترتب على الأخذ بتوصيات الشيطان أن يفقدا ما كانا فيه من رغد العيش بالجنة .

٢ - نبه الله عبده آدم بالقول الصريح الواضح ، إلى أنه إن أخرج من الجنة فانه يشقى ، وبعبارة أخرى ربط النص القرآني بين ما عدا ، الجنة والشقاء ..

٣ - عرف آدم ، مما علمه ربه بهذا النص ، أنه ما بقي في الجنة فانه لا يعرف الجوع والعري والظلم والضحى^(٣) ، تم ربط الشقاء بما يترتب حتماً على فقد هذه الضمانات : ومن ثم عرف آدم أنه - بمفهوم المخالفة - يكون أسيراً خارج الجنة لحصول أربع هي الجوع والعري ، والظلم والضحى ، كما أنبأ الله عبده آدم بأن شقائه سيكون بسبب ضعفه أمام هذه الحصول وتحكمها فيه .

وهذه الحصول التي أنذر آدم بأنه سيشقى بسببها ، هي ما يسميها علم الاقتصاد : « الحاجات الأساسية للإنسان ، مما تشبعه الثروة الاقتصادية » .

ويتضح إعجاز القرآن حين نلاحظ غباب النص على طيبة أهم من أية طيبة أخرى تصلح لإشباع هذه الحاجات ، ونعني بها الهواء الذي يتنفسه الإنسان ، وبدونه يفقد الحياة ، لم يرد لها ذكر صريح ولا ضمنى ، لأنه لا شقاء في سبيل الحصول على الهواء : إذ رحمة الله قضت بأن يكون الهواء طيبة مجانية تحفظ على الإنسان والحيوان والنبات حياته وتمده بكثير من العناصر اللازمة للنمو ، بل اللازمة للبقاء . ومعلوم أن الإنسان يحتاج في دقائق معدودات إذا حرم من الهواء ، ويحتمل الحرمان من الماء أياماً ، كما يحتمل الحرمان من الغذاء بضعة أشهر قبل أن يموت جوعاً ، ويحتمل الضحى طويلاً وقد يصبر عليه حياته كلها ولا يهلك ، ومع ذلك خلا النص القرآني من ذكر الهواء أو ما يشير إليه ، لأن الحصول الأربع مرتبطة بالشقاء في سبيل الحصول عليها .

وحين تقدم علم الاقتصاد انتهى إلى التمييز بين الطيبات المجانية وفصل بينها وبين الثروة الاقتصادية التي تكون محلاً للمبادلات ومن ثم يكون لها ثمن ، هذا في ناحية ، وفي ناحية أخرى ثروة اقتصادية لها

(١) سورة طه : ١١٧ - ١١٩ ،

(٢) الدكتور عيسى عبيد إبراهيم ، مقال الاسلام والاشرافية ، في كتاب « الاسلام دين الاشرافية » .

(٣) الضحى أى حر الضحى الالافح .

ندرة نسبية ولا يحصل الإنسان على حاجته منها إلا بالبذل أو الشقاء : والشقاء إجهاد ، والعمل إجهاد سواء بسواء كذلك يتضح من دلائل إعجاز القرآن إذا لاحظنا أن خطاب آدم يرجع إلى تاريخ لم يصل العلم لتحديده . . وأنه قبل الإسلام وبعده كانت عهود يتوافر فيها الماء بحيث أنه كان طيبة مجانية لا تكاد تختلف عن الهواء في كثير من العهود ، ولا يزال كذلك في بعض البقاع : ولكن هذه الخصال التي تبه إليها آدم تصف حاله وحال ذريته من بعده في شمول يمتد إلى المجتمع البدائي والمجتمع المتحضر على السواء ، ولئن كان السعي إلى النبع أو مجرى الماء على سطح الأرض ، وحمل الماء إلى المأوى ، ينطوى على مشقة قليلة ، فإن شراء الماء المصنّى مرفوعاً بالطلسمات أو مدفوعاً في الأنابيب والقنوات ، يتطلب مزيداً من التضحية والبذل ، أو مزيداً من الشقاء .

ومن ثم جاءت هذه الخصال الأربع التي خوطب آدم في شأنها واصفه لحاله وحال ذريته في كل أدوار التاريخ من بدء الخليقة .

وقد مضت حقب أعجزت علماء الجيولوجيا عن حسابها ، والخصال الأربع على حالها ، لا زيادة أو نقص ، وهذا حصر دقيق وخالد لا تدانيه أقوال البشر ..

وجملة القول إذن أن السبيل — في الحياة الأولى — لمواجهة هذه الخصال الأربع ، أو لإشباع هذه الحاجات الأساسية (بلغة عصرنا الحاضر) هي الشقاء : أو العمل .

٤ — في الآيات الكريمة لفظة لغوية تحمل من المعاني كثيراً من أصول الاجتماع والاقتصاد وذلك :

إفراد الخطاب إلى آدم بعد الثنية في قوله تعالى : « : إن هذا عدو لك ولزوجك فلا تخرجنكما من الجنة » وإلى هنا الخطاب بالثنية : أما اللفظة التالية مباشرة «فتشتي» بأفراد الخطاب لآدم وحده : فكأنما يعلمنا الله تعالى أننا علم آدم أن الشقاء في تدبير المعاش هو من شأن الرجل ، وبحسب المرأة أنها تحمل ذريته وهنا على وهن .

٥ — الشقاء الوارد في الآية الكريمة ، هو شقاء البدن دون النفس وهذا يتفق تماماً مع قول الاقتصاديين : « العمل هو الإجهاد العضلي أو الذهني . . . » وشقاء البدن في سبيل تدبير المعاش هو حكم عام لا نستثنى منه الفرد لسبب أو لآخر ، فلا عبرة بأن يكون الإنسان رسولا من عند الله ، أو خليفة أو حاكما على جماعة أو وجيهاً في قومه ، أو فردا من عامة الناس . فالحكم عام . أما شقاء النفس ففهوم آخر . . للإنسان منه منجاة . ودليل ذلك من سورة طه أيضاً في قوله جل شأنه : « فاما يأتينكم منى هدى فمن أتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا . »

إذن شقاء الروح وعذاب النفس وضمك المعيشة أمور ترتبط بالإعراض عن ذكر الله ورفض الالتزام بحكمه .

ومن ثم يجتمع شقاء البدن واطمئنان النفس على أساس أن السعي في سبيل المعاش وإن عاد على الآدى بالإجهاد ، لا شأن له بالمعيشة الراضية ، التي تتمشى في إقبال الفرد على عمله — وإن كان مجهودا بنفس مطمئنة ، لأن العمل من سنن الحياة .

كما أن القعود عن كسب الرزق استنادا إلى ثروة خاصة أو نعيم موروث لا يتنافى مع المعيشة الضنك التي تشقى بها النفس .

وقد لاحظ علماء الاجتماع أن حالات الانتحار تزيد في المجتمعات الآخذة بالخصارة المادية وما توفره من نعيم مادي . وقد عجب هؤلاء العلماء لضعف الصلة « نسبياً » بين رضا النفس وبين النعيم المادي . وفي النص القرآني فصل واضح بين شقاء البدن من أجل تدبير المعاش وبين شقاء النفس الذي يبرأ منه كل من أقبل على ذكر الله واتبع هدايته .

وقد يذهب الظن إلى أن الحديث مثلاً يقرر : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الهم بالمعاش » وأن في هذا النص تسليماً بأن السعي من أجل الرزق يشوبه الهم في حالات .

ويرد على ذلك بأن الهم هنا من الإهتمام ، ولا يكون من البؤس والشقاء ، ولئن ضاقت السبل بالكادح المؤمن حتى يشعر بالهم يخالط نفسه . . . فهذه حال موقوته لا تورث اليأس أو الضيق مما يجري به الأقدار . وكل ذلك بشرط واحد ، هو أن يبذل الفرد غاية جهده وهو غير مطالب بما وراء ذلك .

وأياماً كان التأويل الذي نحمل عليه عبارات غير واردة في كتاب الله : فإن النص القرآني سيبيح فاصلاً بين شقاء وشقاء . فأما الأول فهو الإجهاد وتحمل المشقات إلى حد أبعد مدى تطبيقه قدرة الإنسان في سبيل الرزق ، وهذا هو شقاء البدن وهو بعينه العمل وما فيه من أخطار المهنة واستنفاد الطاقة البدنية ، وأما الآخر فهو شقاء النفس ولا يكون إلا لمن أعرض عن ذكر الله ، وإن كان له أموال قارون » .

أوجب الإسلام اتقان العمل والإنتاج ، واعتبر ذلك أمانة ومسئولية : يقول الله تعالى :
« ولتسئلن عما تعلمون » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

وفي الوقت نفسه يجب أن يكون الأجر على قدر العمل ، يقول الله تعالى في سورة التوبة :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها » .

والمقصود بالعاملين عليها أنهم السعاة في قبضها من أهلها ووضعها في مستحقها ، ويعطون ذلك سواء أكانوا أغنياء أو فقراء .

يقول الطبري : ويعطى العامل عليها على قدر عملاته وأجر مثله ، وكان العامل عليها إتما يعطى على عمله لا على الحاجة التي لا تزول بالعطية وإنما تزول بالعزل . وهذا المعنى الذى توحى به الآيات يستبعد النزول بأجر العامل إلى دون المستوى اللائق أعنى المستوى الذى يكفل له حياة كريمة ، كذلك يستبعد اقتطاع جزء من الأجر ، بطريقة أو أخرى ، إلا إذا كان الاقتطاع عقوبة بسبب إهمال أو تراخ أو تقصير بما يسيء إلى العمل^(١) .

وقد بعرض على تطبيق هذا النظام الإسلامى بأن من العمال من لا يؤمنون بالإسلام ، وإذن فقد ييخسهم هذا النظام حقهم . والرد على ذلك أن العقائد — فى ظل الإسلام — حرة ، والتسامح والرفق بغير المسلمين واجب موصى به .

— « لا ينهاكم الله عن الدين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين »^(٢) .

واختلاف الأديان أو الألوان أو الألسنة لا يهدر — فى الإسلام — حق المساواة ، ولا يعطل تحقيق العدالة الإجتماعية .

يقول الرسول :

— « ألا من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته ، أو انتقصه ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة » .

والمساواة بين الأديان والمسلمين مقررة ، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم .

يقول الشهاب القرافى فى « الفروق » :

« إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقاً علينا ، لأنهم فى جوارنا ، وفى خفارتنا ، وفى ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ودين الإسلام . فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فى عرض أحدهم ، أو أى نوع من أنواع الأذى ، أو أعان على ذلك ، فقد ضيع ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة دين الإسلام » .

وأوجب الإسلام تنوع الإنتاج بحيث يشمل كافة الحاجات البشرية ، وذلك أن القاعدة فى الإسلام أن كل مالا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا ، فتعلمه ووجوده من فروض الكفاية ، ومن ذلك ، أصول الصناعات كالفلاحة والحياكة ، ومالا يقوم به الأفراد من النشاط الاقتصادى كالصناعات الثقيلة والمرافق

(١) الدكتور راشد البراوى : التفسير القرآنى للتاريخ ص ٥١ .

(٢) سورة الممتحنة : ٨ .

العامّة يجب على الدولة أن تقوم به : ومعنى أنه من فروض الكفاية ، أنه إذا لم يتحقق في الأمة « أتمت الأمة كلها ، وأن الإثم لا يرتفع عنها إلا إذا قامت كل طائفة بنوع من هذه الأنواع .

وليس من ريب في أن أساس هذه الفرضية ، هو العمل على تحقيق المبدأ الإسلامى الذى يوجه الإسلام على أهله ، وهو مبدأ استقلال الجماعة الإسلامية في تحقيق ما تحتاج إليه من الضروريات والحاجات فيما بينها ، وبيد أبنائها دون أن تمد يدها إلى غيرها من الأمم ^(١) .

تكلم القرآن عن الزراعة وضرورتها :

— « فليُنظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شققا فأنبثنا فيها حبا وعنباً وقضباً ^(٢) وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم »
« سورة عبس ٢٤ — ٣٢ » .

قال الله تعالى :

— « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » « سورة الأنعام : ٩٩ » .

وقال تعالى :

— « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » « سورة الأنعام ١٤١ » .

وقال تعالى :

— « والأرض وضعها للأنعام ^(٣) ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان » « سورة الرحمن : ١٠ — ١٢ » .

(١) الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : منبج القرآن في بناء المجتمع ص ٩٥ .

(٢) القضب : الرطب وهو ما أكل من النبات غصا ، وسى قضباً لأنه يقضب أى يقطع سرة بعد أخرى .

قلبا : جمع غلباء أى ضخمة عظيمة . وعظم الحدائق بكثرة أشجارها والتفافها ، وقد يكون العظم نفس الأشجار بأن تكون كل شجرة غليظة عظيمة .

وذكر الحدائق بوصفها ذلك لبيان أن النعمة فيها تشتمل عليه الحدائق برمتها . فالنعمة في الأشجار بحملتها لا في ثمرها خاصة . فمن أعشاشها ما ينفع للاحراق في تدبير الطعام ، ومن أوراقها ما تأكله الحيوانات ، ومن النعمة في الحدائق أنواع النبات ما يأكله الناس وترعاه الماشية ، وإنما تدخل ثمار الأشجار في الفاكهة تبعاً . ثم خصص الفاكهة بالذكر معه ذلك لأنها ما يتمتع به الإنسان خاصة . « الأستاذ الشيخ محمد عبده : تفسير جزء عم » .

(٣) الأنعام : قال ابن عباس هو كل ما على وجه الأرض ، مما فيه روح .

وقال تعالى :

— « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد^(١) ، والنخل باسقات لها طامع نضيد^(٢) »
« سورة ق : ٩ - ١٠ »

وإذا كان الله جل شأنه ينسب إلى ذاته العلية ، إخراج التمار ، وإنبات النبات ، للتدليل على عظمته سبحانه وتعالى إلا أنه مع ذلك قد ذكر عمل الإنسان باعتباره أحد عناصر الإنتاج في قوله تعالى :

— « وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . » سورة يس : ٣٤ - ٣٥ .

ويحدث القرآن عن الصناعة ، والصناعة أقوى العمد التي تقوم عليها الحضارات :

قال تعالى :

— « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » « سورة الحديد : ٢٥ » .

ذكر الله جل شأنه للحديد فائدتين :

الأولى : أن فيه البأس والشدة والنجابة ، فألات الحروب جميعها منه أو تحتاج إليه ، وبخاصة إذا أريد بالحديد جنس المعادن ، كما عليه بعض المفسرين ، فنه الرماح والسيوف والدروع قدما ، ومنه المدافع والقنابل والطائرات والدبابات والسيارات وسفن البحر على اختلاف أنواعها ، وعلى الإجمال فقد كشف العصر الحديث عن ذلك البأس بما لا يدع مجالا للبحث .

والفائدة الثانية : أن فيه منافع للناس ، وذلك واضح ، فما من شيء من ضرورات الحياة أو كمالياتها إلا وللحديد دخل فيه ، فهذه سفن الملاحة ، وطرق السكة الحديدية وما يتبعها من قاطرات وعربات ، وأدوات الحرث والطحن والغزل والنسيج ، وآلات البناء ومواده ، وسيارات الركوب ، وآلات الطباعة والطباخة والأكل ، وأدوات الزينة ، كل ذلك من الحديد ، أو يرجع إليه ، أو يحتاج إليه^(٣) وأشار القرآن إلى صناعة الملابس :

— « قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا » « سورة الأعراف : ٢٦ »

وإلى صناعة القصور والمباني :

الأكمام : أي الأغلفة التي تكون على الثمار قبل ظهورها .

العصف : هو الثين الذي تأكله الدواب ، والرياح تعصفه بسهولة .

الريحان : قيل له رائحة طيبة . (المصنف المفسر ، الشيخ عبد الجليل عيسى)

(١) الحصيد : أي الزرع المحصود .

باسقات : أي طويلات .

طامع : المراد به هنا الثمار التي تحمل البليح . نضيد : أي مرتب . بعضه فوق بعض .

(٢) الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي : حديث ومضام ، تفسير سورة الحديد .

— « قبل لها ادخلي الصرح ، فلما رآته حسسته لجة ، وكشفت عن ساقها ، قال إنه صرح ممرد من فوارير » « سورة النمل : ٤٤ » .

وعن صناعة الأسلحة قال تعالى في سورة سبأ : « ١٠ — ١١ » ؛

— « وألنا له الحديد أن أعمل سافغات وقدر في السرد »^(١) .

وقال تعالى في سورة الأنبياء :

— « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم » بقصد صناعة الدروع .

وعن صناعة التعدين قال تعالى في سورة الرعد

— « ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع ربد منله »^(٢)

وعن صناعة السفن قال تعالى في سورة هود :

— « وأصنع الفلك بأعبتنا ووحيا » .

وقال تعالى في سورة المؤمنون :

— « فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعبتنا ووحينا » .

وعن صناعة الصيد قال تعالى في سورة المائدة :

— « يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بئس ما من الصيد تناله أيديكم ورماحكم » ،

كما قال جل شأنه في نفس السورة :

— « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللعبادة » .

وقال تعالى في سورة النحل «

— « لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها » .

(١) سافغات : السابغ هو التام الكامل والمراد دروعا واقيات .

قدر : فعل أمر من التقدير وهو جعل الشيء على قدر الحاجة .
السرد : أي النسيج .

(٢) ومما يوقدون : أي وبعض المعادن التي يوقدون عليها .

ابتغاء حلية : أي طلب ما تنحل به من الذهب والفضة .

أو متاع : هو ما يتمتع به الناس : أي ينتفعون به كالقدور ، ، والمحاريث وآلات المصانع ، من الحديد أو النحاس أو غيرها .
ربد مثله : أي ان المعادن ريدا أيضا . لكن ربدها هو ما يتخالفها من الأشياء الغريبة المصعقة لقيمها . فانها تملو سطحها عند غليانها
« المصحف المفسر »

وقال تعالى في سورة « فاطر » .

— « ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها »

وعن صناعة الجلود قال تعالى في سورة « النحل » .

— « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم »

وعن التجارة ، قال الله عز وجل :

— « لا يلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من

جوع وآمنهم من خوف » .

وقال تعالى في سورة البقرة :

— « إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم »

وقال جل شأنه في سورة النساء :

— « إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم »

وتفترض التجارة وجود الأسواق ، وقد ذكرها الله تعالى في سورة الفرقان :

— « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » .

وتفتقر التجارة إلى وجود الطرق للوصول إلى الأسواق ، وإلى نظام وسائل النقل ، وإلى نظام

للموازين والمكاييل كما تفتقر إلى عملة يمين بها تثمين البضائع ودفع الثمن .

وعن طرق المواصلات قال تعالى في سورة طه :

— « الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً » .

وقال جل شأنه في سورة الزخرف :

— « الذي جعل لكم الأرض مهدياً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون » .

هذا عن طرق المواصلات البرية ، أما عن المواصلات البحرية فقد قال تعالى في سورة الجاثية :

— « الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره » .

وقال تعالى في سورة غافر :

— « الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها وتأكلون . ولكم فيها منافع وتبلغوا عليها حاجة

في صدوركم وعليها وعلى الفلك ت حملون » .

وعن نظام الموازين والمكاييل قال تعالى في سورة هود :

— « قال يا قوم اعدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير ، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعتوا في الأرض مفسدين . »

وقال تعالى في سورة الرحمن :

— « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »

وعن نظام النقود قال تعالى في سورة النساء :

— « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » (قيل إن القنطار هو ألف دينار) .

وقال جل شأنه في نفس السورة :

— « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما » .

وفي هذه الآية ذكر الله تعالى الدينار ، كما ذكر سبحانه الدرهم في سورة يوسف فقال : .

— « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » .

وقد نهى الإسلام عن الإنتاج الضار كأنتاج الخمر ، وقربة الخنازير ، بقول الله تعالى :

— « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » سورة المائدة ٩٠ .

ويقول الرسول الكريم :

— « لعن الله الخمر وشاربها وساقها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها ، وحاملها والمحمولة إليه »

وقال تعالى :

— « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » سورة البقرة : ١٧٢ - ١٧٣ .

كما نهى عن التعامل بالربا . يقول الله جل شأنه :

— « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » « سورة البقرة ٢٧٥ »

وقال تعالى :

— « وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » « سورة الروم : ٣٩ » .

كما نهى عن الطمع والتحابل وأكل حقوق الناس . قال تعالى :

— « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا^(١) بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » « سورة البقرة : ١٨٨ »

وقال جل شأنه :

— « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا ، وسيصلون سعيراً » « سورة النساء : ١٠ » .

كما نهى عن احتكار السلع . بقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « من احتكر حكرة يريد أن يغلب بها على المسلمين فهو خاطيء »

ويقول عليه الصلاة والسلام :

— « الجالب في سوقنا كالمجاهد في سبيل الله ، والمحتكر في سوقنا كالملاحد في كتاب الله » .

ويقول الرسول :

— « من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغلبه عليهم كان حقاً على الله أن يقعه بعظم من النار (أى مكان عظيم منها) يوم القيامة » .

ومن حق الحاكم أن يقسر المحتكرين على بيع ما عندهم بقبضته ما دام الناس محتاجين إليه .

ونهى الإسلام عن اكتناز المال وحبسه عن التداول . يقول الله تعالى :

— « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحصى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنتم لأنفسكم فدوقوا ما كنتم تكنزون » « سورة التوبة : ٣٤ - ٣٥ » .

وأرشد إلى أن الضن بالأموال عن أداء الواجبات ، وإقامة المصالح ، إلقاء بالنفس في التهلكة .

يقول الله تعالى :

— « وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

(١) ندلوا بها : المراد تدفعوها رشوة .

وقال عز من قائل :

— « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتُمون ما آتاهم الله من فضله »

ويقول الرسول في التحذير من الشح :

— « إياكم والشح فانما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا » .

ويقول :

— « اتقوا الشح ، فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسكفوا دماءهم ويستحلوا محارمهم »
إن البخل خلق يمنع صاحبه من العطاء ، ويجعله قانصاً على ما معه ، ممسكاً به ، حريصاً عليه ، ومن شأنه أن يفسد خلق صاحبه ، وأن يجعله قاصراً عن التطاول والسمو إلى أية منزلة فاضلة ، فهو أناني أثر منكمش ليست له في العادة ميول الإجتماعي ، وإنما هو نفور من الناس ، وحريص على أن يظل منطقياً على نفسه ، مشغولاً بجمع ماله ، يخشى أن يردد عليه الناس أو يردد عليهم ، فيفجعه في شيء من ماله الذي هو شقيق روحه وقصارى همته .

هذا صنف من الناس تبلى به المجتمعات فتكون عليها وبالا ، ويكون على نفسه وبالا ، وخلق هذا هو مظهر من مظاهر المجتمعات المفككة التي غلبت عليها المادية والمصالح الشخصية ، فترى كل فرد من أفرادها لا هم له إلا أن يجمع ما استطاع من المال والمنافع ، وأن يحجز ما استطاع لديه فلا يبذله ولا يجود به ، وكلما كثر أمثال هؤلاء في المجتمع ، عجل عليه الفساد ، والانحلال ، ثم أدركه الفناء والزوال ، وليس الزوال والفناء دائماً حسيين معنى الانقراض وضياع الأشخاص ولكن قد يكون الزوال والفناء معنويين ، فكم من أمم تعيش ، وكم من مجتمعات تتحرك وتنشط ، ولكنها في الواقع ميتة ، قد أدركها من الموت الأدبي ما هو أشد من الموت الحسي ، ثم هذا الصنف عادة ، وهو البخلاء المانعون ، يأمرون الناس بالبخل ، فهم يريدون البخل مبدأ في المجتمع (١) .

وفي القرآن الكريم ذم للذين لا يحضون على طعام المسكين ، قد أخرج على صورة تدل على أنه لون من ألوان التكذيب بيوم الدين . وذلك حيث يقول الله عز وجل :

— « أرأيت الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين »

وقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على الإنتاج وتعمير الدنيا ، يقول الرسول :

— « إذا قامت الساعة ، وفي يد أحدكم فسيلة — أى شتلة — فاستطاع ألا تقوم حتى يغرستها فله بذلك

أجر » .

(١) الأستاذ الشيخ محمد محمد المدي : المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء ص ٦٤ .

وقد اعتبر الإسلام من عوامل الإنتاج ما يلي :

— العمل ويشمل عمل العامل (وهو المجهود العضلي كعمل العامل والفلاح ، أو الذهني كعمل المحامي والطبيب) الذى يبذله الإنسان لخلق منفعة اقتصادية كما يشمل عمل المنظم — وهو الذى يوجه العملية الإنتاجية ويوائم بين عناصر الإنتاج المختلفة مما يحقق زيادة الإنتاج .

٢ — رأس المال ويشمل الطبيعة (أى الثروات التى ليس للإنسان دخل فى وجودها كالأرض والماء والحيوان والمناجم . . .) كما يشمل رأس المال بمعناه المعروف أى الثروات الناتجة عن العمل والطبيعة ، والى لا تصلح لأشباع حاجات الناس مباشرة وإنما تستخدم لإنتاج مواد أخرى ضالحة للإشباع المباشر ، ومثال ذلك رؤوس الأموال السائلة كالنقود ، ورؤوس الأموال العينية كالمباني والآلات .

وبرى بعض الكتاب^(١) أن رأس المال الذى لا يشارك عنصر العمل فى الإنتاج متحملاً غرمه ، لا يعتبر فى هذه الحالة من عوامل الإنتاج ، وهذا الرأى مبنى على إنكار الفائدة باعتبارها من الربا المحرم .

ويرى فريق ثان^(٢) أن الإسلام يعتبر رأس المال وفقاً للتعريف الاقتصادي الحدث أحد عوامل أو عناصر الانتاج الرئيسية وهذا لا علاقة له بموضوع العائد الذى يشكل مقولة اقتصادية معبته وأن تحريم الفائدة سواء كان مطاقاً أو نسبياً ، هو مسألة خلافية تتفاوت بشأنها الآراء والاجتهادات فى التفسير والتجليل .

وبرى فريق ثالث^(٣) أن القرآن حرم الربا واستمال الناس للزكاة ، لأن المقترض كثيراً ما كان فقيراً معدماً أو من النبلاء الذين يفرضون إما للحرب وإما للظهور بمظهر الجاه والقوة الظاهرة ، ولكنه لم يحرم الإحارة ولا المراحة ولا الأرباح والاستثمار ، فقد برر المتاجرة كما بررتها الأديان من قبل ، وكانت الرهون والائتمات بل والمشاركة بالتضامن والمساهمة من مبررات الاستثمار ، كذلك برر القرآن خصم الكمبيالات وضمن حق الدائن بالتعويض فما أقرض ، اذا برهن أنه وقع عليه بعض الضرر بسبب القرص ، وفد نشأ عن نظرية التعويض هذا ما يعبر عنه الاقتصاديون فى الوقت الحاضر بالفائدة وهذه النظرية تتمشى مع القروض التى تقرضها المدين نشيطاً لأحواله الانتاجية ، فالربا وحكمة تحريمه تختلف عن الفائدة وحكمه برباها^(٤) قال تعالى : (ذلك باهم قالوا إنما البيع مثل الربا) . فالبيع معاوضة

(١) الدكتور محمد شوقي الفنجري : المدخل إلى الاقتصاد الإسلامى ، ج ١ ، ص ٣٣

(٢) الدكتور راشد البراوى : التفسير القرآنى للتاريخ : ص ٦٢

(٣) الدكتور محمد فهمى هبطله : علم الاقتصاد : ص ٤٢٢ .

(٤) قال السيد محمد رشيد رضا فى « تفسير القرآن الحكيم » : « إن الربا لغة الزيادة فالشيء يربو إذا زاد على ما كان عليه ، وكان المدين يقول للدائن : احرم دينك وأزيدك على مالك » فمعاد ذلك ، فذلك هو الربا صغاراً وصغاراً ، سبب حريم الربا هو أن أولئك الذين عندهم المال واستعملوه حتى صرحت به صغاراً ، جعلوه مقصوداً لذاته وتركوا لأجل الكسب به جميع موارد الكسب الطبيعى ، فيخرج نفوسهم من الاعتدال ، ويظهر ذلك فى حر كاهم وتلميمهم فى أعمالهم .

بين شيئين ، وأما الربا الذى كانوا يأكلونه فى الجاهلية فهو زيادة عن دينهم يزيدونها عن تأخير الأجل لا تقابلها شيء ، وما يؤخذ بغير مقابل فهو من الباطل . لذلك حرم الله الربا دون البيع ، فقال جل شأنه : « وأحل الله البيع وحرم الربا » ولو كانا متساويين لما اختلف حكمهما .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١) :

« إن كل مافيه معاوضة صحيحة خالية من أشكال أموال الناس بالباطل الذى لا يقابله عوض فهو بيع حلال ، وإنما تحرم الزيادة التى يأخذها صاحب المال لأجل التأخير عن الاجل وهى لا معاوضة فيها ولا مقابل لها فهى ظلم » .

ويقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ، بعد أن بين الربا المحرم فى القرآن الكريم : « يجوز (٢) للمحتاج الاقتراض بالربح ، وإذا كان للأفراد ضرورة أو حاجة تبيح لهم هذه المعاملة ، وكان تقديرها مما يرجع إليهم وحدهم وهم مؤمنون بصيرون دينهم فإن للأمة أيضاً ضرورة أو حاجة كثيراً ماتدعو إلى الاقتراض بالربح ، فالمزارعون كما نعلم تشتد حاجتهم فى زراعتهم وإنتاجهم إلى ما يهتدون به الأرض والزراعة . والحكومة كما نعلم تشتد حاجتها إلى مصالح الأمة العامة ، وإلى ما تعد به لمكافحة الأعداء المغيرين ، والتجار تشتد حاجتهم إلى ما يستوردون به البضائع التى تحتاجها الأمة وعمرها . الأسواق .

ونرى مثل ذلك فى المصانع والمنشآت التى لا غنى لمجموع الأمة عنها وإلى يتسع بها ميدان العمل فتخفف عن كاهل الأمة وطأة العمال العاطلين .

ولا ريب أن الإسلام الذى يبنى أحكامه على قاعدة اليسر ورفع الضرر ، والعمل على العزة والتقدم وعلاج التعطل يعطى للأمة فى شخص هيئاتها وأفرادها هذا الحق ، ويبيح لها ، مادامت مواردها فى قلة — أن تقرض بالربح تحقيقاً لتلك المصالح التى لها قيام الأمة وحفظ كيانها » .

يقرر الإسلام أن المال هو مال الله ، وأن الناس جميعاً عباد الله ، والحياة التى يعملون فيها وعمرونها مال الله ، هى لله ، فكان من الضروري أن يكون المال — وإن ربط باسم شخص معين — لجميع عباد الله ، يحافظ عليه الجميع ، وينتفع به الجميع قد أرشد إلى ذلك قوله تعالى :

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » « سورة البقرة ٢٩ »

وقال جل شأنه :

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين (٣) فيه » « سورة الحديد ٧ »

ومن هنا أضاف القرآن الأموال إلى الجماعة ، وجعلها قواماً لمعاشهم :

(١) تفسير القرآن الكريم : ج ٢٣ ص ٩٦ .

(٢) كتاب « الفتاوى » ص ٣٢٦ .

(٣) يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراعى فى تفسير هذه الآية الكريمة :

— « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » « سورة البقرة ١٨٨ »

— « لا تؤثروا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً » سورة النساء ٥ : ٥
وقد جاءت تعاليم الإسلام في مجال التوزيع صريحة بأن لكل حاجته أولاً ، بقوله تعالى :

— « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » « سورة الامراء : ٢٦ »

وقوله تعالى :

— « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » « سورة الذاريات ١٩ »

وقال الرسول :

— « من ترك كلا ، فليأتني فأنا مولاه » أي من ترك ذرية ضعيفة فليأتني بصفتي رئيس الدولة فأنا مسئول عنه كفيل به .

وقال عليه السلام :

— « ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » :

وقال صلى الله عليه وسلم :

« أَمَا أَهْل عَرِصَةِ أَصْبَحَ فِيهِمْ أَمْرٌ جَائِعًا فَقَدْ يَرِثُ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ »

وقال عليه الصلاة والسلام .

— « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلّمه » —

ويعلق على الحديث الأخير الإمام ابن حزم في كتابه « المحلى » فيقول إن « من تركه يجمع ويعرى فقد أسلمه »

ويقول البلاذرى : كان عمر بن الخطاب يفرض للمولود مائتي درهم ، فاذا بلغ زاده ، وكان إذا أتى باللقيط فرض له في بيت المال ، أى فرض له رزقاً ، ثم يأخذ وليه كل شهر بقدر ما يصلحه ، ثم ينقله من سنة إلى سنة ، وكان يوصى بهم خيراً ، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال .

ويقول الإمام ابن تيمية في كتابه « السباسة الشرعية في إصلاح الراعى والرعية » في باب وجوه صرف الأموال :

« ومن المستحقين ذوو الحاجات ، فإن الفقهاء قد اختلفوا ، هل يقدمون في غير الصدقات »
من الفئء ونحوه ، على غيرهم ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره ، منهم من قال : يقدمون ، ومنهم

«طلب الله سبحانه إلى عباده الانفاق عما بأيديهم في سبيل البر، ونهبهم إلى أن الأموال التي في أيديهم ليست أموالهم على الحقيقة ، بل هي أموال الله سبحانه ، أنشأها وخلقها وعلوم الاستمتاع بها ، ومكمن من التصرف فيها ، فهم خلقاؤه ، ووكلاؤه ، وإلى أن هذه الأموال انتهت إليهم عن غيرهم ، وستنتقل عنهم إلى غيرهم ، فهم خلفاء عن قبلاهم ، وسيخلفهم من بعدهم ، وإذا كان المال مال الله تعالى وليه الأئمة فلا وجه للحرص الشديد عليه ، وخير أن يدخر الإنسان عند الله ليكون له أجره يوم الحساب»

» صحیث رمضانی - تفسیر سورۃ الحديد «

من قال : المال استحق بالإسلام ، فستكون فيه ، كما بترك الورثة في الميراث . والصحيح أنهم يقدمون ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقدم ذوى الحاجات ، كما قدمهم في مال بني النضير (١) . وقال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : « ليس أحد أحق بهذا المال من أحد ، إنما هو الرجل وسابقتة ، والرجل وغناؤه والرجل وبلاؤه ، والرجل وحاجته ، فجعلهم عمر رضى الله عنه أربعة أقسام » :

الرجل وحاجته ، قاعدة أصيلة في النظام المالى الإسلامى ، كل رجل لا يملك شيئاً ، ولا يجد عملاً ، فالدولة كفيلة ، إما بإيجاد عمل له ، أو بسد حاجته .

يقول الإمام ابن حزم في كتابه « المحلى » :

« فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان في ذلك إن لم تقم الزكوات ولا فيء المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه ومن اللباس ، للشتاء والصيف بمثل ذلك ، ويمكن يقيهم من المطر والشمس وعيون المارة » .

إن الإسلام لا يسمح بالغنى إلا بعد توفر حد الكفاية لكل مواطن ، وبعبارة أخرى أنه لا يسمح بالغنى مع وجود الفقر ، وإنما يبدأ الغنى والتفاوت فيه بعد إزالة الفقر والقضاء عليه نهائياً .

يقول الله تعالى :

— « يسألونك ماذا ينفقون قل : العفو » .

والعفو هنا كل ما زاد عن الحاجة .

قال الرسول الكريم :

— « إن الأشعرين إذا أرسلوا في الغزو أو قل طعام عيالهم في المدينة حملوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية ، فهم منى وأنا منهم » .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال .

— « أكسنى يا رسول الله » .

فقال له : أما لك جار له فضل ثوبين ؟

قال : بلى غير واحد .

قال : لا يجمع الله بينك وبينه في الجنة ،

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

(١) قسم الرسول أموالهم على المهاجرين ، ومن ذكر فقره في الأنصار (سيرة ابن هشام)

« بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، إذ جاء رجل على راحله له . قال : فجعل يصرف بصره ميمناً وشمالاً ، فقال الرسول :

— من كان معه فضل ظهر ، فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد ، فليعد به على من لا زاد له .

قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل . »
والإسلام إذ يسمح بالغنى بعد ضمان حد الكفاية ، وذلك لكل تبعاً لعمله ، فانه لا يسمح بالتفاوت الكبير في الثروة كما لا يسمح بالترف .

فالغنى والتفاوت في الثروة والدخول ليس مطلقاً في الإسلام ، بل هو مقيد بالآلا يكون التفاوت في الغنى كبيراً ، لأن الغنى الفاحش يولد البغى .
قال الله تعالى :

— « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » « سورة الشورى : ٢٧ »
ويؤدى إلى الطغيان ، يقول جل شأنه :

— « إن الإنسان لبطغى ، أن رآه استغنى » « سورة العلق ٦ — ٧ » .

ويتر الحسد في نفوس الفقراء ولعل قصة قارون أروع في تصوير هذه المعاني :

« إن قارون كان من قوم موسى فبغى ^(١) عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن دنوبهم المجرمون . فخرج على قومه في زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكُم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون . فخفضنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين آمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لنسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار ^(٢) الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين »

والغنى العريض تستأثر به فئة قليلة تعمل على الاستزادة منه باطراد وبغض النظر عن الوسائل التي تتبع في الحصول على الثروة ، إنما ترتب عليه نتيجة خطيرة ، هي انقسام المجتمع إلى طبقتين : الأولى وهي القلة ، تحتكر الثروة المادية ، أي تسيطر على وسائل الانتاج ، ومع هذه الثروة القوة الاقتصادية التي تقوم عليها القوة السياسية .

(١) بغى المراد : تكبر ، وطلب أن يكون هو صاحب الكلمة في بني اسرائيل لأنه أغنى رجل منهم .

(٢) سورة القصص : ٧٦ — ٨٣ .

أما الطبقة الثانية وتشمل الأغلبية العظمى ، فلا تملك شيئاً ويفرض عليها الاستغلال والحرمان ،
وهنا تقوم العلاقة بين الطبقتين على الشك والعداء ، وبعبارة أخرى يتولد الصراع الطبقي ويزداد
حدة مما يعصف بأمن المجتمع واستقراره (١) .

والآية التالية ذات مغزى خطير :

— « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله » ذلك أن المال يمكن أن يستخدم من
أجل عرقلة التطور والتقدم ، وفي مقاومة الدعوات إلى الإصلاح والعدل والمساواة وفي عدم الإستغلال .
وقد علمنا التاريخ أن الشعوب حين تبدأ حياة الترف ، فإن ذلك يكون إيذاناً بغروب شمسها وأقول
نجمها : قال تعالى :

— « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » سورة
الإسراء : ١٦ .

* * *

كانت الامبراطورية الرومانية قد بلغت أوج القوة والنفوذ ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات
ولكنها هبطت إلى الدرك الأسفل في الأخلاق .

بظر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض ، وكان هدفهم الاستمتاع بالحياة المترفة ، التي لا تقم
وزناً لأى مبدأ خلقى . ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليعث على شهوة الأكل ، وكانت
موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة . ويزيد من نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع
يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ولا يزالون يصارعون حتى ينخر الواحد منهم صريعاً . وقد
أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هناك شيء جدير بالعبادة فهو « القوة » ومن هنا دب
فيها الانحلال ، وتهاوت كما يتهاوى بيت من الورق .

فالترف — كما يؤكد ابن خلدون في مقدمته — جرثومة القضاء على الحضارة . ولكن ماهو حد
الترف والحرمان ؟ وما هو القصد بينهما والإعتدال ؟

ليس من شك أن حكم البيئة والعرف هو أعدل الأحكام . فنحن إذا رجعنا إلى أول نشأة الإسلام ،
وجدنا بيئة محرومة يبدو فيها الشظف والفقر ، ونجد الرسول الكريم ينهى عن لبس الحرير : « من لبس
الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » . كان هذا منطق بيئة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الإسلام
لا يدعو إلى الشظف حين لا تدعو إليه ظروف البيئة وأحوال المجتمع . ومستوى المعيشة العام للجماعة
هو الذى يحدد الترف والحرمان . وحين فتح الله الأمصار على المسلمين وزادت الثروة العامة وارتفع

(١) الدكتور راشد البراوى : التفسير القرآنى للتاريخ : ص ١٢٢ .

مستوى المعيشة ، تغيرت أزيائهم ، واستمتعوا بما لم يكونوا يستمتعون ، فلم ينكر ذلك عليهم أحد ، إلا أن يتجاوزوا المعقول : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل ماشئت ، والبس ماشئت ماخطتتك اثنتان : سرفت أو نخيلة » .

سبق أن قلنا إن الاسلام لا يعتبر الإنسان مجرد كائن حي ، بل يضعه في منزلة رفيعة هي خلافة الله على الأرض .

— « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون » سورة البقرة (٣٠) .

— « وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » سورة الحجر : ٢٨ - ٢٩ .

— « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » (سورة البقرة : ٣١ - ٣٣) .

والأسماء لا يمكن إلا أن تكون للموجودات ، وصفاتها أو خصائصها ، ولقد قدرت الملائكة هذه المنحة الإلهية (العقل والعلم) في الإنسان التي ميز الله تعالى بها آدم فسخر بواسطتها قوى الطبيعة وسيطر على مافي الأرض جميعاً ، ثم راح يغزو الفضاء ويرتاد السماء وسائر طبقات غلاف الأرض الجوى .

« لتركبن طبقاً عن طبق » (الانشقاق : ١٩) .

ولكن الشيطان نظر إلى الناحية المادية البحتة في الإنسان وقال أنه من طين : ومن قوى الشر التي تستخدمها الشياطين النزوات والشهوات : ولكن الذي يسيره هواه ، ولا يقوى على كبح جاح نفسه ، أو ينقاد للشهوات المادية ، فهو ممن فقدوا سيطرة العقل وقوة الإيمان على ما انغمس فيه من الشهوات (١) .

لقد وضع الله تعالى الإنسان في مركز ممتاز بين مخلوقاته فأصبح له الحق في أن يستخدم كل شيء في هذا العالم استخداماً كاملاً .

— « ألم تر أن الله سخر لكم مافي الأرض » « سورة الحج : ٦٥ » .

— « والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون : ولكم فيها جبال حين تريحون وحين تسرحون : وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون : وعلى الله قصد السبيل ومنها جائز ولو شاء

(١) للكتور محمد جمال الدين الفندي : الكون بين العلم والدين : ص ٨

لهذاكم أجمعين ، هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . نسيت لكم به
الزرع والربوت والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم بتفكرون . وسبح لكم الليل
والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما آتاكم فى
الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً
وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتستغوا من فضله ولعالمك تشكرون . وآلئى فى
الأرض رواسبى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن خلق
كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لَغفور رحيم » « سورة
النحل : ٥ - ١٨ » .

— « ولقد كرمنا نبي آدم وحملناه فى الر والبحر ورزقناهم من الطسات وفضلناهم على كثير
ممن خلقنا تفضيلاً » « سورة الاسراء : ٧٠ » .

تبين هذه الآيات جميعها أن كل ما هو موجود فى هذا الكون إنما هو لمنفعة الانسان ، وأن العالم
كله قد خلق له . ومركزه هذا (خلافة الله على الأرض) وسيادته على كل شئ فيها يوجب عليه
مسئولية عظيمة .

والإنسان بما وهب الله له من قوى متوازنة على أفضل ما يكون قد آلى نفسه فى أسفل ميزان الوجود
وقد أحاط به من كل جانب قوى تقم فى وجهه العقبات .

— « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » « سورة التين ٤ - ٥ »
فعلى أية حال يجد الانسان فى هذه البيئة ؟

إننا نجده كائناً قلنا ، شغلته مثله العليا إلى حد أنساه كل شئ آخر ، قادراً على إنزال الألم بنفسه فى
سبيل حبه الدائم عن آفاق جديدة يصح فيها عن نفسه ، وهو على ما فيه من نقائص أسسى من الطبيعه ،
من أحل أنه يحمل أمانة عظمى .

— « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها
الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » « سورة الأحزاب : ٧٢ »
المراد بالأمانة هنا العقل بطبيعة الحال .

« وعلى الرغم من اعتقاد بعض الناس بقدرة بعض الحيوانات على التفكير بطريقة ما فإن البشر
بفوقون فى الذكاء أكثر الحيوانات فطنة عمالين المرات .

كما أنه من الوجهة العلمية يعتبر الإنسان مخلوقاً حدث العهد بالأرض ، ولا علم لنا عن أسلافنا
الأوائل ، نظراً لقلّة ماتركوه من آثار فى العصور الأولى الى سبقت العصر الحجري المعروف ، وكذلك
قلّة ما تبقى من أجسادهم كحفريات .

وكل ما يدرسه العلماء عن الإنسان الأول إنما يستقي عن طريق تحليل الجاجم المهشمة والفكوك البالية ، وعظام الأرجل المتآكلة ، وكلها عظام نخرة ، ولكن أحدث النظريات تفضل الإنسان عن باقي الحيوانات ويجعله كائننا Creature قائماً بذاته . ويقول القرآن الكريم إن الله تعالى عندما خلق الإنسان من ماء الأرض وتراهما نفخ فيه من روحه وبذلك ميزه على سائر المخلوقات .

والحقيقة التي لا شك فيها أن الإنسان اختص بصفتين بهما ساد جميع الكائنات ، هما القدرة على الكلام ، ثم استعمال الآلة Machine .

والكلام هو الحد الفاصل بين الكائن العاقل المفكر وسائر الدواب الأخرى — والإنسان هو الكائن الوحيد الذي استخدم الآلة . وبالكلام سهل تبادل المعرفة .

وكان من الطبيعي أن يعمل الإنسان على تحسين آلاته وأسلحته تحت ضغط الظروف القاسية التي كانت تمر به مثل البرد والمطر والأعاصير وهجمات الحيوانات المفترسة والجفاف فاستخدم الملابس وبني البيوت ، ورعى الماشية ، وزرع الأرض ، ثم تعلم العلم^(١) ، ولا ريب في أن سيرة الإنسان لها أول وبداية ، ولكن لعله يكون مقدوراً عليه أن يصبح عنصراً ثابتاً في تركيب الوجود .

« أحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم بك نطفة من منى يعني . ثم كان علقة . فخلق فسوى : فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » « سورة القيامة : ٣٦ — ٤٠ » .

والإنسان إذا استهوتته القوى التي تحيط به ، فانه يقدر على تكييفها ، وتوجيهها حيث شاء ، أما إذا غلبته على أمره ، فانه قادر على أن ينشئ في أعماق نفسه عالماً أكبر ، يجد فيه منابع من السعادة والإلهام لا حد لها ولا نهاية . ومع أن نصيب الإنسان في الوجود شاق ، وحياته أوهن من بيت العنكبوت ، فليس للروح الإنسانية نظير بين جميع الحقائق في قوتها ، وفي إلهامها وفي جلالها ، ولهذا فإن الإنسان في صميم كونه هو كما صورته القرآن قوة مبدعة وروحاً متصاعدة تسمو في سيرها قدماً في حالة وجودية إلى حالة أخرى :

— « فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، لتركبن طبقاً عن طبق » « سور الانشقاق : ١٦ — ١٩ »

لقد قدر على الإنسان أن يشارك في أعماق رغبات العالم الذي يحيط به ، وأن يكيف مصير نفسه ومصير العالم كذلك ، تارة بهيئة نفسه لقوى الكون ، وتارة أخرى يبذل مافي وسعه لتسخير هذه القوى لأغراضه ومراميه .

وفي هذا المنهج من التغرر التقدي بكون الله في عون الإنسان على شريطة أن يبدأ هو بتغيير ما في نفسه ،

(١) الدكتور محمد جمال الدين الفندى : الكون بين العلم والدين : ص ١٢٠ .

— « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « سورة الرعد : ١١ »

فلذا لم ينهض الإنسان إلى العمل ، ولم يبعث مافي أعماق كيانه من غنى ، وكف عن الشعور بباعث من نفسه إلى حياة أرقى ، أصبحت روحه جامدة جمود الحجر ، وهوى إلى حضيض المادة الميتة . على أن وجود الإنسان وتقدمه الروحي يتوقفان على إحكام العلاقات بينه وبين الحقيقة التي يواجهها ، وهذه العلاقات تنشئها المعرفة ، وهو الإدراك الحسى الذى يكمله الإدراك العقلى » (١) .

قال تعالى :

— « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر مما نفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » « سورة البقرة : ١٦٤ » .

— « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقرومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج به حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » « سورة الأنعام : ٩٧ — ٩٩ »

— « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت : وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت : وإلى الأرض كيف سطحت » « سورة الغاشية : ١٧ — ٢٠ »

— « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » « سورة الروم : ٢٢ » .

إن القرآن يستهدف فى هذه الملاحظة التأملية للطبيعة أن تبعث فى نفس الإنسان الشعور عن تعد هذه الطبيعة آية عليه : ولكن ماينبغى الالتفات إليه هو الاتجاه التجريبي العام للقرآن ، مما كون فى أتباعه شعوراً بتقدير الواقع وجعل منهم آخر الأمر واضعى أساس العلم الحديث .

وهناك أمور ثلاثة واضحة كل الوضوح فى القرآن :

١ — أن الإنسان قد اصطفاه الله « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » « سورة طه ١٢٢ » .

٢ — أن الإنسان بالرغم من أخطائه جميعاً ، أريد أن يكون خليفة الله فى أرضه .

٣ — أن الإنسان أمين على شخصية حرة أخذ تبعثها على عاتقه . وهذه الشخصية الحرة يمكن أن تتحقق تماماً إن هو اندفع بكل جوارحه فألقى بنفسه فى خضم متاعب الحياة الدنيا ومسراتها واحزانها الى تحيط به »

(١) الدكتور محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، ترجمة عباس محمود ، ص ١٨ — ٢١ .

إن الله بعالم^(١) أن الدنيا لا يمكن أن تنشر أمام الناس كل ما يمكن أن ينال منها وأنه لا يمكن للإنسان أن ينمى كل قابلياته الكامنة نمواً كاملاً إلا في جو من الحرية يسمح بإجراء تجارب على البيئات بدون أن يقيد هذه التجارب ، إذ بدون ذلك تصبح فكرة الفضيلة والرياسة خداعاً محضاً وكلمة « حق » « وصىء » لا معنى لهما مطلقاً . إن السلوك الفاضل الذي هو واجب وأمر أساسي في الإسلام يفترض قبله وجود حرية الاختيار والانتقاء والقول أو الرفض . وحيث لا توجد حرية فلا يمكن أن يوجد سلوك فاضل ، لأن السلوك الفاضل لا ينطلق إلا على الأعمال التي يتمتع الإنسان فيها بحرية الاختيار ، وكل عمل يفرض كرهاً من الخارج ليس فيه أى نوع من الفضيلة .

إننا نقدر عمل الخير حين يقوم به الإنسان لمجرد أننا نشعر بأنه لو أراد لاستطاع أن يختار السبيل المعاكسة ، ولكنه محض اختياره وإرادته الحرة اتبع الطريق المستقيم .

يقول الله جل شأنه :

— إنا خالقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً : إنا هدينه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً . « سورة الإنسان ٢ — ٣ » .

وإن هبوط الإنسان من الجنة بدل على أن الإنسان قد ارتفع من الحالة البدائية للشهوة الغريزية إلى شعور من يعي أنه ذو نفس حرة تستطيع أن تشك وأن تعصى .

يقول الدكتور محمد إقبال في كتابه « تحديد التفكير الديني في الإسلام » .

« إن قصة هبوط آدم كما جاءت في القرآن لا صلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب ، وإنما أريد بها بالآخرى بيان ارتقاء الإنسان من بدائية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة على الشك والعصيان ، وليس يعي المهبوط أى فساد أخلاقي ، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس وهو نوع من اليقظة من حلم الطبيعة أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صلة عابثة شخصية بوجوده . هذا إلى أن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب سجن في إنسانية شريرة العنصر بسبب ارتكابها خطيئة أصالية . فالمعصية الأولى للإنسان كانت أول فعل له تتمثل فيه حرية الاختيار ، ولهذا تاب الله على آدم ، كما جاء في القرآن وغفر له ، وعمل الخير لا يمكن أن يكون قسراً ، بل هو خضوع عن طواعية للمثل الإخلاقي الأعلى خضوعاً ينشأ عن تعاون الذات الحرة ورضى » .

والكائن الذي قدر له حركاته كلها كما قدرت حركات الآلة لا يقدر على فعل الخير . وعلى هذا فإن الحرية شرط في عمل الخير . ولكن السماح بظهور ذات متناهية لها القدرة على أن تختار ما تفعل بعد تقرير القيم النسبية للأفعال الممكنة لها هو في الحق مغامرة كبرى ، لأن حرية اختيار الخير تتضمن كذلك حرية اختبار عكسه . وكون المشيئة الإلهية اقتضت ذلك دليل على ما لله من ثقة في الإنسان . ولقد بين على الإنسان أن يبرهن على أنه أهل الثقة .

(١) تفسير التاريخ ، مرجع سابق ، ص ١٩٢ .

وربما كانت مغامرة كهذه هي وحدها التي تيسر الابتلاء والتنمية للقوى الممكنة لوجود خلق على « أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » « سورة التين » .

وكما يقول القرآن « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » « سورة الأنبياء » .

فالشر والخير إذن وإن كانا متضادين يجب أن يكون كلاهما جزءا من نفس الكل : وليست هناك حقيقة منعزلة عن غيرها ، لأن الحقائق أمور كلية يجب أن تفهم عناصرها بما بينها من نسب وإضافات والحكم المنطقي إنما يفرق بين عناصر الحقيقة الواحدة لكي يكشف عن توقف كل منها على الآخر وفضلا عن هذا فإن طبيعة النفس هي أن تبقى على ذاتها من حيث هي نفس ، وبسبب هذا تنشأ المعرفة والتكاثر ، والقوة ، أو كما جاء في القرآن تسعى وراء « ملك لا يبلى » : والحادثة الأولى في رواية القرآن للقصة تتعلق برغبة الإنسان في المعرفة والثانية تتعلق برغبته في التكاثر والقوة .

وفيا يتصل بالحادثة الأولى لابد من إيضاح أمرين :

الأول : هو أنها ذكرت مباشرة بعد الآيات التي وصفت تفوق آدم على الملائكة في معرفة أسماء الأشياء وإعادة ذكرها : والمقصود من هذه الآيات — كما بينت — بيان أن المقصود طبيعة المعرفة الإنسانية . وفيما يتعلق بالأمر الثاني تحدثنا مدام « بالقانسكري » التي كانت على حظ كبير من العلم بالرمزية القديمة فتقول في كتابها « المذهب السري » أن الشجرة كانت عند القدماء رمزا خفيا على علم الغيب وواضح أن آدم حرم عليه أن يذوق ثمر هذه الشجرة ، لأن تناهيه من حيث هو نفس ، ولأن عتاده الحسي وقواه العاقلة — كل ذلك كان ، بصفة عامة ، مهيتا لنوع آخر من أنواع المعرفة ، هو النوع الذي يقتضى الكد في معاناة الملاحظة ، ولا يقوى إلا على التجمع البطيء : ولكن الشيطان أغوى آدم على أن يأكل من الثمرة المحرمة من شجرة المعرفة وانقاد له آدم ، لا لأن الشرکان متأصلا في نفسه ، ولكن لأنه كان عجولا بطبعه أراد أن يحصل المعرفة عن أقرب طريق : وكان السبيل الوحيد لتقويم هذا المبل فيه أن يوضع في بيئة ، مهما تكن مؤلمة له ، فأنها كانت أكثر ملاءمة لإبراز قواه العاقلة . وعلى هذا فإن إدخال آدم بيئة مادية مؤلمة له لم يكن القصد منه عقابه ، بل كان المراد به بالأحرى القضاء على صد الشيطان الذي احتال — بسبب عداوته للإنسان — بلبس القول على أن يقيه جاهلا للنعم الذي ينشأ عن النمو والامتداد الخالدين ولكن بقاء ذات متناهية في بيئة كوئود يتوقف على التزايد المستمر للمعرفة القائمة على التجربة الواقعة وتجارب هذه الذات المتناهية التي تنفسح أمامها إمكانات عدة : إنما تزداد وتتسع ، بطريقة المحاولة والخطأ . وعلى هذا فإن الخطأ الذي قد يوصف بأنه نوع من الشر العقلي عامل لا يحصى عنه في بناء التجربة .

ويروى القرآن الحادثة الثانية في قصة الهبوط من الجنة على النحو الآتي :

— « فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخضفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباها ربه فتاب عليه وهدى » « سورة طه : ١٢٠ — ١٢٢ »

فالفكرة الأساسية هنا تشير إلى رغبة الحياة رغبة لا تقاوم في الحصول على ملك لا يبلى ، في حصول الإنسان على ملك لا نهائى من حيث هو فرد ذو وجود متحقق : ولكن لما كان الإنسان كائناً فانياً يخشى انقضاء سيرته بموته ، لم يكن أمامه من سبيل إلا أن يحقق نوعاً من الخلود الجماعى بالتكاثر والتوالد . وأكل الثمرة المحرمة من شجرة الخلد كان الوسيلة التى لجأ إليها للتمييز بين الذكر والأنثى ، وهو التمييز الذى به يتكاثر لكى ينجو من الفناء الكلى .

إن الحياة اختبار وامتحان للناس ليسين كل منهم قيمته ، يقول الله تعالى :

— « ياداوود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » « سورة ص : ٢٦ » .

— « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور » « سورة الملك : ١ - ٢ » .

— « والشمس (١) وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسياء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » « سورة الشمس : ١ - ١٠ » .

ولو شاء الله لجعل الناس كلهم أتقياء ، ولكن حيثئذ لن يمكن تحقيق الغرض من الخلق ، إذ لن يمكن قط تمييز المسئىء من المحسن ، إن هذا الاختيار هو لمجرد فصل الحبوب عن القشور ، إنها حقاً حملك الذهب الذى يميز بين الذهب الخالص والمعدن الرخيص .

— « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبشكم بما كنتم فيه تختلفون » « سورة المائدة ٤٨ »

(١) يقول الأستاذ الامام محمد عبيد فى تفسير هذه الآيات: بعد أن أقسم الله بالضياء والظلمة، وأقسم بالسياء وما فيها من الكواكب، وبالنسبة بنائها وجعلها مصدراً للضياء لأن الشمس والقمر وسائر الكواكب من أجزاء ذلك البناء ، وبالأرض والذى جعلها لنا فراشا وجعلها مصدراً للظلمة ، فانها هى التى يحجب بعض أجزائها ضوء الشمس عن البعض الآخر فيظهر الظلام فى هذا الآخر . وقال .. اقتصر فى جانب الأرض بذكر الطحو ، وهو التمهيد وفيه منافع الناس من سكى الأرض والانتفاع بما يوجد على ظهرها من نبات وحيوان . بعد هذا أقسم بالنفس الانسانية والذى « سواها » أى عداها بأن ركب فيها قواها الباطنة والظاهرة ، وحدد لكل قوة وظلقة توذنها ، وألف لها الجسم الذى تستخدمه من أعضاء قابلة لاستعمال تلك القوى ، لهذا فرع على التسوية قوله : فألهمها فجورها وتقواها ، فان تمام التسوية أن وهبها العقل الذى يميز بين الخير والشر . والأعمال التى بها تنقى النفوس معروفة لنوى العقول كالأعمال التى تسعده فقد منح الله النفوس قوة التمييز كما وهبها قوة الاختيار فن رجع طريق الخير أفلح ومن رجع طريق الشر خاب ولهذا استطرده عقب ذكر الإلهام بقوله « قد أفلح من زكاها » أى ربح وفاز من زكى نفسه ونماها وأعلاها حتى بلغ بها ماهى مستعدة له من كمال القوى العقلية والعملية ، وأثمرت بذلك ثمراتها الطيبة لئلا ولعن حوله من الناس ، وقد خاب من دساها التدهية : النفس والإخفاء . ومن سلك سبيل الشر ، وطاوع داعى الشهوة البهيمية ، فقد فعل مايفعل سائر الهائم ، فلم يظهر عمل القوة العاملة التى خص بها الإنسان ، فاندرج صاحب تلك النفس فى عداد سائر الحيوان دون الإنسان ، وبذلك يختفى من بين المقلاء ، وينهب امتيازها الذى كرم الله به نوعه .

« تفسير جزء عم - طبعة دار الشريعة »

الإنسان (١) ذو حرية واختيار في حياته ، فهو بفعل الخير مختاراً فبثاب ، وبفعل الشر مختاراً فبعقاب وبذلك الاختبار كلفه الله وأرسل إليه الرسل لتهديه وترشده ، ثم تركه وما يختار لنفسه من مسلك الخير أو الشر ، لا يدفعه بقوة خارجة عن نفسه إلى خير أو شر ، ولو شاء ذلك لخلقه بطبيعة الخير فلا يعرف شراً ، أو بطبيعة الشر فلا يعرف خيراً ، وعندئذ لا يكون هذا الإنسان الذي جعله خلقة في الأرض ، وكلفه بدينه وشرائعه ، وأعد له الثواب والعقاب ، ولكن خلقه مختاراً في أفعاله ، وبذلك يكون جزاؤه في يوم الدين تبعاً لما يختاره لنفسه في الحياة ، يكون صورة من اللذة والألم ، مساوية لما حملت نفسه من بواعث الخير وبواعث الشر :

— « قل هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » « سورة الأعراف : ١٤٧ » .

— « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » « سورة الشمس : ٧ - ١٠ » .

والقرآن ملئ بمثل هذه النصوص الدالة على أن الإنسان مختار في فعله ، ليس مقهوراً ولا مجبوراً على خير أو شر .

وهناك قوانين معينة ترتق بمقتضاها الأمم وتنهـار ، فالأمة تقوى ويشـتد ساعدها وتنعم بالرخاء والاقتصادى إذا نمت في نفسها صفات خاصة ، وإذا حادت عن هذه الصفات فإنها تضعف وينهار بـناها الاجتماعى .

إن الذى ينظر نظرة عـجلى إلى هذا الانهيار يرى أنه نتـيج عن غزو خارجى أو عن خيانة حاكم ، والحقيقة أن التدهور هو نتيجة فساد ، وانحلال سرى في كيان الأمة ، فمزق نسيجها الحضارى ، ونهـاة هذه الأمم قد يتأخر بعض الوقت ولكن لا يمكن الإفلات منها :

— « سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » « سورة الأحزاب : ٦٢ »

— « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم » « سورة الأنفال : ٥٣ » .

إن أى مجتمع أو أمة انحطت بعد رفعة ، وافتقرت بعد غنى ، وذلت بعد عز ، وضعفت بعد قوة ، فإنها تكون قد وصلت إلى ذلك بسبب تبدل جوهرى في نفسها ، أو بتعبير آخر ، في أخلاقها العامة والخاصة وأنها إذا رامت الرفعة والغنى والعز والقوة ، عليها أن تتوسل بالوسائل الكفيلة بأحداث تبدل جوهرى في نفسها أو بتعبير آخر في أخلاقها العامة والخاصة التى سببت لها الانحطاط والفقر والذل والضعف وأن أى أمة ارتقت بعد انحطاط ، واغتنت بعد فقر ، وعزت بعد ذل ، وقويت بعد ضعف ، فإنما تكون وصلت إلى ذلك بسبب تبدل جوهرى في نفسها أى في أخلاقها العامة والخاصة .

وفى هذا التلقين تقرير لمسئولية الفرد والجماعة ، كل فى نطاقه ، عما يكون عليه من صلاح وفساد

(١) الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ٥٤

وقوة وضعف ، وغنى وفقر ، وعزل وذل ، وفيه دعوة لكلها إلى العمل والجد ، والتوسل بكل وسيلة — ضمن مبادئ الحق والعدل القرآنية ، وفطرة الله التي فطر الناس عليها — إلى التخلص من الفساد والضعف والفقر والذل والجهل والحمول ، أو إلى الاحتفاظ بأسباب الصلاح والقوة ، والغنى والعز والعلم والنشاط^(١) وقبل أن نبحث موضوع ارتقاء الأمم وانهارها والأسباب المؤدية إلى ذلك ، نتحدث عن نظرة الإسلام إلى الإنسان :

إن الإسلام لا يعتقد بالخطيئة الأولى أو الخطيئة الأصلية ، وهو بذلك يخالف المسيحية وغيرها من الأديان والآراء الفلسفية .

يقول الدكتور محمد إقبال في كتابه « تجديد التفكير الديني في الإسلام »^(٢) .

« إن التوراة تلعن الأرض بسبب معصية آدم ، بينما يبين القرآن أن الأرض دار سكن للإنسان ومصدر ربح له ، وعليه أن يشكر الله على هذه الدار التي أنعم عليه بها .

— « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون » « سورة الأعراف : ١٠ »

كما أنه ليس هناك من سبب لافتراض أن كلمة « جنة » أى « حديقة » استعملت في هذا السياق للدلالة على جنة وراء الحس . يفترض أن الإنسان هبط منها إلى الأرض وطبقاً للقرآن ليس الإنسان غريباً عن هذه الأرض ، إذ يقول القرآن :

— « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » « سورة نوح : ١٧ » .

فالجنة التي ورد ذكرها في القصة لا يمكن أن يقصد بها الجنة التي جعلها الله مقاماً خالداً للمتقين .

يقرر القرآن أن في وسع الإنسان أن يتصرف كما يريد ويوجه قوى الطبيعة ويسخرها وبهذا يبحث فكرة الخطيئة التي تولد مع الإنسان .

إن النزعة إلى الإحسان هي التي تعترف بأن العالم ينمو ، وأن الذي يمدّها بالحياة إنما هو الأمل في أن يتغلب الإنسان آخر الأمر على الشر ، فاذا انحط الإنسان فليس بسبب خطيئة آدم ، وإنما بسبب الأعمال السيئة التي ارتكبها هو نفسه :

— « والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه

أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » .

لذا فالفجور الوراثي والإثم الطبيعي أمران غريبان تماماً على الإسلام ، وكل طفل يولد لبنى الإنسان إنما يولد على الطهر والحق : وكل زيغ يزيغه بعد ذلك عن طريق الحق والاستقامة يرجع إلى خطأ في تربيته وإلى أعماله السيئة :

(١) الأستاذ محمد عزه دروزه : الدستور القرآني ص ٤٩٠

(٢) ص ٩٨ .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— = كل مولود يولد على الفطرة ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو مجسانه »

إن سلوك الإنسان ليس ناتجاً عن قدر ، وما من إنسان ولد معه أمر إلهي بأن يصير إلى الجنة أو النار فقد خلق الإنسان حراً في فعله ، مختاراً غير مقهور ولا مجبور . .

وقديماً اعتذر المشركون عن شركهم بأنهم مجبورون بمشيئة الله لشركهم ، فأنكر الله عليهم ، وأعلمهم أن حجته عليهم قائمة ، بما منحهم من عقل وأرسل إليهم من رسل .

— « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا خرون . قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » « سورة الأنعام ١٤٨ — ١٤٩ » .

يريد أن الله جل شأنه تركهم ، وما يختارون لأنفسهم من ضلال أو هداية .

ولا توجد في الإسلام فكرة النمو الخلقى المحتوم بين المسلمين ، فهو لا يزعم أن أخلاق حقبة تاريخية ما لا بد أن تكون أرقى من أخلاق الحقبة السابقة لها : فالإسلام يمنح الإنسان الحرية في أن يختار بين التمسك بالخلق الرضى الكريم ، أو أن ينفذ يده منه .

والخلق ، هو انفعال النفس وتأثرها بما ينبغي أن يكون ، فيفعل ، وبما لا ينبغي أن يكون ، فيترك والخلق بهذا المعنى ، هو المعتصم الذى يتمسك به من أراد أن يكون مسلماً حقاً .

والعقيدة وما إليها دون خلق ، شجرة لا ظل لها ولا ثمر ، والخلق دون عقيدة ، ظل لشبح غير مستقر قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

— « أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً »

وقال صلى الله عليه وسلم :

— « صلة الأرحام وحسن الخلق وحسن الجوار تعمران الديار وتزيدان في الأعمار (١) » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

— « أنا زعيم (أى كفيل وضامن) بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ، وإن كان محققاً ، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب ، وإن كان مازحاً ، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه »

(١) رواه أحمد عن عائشة مرفوعاً بسند صحيح .

والأخلاق سواء كانت فردية أو جماعية يمكن في أى وقت أن تفسد وتنحط فينتج عن ذلك خسارة جسيمة لكل ما أمكن بلوغه في السنوات السابقة .

- « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في شرح هذه الآيات :

« يقسم جل شأنه أنه قوم الإنسان أفضل تقويم ، وركبه أحسن تركيب ، وأكد ذلك لأن الناس يغفلون عما كرمهم الله به من العقل ، كأنهم ظنوا أنفسهم كسائر أنواع العجماوات . يفعلون كما تفعل ، ولا تمنعهم حياء ، ولا تردهم حشمة ، خصوصاً وقد قال بعضهم : إن الإنسان خلق ميالاً إلى الشر فبقول الله سبحانه — تبيننا لفساد هذه المزاعم — أنه فطر الإنسان أحسن فطرة نفساً وبدناً ، وكرمه بالعقل الذى ساد به على العوالم الأرضية ، واطاع به على ما شاء الله من العوالم السماوية .

وقد كان الإنسان في سذاجته بعيداً عن الآثار ، حتى القلب بالتراحم — كما تراه في حال الأطفال فعاش سعيداً ، وعاش أفراداً في نعيم الطمأنينة ، كان ذلك رمنا ما — وهو العهد الأول — وما أشبهه بتسره التين تؤكل كلها ، ولا يرمى منها شيء . والإنسان كان صلاحاً كله ، ولم يشذ عن الجماعة منه فرد ، تلك كانت أيام القناعة مما تيسر من العيش ، وشدة الإحساس بحاجة كل فرد إلى الآخر في تحصيله وفي دفع العوادي عن النفس .

تنهت الشهوات بعد ذلك ، وتخالفت الرغبات ، فنبت الحسد والحقد ، وتبعه التقاطع والتقاتل ، واستشرى بالأنفس حتى صارت الأمانة عند بعض الحيوان أفضل منها عند الإنسان . فانحطت بذلك نفسه عن مقامها الذى كان لها بمقتضى الفطرة . وقد كان ذلك — ولا يزال — حال أكثر الناس .

فهذا قوله « ثم رددناه أسفل سافلين » أى صيرناه أسفل من كثير من الحيوانات التى كانت أسفل منه ، لأن الحيوان المفترس — مثلاً — إنما يصدر في عمله عن فطرته التى فطر عليها : لم يتزل عن مقامه ، ولم ينحط عن منزلته في الوجود . أما الإنسان فإنه باهماله عقله . وجهله بما ينبغي أن يعمل لتوفير سعادته ، وسعادة إخوانه ، ينقلب أرذل من سائر أنواع الحي .

استثنى الله المؤمنين الذين يؤمنون بموجد الكائنات . وبأن الله قد وضع شريعة للخير والشر ، وميز بينها ، وأنه يحزى القائم على الشريعة بإتيان الخير وتجنب الشر بالسعادة ، فلذلك يدلون على إيمانهم بالأعمال الصالحة — وهى معروفة عند عامة البشر — وجماعها العدل والإحسان فهؤلاء قد حفظوا منزلتهم من الإنسانية واستبقوا لأنفسهم ذلك الاعتدال الفطرى فلهم أجر الكرامة في الدنيا ، فإذا جاءهم الموت امتد بهم النعيم إلى الآخرة فأجرهم غير ممنون أى غير مقطوع .

ويؤكد القرآن أن سنن الله في الكون لا يمكن تغييرها . ولذلك فإن جانباً كبيراً من آيات القرآن تنصب على إخطار الإنسان بالندير الإلهي وتنبثق عن رؤية وتأمل التاريخ .

والقرآن لا يقدم « قصصه » وصوره » « ومشاهداته » لمجرد ترفيع ذهني ، أو إشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والصور والمشاهدات ، إنما يأتي بها من أجل أن « يحرك » الإنسان صوب الأهداف التي حددتها الإسلام ، ويبعده في الوقت نفسه ، فردا وجماعة ، عن المزالق التي أودت بمصائر عشرات ، بل مئات من الأمم والجماعات والشعوب ؛ فالحركة لا مجرد السرد القصصي كانت أبدا هدف العروض التاريخية للقرآن ، كما أنها في الوقت ذاته ، هدف الصيحات المعاصرة التي سبرت غور التاريخ وأشارت إلى الهاوية التي تنتظر مسيرة القرن العشرين .

يقول الله تعالى :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . »

هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »

لم تفلت الدولة الإسلامية ذاتها من هذه السنن ، فغارات التتار ضد الدولة الإسلامية تمثل « سنة الكون وحركة التاريخ التي لا تختلف ، فإذا انحدرت الحضارة وغلب الترفيع ووقع التفكك وتراخت الأيدي عن المقاومة والحفاظ على الثغور ، وضعفت الجيوش ، وتحافت الأمة عن مقومات فكرها وقيمها الأساسية ، كان لابد أن يسقط هذا الملك في يد قوة جديدة شابة .

ومما لاشك فيه أن مسئولية انتصار قوى التتار الغازية تقع على المسلمين الذي ضعفوا ، وركنوا إلى الدعة والترفيع ، وتحلوا عن الإيمان والقوة .

غير أن التتار لم يكتب لهم النصر على طول الخط ، بل واجهوا بعد معركة بغداد (سنة ٦٥٦ هـ) مقاومة صلبة وعنيدة على حدود الشام ومصر في عين جالوت ردتهم عن هذه المنطقة طويلا ، ثم لم يلبث الإسلام أن صهرهم في بوتقته فأقاموا دولا كبرى تحت رايته كان أبرزها الدولتان الخوارزمية في منطقة ما وراء النهر والمغولية في الهند .

وإذا كانت سنة الله في أخذ الظالمين واحدة ، فنحن في عصرنا هذا نرى ونسمع عن الرياح الحاصبة تقتلع الأشجار ، وتنزل بشاهقات العماثر ، وعن الصيحات تخلع القلوب ، وتستلب الأرواح من الأشباح ، وعن البراكين تنفجر وتلهم نارها القرى والمدن ، وعن الأرض تنفك أوصالها وتغور طبقاتها وتصبح مقبرة لمن عليها ، وعن الفيضانات وقد فار تنورها ، وأنت على كل شيء من الحضارات ، كل ذلك نراه ، ويقف الجبارون أمامه حيارى ، ثم لا يلبثون أن يعودوا فيعملوا جهدهم في اختراع المدمرات من نفاثات وذريات بغيا من الإنسان على أخيه الإنسان . وكان جديرا بهم إذا كانوا أرباب دين وإيمان أن يبذلوا جهدهم في وقاية خلق الله من عذاب الله القاهر بالسلم العام ، وإقامة العدل والكف عن المظالم .

يقول الله تعالى ،

— « أولم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها » . « سورة الروم : ٩ » .

إن التاريخ يخبرنا بغير لسان عما سيكون بما قد كان ، فإن في حركة جميع القوى التي تنسج تاريخ البشرية عنصراً واضحاً هو عنصر الإعادة والتكرار فالسراء والضراء تصيبان كل شعب ، وما في العالم من أمة لم تصعد سلم الرقي والمجد ، فالذين لا تطغيهم الأفراح والذين لا تفقدهم السعادة اتزان عقولهم ، والذين لا يسمحون لأنفسهم بأن ينهاروا تحت ضربات الأزمات الطاحنة والخطوب الجسيمة هم الذين يتيح لهم قانون الحياة فرصة البقاء والارتقاء . أما الذين لا يستطيعون التماسك أمام الشهوات ، ويخرون مصرعى أمام الأزمات فأولئك الذين يجرفون خارج نطاق الوجود المؤثر .

— « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » . « سورة آل عمران : ١٤٠ » .

لقد عرف العالم القديم حضارات عدة كالمصرية والبابلية والآشورية والفينيقية ، كما قامت إمبراطوريات عظمت على أيدي الفرس والإغريق والرومان ، ثم نشأت الإمبراطورية العربية الإسلامية التي ما لبثت أن تفككت إلى دول ودويلات .

وظهرت نظم اجتماعية كبرى هي : النظام العبيدي ، والنظام الإقطاعي . والنظام البورجوازي ، وكل من هذه النظم كان يمثل مرحلة تقدمية بالنسبة إلى النظام الذي سبقه ، ويمهد الطريق إلى النظام الذي أعقبه . وهذا التعاقب للحضارات والنظم والدول يعني أن كل حضارة تقوم لكي تحقق أهداف مجتمع معين في حقبة زمنية معينة وفي ظل ظروف وبيئة معينة ولكن بمرور الوقت وبنشوء حاجات جديدة تفقد هذه الحضارات مبررات بقائها إذ تعجز عن إشباع هذه الحاجات ، ويصبح لازماً أن تقوم مكانها حضارة أخرى أعلى مرتبة . وعن طريق تعاقب النظم والحضارات من الأدنى إلى الأعلى ، يتحقق التقدم .

وليس من شك أنه ما من حضارة أو نظم من وضع الإنسان تعتبر خالدة أو صالحة لكل العصور ولجميع المجتمعات ، لأنها في هذه الحالة تعكس ما عليه الإنسان من نقص وضعف^(١) فطبيعة الإنسان أكثر تعقيداً من أن يستطيع عقله أن يحلها ، فالإنسان لا ينظر إلا إلى بضع من حاجات البشر ويجهل الباقي ، وهذا يصيب جوانب الإنسان المهمة ظلم عظيم ، وهذا يحطم استقرار الحياة .

يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده في « رسالة التوحيد » :

(١) التفسير القرآني للتاريخ ، ص ١٩٧ .

« الإنسان ^(١) » ، ليس ممن يلهم ولا نتعلم ، ولا ممن نشعر ولا نتفكر ، بل كان كماله النوعي في إطلاق مداركه عن القيد ، ومطالبه عن النهايات ، وتسليمه على صغره إلى العالم الأكبر على جلالته وعظمته . يصارعه بعوامله وهي غير محصورة حتى يعتصر منه منافعها وهي غير محدودة . وإبداعه من قوى الإدراك والعمل ما يعينه على المغالبة ، وممكنه من المطالبة بسعته ورأيه ، ويتبع ذلك أن يكون له في كل كائن مما يصل إليه لذة ، وبجوار كل لذة ألم ومخافة ، فلا تنهي رغائبه إلى غاية ، ولا تقف شخاوه عند نهاية قوله تعالى :

— « إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً » .

تفاوتت أفرادها في مواهب الفهم وقوى العمل ، وفي الهمة والعزم ، فمنهم المقصر ضعفاً أو كسلاً المتطاول في الرغبة شهوة وطمعاً . يرى في أخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده ، لكنه يذهب من ذلك إلى تخيل اللذة في الاستئثار بجميع ما في يده ، ولا يقنع بمعاوضته في ثمرة من ثمار عمله . وقد يجد اللذة في أن يتمتع ولا يعمل ، ويرى الخير في أن يقيم مقام العمل ، أعمال الفكر في استئثار ضروب الخيل ، ليتمتع وإن لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا ضير عليه لو انفرد بالوجود بمن يطلب مغالبتة ، ولا يبالي بارساله إلى عالم العدم بعد سلبه ، فكلما حثه الذكر والخيال إلى دفع خفاة أو الوصول إلى لذية فتح له الفكر باباً من الخيلة ، أو هياً له وسيلة لاستعمال القوة فقام التناهب مكان التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق ، وصار الضابط لسير الإنسان إما الحيلة وإما القهر .

هل وقف الهوى بالإنسان عند التنافس في اللذائذ الجسدية ونجالد أفرادها طمعاً في وصول كل إلى ما يظنه غاية مطلبه وإن لم تكن له غاية ؟ . . . كلا . . . ! ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية . وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له في نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعه ما حسباً يمتد إليه نظره . وقد بلغت هذه الشهوة حداً من الأنفس كادت تغلب على جميع الشهوات ، وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكاناً لا تكاد تصعد إليه سائر اللذات . وهي من أفضل العوامل في احراز الفضائل ، وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم ، لو صرفت فيما سيقف لأجله .

ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف غيرها للأسباب التي أشرنا إليها من التفاوت في مراتب الإدراك والهمة والعزيمة ، حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته في القلوب باخافة الأمن وإزعاج الساكن ، وإشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيب الحرمة .

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بني نظامهم وعلق بقاؤهم في الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضاً في الأعمال ؟ ألا تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها سبباً في تفانيهم ؟ لا ريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال ، فلا بد للنوع الإنساني في حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب عنها .

(١) رسالة التوحيد ، عفيف طاهر الطناحي ، ص ١٣٧ .

لجأ بعض أهل البصيرة في أزمنة مختلفة إلى العدل ، ولكن من الذى يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها ؟

قيل ذلك هو العقل ، فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء ، كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة . وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وفوز العقل وأصالة الحكم تذهب بكثير من الناس إلى ما وراء حجب الشهوات ، وتعلو بهم فوق ما يخيله المخاوف . فيعرفون لكل حق حرمة ، ويميزون بين لذة ما يفي ومنفعة ما يبتى ، وقد جاء منهم أفراد في كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة ، وقسموا أعمال الإنسان إلى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته وهو ما يجب اجتنابه ، وإلى ما قد يشق احتماله ، ولكن تسر مغبته وهو ما يجب الأخذ به ، ومنهم من أنفق في الدعوة إلى رأيه نفسه وماله ، وقضى شهيد إخلاصه في دعوة قومه إلى ما يحفظ نظامهم ، فهؤلاء العقلاء هم الذين يصنعون قواعد العدل ، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها ، وبذلك يستقيم أمر الناس .

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ، ولكن هل سمع في سيرة الإنسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراداه أو الغائب منهم لرأى العاقل لمجرد أنه الصواب ؟

وهل كفى في إقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم : انهم مخطئون وأن الصواب فيما يدعوههم إليه ؟ وإن أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء ، وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟

كلا . ! لم يعرف ذلك في تاريخ الإنسان ولا مما ينطبق على سنته ، فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس في الإدراك ، وهم مع ذلك يدعون المساواة في العقل والتقارب في الأصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يعرف من أمر الجاهل ومن لم يكن في مرتبتك من العقل لم يلدق مذاقك من الفضل .

فجرد البيان العقلي لا يدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة ، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها ، فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ويهدم بناؤها ، ويفقد ما قصد بوضعها .

أضف إلى ماسبق من نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعورا هو الصق بالغريزة البشرية وأشد لزوما

لها . . .

كل إنسان مهتما علا فكره وقوى عقله ، أو ضيعت فطنته وانحطت فطرته ، يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته ، وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله ، وأنه محكوم بأرادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم في وجوه ربما لا تعرفها معرفة العارفين ولا تتطرق إليها إرادة المختارين .

..... من ذلك الضعف قيد إلى هداة ، ومن تلك الصفة أخذ بيده إلى شرف سعادته ، أكمل الواهب الجواد ما اقتضت حكمته في تخصيص نوعه ، مما يميزه عن غيره أو يتقص من أفرادهِ (١) وكما جاد على كل شخص بالعقل المصروف للحواس ، لينظر في طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد ، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة في البقاء ، وأثر في الوقاية من غوائل الشقاء ، وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالإجماع .

من على البشر بأن بعث إليهم الأنبياء ، يعلمون الناس ما يصلح به معاشهم ومعادهم . فالرسل هداة البشر إلى الحق والعدل والسلام . وهذه هى الصفات الضرورية لارتقاء الأمم .

وقد كانت العقيدة الراسخة في المثل الأعلى العظيم للإنسان دائماً صفة قوية محركة ومفجرة للطاقات ، ولم يقتصر نجاحها في الماضي على أن غيرت حياة الإنسان الشخصية فحسب ، بل نجحت أيضاً في تغيير مصير أمم .

إن ما حققه العرب بزعامة الرسول صلى الله عليه وسلم وقيادته الحكيمة أحد الأمثلة الرائعة على ذلك .

قال قتادة بن ثعلبة السدوسي يصف حال العرب قبل المبعث وبعده :

« كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاء عيشاً ، وأجوعه بطناً ، وأعرأه جلوداً ، وأبينه ضللاً ، من عاش منهم شقياً ، ومن مات منهم ردى في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبلاً من أهل الأرض كانوا أشرف منهم منزلة ، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد ووسع به الرزق وجعلهم ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتهم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر في مزيد من الله » . وهذا ما حدا بالاستاذ شيرل الكاثوليكي المذهب وعميد كلية الحقوق بجامعة فيينا أن يقول في مؤتمر الحقوق سنة ١٩٢٧ :

« إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد (صلى الله عليه وسلم) إليها ، إذ أنه رغم امته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين — أسعد ما نكون لو وصلنا إلى فمته بعد ألف عام » .

ومن أهم الصفات الطيبة التى يذكرها القرآن : الصدق .

إن الإنسان كائن اجتماعى ، ولا بدله من أن يقيم علاقات مع أبناء جنسه ، وفضيلة الصدق ، ورذيلة الكذب من أهم الأخلاق الشخصية أثراً في صلات الناس بعضهم ببعض .

ويستهدف القرآن فيما احتواه من التنويه بفضيلة الصدق والصادقين ، والتنديد برذيلة الكذب والكاذبين إلى تقوية روح الصدق ومقت الكذب في المسلمين .

(١) أى أكل للمجموع ما لا يصل إليه كسب الأفراد مما يفضل به النوع غيره وهو الوحي الذى هو له كالعقل للأفراد سرهيه رضا .

قال تعالى :

« الذين يقولون ربنا إنا آثمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار : الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » « سورة آل عمران ١٦ - ١٧ » .

وقال جل شأنه :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » « سورة التوبة : ١١٩ »

ويقول سبحانه وتعالى :

« ليعجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفورا رحما » « سورة الأحزاب : ٢٤ » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« كفى بك إثما أن تحدث أخاك حديثاً ، هو لك به مصدق ، وأنت له به كاذب » .

وكما أن الصدق فضيلة ، فإن الإخلاص والكرم والشجاعة والتواصي بالصبر من الصفات النبيلة التي يجب أن يتحلى بها الإنسان .

يقول صلى الله عليه وسلم :

« طوى لأمم مخلصين ، أولئك مصابيخ الهدى ، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء »

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« يا بن آدم ، إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإنك إن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« لا تكونوا إمعة . تقولون إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم

إن أحسن الناس أحسن ، وإن ظلموا ظلموا » .

قال بعض العلماء (١) إن العصر الذي أقسم به الله هو الدهر لاشتماله على الأعاجيب ، ففيه السراء

(١) الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي : حديث رمضان ، ص ٤٨ - ٤٩ .

والنعماء والبأساء ، والصحة والستيم ، والفرح والحزن ، والغنى والفقر ، والعز والذل ، والهناء والشقاء ،
والحرب والسلام ، والصدقة والعداوة .

ولما كان الناس يضيفون المصائب والنوائب إلى الدهر ويشكون منه ويتألمون : أراد الله سبحانه
أن يبين بهذه القضية وهذا القسم أن الخسران من عمل الإنسان في الدهر لا من الدهر نفسه وأن الدهر نفسه
خلق ليكون موضعاً للطاعة وظرفاً للخير ، وإذا كان يوجد الشرف فيه فذلك من عمل الإنسان لا من عمل الدهر .

وقد شرط الله للنجاة بعد الإيمان والعمل الصالح ، التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وبين أن
كمال الإنسان في نفسه لا يكفي حتى يسعى إلى كمال غيره ، فيوصي بالحق والصبر . وفي هذا دلالة على
أن الفرد ليس وحدة كاملة في الجماعة ، بل هو جزء من وحدة ، وأن الوحدة هي الجماعة كلها ؛
وهي الجسد إذا اشتكى عضو فيه تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وكما يشين الفرد أن يكون
ناقصاً ، كذلك يشينه أن يكون فرد غيره في الجماعة ناقصاً .

فالتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، نوع من العلاج للنفس الخيرة ، وطريق من طرق استجلاب
السعادة والهناء .

ويتوقف على توطيد دعائم العدل أمن المجتمع البشري ، ولذلك لابد أن يكون سائداً بين الناس .
يقول القرآن المجيد :

— « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن
الله نعماً يعظكم به ، إن الله كان سمياً بصيراً » « سورة النساء : ٥٨ » .

— « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجر منكم شأن (١) قوم على أن لا
لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » . « سورة المائدة : ٨ » .

— « قل أمر ربي بالقسط » « سورة الأعراف : ٢٩ » .

— « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم
لعلكم تذكرون » « سورة النحل : ٩٠ » .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « من حالت شفاعته دون خد من حدود الله ، فقد ضاد الله (أى خالفه) في أمره . ومن خاصم
في باطل ، وهو يعلم ، لم يزل في سخط الله حتى يتزعج . ومن فال في مسلم ما ليس فيه ، حبس في ردة
الخيال ، حتى يخرج مما قال . قيل يارسول الله ، وما ردة الخيال ؟ قال : عصارة أهل النار » .

(١) شأن : شدة البعص .

— وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها :

« أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد . قال : يا أسامة ، أتشفع في حد من حدود الله ؟ إنما هلك بنا إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها » .

إن ما ينقص عالم اليوم هو مناصرة الحق والعدل . وهذا هو الداء الذي يفت في عضد عناصر الحياة ؛ يذكر من مفاخر المأمون العباسي أنه جلس يوماً للمظالم ، فكان آخر من تقدم إليه امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة ، فوقف بين يديه وأفضت إليه بأن لها شكوى من خصم ظلمها ، فسألها :

— أين الخصم ؟

فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأومأت إلى العباس ابنه ؛

فقال : يا أحمد بن أبي خالد ، خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم .

فجعل كلامها يعلو كلام العباس ، فقال لها أحمد بن أبي خالد :

— يا أمة الله ، إنك بين يدي أمير المؤمنين ، وأنت تكلمين الأمير ، فأخفضي من صوتك .

فقال المأمون : دعها يا أحمد فان الحق أنطقها وأخرسه .

ثم قضى لها برد مظلمتها وإحسان معاملتها ، وأمر لها بنفقة ؛

هذا هو العدل الذي ما زالت الأمم تنشد وتترنو إليه ، وتتمنى الوصول إلى مداه ، وأن تسوى بين

الروساء والمرء وسين فيها .

إننا في عصر الجبابة الضخام ، الذين لا يؤمنون إلا بالمادة وحدها ، فشقى الإنسان وواجهت المدنية خطر التمزق والتدمير ، وأصبح العالم المتمدن على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة انهارت . وقامت شعوب تناوى أخرى ، وتعمل جهدها للقضاء عليها ، والحاجة ماسة إلى قوة ما لتجمع الشعوب المختلفة في إنسانية واحدة ، وهذه القوة التي عليها أن تغير العقلية تماماً حتى تنمحي العداوة والبغضاء ، ويسود الحق والعدل ، لن تكون إلا قوة أدبية ، والقوة الأدبية لا يمنحها إلا الدين^(١) .

يقول الإمام ابن القيم في كتابه « الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية » :

(إن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض . فإذا ظهرت أمارات العدل ، وأسفر وجهه بأي طريق كان ، فثم شرع الله ودينه ، بل قد بين الله سبحانه بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده وقيام الناس بالقسط ، فأى طريق

(١) مولاى محمد على : الاسلام والنظام العالمى ، ترجمة أحمد جودة السحار ، ص ١٥ .

استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين ، ليست مخالفة له . فلا يقال : إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع ، بل موافقة لما جاء به ، بل هي جزء من اجزائه ، ونحن نسميها سياسة نبعا لمصطلحهم ، وإنما هي عدل الله ورسوله .

والصفة الأخيرة هي التحمل والجلد . .

لقد برهن التاريخ على أن الشعوب التي تنتصر في معركة القاء هي الشعوب التي تتصف بالشجاعة والجد والصبر والذكاء وقوة الاحتمال . أما الشعوب التي تتصف بالخمول والهلع والجزع فما لها الاندحار والفناء فلا شيء يجعل الشعوب عظيمة إلا تجربة كبرى وألم عظيم .

إن مواجهة مصاعب الحياة بشجاعة فائقة ، وإرادة صلبة وعزيمة قوية إنما هي خير مدرسة تربي فيها فضائل الثبات الذي هو صفة جوهرية من صفات الأمم الحية .

أما الأمة التي تركز إلى الدعة والترف ، فإنها عرضة للغزو والداخل بتحلل المجتمع وانغماسه في الشهوات والملذات الحسية ، والغزو الخارجي مع ما يجره هذا الغزو من فساد ووهن . وفي سورة النمل آيات وردت على لسان ملكة سبا وهي :

— = إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون : وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » (١) .

وقد اختوت الآيات حكمة رائعة . وهي أن الأجانب إذا ما تسلطوا على بلاد فإنهم لا يفتشون بديرون فيها أصابع الفساد حتى يوهنوا قوتها ، ويفرقوا صفوفها ، ويدلوا أعزتها ، ويقضوا على كرامتها ، ويفسدوا أخلاقها ، ويجعلوها فرقا وشيعا بضرب بعضها بعضا ، ويقدموا الفئات الفاسدة ليقيموا عليها سلطاهم ويحلوا روابطها الأخلاقية والاجتماعية فيضمونها السادة والطمانينة ، واستغلال ما في البلاد من خيرات ومنافع ، ويحولوا دون أي محاولة للنهوض ، ويسحقوا أي حركة تدمر ، ويكفلوا لسيطرتهم البقاء والاستمرار .

والخير كل الخير في الحيلولة دون وقوع النكبة ونجاح الغزوة ، بكل وسيلة ممكنة (٢) ، إن الأمة التي تبذل من ذات نفسها من أجل خير الإنسانية ، هي وحدها الجديرة بأن ترقى سلم التقدم .

يقول الله تعالى :

— « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » « سورة الرعد : ١٧ » .

(١) سورة النمل : ٣٤ - ٣٥ .

(٢) الأستاذ محمد عزمه دروره : الدستور القرآني ، ص ٤٩٣ .

بين القرآن بأسلوب الكناية أن الأمم التي في بقائها منفعة للبشر هي وحدها التي تبلغ قمة التقدم والرفق
لذا فالواضح أن الذين يبقون ويصمدون لأشد ضربات الزمن هم الذين وهبوا المشاعر الرقيقة تجاه بني
الإنسان ، الذين لم يستسلموا لحياة الترف ويستطيعون أن يتحملوا المشاق والصعاب من أجل إخوانهم
البشر .

إن هذا المبدأ عام ، وينطبق على كل ضروب الحياة الإنسانية .

ويزيد القرآن الكريم ذلك إيضاحاً بقوله :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل
المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » . « سورة آل عمران ١٤ »

تعدد هذه الآية بعض ما يستحوذ على فكر الإنسان مما في هذا العالم ويصرفه عن الصراط السوي ، أو
بتعبير آخر ، تسطر على أغلب البشر غرائز « التملك » فتغدوا الغرائز الخلاقة واهنة ضعيفة ، إن لم
تتلاشى تماماً ، فحين تسيطر غريزة التملك عند إنسان ما يتجه نشاطه كله وجهة واحدة هي الحصول على
وسائل الراحة المادية ، فلا يستطيع عقله أن يفكر في شيء مما وراء ذلك ، ويصبح عنده الخلق والعدل
والصدق مجرد كلمات جوفاء لا معنى لها .

لقد سجل القرآن حياة أمم كثيرة غيرها متاع الحياة الدنيا ولم تفكر في ما وراء ذلك وجعلها هذا
السعي المندفع وراء المادة لا تبالى قط بكل القيم النبيلة لحياة الإنسان ، تقوم عاد وتمود .

والتهالك على جمع المال ينخر في كيان المجتمع ، فهوى في أعماق الفساد الخلق ، وهذا ما فعله قوم
لوط .

يقول الله تعالى :

« كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أنحوهم لوط ألا تتقون . إني لكم رسول أمين » فاتقوا
الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين .
وتذرون ما خلق لكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من
المخرجين . قال إني لعملكم من القالين . رب نجني وأهلي مما يعملون . فنجيناه وأهله أجمعين ،
إلا عجوزاً في الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين . إن في ذلك لآية
وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم » « سورة الشعراء : ١٦٠ - ١٧٥ » .

هذا الانحطاط الخلقي للأمة لا يبدو في ناحية واحدة من نواحي الحياة بل هو أمر شامل لا ينجو منه جانب
من جوانب الحياة الإنسانية من تأثيره المفسد .

وقد أشار القرآن إلى ذلك أثناء مخاطبته أهل مدين :

« أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم

ولا تعثوا في الأرض مفسدين « سورة الشعراء : ١٨١ - ١٨٣ »
إن الانحطاط الخلقي بين أبناء الشعوب هو الذي يسبب سقوطها ولا نلقها قوتها العسكرية : وحين
يكون انحلال خلقي يصبح النسيج الإجتماعي كله وقودا يغذى لهب الحراب الذي يبتلع كل شيء .
إن هذا القانون يتطبق على العالم كله .

* * *

إن الإنسان المسلم يحس إحساساً جادا بالتاريخ على نحو مختلف عن فهم البوذي والمسيحي والماركسي .
يقول « ولفرد كانتون سميت » في كتابه « الإسلام في التاريخ الحديث » :

« فالرجل الهندي^(١) لا يأبه بالتاريخ ولا يحس بوجوده ، لأن التاريخ هو ما يسجله البشر من أعمال
في عالم المادة وعالم الحس ، والهندي مشغول أبداً بعالم الروح ، عالم اللانهاية ، ومن ثم فكل شيء من عالم
الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن ، والتاريخ بالنسبة إليه شيء ساقط من الحساب .

أما المسيحي فيعيش بشخصية مزدوجة ، أو في عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط :

١ - المثل الأعلى غير قابل للتطبيق .

٢ - والواقع البشري المطبق في واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود ،

هذان الخطان يسيران في نفسه متجاورين أو متباعدين ولكن على غير اتصال -

التاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه ،

أما الماركسي فهو مؤمن بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ،
ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده ، وكل شيء
عداه باطل ، والماركسي يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجهها ، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها .

أما المسلم فإنه يحس إحساساً جادا بالتاريخ ، إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، يؤمن بأن الله
قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر في الأرض على مقتضاه ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في
إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردي أو جماعي ، وكل شعور فردي أو جماعي ، بمقدار
قربه أو بعده من ذلك النظام الذي وضعه الله والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق . والتاريخ
في نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور ،
فردياً كان أو جماعياً ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر هو نتيجة للماضي ، والمستقبل متوقف على الحاضر .

(١) الأستاذ أنور الجندي : الإسلام وحركة التاريخ ، ص ٤٩١ .

وما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع وإن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ، وكون الإنسان مسلماً باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين ، وأن الغربى لا يفهم الإسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً وليس مجرد عقائد يناقشها بفكره .

إن التاريخ^(١) الإنسانى متحرك « دينى » . وهو — من أحد وجوهه — مجموع اختبارات البشر ؛ إنه نتيجة استعمال الإنسان إرادته المستقلة بالإضافة إلى حكم الله على هذه الأحكام الإرادية . أن الكون يحكمه قانون أخلاقى . وهذا القانون لا ينفذ آلباً ، ولكنه نافذ حتماً . إنه الحكم لإرادة الله على أعمال البشر فإذا عصى الناس أوامر الله ونواهيه ، وبذلوا وحى الله البن ، وإذا خرجوا على المبادئ الأخلاقية الكلية ، ذاقوا العواقب التى لا مفر منها

فالتاريخ — على هذا — نسيج مشترك فى حرية الإنسان وحكم الله . وكثيراً ما يشير القرآن إلى الماضى باعتباره شاهداً على إرادة الله النافذة فى شئون الناس ، وهو ، مخد هذا ذريعة إلى التأثير فى أصحاب النفوس الحرة والنوايا الطيبة ، كما ينخذه أساساً للتأثير فى المدين حتى يرعوا وحى الله ، ويبدلوا فى طرفهم وفق مشيئة الله البينة .

ولما كانت إرادة الله هى الموجودة للبشر أجسعين ، فقد ترتب على هذا أنه لا يفضل إنساناً بشرف مولده ، أو بنوع عمله ، أو بمجاهه فى قومه .

إن الإقرار بالمساواة الكاملة بين البشر باعتبارهم من خلق الله أمر من الأمور الأساسية فى الإسلام ، فليس فيه طبقات خاصة ، ولا جماعات محذرة . ولا أمم مختارة . إذ أن البشر جميعاً فى أصلهم أمة واحدة^(٢) . والطريقة الوحيدة التى يستطيع بها الناس أن يصنعوا أنفسهم هى نوع استجابهم لله هى القبول الخاص لهدى الله أو رفض وحيه .

هذا المدأ تتضمنه الأصول النظرية لشعائر الإسلام التى رمت إلى أن يكون الناس جميعاً سواسية أمام الله . فى الصلاة^(٣) يقف الأمير والسائل متجاورين يعبدان الله . ومن أغراض الصوم أن يكون

(١) هارولد ب سميث : مذهب الإسلام فى الإنسان — الثقافة الإسلامية و الحياة المعاصرة ، ص ٦١ - ٦٢

(٢) قال الله تعالى : فى سورة البقرة آية ٢١٣ .

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ... »
وفال حل : أنه : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلافوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما هم فيه مختلفون »
سورة يونس : آية ١٩ .

(٣) يقول الدكتور محمد إقبال فى كتابه تحديد التفكير الدينى فى الإسلام « فالصلاة إذن سواء فى ذلك صلاة الفرد أم صلاة الجماعة ، هى تعبير عن مكنون نطق الإنسان إلى من يستجيب لدعائه فى سكوت الماء الخفيف . . . هى فعل عريد من أعمال الاستكشاف تؤكد به الذات الباحنة وجودها فى نفس اللحظة التى تنكر فيها دأها ، فتتجبن قدر نفسها ومبررات وجودها بوصفها عاملاً متحركاً فى حياة الكون .

وصيلة إلى أن يستشعر الناس ، غنيمهم وفقيرهم على السواء ، خضوعهم لله : وأن يدركوا قسوة الجوع عندما يصيب الناس جميعاً على هيئة واحدة (١) .

وفي الحج يدخل المسلمون الحرم وقد ظهروا جميعاً في ثوب من قطعة واحدة : وهو ثوب الإحرام : وهم بهذا يدركون أنهم في نظر الله متساوون متخدون : ويقضي على التمييز الطبقي والمالي للذين يظهرهما الملابس .

أما الزكاة فهي تجمع شيئين : عنصر عدم التعويل على المتاع المادي ، والإحساس بالمسؤولية نحو خلق الله الذين تركتهم صروف الدنيا بلا ضمان .

والزكاة في جوهرها نظام يقصده التسوية بين الأفراد ، وكذلك قوانين الميراث تعبر عن نفس المبدأ ، مبدأ التسوية الاقتصادية . فليس لأى رجل أن يرث ثروة أبيه كلها ، أرضاً كانت أو منقولا ، بل عليه أن يقتسمها وأخوته « وأهل قرابته طبقاً لنظام معين » .

« وفي العرف الإسلامى تصور آخر يتعلق بالفرد في الجماعة » ، ويمنح الناس وسيلة للترابط ، وإحساساً بالاتحاد لا يوجد أحياناً في التصورات الغربية الحديثة للإنسان هذه التحصية المتحددة يعمل على تكوينها التصور الخاص بدار الإسلام « أى تأخى المؤمنين . وليس هذا التصور مجرد تفكير نظرى : إنه واقع غير محسوس يضاف على كل مسلم شعوراً بالترابط الوحيدانى مع كل مسلم آخر ، كما يهبه إحساساً بالأمن »

فهو ينتمى إلى كل يعلو على فروق اللون ، والطبقة والجنسية « بالمعنى الغربى للكلمة » ، ونظم الدولة : إنه يستطيع أن يحس بأنه في داره في أرض شاسعة متناثرة في الساحل الأطلنطى لأفريقية إلى قلب المحيط الهادى ، حيثما كان الاسلام هو الدين السائد والثقافة الغالبة . كل هذا يحاق ، أو هو قادر على أن يخلق روحاً جماعياً ، ووحدة بين شعوب لها أهمية بالغة .

وينبغى أن نذكر أن هذه الأخوة تظهر أقوى ما تظهر عندما يهدد العالم الإسلامى ، أو أى قسم من أقسامه ، مصدراً غير اسلامى .

إن هذه الرابطة قوة حقيقية ، وفي الإمكان أن تصبح عامل تقوية في العالم الإسلامى كله .

* * *

(١) يقول العقاد في كتابه « الفلسفة القرآنية » والصيام في مظهره الإجتماعى يعطينا مظهر أسرة عظيمة - من مئات الملايين - تنتشر في جوانب الأرض وتقترن شعائرها الدينية كل يوم بأمس ما يحس الإنسان في معيشته اليومية : وهو أمر الطعام والشراب ومنع الأجساد ... ملايين من الناس في جوانب الأرض يطعمون على نظام واحد ويمسكون عن الطعام على نظام واحد ، ويستقبلون ربه على نظام واحد . ولما انتظمت أسرة بين جدران بيت على مثل هذا النظام .

أما الفرد فيستفيد منه خير ما يستفده الإنسان في حياته الروحية أو حياته الخلقية ، وهو ضبط النفس وشحن عزيمتها وقدرتها على التفكك من أسر العادات وتطويع الجسد لدواعى العقل والروح .

والصيام علاج لاضطرابات الأمعاء المزمنة وزيادة الوزن والبول السكري والتهاب الحلى والإسراض القلبية والتهاب المفاصل المزمنة .

ما هو مصير الحضارة العربية ؟

هل تتدهور كما تدهورت حضارات قديمة وأفلت شمسها بعد أن أضاءت العالم فترات من الزمان ، استنفدت فيها قوتها ، فاضمحل نورها ثم خبا .. أم تظل رافعة مشعل النور ، تهدي ركب الإنسانية في بیداء الحياة ، وتحقق للإنسان الرفاهية المادية والسمو الروحي معاً ؟

يجيب أرفولد توينبي على هذا التساؤل فيقول :

كانت استجابة الحضارة السوربانية على غزو الإسكندر بعد ثلاثة قرون متمثلاً في قيام المسيحية ، وكانت هذه الاستجابة سليمة ، لكن المجتمع السورباني لم يستطع أن يتخلص من التحدى الهليني ، لقد حاول الاستجابة عدة مرات ، وكانت محاولاته تتخذ دائماً مظهر حركة دينية تصارع الهيلينية بيد أنه كان ثمة اختلاف جوهري بين استجاباته الأربعة الأولى وبين استجابته الأخيرة فقد أخفقت جميع الاستجابات : الزردشتية ، واليهودية ، والنسطورية ، واليعاقبة ، ولم تنجح غير الاستجابة الإسلامية وحدها .

لقد كان الفرس الزردشتيون سادة العالم السورباني قبل الإسكندر ، وقد نجحوا في زحزحة الهيلينية في البلاد الواقعة شرق الفرات لكن استجابتهم لم تتجاوز هذا الحد ، ولم تنجح كذلك الاستجابة اليهودية في عهد المكابيين في محاولتها الجريئة لتحرير الحضارة السوربانية ، وانتقامت روما وحل باليهود هزيمة ساحقة فيما بين عامي ٦٦ ، ٧٠ م .

وقد حاولت كل من النسطورية واليعاقبة على خلاف بينهما تخليص المسيحية من آثار الهيلينية كى تصاغ من جديد ديانة سوربانية خالصة ولكن الأمر قد انتهى على يد الكنيسة الرومانية الشرقية بطرد النسطورة شرقاً إلى ما وراء الفرات

وامتقر اليعاقبة في سوريا ومصر وأرمينيا والحلبشة بين الطبقات الشعبية التي لم تكن متأثرة بالثقافة الهيلينية ، لقد أخفقت الاستجابات الأربع إذن في التخلص نهائياً من التحدى الهليني .

وجاء الإسلام فكان وحده الإستجابة الناجحة التي قام بها المجتمع السورباني رداً على تحدى الهيلينية ، لقد أمكنه طرد الهيلينية من العالم السورباني ، ثم زود هذا المجتمع بدين جديد من صلبه فاستطاع بعد خمود الحيوية في الحضارة السريانية أن يطرد شبح الفناء الذي أقض مضجعها فاستعادت ثقها بأنها لن تكون حضارة عقيمة ، بل أصبح الإسلام هو الشرقة التي خرج منها فيما بعد المجتمعان الجديدان العربي والفارسي سلباً الحضارة السريانية ؟

لقد قام الإسلام بفضل خاصيتين فيه بسد حاجة المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية ، هما : التوحيد في الدين ، والنظام في الدولة . ولقد مر بمرحلتين : مرحلة دينية خالصة تجسدت فيها قوة الإسلام ،

ثم مرحلة سياسية دينية بعد إنشاء دولة في يثرب (المدينة المنورة) وانشائه بعد ذلك خارج حدود شبه الجزيرة العربية .

لقد شكلت الحضارة الإسلامية بدورها تحدياً للحضارة المسيحية الأوروبية في امتدادها إلى إسبانيا من جهة ثم أجزاء من شرق أوروبا على أيدي العثمانيين من جهة أخرى ، لذلك حدثت تحديات عنيفة خلال العصور الوسطى من الحضارة الأوروبية لحضارة الإسلام وفد تمثلت هذه التحديات في الحروب الصليبية .

ولكن مما لا شك فيه أن أعمقها وأخطرهما وأبعدها أثراً على كل شعوب العالم ، هي الحضارة الأوروبية الحديثة . فقد غيرت تغييراً جوهرياً حياة الناس وأفكارهم ومشاعرهم بل وحياتهم الاجتماعية .

لكن ماذا كان رد الفعل أو استجابة الإسلام للتحدي الغربي ؟

لقد تمثلت الاستجابة في المظهرين التاليين :

١ - السلفية : ما كادت بعض الدول الإسلامية تواجه الحضارة الغربية بتفوقها التكنولوجي والاقتصادي والعسكري ، حتى تقوَّعت على نفسها متخذة من الدين درعاً لها من العدوان الخارجى . (مثل الأسرة الحميدية في اليمن) .

٢ - مظهر « التشكل » : إذ يرى المتشكك أن أفضل وسيلة لحماية نفسه من الخطر أن يتعرف على سر تفوق عدوه فيطرح جانباً وسائل الحرب التقليدية وتراثه الماضى ويقتبس مظاهر الحضارة المتحدية له ويحاول التشكل بها (مثل محاولة محمد على في مصر وكمال أتاتورك في تركيا) .

إذا كان المتزمتون أشبه بالنعامة تحنى رأسها في الرمال هرباً من صائدها وهي تتصرف وفقاً للغريزة فإن المتشككين وإن تصرفوا وفقاً للعقل فإنهم مارسوا لعبة خطيرة . فقد عانت حركة المتشككين أياما أعصية ، إن محاولة خلفاء محمد على أن يجمعوا مصر فطعة من أوروبا قد أدت إلى الاحتلال البريطاني .

صفوة القول إن هاتين الإستجابتين فاشلتان للأسباب التالية : -

١ - الاستجابة الأولى : لم تقدم طاقات خلاقة صادرة عن روح أصيلة إنها لن تزيد عن راسب حضارى متحجر من حيث الطاقة الحيوية ، إنها حصار متحجرة .

٢ - الاستجابة الثانية : قد تنجح ولكن نجاحها مظهرى لأنها لن تقدم إسهاماً إبداعياً في تيار الحضارة القائمة فهي عملية تقليد لا إبداع ، ولن تعدوا عن مجرد رفيع المستوى الإفتصادى بوسائل غريبة بدلا من أن تستثير في النفوس طاقات خلاقة جديدة .

إن إخفاق المترتمين كإخفاق الممالك حين واجهوا مدافع نابليون الحديثة بالسيف فكان الهلاك مصرهم ، أما إخفاق المتشككين فمن نوع إخفاق فارس مبتدىء عندما يمتطي جواداً جديداً إذ يهوى به ويجرفه التيار إلى موت محقق . هكذا جاءت حركة التشكيل مخيبة للآمال .

ومن أهم أسباب إخفاق حركة المتشككين تداعى الإستجابات الفاشلة إذ من الملاحظ أن المتشككين يصطدمون عادة بالمترتمين ، وإذ يصطدم الحاكم الذى جاء فى صورة مخاص متشكل بالمترتمين فإنه يعاملهم بقسوة ووحشية ، تمثل ذلك فى حرب محمد على الوهابيين ، وقضاء كمال أتاتورك على معارضة من التمسكين بالدين .

ولكن هل تقف الإستجابات عند هذا الحد ؟

ماذا عن حاضِر الحضارة الإسلامية وماذا عن مستقبلها ؟

أما بالنسبة للحاضر فهناك عدة اتجاهات سائدة أهمها :

١ - إن تيار المتشككين المسارين للحضارة الغربية أصبح أكثر انتشاراً من تيار المترتمين ، بل إن التيار الأول قد انتشر فى دول إسلامية كانت موطن التشدد كأفغانستان .

٢ - أصبح العالم الإسلامى بعد اكتشاف البترول وبحكم موقعه بستان الكرم بين الاتحاد السوفيتى والغرب .

٣ - انتشرت فكرة القوميات كالتركية والإيرانية والعربية وقد أصبحت فكرة القومية أكثر جاذبية من فكرة الوحدة الإسلامية .

وعلى الرغم من النكبات التى حلت بالحضارة الإسلامية لوقوع معظم دولها فريسة الاستعمار فى القرن التاسع عشر فإنه ما أن حل النصف الثانى من القرن العشرين حتى كانت الحضارة الإسلامية سليمة الجوهر ، وإن سلبت أجزاء من أطرافها ، لقد استطاعت أن تنتزع نفسها من الاستعمار البريطانى والفرنسى والهولندى .

ونعود إلى التساؤل الذى سبق أن طرحناه .. ماهو مصير الحضارة الإسلامية ؟

هل ستقرض كما انقرضت حضارات ؟

هل ستتحجر كبعض الحضارات المتحجرة القائمة فى عالمنا اليوم ، أم هل سيجرفها تيار الحضارة الغربية ويمثلها ؟

يجيب توينبى : لا شئ من ذلك وإنما ستبقى كحضارة حية ، قد يعترض الفرد الأوربى على ذلك فى صلف : وهل تنتظر حضارة من فلاح مصر أو حمال إسطنبول ؟

ولكن هذه العبارة قد قالها الإغريق بعد فتوح الإسكندر السورىانى وتبين أنه قول خاطيء .

إن الحضارة الإسلامية قد تنافس الحضارة الهندوكية أو بوذية الماهايانا من أجل السيطرة فى المستقبل بوسائل تتعدى تصوراتنا ، ولكن ماذا يكمن فى الحضارة الإسلامية من طاقات غير قائمة فى الحضارة الأوروبية حتى نتوقع لها أن تكون حضارة المستقبل ؟

يرد توينبى : إن الحضارة الأوربية تحمل فى طياتها التناقض بين الفكر والعمل ، بين أفكار المساواة والإخاء والحرية التى ورثتها من الثورة الفرنسية وبين التفرقة العنصرية التى تمارسها الآن بالفعل والتى تشكل خطراً عليها بزيادة وعى الشعوب الملونة ، فى حين أن طابع الحضارة الإسلامية هو الاتساق بين الفكر والعمل بصدد المساواة إذ ارتفعت فى أزهى عصورها أن يصل إلى مراكز السلطة فيها الرقيق والعبيد هذا هو الامر الأول .

الأمر الثانى : تحريم الخمر وقد لا يدرك الكثيرون قيمة هذا التحريم بالنسبة للحضارة ولكن من يشاهد عن قرب سكان المناطق الاستوائية يدرك أن توقف نشاطهم راجع إلى شرب الخمر إلى حد بعيد ، وقد فشل الإداريون الأوروبيون فى علاج هذه المشكلة التى لا تحلها القوانين المفروضة لأن الإمتناع عن شرب الخمر لا يتم إلا بوازع دينى .

ويرى الدكتور سليمان حزين أن^(١) مستقبل الحضارة الإسلامية مرتبط أشد الارتباط وأفواه بأمرين هما : طبيعة الإسلام الذى أعطى الحضارة طابعها المميز ، ثم طبيعة الحضارة ذاتها وقدرتها على البقاء والاستمرار والتجديد والنمو . وإذا كان الله تعالى قد قال وهو أحكم القائلين : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »^(٢) فان المفهوم الشامل لهذه الآية الكريمة أن الله يحفظ الذكر قولاً ومداولاً ورسالة . وما دام هذا المعين باقياً على الأرض .

فان مصبه الحضارى فى حياة الناس لا يمكن أن يحف أو يغيض . والواقع أن شريعة الإسلام قد أثبتت قدرتها على البقاء وملاءمة العصور والمراحل الحضارية رغم اختلاف الظروف . وهذه الحيوية ذاتها هى سر القوة فى الإسلام وتعاليمه ، وفى كل ما يتصل بالإسلام من بناء حضارى ، لا سيما فى حياة الناس ونظمهم الاجتماعية ، وهى أعز ما فى المفهوم الحضارى من تراث . وبالإضافة إلى ذلك فان الإسلام دين يمكن أن يتميزه بين الأديان بأنه دين « توق حضارى » ، يدفع من يمارسه ، لا إلى العمل وحده ، وإنما إلى ما هو أهم من ذلك وهو « الإتيقان » : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » . وهذا الإتيقان هو مفتاح الإجابة والتجويد والبقاء ، والاستمرار الحضارى .

(١) مقومات الحضارة الإسلامية ، بحث مقدم لمؤتمر مجمع البحوث الإسلامية (١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م) .

(٢) سورة الحجر : ٩ .

بل هو أساس التطلع إلى ما هو أحسن وأفضل والثوق إلى بلوغ غاية الإبداع في العمل الحضارى .
والتاريخ يعلمنا أن المسلمين كلما خلصوا لدينهم ، ومارسوه بمفهوه العميق الذى يجمع بين الإيمان والعمل ، نجحوا في إقامة الحضارة ، وإحياء تراثها ، والانطلاق بها إلى آفاق المجد التاريخى ، ومن هنا كانت جماعات المسلمين دائماً تجد في المقومات الدينية دافعها إلى العمل الحضارى المجيد ، وحافظها عليه .

فأما عن طبيعة الحضارة الإسلامية ذاتها ، فإنها حضارة متكاملة يعيش أصحابها لديناهم ولآخرتهم جميعاً ، والتاريخ يعلمنا أيضاً أن الحضارات التى تجمع بين المادة والروح ، والتى يعطى الدين فيها نطقاً متكاملًا للحياة اليوم المادية وحياة الغد الروحية ... مثل هذه الحضارات هى أقرب الحضارات إلى البقاء والخلود .

ومن الخير أن نذكر هنا أنه حتى في حضارة المصريين القدماء تلك التى لم تعرف الدين إلا في صورته الساذجة المختلطة قبل التوحيد ، قد استطاعت أن تبقى على وجه الزمن في حالتها المزدهرة خلال بضعة آلاف من السنين شبه متصلة ، وهى فترة أطول كثيراً مما بقيته حضارة اليونان أو حضارة الرومان ، وهى أضعاف أضعاف ما عاشته حضارة أوربا في صورتها الحديثة . وقد يكون السبب الأكبر في استمرار حضارة القراعنة تلك القرون الطوال أن المصريين القدماء كانوا يعيشون لآخرتهم ، كما تصوروها ، بقدر ما يعيشون لديناهم ، ولقد أقاموا معابدهم ومقابرهم من الحجر ، بناء أو نحتاً ، فبقيت على الزمن ، كما تركوا آثار عملهم المادى اليدوى في الأرض والرى والحباض التى لا تزال تزرعها بعدهم حتى اليوم . وتلك صورة من الخير أن نذكرها ، لأنها تلقى الضوء على ما يمكن أن يكون من مستقبل الحضارة الإسلام . تلك التى تجمع بين الدين في صورة من التوحيد والعمق والضياء الروحى الذى أتم الله به نعمته على الناس ، وبين الدنيا في صورة من العمل الذى يبني الحضارة وقيم دعائمها ويحقق كلمة الله بالعمران على الأرض .

وبحال المقابلة بين الحضارات الإسلامية والحضارات الأخرى ، قديمة وحديثة ، مجال يمكن أن يفتح لكثير من القول الذى يقوى إيماننا بمستقبل هذه الحضارة .

ولكننا حتى إذا ما نظرنا إلى بعض نواحي الضعف في حضارتنا الإسلامية ، فإننا لا نلبث أن نجدها من النوع الطارئ ، أو الذى يمكن أن ينقلب إلى مصدر قوة .

ولنأخذ ظاهرة « الجمود » على سبيل المثال . فقد كانت حياة المسلمين توصف في القرن الماضى بأنها حياة جامدة غير متطورة ، ولكن من يتأمل تلك الحياة لا يلبث أن يرى في جمودها إذ ذاك نوعاً من الانطواء على الذات في مواجهة تحديات الفكر الأوربي الاستعماري وفي مواجهة تيارات التغلغل الأجنبي ، التى كانت تعمل من أجل زعزعة إيمان المسلمين بقيمهم الحضارية ، ولا شك أن روح

الجمود إذ ذاك كانت نوعاً من الدفاع عن الذات ، وأنها حفظت على المسلمين وحضارتهم ولو في حالة توقف حضارى ، صان الحضارة من الانحراف في تيارات حضارات دخيلة . وحنه شخصيتها وسط الأنواء والعواصف الفكرية ، حتى تجمع للمسلمين من العزة الذاتية . ومن اليقظة الفكرية والروحية ، ما أمكن لهم من أن يقفوا على أقدامهم . قبل أن ينطلقوا قدماً وفقى إله وفي هدى من قيمهم الروحية والاجتماعية والحضارية على طريق الغد المرموق .

لقد صاغ المسلمون حياتهم وحضارتهم في ظل الدين الحنيف منذ نزول الإسلام ووجدوا الحياة مرة ومرة خلال تاريخهم المتصل ، وهم قادرون باذن الله على أن يعيدوا صياغة التاريخ القريب والبعيد .

ويرى المفكر الجزائري مالك بن نبي أن المقياس العام لعملية الحضارة هو أن الحضارة « تلد منتجاتها » ومن السخف أن نعكسها حين نريد أن نصنع حضارة من منتجات حضارة أخرى من الواجب لكى ننشئ حضارة أن نشترى كل منتجات الأخرى « لأننا إذا اشترينا الأشياء قلنا شراء الأفكار والأذواق التى تكمن وراء تلك الأشياء ولذلك فإن هذه العملية تنتهى بنا إلى » بالحضارة الشيئية « القائمة على تكديس » المنتجات لا على خلق روح جديدة تعرف كيف تنتج . وكيف تستخدم ما أنتج :

وعناصر الحضارة هى :

الإنسان ، والمادة (التراب) - الوقت :

ولكن لم لا توجد الحضارة دائماً حيث تتوفر هذه العناصر ؟

الجواب : إن هذه العناصر لا تنتج حضارة إلا بتدخل « مركب » يمكن أن نطلق عليه « مركب الحضارة » وهو الفكرة الدينية التى رافقت دائماً تركيب الحضارة خلال التاريخ والدين دائماً قادر أن يقوم بهذا الدور فى العصر الحديث ، فى البلاد الإسلامية . لأن قوة التركيب لعناصر الحضارة . فى جوهر الدين وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره فى التاريخ .

ويحدد القرآن الشرط الذى لا يمكن للدين بغيره أن يصنع الحضارة فى الآية الكريمة :

« إن الله لا يغير ما يقوم حى يغيروا ما بأنفسهم » .

والتاريخ نفسه يؤيد القرآن فلم يرو لنا قصة واقع تغير قبل تغير نفوس الناس .

والنهيضة^(١) المتممة تقع في نطاق ظاهرة اجتماعية عبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه المشهور :
« لا يصالح آخر هذه الأمة إلا بما صالح به أولها » .

فالشرط الأول من شروط النهضة

العودة لجوهر الدين ، هذا الدين الذي استطاع أن يخاق مجتمعا لم يولد تحت ضغط ظروف جغرافية
كالمجتمع الأمريكى مثلا بل ولد تلبية لنداء فكرة ، فهو يمثل النموذج الأيديولوجى من المجتمعات .

وحديث الرسول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » يرسم صورة واضحة للسمات للمجتمع
الاسلامى في عهده الأول . المجتمع الديمقراطي القائم على العدل والمساواة .

وقد وضع القرآن « الضمير المسلم بين حدين هما : الوعد والوعيد ، وبين هذين الحدين تقف القوة
الروحية متناسبة مع الجهد الفعال الذى يبذله مجتمع يعمل طبقاً لأوامر رسالة » .

فالحركة التاريخية ترجع إلى مجموع من العوامل النفسية الناتجة عن قوى روحية هذه القوى « التى تجعل
من النفس المحرك الجوهري للتاريخ الإنسانى » .

وهذا المحرك لا يعمل إلا بتضافر العناصر الثلاثة : الإنسان ، المادة (التراب) - الوقت .

فاذا تضافرت هذه العناصر فإنها تنتج حضارة ، وإذا تنافرت فإنها تنتج فراغا .

وعندما نجد أن الفكرة استطاعت أن تؤلف بين الإنسان والأشياء كان ذلك دليل قيام حضارة
في مجال معين .

وإن المجتمعات التاريخية - المقابلة للمجتمعات البدائية - والتي تكون ٨٠ في المائة من مجموع
سكان العالم إنما انطلقت حضارتها مع ظهور فكرة دينية^(٢) .

والدين هو الذى يفرض القيم الخلقية على المجتمع ويستدل على ذلك بما جاء في القرآن عن منع
وأد البنات :

— « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » . الأنعام : ١٥٠ .

— « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » . الاسراء : ٣٠ .

فاذا تناولنا هذين النصين باعتبارهما وثيقتين من وثائق ذلك العصر - وجدنا أنهما لا تدعان أدنى ريب
فيما يتعلق بمشأ عادة الوأد . فالتدبير كان للظروف الاقتصادية التى عاشها العصر الجاهلى أكبر الأثر في نشأة
تلك العادة الأليمة إن لم تكن هى العامل الوحيد .

ولكن النصين يعبران في الوقت ذاته عن قيمة خلقية معينة في الوقت الذى تدخل فيه في حياة المجتمع
— لا عن طريق الظروف الاقتصادية التى لم تكن تغيرت بعد ، ولكن مباشرة ، عن طريق النفس —

(١) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص ٤ وما بعدها ترجمة ، عبد الصبور شاهين .

(٢) المصدر نفسه : ص ٦٥ .

لتحدث تغييره ، فنحن إذن أمام مثال مفيد يتيح لنا أن نبحث مشكلة القيمة الخلقية المتمثلة في حالة واقعية .

ولنأخذ الآيتين الكريميتين في مجموعتهما ، على أنهما تشريع لقانون معين ، تماماً كما تسن الشرائع الحديثة في زماننا قوانينها .

إن تفسير قانون معين في عصرنا إنما يكون على اعتبار أنه مجرد حدث اجتماعي ، أي أنه الذي يسته إنما هو حقائق المجتمع وحدها .

فهل الأمر كذلك بالنسبة للحالة التي ندرسها ؟

ذلك يقتضي أن ندرس الآيتين اللتين تشرعان « قانون المودة » على أنها نتيجة للظروف الاقتصادية التي كانت تسود المجتمع الجاهلي ، تمثيلاً مع منطق عصرنا في تفسير الأشياء .

لكننا نلاحظ أن هذا التفسير يؤدي بنا تلقائياً إلى تناقض صريح ، إذ لا يمكن أن يحمل إثبات واقع اجتماعي معين ونفي هذا الواقع على أسباب واحدة .

فلو قيل إن « الوأد » نشأ في البيئة الجاهلية بتأثير أسباب اقتصادية خاصة بذلك المجتمع ، كما تشهد بذلك وثائق العصر ، وفي مقدمتها القرآن ، فإن من العسير أن ينسب نفي هذا الوأد إلى تأثير العوامل الاقتصادية ذاتها حيث إنها لم تتغير .

وإذا كانت الآيتان المذكورتان تعتبران من الناحية التاريخية أبطالا « للوآد » فاننا نجد أنفسنا أمام تناقض صريح إذا ما فسرنا قانون « الوأد » تفسيراً اقتصادياً .

ولقد يؤدينا هذا الموقف إلى أن نفسره تفسيراً نفسياً ، حين نعزو له لأسباب تتصل بالتغير الأخلاقي الذي سبق أو صاحب نزول القرآن في الوسط الجاهلي ، ومع ذلك فليس هذا التفسير مقبولا أيضاً . لأن الذين عاصروا قانون التحريم قد مارسوا بأنفسهم تلك العادة الآليمة ، ومنهم عمر بن الخطاب نفسه ، إذن فالقيمة الخلقية تفرض من خارج المجتمع ، من الفكرة الدينية .

وسلوك الفرد في مجتمع يتمتع بشبكة علاقات متينة يكون سلوكاً شبيهاً بالسلوك الناتج عن الانعكاس الشرطي ، فعندما يتحقق لعناصر الشبكة شرط تكوينها — وهو الدين — يجد الفرد أن سلوكه لا يصدر عن عامل واضح حاضر في نطاق الشعور بل عن تلقائية أو انعكاس شرط . هذه السجيا دليل على أن العنصر الديني قد تغلغل إلى أعماق الأفراد منظماً للطاقتين النفسية والحيوية .

إن المشكلة التي تواجه المسلم اليوم هي تقريباً نفس المشكلة التي عبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله :

— « لا يصالح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » .

فنحن بحاجة إلى إعادة تنظيم طاقة المسلم الحبوية ، وتوجيهها ، وذلك عن طريق : -

(١) تنظيم تعليم القرآن ، بحيث يوحى من جديد إلى الضمير المسلم الحقيقة القرآنية كما لو كانت جديدة ، نازلة من فورها من السماء على هذا الضمير .

(ب) تحديد رسالة المسلم الجديد فى العالم ، فهذا يستطيع المسلم منذ البداية أن يحفظ باستقلاله الأخلاقى ، حتى ولو عاش فى مجتمع لا يتفق مع مثله الأعلى ومبادئه ، كما أنه يستطيع أن يواجه - رغم فقره أو ثرائه - مسئولياته مهما يكن قدر الظروف الخارجية الأخلاقية أو المادية .

وهو بهذه الطريقة يستطيع أيضاً أن ينشئ وسطه الخاص شيئاً فشيئاً ، حين يؤثر على الظروف الخارجية بحياة نموذجية ينتقل أثرها إلى ما عداها ، كما كانت حياة حفنة من الرجال الذين عاشوا حول النبي بمكة ، أيام الإسلام الأولى .

ومع ذلك فإن هذه التأملات لا تنشئ حلاً ، ولكنها مجرد خطوة على طريق المشكلة ذات الأهمية الخطيرة بالنسبة لمستقبل العالم الإسلامى .

ولكى نعطي هذه التأملات قيمة عملية يجب أن نعرضها لإختبار الحياة ، فى صورة إجراءات تربوية فعلية ، فى المستوى الإسلامى ، ومن أجل هذا لا بد من الممارسة العملية ، ولكى تكون مثمرة يجب أن يتولاها مجمع من المتخصصين ، الحاليين من العقد البيروقراطية التى تنتاب الموظف ، ومن نظارة رجل السياسة ، ومن أخلاق الفوضويين المغرمين بتملق الرأى العام^(١) .

إن الإسلام - هو وحده - القادر على انقاذ الإنسانية مما يحقق بها من أخطار هائلة ، وهو وحده القادر على منحها المنهج الملائم لفطرتها ولاحتياجاتها الحقيقية . وهو وحده الذى ينسق بين خطاها فى الإبداع المادى وخطاها فى الاستشراف الروحى ، فتعيش حياتها آمنة على يومها ، مطمئنة على غدها فى ظل الحرية والمساواة والإخاء والعدل الاجتماعى وكل ما يكفل للإنسان التقدم والرفق .

(١) المصدر نفسه : ص ١٤٨ .

فهرس الكتاب

صفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٢٥	الفصل الأول... تفسير التاريخ
٥٥	الفصل الثاني... النظرة الاحيائية للتاريخ
٦٩	الفصل الثالث... التفسير الاجتماعي للتاريخ
٨٣	الفصل الرابع... فلسفة هيجل للتاريخ
٩٩	الفصل الخامس... التفسير المادي للتاريخ
١٢٥	الفصل السادس... الدين والتاريخ
١٦٣	الفصل السابع... التفسير اليهودي للتاريخ
١٨٥	الفصل الثامن... التفسير المسيحي للتاريخ
٢١٥	الفصل التاسع... التفسير الاسلامي للتاريخ